

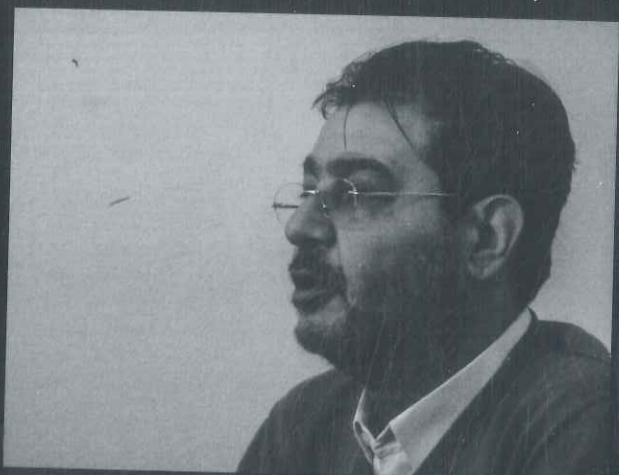
رواية

يعرب العيسى

المئذنة البيضاء

المتوسط





يعرب العيسى: ولد في سورية - بادية حماة ١٩٦٩.
عمل في الصحافة منذ عام ١٩٨٨، عاش معظم حياته في
دمشق.

المثدنة البيضاء هي روايته الأولى.

المدينة البيضاء

حقوق النسخ © 2021 منشورات المتوسط - إيطاليا.

حقوق التأليف © 2021 يعرب العيسى

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهة إلى ضعيفي البصر أو فاقدية شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Al-Méthana Al-Beydha by "Ya wadda desa"

© / In the ass it too k / © 2021 by Yaroub Aleesa

المؤلف: يعرب العيسى / عنوان الكتاب: المئذنة البيضاء

الطبعة الأولى: 2021.

تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-32201-93-2



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:

Alzaia Naviglio Pavese. 120 / 20142 Milano / Italia

العراق / بغداد / شارع المتنبي / قيصرية المصرف - طابق أول / ص.ب. 55204.

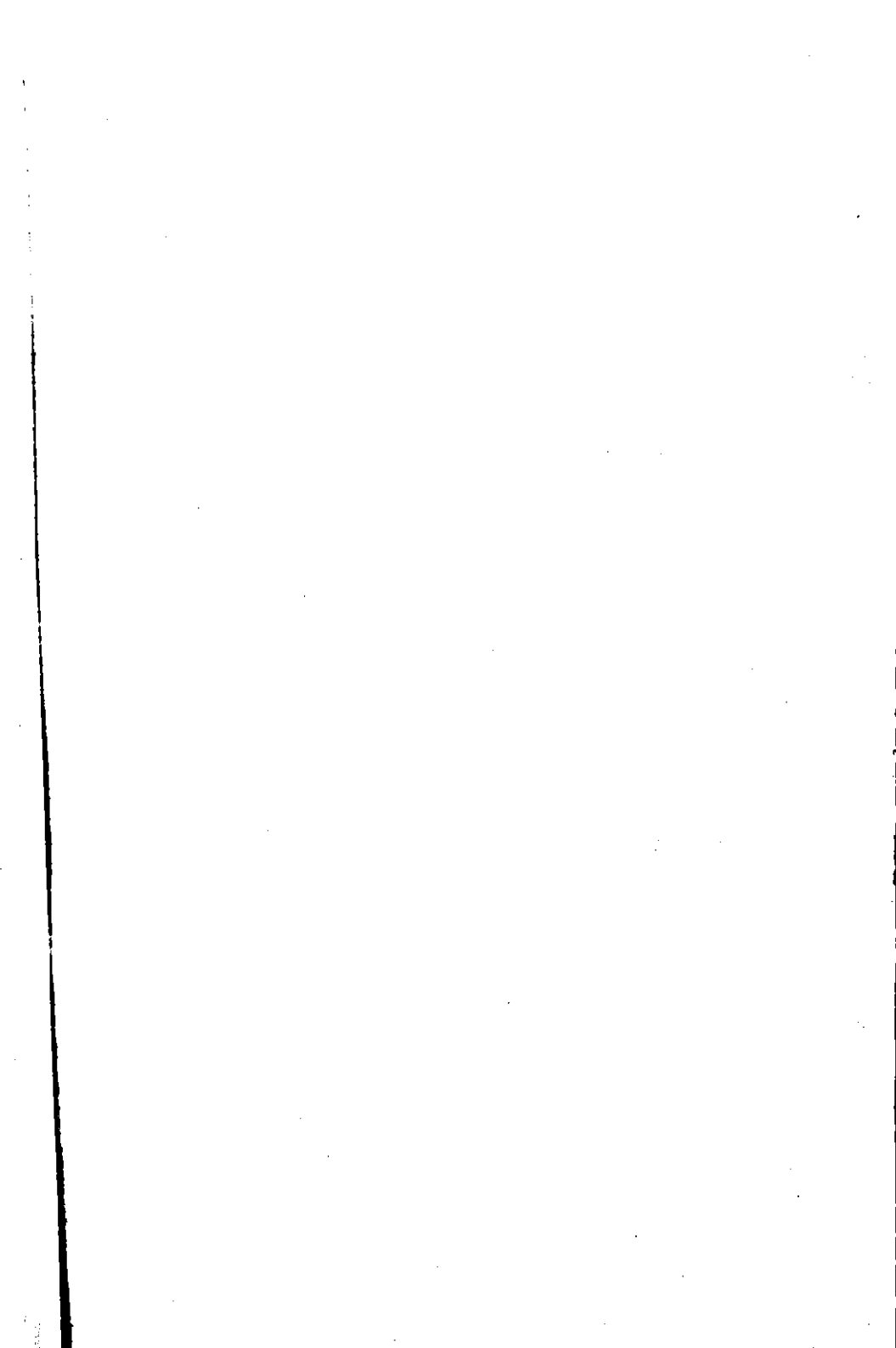
www.almutawassit.it / info@almutawassit.org



يعرب العيسى
المئذنة البيضاء

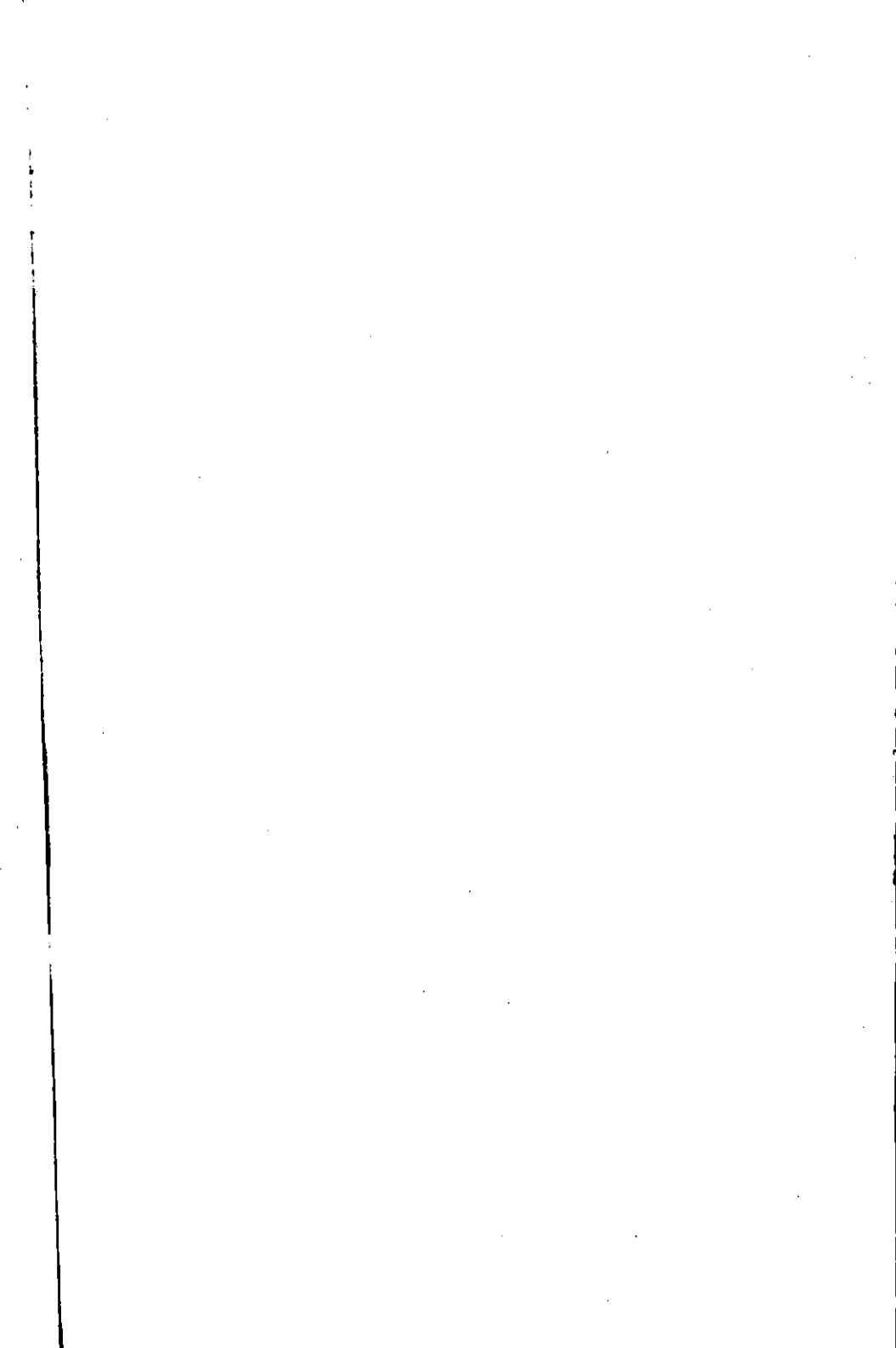


المتوسط



لا يحتاجُ الموتُ سبباً. يحدثُ حينُ تَفنى الأسبابُ.
الحياةُ هي من يحتاجُ ذلكُ.

إلى أسبابي كلِّها



كان يشبه قديساً أو فيلسوفاً أكثر مما يشبه قواداً. أو هكذا أوحى ملامح الرضا والسكينة في وجهه. فحين شاهدتُ أول صورة له، لم أكن قد عرفت بعد أن جوازات السفر العشرين التي يحملها كلها سليمة. وإلا لكان لتلك اللوحة المرسومة بطريقة سوقية، وبضربات سريعة من إصبع فحم، أن تُبَلِّبَ الفضول الذي جعله مجور حياتي، كما قد يحصل لأي شخص. في الخمسين يمتلك كل رجل الوجه الذي يستحق. مايك الشرقي كسر قاعدة أورويل. وامتلك وجهاً لا يليق بمن هو حقاً، ولا يشبه مسار حياته ولا اللحظة التي وصلت إليها هذه الحياة.

بضعة لقاءات مع رجلٍ مشوّش كانت السنارة الحادة التي التقطتني وسحبتني مرغماً إلى عوالم الشرقي. أراد المشوّش، لسبب ما، أن يوهم نفسه ويوهمني أنه أحد أقرب المقرّبين منه. ولإثبات أنه كان خادمه الشخصي لخمسة وثلاثين عاماً، روى لي الكثير من القصص المتداخلة والمضطربة، من تلك التي يتناقلها الحراس الليليون ليمرّروا ساعات ضجرهم الطويلة.

مزيجٌ من أحلام اليقظة، ومدائح الطغاة، ومقاطع البورنو الدعائية، وحبكات أفلام "الأكشن"، وبعض الأحداث التي وقعت فعلاً، ثم انتقلت همساً بين الحلقات المحيطة بالمعلم محرّفة مرات عديدة.

الأرجح أنه التقى به بضع مرّاتٍ خلال عقودٍ قضاهها في خدمته، وربما

قدم له خدمة مباشرة وحقيقية، من قبيل أنه ناوله كأساً أو أخذ من يده منديلاً مستخدماً. فحين استرسل في وصف ملامح الوجه، بريق العين، نبرة الصوت، عرفت أنه رأى المعلم حقاً.

استمعت للرجل الطيب باهتمام، وأوحيت له أنني آخذه على محمل الجدّ. فلم أشأ التفريط ببعض الجمل المفيدة، والتي أتقنت بعد لقاءين مهارة الإحساس بها وغربلتها من بين كومة الثرثرة التي يُلقي بها جزافاً، وبعض الخدمات الجيدة، مثل المرّة التي أخذني فيها من يدي إلى طريق النهر شمالي القلعة. أوقفني أمام بضع صور وجوه معلّقة بملاقط غسيل على جبلٍ مرتجل، وضعه رسام شوارع يجلس هناك، أشار بيده إلى واحدة منها وقال: هذا مايك الشرقي.

لم يقبل الرسام أن يبيعنا الصورة، بحجّة أن صاحبها دفع ثمنها وسيعود ليأخذها. عدت وحدي فيما بعد وحاولت أن أحصل منه على أيّ إشاراتٍ إضافية، فلم أحظّ سوى بمعلوماتين ووعده لم يُبرِّ به: اللوحة معلّقة في مكانها منذ سبع سنوات، وصاحبها ليس اسمه "مايك"، ولا عائلته "الشرقي". "أرسم صوراً جديدة له الآن، تعال بعد أسبوعين ربما أعطيك واحدة حقيقية أكثر".

كنت أشحن عقلي بالأسئلة في كلّ لقاءٍ مع الرجل، وأغادر لأبحث عن إجاباتها. كادت الروابط بين الحكايات توصلني إلى درجة التشويش التي وصل إليها ذلك الثرثار الواهم. لم أستطع التوقف لما يقرب عامين، فاستخدمت تقنيات بدائية للمحافظة على عقلي: الاستماع للموسيقا الرديئة. قراءة الصحف الحكومية. السهر في ملاهي جرمانا. تبادل الأحاديث الوديّة مع عناصر المخابرات الذين يعملون سائقي تاكسي. أبقى نفسي في تماسٍ مباشر مع قاع الحياة الواقعية.

نهاراً، جُلتُ المدينة باحثاً عن أماكن ارتبطت بشكل أو بآخر بالشيخ

الغريب. قابلت أشخاصاً قابلوه. تربّصت في أماكن يحتمل ظهوره فيها. حُمتُ حول منشآت مرتبطة بالشركة، سعيت للوصول إلى موظفين من WHC-IIC اطلعوا على المخططات الحقيقية لمشروع الشرق الجديد. استدرجت نساءً كنّ ذات يوم جزءاً من شبكة مايك الشرقي. وفي الليل أجول على الإنترنت معتمداً تقنية تعلّمها من قراءة المقالات الرديئة: خوارزمية غوغل لديها معداد لا ميزان. تعطي القيمة الأكبر للجهل العام وتفضّله على المعرفة الخاصة، لذلك لن تعرف شيئاً حقيقياً عن الموضوع الذي تبحث عنه إلا بالمصادفة.

أثناء إحدى تلك الرحلات، رشقتني ضربة حظٍّ وعثرت بسهولة لم أكن أتخيّلها على مفتاح سحريّ. فبعد صفحتي بحث وستّ نقرات على الموقع، حصلت على شهادة تسجيل الشركة. يا للبساطة! مسجّلة في ماكاو قبل يوم واحد (وبحساب فارق التوقيت ربما يكون قبل ساعات) من المؤتمر الصحفي الذي شارك فيه الوزير الثاني لدولة عظمى، وأعلن، بسبب دولة صغيرة تمرّقها الحرب، عن تحديّ قرارات الدول الأربع الأخرى التي تتشارك إدارة العالم، ومخالفتها.

قبل أن يبدأ صباح اليوم التالي، كنت قد تأكّدت من شهادات تسجيل الشركات الأربع عشرة التي تملك أسهم:

West-heading China International Incorporated Company

قرأت ملخصات لبحوث أنتجتها مؤسسة "together". حصلت على بعض البحوث كاملةً، بسبب ثغرة في موقعها الإلكتروني.

فهمت تقريباً. عرفت أنّ الأشياء الأربعة التي أبحث عنها هي شيء واحدٌ حقاً، كما قال الثرثار منذ البداية. حين نهضت الشمس من حافة النافذة، وارتفعت شيئاً فشيئاً على طاولتي، أضاءت كلّ الأوراق التي

جمعتها وكتبتها، والأقراص التي خزنت عليها معلوماتي. وبارتفاعها، أظهرت لي كمية الغبار على شاشة كومبيوتري المحمول. في الوقت نفسه ملأتني بالذعر.

جمعت كل شيء. واتخذت قراراً: يجب إخراج كل ذلك من البلاد قبل المساء. كان لدي عائق صغير أتشاركه مع مئات الآلاف، وهو أنني، بإجراء أمني، ممنوع من المغادرة.

بعد اتصاليين هاتفيين بعبارات مشفرة، وإفطار مع أقبح شخص في العالم، وبستمئة دولار سدّدت ثلاثمئة منها تحت صحن الفول، وثلاثمئة عند قوس الحدود لشابٍ أرجح أنه شقيق أقبح شخص في العالم. كنت في الخامسة مساءً أشرب فنجان قهوة إيطالية على طاولة خارجية في استراحة مسافرين في ستورا.

ومن هناك بدأت الفصل الأخير من رحلة بحثي، بعد أن استعدتُ حرية السفر والحركة، وصارت بحوزتي المفاتيح التي تتيح لي طرح الأسئلة الصحيحة، وتتبع المقدمات التي أوصلت لتأسيس شركة الصين المتّجهة غرباً للاستثمارات الدولية المساهمة المغفلة، ودورها في تخطيط مشروع الشرق الجديد الذي سيحدّد مصيرنا لعقود، وربما لقرون. استفدت من أسماء وأماكن التقطتها من حكايات الثرثار المشوّش. تعاون بعضهم، ورفض معظمهم. ساعدني أن شهوة الكلام عند بعض الناس أقوى من الخوف ومن الخجل. فرؤدني هؤلاء بما يعوّض صمت البقية، وأكملوا لي حكايتي. لكنهم في الوقت نفسه، أثاروا في غيظ من ينتبه لحماقته، ونثروا الشكوك في نفسي بأني، غالباً، التقيت مع هدف في وجهها لوجه، وتبادلت معه حديثاً دام لأكثر من ربع ساعة، دون أن أدرك من هو.

وصفهم، والتفاصيل التي زودوني بها، والصور التي سمحوا لي بالنظر إليها، كلّها تقول إن الرجل الذي جلس قربي على غطاء محوّل الكهرباء

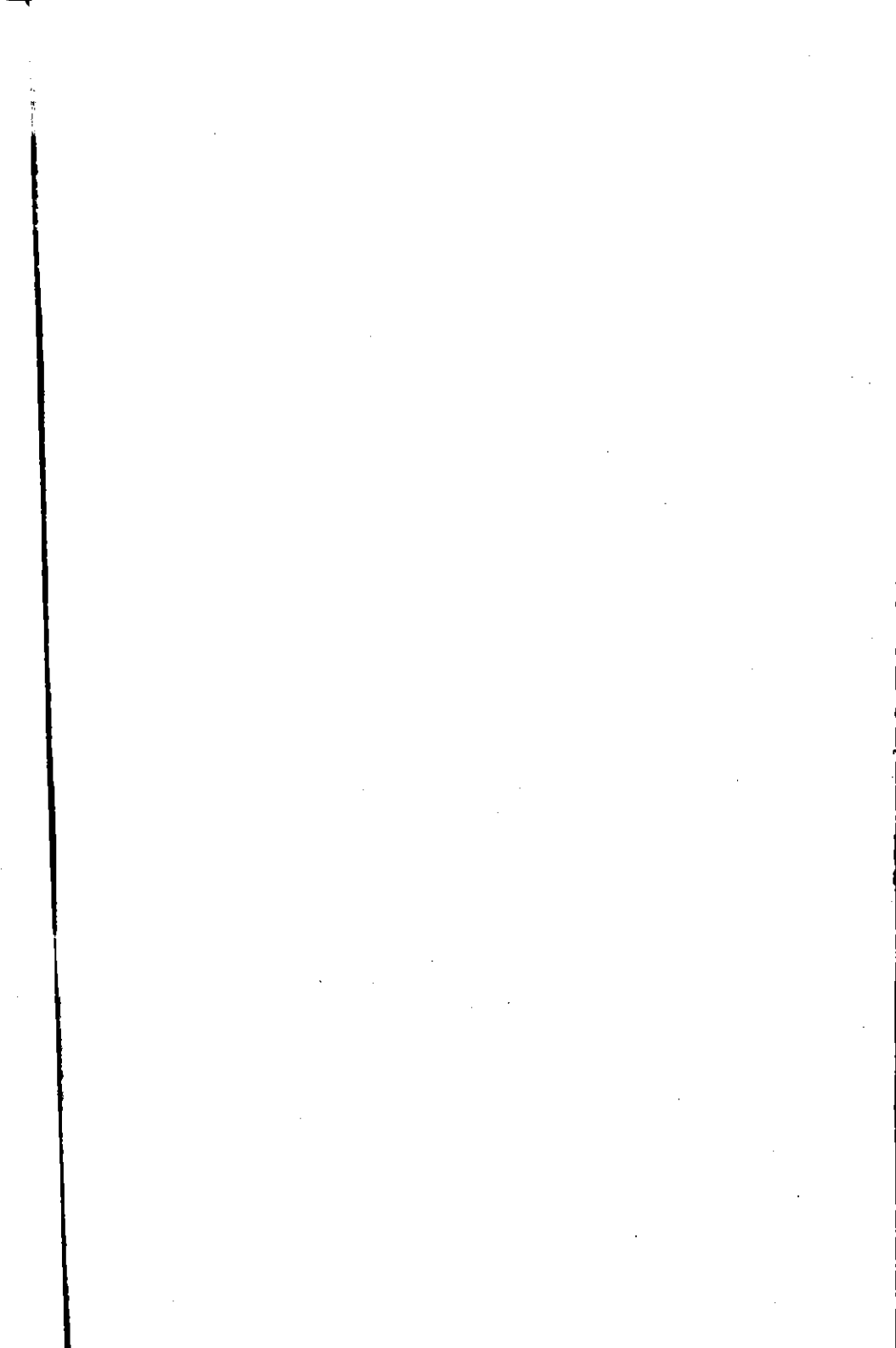
مقابل الباب الشرقي، وخضت معه ذلك الحديث المسلي عن فوائد التدخين واختلاف ألوان الحجارة بين طرفي قوس الباب، كان هو مايك الشرقي بذاته.

حين غفرتُ لغبائي، كنت ما أزال في حيرة افتقاد بعض الفراغات في سيرة مايك الشرقي، وسيرة غرب الحصو، وسيرة الشيخ الغريب، وسيرة الشركة، ومخططات الشرق الجديد. فاضطرت لافتراضها، مستخدماً طريقة غراي، أحد أبطال جزيرة الكنز، الذي كان يسأل نفسه حتى حين تلقى رصاصة: ماذا كنت ستفعل لو كنت مكاني يا سيلفر؟

فأمام كلِّ معضلة من هذه قلت لنفسي: ماذا كنت لأفعل لو كنت مايك؟ ما رأيك يا غريب الحصو؟ كيف كنت ستُخلي الأرض من أهلها لو كنت مكان الصين المتجهة غرباً يا الشرقي؟ هل جبن الحمير محرّم يا شيخ غريب؟ ثم أكمل الحكاية بحسب ما تخبرني نفسي بالنيابة عنه.

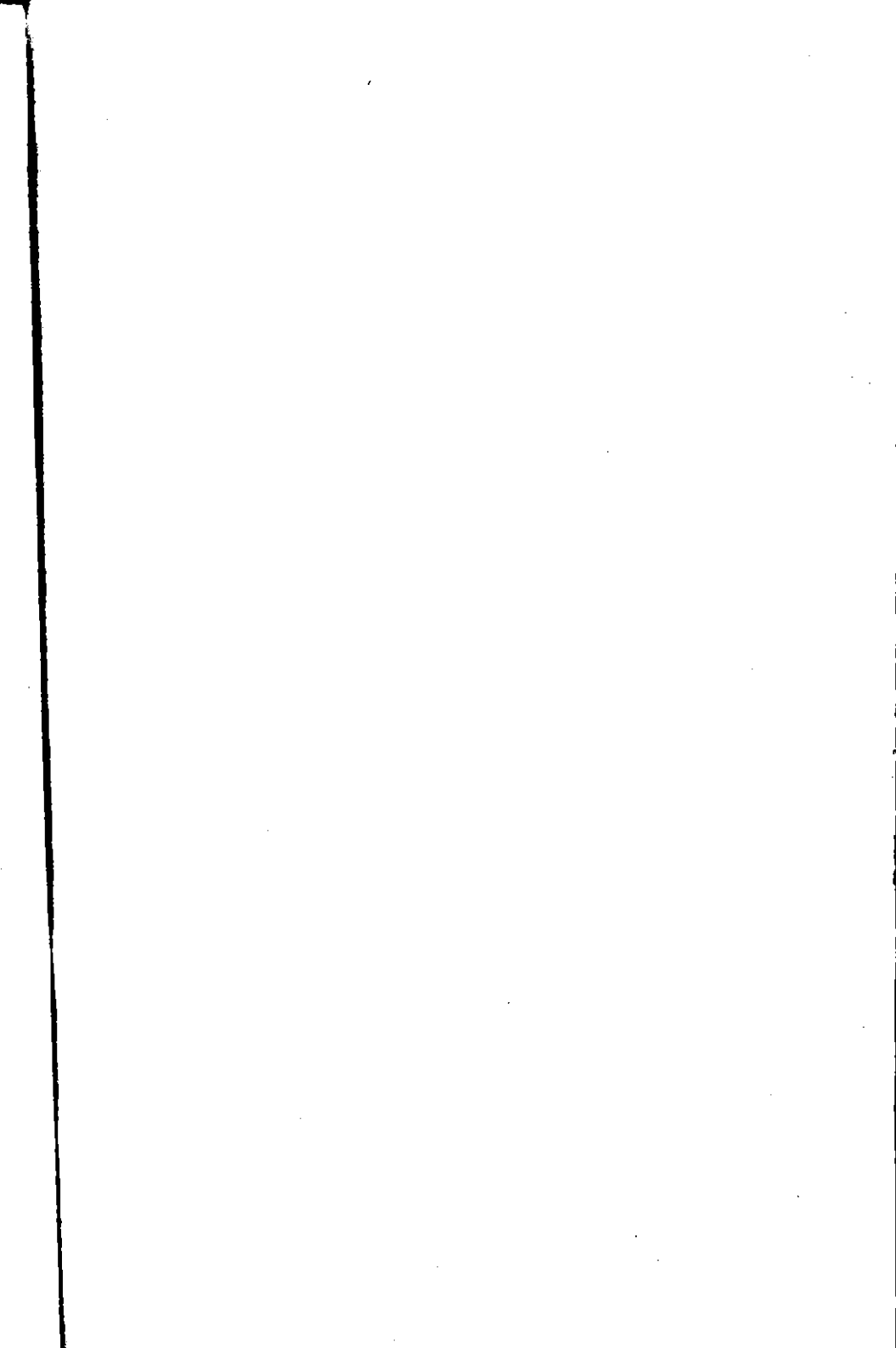
وكثير من الحوادث التي عرفتُها، والأشخاص الذين قابلتهم أو سمعت عنهم، أثاروا في نفسي أسئلة عما كان في نفوسهم وقتذاك، فاضطرت أيضاً لمحاولة فهم مشاعرهم، بصراحة: افتراضها، فأقحمت نفسي هنا وهناك، دخلت النفوس، خرجت منها، تعلّقت بسقوف غرف حصينة لأراقب ما يجري فيها، تسلّلت لسماع همساتٍ سرّية. ولجّت عقولاً مغلقة. ولأعترف: تصرّفت كجاسوسٍ كليّ القدرة.

وبسبب هذه الإجابات المفترضة، وهذه المشاعر التي غلبني الشغف بها، وهذه الأوهام التي ركبتني، أنا مجبرٌ على تسمية هذا الشيء رواية، فلولاها لكان تحقيقاً صحفياً. وهو ما أردت أن أفعله ولم أفعل.



القسم الأول القوَاد

«إِذَا مَا بَعْتَ رَوْحَكَ لِلشَّيْطَانِ، فَأَحْسِنِ اسْتِثْمَارَ الثَّمَنِ!
لرِيمَا احْتَجَجْتَ أَنْ تَشْتَرِيهَا ثَانِيَةً ذَاتَ يَوْمٍ»



غريب الحُصُو

حين غادر مايك الشرقي دمشق، في الخامسة من صباح الأحد 26 آب 1984، كان مجرد غريب الحصو، الشاب السوري الذاهب للبحث عن عمل في لبنان. فقد استطاع، بصعوبة، أن يصل إلى نهاية عامه الجامعي بالقروش القليلة التي احتفظ بها من أعمال متفرقة في رفع مواد البناء وصبّ البيتون ونقل الأثاث إلى الطوابق العليا. أمضى عاماً شاقاً، وأشقّ ما فيه، محاولة إخفاء الجميع عن الجميع. فليس على زملائه في الورش المؤقتة أن يعرفوا أنه طالب جامعة وإلا نفروا منه وضيّقوا عليه فرصة الحصول على عمل. وليس على زملاء الجامعة أن يلمحوا آثار التشقق على اليدين، ولا آثار الرمال والبيتون على الحذاء، وإلا صارت هذه الأثرية ردوداً على آرائه الثاقبة والغريبة التي يطلقها باستحياء وبصوت خفيض في المحاضرات التي تتطلّب نقاشاً.

ليلته الأخيرة في دمشق كانت تستطيع أن تنال لقب أسوأ ليلة في حياته لو أنه شخصٌ آخر، أو لو أنّ بعض ليالي حياته السابقة مضت أطفً قليلاً.

في السابعة من صباح اليوم السابق، أيقظه قرعٌ ثقيل ومُلحٌ على باب الغرفة التي يسكنها مع ثلاثة عمال آخرين، قرب مقبرة الفلسطينيين في الدويلعة. فتح الباب فوجد أبا أيمن، صاحب البيت، بصحبة شرطيّين وشخصٍ آخر بلباس مدني يقف بعيداً بوجهٍ كالصخر، وقد جاء لينقذُ أمراً مزيفاً بإخلاء الغرفة حصل عليه برشوة صغيرة، لأنه يريد تأجيرها بسعر أعلى لعمال آخرين، كطريقة للاحتفال بيوم العيد.

لم يستطع غريب المقاومة. فجبب شبه فارغ من المال لا يمكنه أن يصرع الرشوة برشوة أكبر. شركاؤه في الغرفة كانوا في زيارة لقربتهم في حوران. والحضور المؤازر لعنصر الأمن الصامت حالة فرضت هيبتها. وفوق كل ذلك هو معتاد، وقد قضى حياته مطروداً من مكان إلى مكان. أدار ظهره لمقتنيات رفاقه الضئيلة التي أُلقيت في الشارع، وتخلّى عن أشياءه التي بلا قيمة تقريباً. وضع يديه في جيبي بنطاله وصعد الطريق باتجاه قلب المدينة تاركاً صاحب البيت يكمل «مونولوجه» المحضّر مسبقاً، والذي لم يخفّ الاستسلام السريع، ثم الانسحاب المطرق للشباب اليائس، من حماسه ونبرته العالية الغاضبة التي تغطّي سُخف أسبابه.

وقف طويلاً شرقي الباب الشرقي. راقب العابرين من تحت القوس الكبير. نسج في مخيلته حكايات لوجوه الخارجين من المدينة القديمة، ومؤخّرات القادمين من أحياء الأطراف. وكما نجحت تقنيته الخاصة لعلاج الكراهية طيلة حياته، نجحت في ذلك الصباح أيضاً. شيئاً فشيئاً أحبّ أولئك الغرباء، وبدأ بطرد صوت صاحب البيت الدنيء من رأسه، وعباراته الكاذبة عن رمي القمامة في منتصف الشارع، وتلويث شرف الحيّ بإحضار فتيات فاجرات، وإطلاق الرصاص في الهواء أثناء وجودهن.

راقب روحه ورَسَا الطين العالق فيها إلى القاع. تأمّل القوسين الصغيرين طويلاً، لعلّه يجد بينهما فارقاً يبني عليه استنتاجاً ما. لم يُفلح. حاول بالنظر أن يكتشف نسبة البابين الصغيرين إلى الباب الكبير. لم يجد ما يستحقّ الذكر، فاكتمى بتكرار ما فعله مرّات كثيرة من قبل، وقدر ارتفاع المئذنة البيضاء التي تعلو الجهة الشمالية من الباب. حاول تخيّل النقطة التي سيضع فيها المسيح قدميه خارج الباب حين سيهبط من السماء مهتدياً بالمئذنة التي بُنيت لأجله. ولهذا السبب تماماً فهي الوحيدة في العالم التي لا مسجد تحتها.

أنفق خمسة وسبعين قرشاً من العشرين ليرة التي يملكها في شراء ثلاثة أقراص من فطائر الزعتر، وجلس ليتناولها مُلقياً بظهره إلى العمود الأيسر للباب الشرقي تحت المربع الخشبي، حيث يلصق الأرتودكس نعياتهم.

أنهى وجبته الأخيرة في المدينة التي قرّر ألا يمنحها أيّ فرصة أخرى. لسعت مؤخرته برودة الصباح المتجمّعة في الحجر. نهض ليكمل لقماته المتبقية واقفاً. قرأ نعيات زياد معوض، عطية صليبا، ريمون قندلفت، سونيا البشارة، علياء بيطار، وتوقف طويلاً عند اسم هجيجة الدهنة. استغرب الاسم ولم يفهم معناه، كان جديداً عليه.

اختلف موتى ذلك اليوم بأسماء الأخوال والأنساء والأصهار، واختلفوا بالأعمار وبمكان الوفاة، وبمكان إقامة شعائر الرحيل، التي توزعت على كنيسة الصليب بالقصاع وكنيسة القديس يوسف بالطبالة. لكنهم اتفقوا جميعاً أنهم رحلوا متممين واجباتهم الدينية، وجميعاً آمنوا به على الأرجح. لأنّ «من مات وقد آمن» به «فسيحياً»، كما كتب أقرباؤهم في أعلى النعيات المطبوعة على عجل. ولا بد أنّهم كانوا يريدون الحياة جميعاً. هو أيضاً يريد الحياة، ولكن عقله لا يستطيع أن يؤمن «به» فلا بدّ من استخدام وسيلة أنجع.

المدن التي تظنّ في نفسها العظمة تصلح للولادة أو للموت. شيء جيد أن يقال في الموسوعات: «وُلِدَ في.. أو دُفِنَ في..». لكنّ ما بينهما غير ممتع، ولا يمكن تسميته حياة، فليبحث عن الحياة خارج هذه المدينة «العميقة».

خلال ساعات من التجوال في المدينة، وبين المقاهي، ومطاعم الفول، وبسطات المهرّيات، نجح في العثور على من يستطيع العثور على سائق الـ «دودج» الذي سيغادر في صباح اليوم التالي إلى بيروت، ويعرف طريقاً يستطيع عبه الالتفاف على المعارك الممتدة من صوفر إلى الحازمية. حجز مقعداً قرب السائق، وموعداً في الخامسة صباحاً أمام الباب الشرقي.

عليه إنفاق الساعات المتبقية بأقل قدر من الألم، وأكثر قدر من النوم، في مدينة لا يملك فيها فراشاً، ولا يتوقع فيها لمساً حانية من أحد.

ليمرّر الوقت، تجوّل بين الأسواق القديمة، سأل عن أسعار مكعب صابون الغار، وأوقية الشيح، وموضع الشجرة التي قُطِف منها هذا الجوز، وأقل كمية يمكن شراؤها من زيت الحبة السوداء، وأكبر كمية متوافرة من أكياس الحمّام الحلبية، شمّ روائح البخور القادم من الهند، وذلك القادم من باكستان، تلمّس أقمشة المناشف وسأل عن أصنافها.

سمع الأذان من الجامع الأموي وهو في المسكّية يتفحص دواوين شعر غزلي، مستغرباً وجود كتب كهذه على بعد عشرة أمتار من المسجد. رفع رأسه. أعاد الكتب إلى مكانها بين عيدان السواك وعلب العطوس المعدنية، وخطر له أن يدخل ليصلي العشاء، فهي حجّة ملائمة ليكمل ليلته هناك. سينيها الصلاة، ثم سيتصرف كقائم ليل. سيتركه الجميع لعبادته مع الاحترام، وبعد أن يغادروا سينام حتى صلاة الصبح على السجاد الجديد الذي فُرش به المسجد قبل أشهر، بعد اختفاء السجاد القديم ذات ليلة مخيفة ومرقّطة مرّت على العاصمة في السنة الفائتة.

سار النصف الأول من خطته على الوجه الأكمل. فبعد انتهاء الصلاة بعشر دقائق، غادر جميع المصلّين وخلا المسجد. اقترب منه الإمام الوقور وخاطبه بصوته العميق ومخارج حروفه المضيئة:

«تقبّل الله! يجبُ أن تُغادِرَ يا بُني، سنُعَلِّقُ بابَ المَسْجِدِ.»

تظاهر أنه غائب في الخشوع. أعاد الإمام جملته، ثم غيّر نبرتها، ثم غيّر مفرداتها، ثم في المرة الرابعة هزّه من كتفه: «عمّو لا تسلبا على طيرنا، كل يوم بيحينا من نمرتك، قوم روح على بيتكم، بلا ما يجو يعفطونا نحنا وياك، ممنوع يضلّ حدا بالجامع!».»

نهض بصمت، وهو يفكّر كيف سيمضي ثماني ساعات ثقيلة بقيت

له في هذه المدينة، التي استشرست في عدائها له عند باب المسجد تماماً، حيث اكتشف أخطأ له في الإيمان أضاف لمسة أخيرة بالنيابة عن هذه البلاد، وسرق حذاءه.

ما من مصلين آخرين في المسجد ليسرق حذاء أحدهم، ولا بد أن جميع المساجد الأخرى ملتزمة بالقرار الأمني وأغلقت أبوابها. والليرات التي بحورته هي أجرة الوصول إلى بيروت ولو دون حذاء.

استسلم أيضاً لإشارة القدر الإضافية تلك، ومشى حافياً حول الجامع الأموي من جهة القباقبية فالنوفرة، وتابع على الطريق الحجري لعلّه يعثر على حلّ ما. سار بخطوات منتظمة وبرأس مرفوع كي لا ينتبه أحدٌ إلى قدميه الحافيتين، وبدأ بعد الخطوات في سرّه كي يشغل نفسه. في الشارع الصغير الذي يصل القيمرية بالكنيسة المريمية. التي تدّعي لنفسها مئذنة بيضاء أخرى. رأى مركز تجميع قمامة الحي، ترقّب لحظةً خلا فيها الشارع، وبدأ النباش. لم يعثر على حذاء، لكنه عثر على كيس فيه بضع علب من السردين والحّمص المطحون، رماها أصحابها لانتهاء صلاحيتها. قرّر أن تكون زوّادته إلى بلده الجديد.

تابع حافياً حتى وصل إلى الباب الشرقي الذي يمثّل له باب النجاة. من هنا سيركب سيارة ذاهبة إلى بلادٍ أخرى قد تمنحه حياةٍ أخرى، بعد أن دفعته هذه البلاد من صدره بقرفٍ في كلّ لحظة من الاثنتين وعشرين سنة التي عاشها فيها.

خلف الباب، في الزاوية المقابلة لمطراية الأرمن الأرثوذكس ومدافن شهدائهم، مدخل الرقاق المؤدّي إلى كنيسة حنانيا، رأى كومة قمامةٍ أخرى تقف تماماً حيث سيقف المسيح الدجال في آخر الزمان محاولاً الفرار من معركته الأخيرة التي سيخوضها عاجلاً أو آجلاً في اللدّ. عند طرف الكومة عثر على حذاء رماه صاحبه لمجرّد بضعة ثقوب في نعله السفلي.

استبشر خيراً لأن العثور على حذاء تم أيضاً تحت عين المئذنة البيضاء.
لبس الحذاء، وأنهى عدّ خطواته التي مشاها حافياً، فكّر بمعنى الرقم،
فلم يجد له أي معنى، سوى أنه رقم جميل.

عائب المدينة من خلال لمس الحجر الأبيض ومخاطبته: لن أسامحك
يا دمشق، 2024 خطوة حافية!؟ تابع لعبته مع الأرقام، مشى منتعلاً من
حيث وجد الحذاء إلى قاعدة المئذنة وعدّ 36 خطوة.

أمضى ليلته بين النوم والصحو متكئاً على العمود الأيمن للباب الشرقي
تحت نعيات الكاثوليك، محاولاً العثور على رمز في هذه الأرقام، كَرَّر الأرقام
كي يثبتها في ذاكرته، لعلّ الزمن يعثر فيها على شيء ما.

قضى السنوات العشر الماضية مهووساً بهذا الباب، يحاول كلّ يوم أن
يكتشف فيه سرّاً، وكان يستسلم دائماً حين لا يعثر على شيء مهمّ، ويقول
لنفسه: "الأسرار لا تعود أسراراً إذا عرفناها". بدأت علاقته مع هذا الباب منذ
عمر الثانية عشرة، حين نقل عمله من أمام القصر العدلي، وبدأ يقضي كلّ
نهاره هنا لبيع سلعة جديدة، أو يخترع مهنة جديدة، وتعمّقت في عمر أكبر
حين قرأ أحاديث محمد بن عبد الله عن نزول عيسى ابن مريم على الباب
الشرقي لدمشق ليواجه المسيح الدجال ويقتل يأجوج ومأجوج، ويعطي "علماً
للساعة" ويكشف للبشر عن الخطوة قبل الأخيرة ليوم القيامة.

في الخامسة استقرّ قرب السائق في السيارة الواسعة الوثيرة، ألقى
نظرة أخيرة على المئذنة البيضاء، واستجدها:

لا تجلبي المسيح في غيابي!

ثم استغرق في نوم عميق قطعته إجراءات الحدود مرتين، ثم صوت
السائق يوقظه بعد أن نزل جميع الركاب.

**

وصل في التاسعة إلى المدينة التي تثقّبها الحرب. والتي كانت، رغم حرائقها، ما تزال قادرة أن تقدّم فرصةً ودخلاً جيداً لأمثاله يمكنه من متابعة دراسته. سيعمل فصلاً ويدرس فصلاً، أو هكذا كانت تخطّط مخيلته التي لم تنضح بعد.

استقبلته المدينة ببرود، فهذا يومٌ عطلتها الأسبوعية، ولا ملامح للحياة فيها، خصوصاً في هذه الساعة المبكرة. أراد أن يتّخذ طريقاً ما في مدينة لا يعرف عنها سوى ما قاله الشعراء عن زمن صباها، وما يتناقله المراهقون عن حرّيتها الجنسية. وضع البحر على يمينه كي يمدّ لبوصلته خيطاً ما، ومشى من مدخل الميناء حيث أنزلته السيارة، وسار صعوداً لعله يرى شيئاً جميلاً، أو يجد عملاً ما. بعد ربع ساعة من مشية الغريب الخائف، ظهرت صخرة الروشة أمامه، ابتسم فخوراً وكأنه من نحتها، تملّأها بإعجاب لدقائق كانت كافية لجعلها مألوفةً وعاديةً وسخيفة. تابع سيره فظهرت في وجهه المنارة. هي المرّة الأولى التي يرى فيها منارة حقيقية، فقد عرفها كاسمٍ آخر للمئذنة، لتلك المئذنة تحديداً، مئذنته نفسها. عرفها كاستعارة، كمجازٍ لأشياءٍ أخرى. في المدرسة والتلفزيون والجامعة، عرف أن ابن خلدون ظلّ لقرون منارة لعلماء الاجتماع، وأن ابن رشد شكّل منارة للعقل الأوربي، وأن فكر الحزب القائد هو منارة الأجيال. هذه هي المنارة إذاً؟ خطر له: ما أطول ابن رشد. ما أنحل ابن خلدون. وما أصغر نوافذ الحزب. وانتبه أيضاً أن ما فوق الباب الشرقي يليق بها اسم المنارة أكثر من اسم المئذنة، فكيف تكون مئذنة من لم تولد ليخرج منها الأذان؟ والنبّي العائد سيستتير بها ولن يؤدّن من عليها. مشى يفكّر في كلّ الأشياء والأشخاص والأفكار التي حفظها في ذاكرته حقاً أو زوراً على أنها منارات، حين رأى مدينة ملاءٍ تفصل البحر عن المدينة. أذهله أن في هذه المدينة من يلعب أثناء الحرب، وهاله حجمها وحجم الأراجيح فيها، اقترب من الباب بوجل، فوجد حارساً، سورياً بالطبع، سأله ما إن كانوا يحتاجون عمالاً هنا.

خلال نصف ساعة، أنهى دورته التدريبية وباشر عمله الجديد مشغلاً
للسفينة المعدنية المتأرجحة، جلس على كرسي بلاستيكي ملاصق لعمود
الأزرار وبدأ بتفحص المكان.

لا زبائن في هذه الساعة المبكرة. مخلفات الليلة السابقة مجمعة
في ثلاثة تلال من علب المشروبات الفارغة وبقايا السندويش وأكياس
البسكويت والشيبس. استنتج أن العمل في هذا المكان مقسم بدقة،
فالذي جمعها أنهى عمله باكراً، ومن سينقلها خارجاً لم يبدأ عمله بعد.
إذا سيكون عمله هنا محدداً ولن يكلف بأعمال إضافية، وهذا سيتيح له
أن ينقذ خطته ويقطع وقتاً كافياً للدراسة.

العمال الصباحيون متجمعون أمام كشك بيع التذاكر يشربون الشاي، وكُلُّ
منهم ينظر باتجاه. مشى نحوهم محاولاً أن يندمج بالبيئة الجديدة، ويحصل
على كوب شاي وعلى بعض الأجوبة عن الأسئلة الكثيرة التي تشغل باله
حول الطعام والنوم ومواعيد دفع الأجور، أماكن السكن المتاحة، الأسعار.

تحية الصباح التي ألقاها بلطف مبالغ فيه قوبلت بالصمت، وبنظرات
ازدراء من البعض. كرر تحيته، فردّ الرجل الأكبر سنّاً بتناقل، عاد أدراجه
محاولاً فهم هذا العداء غير المفسّر، ثم انتبه أن الأمر ليس خاصاً به، وأن
الجميع يتعامل مع الجميع بالطريقة العدائية ذاتها.

لم ينته اليوم إلا ووصل العداء إلى مشاجرة جماعية بالأيدي، وبما طالته
هذه الأيدي من عصي وقضبان حديد، لا أحد يعرف لماذا وكيف، ولا من
بدأ الضرب، ومن تحالف مع من، وعلى أيّ أساس.

غريب الذي شارك في المشاجرة وتلقّى بضع لكمات، ووجه مثلها.
دون أن يفهم أيّ شيء، سوى أنه بعد انتهاء المشاجرة شعر بارتياح كبير،
وانتبه أن جميع من أهانوه في الصباح أصبحوا ألطف معه ومع بعضهم.

حين وصل المدير وطرده جميع من شارك في المشاجرة كي لا يسمح للدرك بالتدخل، اتّحد المتشاجرون ليطالبوا بأجورهم، وهو ما حصلوا عليه في النهاية. كانت حصة غريب هي الأصغر على الإطلاق، لأنها أجر يوم واحد وفوقه ثلاثة دولارات ونصف لجبر الكسور. كان راضياً وسعيداً حين ناوله المدير ورقة العشرة دولارات، فهي المرة الأولى التي يمسك فيها العملة الأمريكية المرتبطة في ذهنه بالثراء. أحبّها، أحبّ ملمسها وألوانها الباهتة، تأمل طويلاً في صورة الشاب التي تتوسطها، أحبّ تسريحة شعره المتقنة، وعينيه المضيئتين كالزيت، قرأ اسمه: هاملتون، وقرّر أن يجعله تعويذته، ويحتفظ بالورقة إلى الأبد، وألا ينفقها حتى لو مات جوعاً، وحين يتاح له سيبحث ويقرأ عن هذا الهاملتون ليعرف من هو، وما إن كان فيه أو في سيرة حياته ما جعل قلبه يميل إليه.

العمل الثاني بدا سحرياً. عثر عليه في الليلة ذاتها، وهذا نجاح سريع لتعويذة الهاملتون. كراج مرتجل للسيارات في فسحة بين بنايتين، وفيه غرفة للحراسة تحتوي سريراً يستطيع النوم عليه. وكلّ ما يتطلّب الأمر أن يُنزل الحاجز المعدني في التاسعة مساءً ويرفعه في السابعة صباحاً، وأن يجلس في النهار ليأخذ من كلّ سيارة تدخل أجر الوقوف.

لم يوجّه له صاحب الكراج الكثير من الأسئلة، وبدا مضطراً بشكل عاجل لعامل بدلاً من عامله المصري الذي غادر فجأة، أخبره أنه سيعطيه خمسين دولاراً كلّ أسبوع، وأنه يستطيع أن يحصل مبالغ أكبر كإكراميات من الزبائن، إذا ما ساعدهم في ركن السيارات، أو غسلها في حال طلبوا ذلك.

باشر عمله فوراً دون أن يجرؤ على إخبار صاحب الكراج أنه لا يعرف قيادة السيارة. وهي المهارة التي امتلكها خلال أيام، معتمداً على خبرته في قيادة الدراجة النارية، وتجربة واحدة في قيادة جرار زراعي، وجرأته في تجريب سيارات الزبائن بعد مغادرتهم.

بسبب تهذيبه وعدم تدخّله فيما لا يعنيه، وتلقّيه الأوامر بصدر رحب، صار شخصاً محبباً للمالك وللزبائن الدوريين وللجوار.

أمضى تلك الأيام سعيداً وراضياً، يأكل جيداً، يملك حذاءين، ينام جيداً، يملك الكثير من المال. وبعد أن أحضر له أهل الحيّ أكياساً كثيرة من اللحم في عيد الأضحى، الذي صادف اليوم التاسع لعمله، لم يعد يشعر بالفرجة، لا بسبب اللحم، بل بسبب الفهم وإحساس القرابة. حصيلة الشهر الأول كانت مبلغاً هائلاً بالنسبة له. حين أحصى القطع النقدية الصغيرة التي جمعها أصابته قشعريرة، فهي تعادل أجور عمله في دمشق لستة أشهر بل لسنة. وفوق كلّ ذلك وصل خريف بيروت المبهج باكراً في ذلك العام.

بدأ الشهر الثاني بحماسٍ انطفاً بشكل مباغت: في الثامنة صباحاً من اليوم الثاني والثلاثين لفرصته الكبيرة، سقطت قذيفة آر بي جي على مدخل الكراج تماماً، وتسببت بانهيار أحد جدران غرفة الحراسة التي أصبحت غرفته. واستدعت القذيفة بضع رشقات من الرصاص على أنها ردّ. وخلال ساعات وصلت أكياس رمل كثيرة، وتحولت إلى متاريس على طرفي الشارع. وفجأة أصبحت ساقية الجزير بكاملها منطقة استراتيجية يتنازع عليها الجميع.

كيف تحوّل غريب الحُصو إلى مايك الشرقي؟

حين هدمَ الخواجة دريان الجدار الفاصل بين غرفتين في الطابق التاسع من فندق مازا الذي أنهى بناءه للتو، بدا مجنوناً في نظر كل من حوله. فمن سوى المعتوه يستبدل بمعجزة هندسية، كالقبو الواسع الذي بلا أعمدة، ستين متراً عادية في طابق علوي مختبي؟

في ذلك الوقت، كان المؤلف أن توضع بارات الفنادق في الطوابق الأرضية قريبة من المداخل كي تجذب العابرين. الخواجة العائد من باريس إلى مسقط رأسه بيروت، ليستثمر في نهضتها السياحية المزدهرة آنذاك، أصرّ على مخالفة مخططات المهندسين، وغير وظيفة القبو الواسع من بار إلى قاعة مؤتمرات. ولم يكن أحد في بيروت مطلعٍ على الستينيات يعرف ما الذي يعنيه ذلك، وما هي السلعة التي ستباع في قاعة المؤتمرات.

واختار للبار أقرب موضع إلى نهاية الفندق عمودياً، لأنه يريد لنزيل الطابق الأخير أن يصل إلى كأسه قبل عابر الطريق. صمّمه بكل ما زوّده به حياته الأوربية من حسّ فنيّ وذوق رفيع، ثم أطلق عليه أصدق اسم بار في العالم: PLAN Y. وكوّز تبرير الاسم لمن يسأله: لا أحد يأتي إلى البار إلا بعد أن يستنفد كل الخطط الأخرى.

واستعداداً للسؤال التالي المتوقع دائماً: "هي Z إذا؟" أضاف لمسة مرحة بأن وضع لافتة على الباب الحديدي المقفل لسطح المبنى في الطابق الحادي عشر كتب عليها: "PLAN Z"، وصار يكرّر على مسامره:

إن لم تبجح الخطة Y في معالجة همومك اذهب إلى الخطة Z وألقِ بنفسك من هناك.

الخثرة التي تسدّ شرياناً في القلب أو الدماغ امتلكت في ذلك الزمن اسماً لطيفاً ومريحاً. فكانت تشخّص على أنها ميتة الربّ.

استخدمت الحياة (أو الرب بنفسه من يدري؟) واحدة من تلك الخثرات لتسلب الخواجة دريان الوقت الذي يكفيه ليستمتع بتحفته المعمارية، وتوقّف متعة الوصول قبل الآخرين إلى البار العزيز، على اعتبار أنه النزيل الدائم والوحيد في الطابق الأخير. فمات في سريره بسلام بعد ثمانية أشهر من افتتاح الفندق.

آذته الحياة أكثر بمزاج ورؤية ابنه الوحيد، الذي وصل إلى بيروت ليحضر مراسم الدفن. وقد تأخّر لأيام بانتظار إنهاء أعماله الهامّة في مرسيليا، ثم جلس على مضض لساعتين ونصف في صالة الكنيسة، لتلقّي العزاء البارد من أناس لا يعرفهم. لكنهم جميعاً عرفوا فيما بعد، أنه حين يختفي خلال ساعات النهار، كان يُجري اتصالات ومفاوضات لبيع إرث أبيه. أثمرت عن بيع درّة فنادق الشرق لرجل مجهول، لم يكن أحدٌ قد سمع به من قبل، ولم يعرف أحد ما إن كان قد جمع ثروته من أعمال غير مشروعة أو أنه واجهة لشخصيات غامضة أخرى.

كلّ ما قضاه دريان الابن في البلد الذي يحوي خمسة قبور تجمع جيلين من أسلافه هو خمسة أيام، حمل في نهايتها إشعاراً مصرفياً بمبلغ فلكيّ بمقاييس تلك الأيام.

ما اشتراه الرجل القادم من الغموض في تلك الصفقة أكبر بكثير من مشروع سياحي ناجح. اشترى القدرة على ممارسة متعه كلها (وهي بكلّ الأحوال اثنتان أو ثلاث) واشترى السلطة التي تسمح له بإصدار الأوامر لعدد أكبر وشرائح أوسع من أولئك الذين شكّلوا عالمه السابق، من عاهرات صغيرات وسائقين عموميين ومؤجّرين شقق مفروشة.

وفوق ذلك نجح استثماره مالياً لدرجة أنه خلال عامين أو ثلاثة امتلك لقب الشيخ قسّام بدلاً من ذلك الاسم العادي المتواضع: قسّام. وخلال عامين آخرين، صار اللقب الجديد مستخدماً حتى عند أولئك الذين كانوا يسمّونه حين يحتاجون خدماته: «قسّام العرصة».

أعاد الشيخ قسّام بعض الأشياء إلى نصابها، وصحّح أخطاء سلفه المؤسّس، فحوّل PLANY إلى الغرفة 901 والغرفة 903. وحوّل PLAN Z إلى مكبّ للطاولات المكسورة والأسرة الصدئة. والقبو الذي لن يبقى أعجوبة هندسية. لانتشار ثقافة الجسور المقلوبة. تحوّل إلى ملهى ناجح جداً باسم بارع: "سمراء البادية".

انقسم الفندق تلقائياً إلى ثلاثة أقسام: غرف فندقية عادية يشغلها زوّار عاديّون لم يصلهم شيء عن سمعة المكان، أو سياح أورييون يفتنهم الطراز المعماري، والقسم الثاني غرف الطابقين الثاني والثالث التي تؤجّر لساعة أو ساعتين للأزواج الخائفين الذين يصطحبون عاهراتهم من داخل الملهى أو من خارجه، والثالث ملهى "سمراء البادية" الذي يأتي أهم زوّاره من الكويت والعراق، وبعض إمارات الخليج الناشئة، فقد فاقت شهرته هناك شهرته في لبنان. نُسجت عنه أساطير وحكايات، وجرى تناقلها باللهجات البدوية والفراتية مصحوبة دائماً بعبارات إخلاء المسؤولية: "يقولون ويقولون، وسمعت، وحكى لي خويّبي".

انتشرت حكاية عن الفتاة السمراء التي نذرت نفسها للرب نصف اليوم طيلة حياتها، لأنها تؤمن أن الضوء يأتي من شمس الرب، والظلام تصنعه الشياطين حين يغيب الرب، أو ينشغل بالجهة الأخرى من الكون، فترتدي ثوب الرهبانية وتعمل خلال النهار مسؤولة عن أجراس الكنيسة. وحين يأتي الليل، تخلع ثوب الراهبة المحتشم، وتلبس فستاناً يكشف صدرها وفخذيها. تقف أمام منحوتة العذراء التي حملت دون دنس، وتصلّي لها: "حملتِ عنّا، سادّنس عنك". ثم تمضي إلى كازينو سمراء البادية الذي

أهداها إياه أحد عشاقها الكثر قبل أن يموت. شاع أنّ جمالها يسلب اللبّ، وقلّما يبقى رجلٌ بعقله بعد أن يراها عن قرب، وخبّل بعض من رآوها غارية أو ماتوا من ساعتهم. ثم يضيف رواية الحكاية تأكيداً ملموساً أنّ ناظم الغزالي نفسه أحد ضحايا فتنها، وما أنقذه من الجنون أنه رآها أول مرة بجوار الكنيسة بلباسها الأسود الطويل، وكان محظوظاً أن نظرته الأولى لم تكن في الكازينو وهي بفستانها المشجّر. لحق بها إلى شخصيتها الأخرى في سمراء البادية، لكنها أشاحت بوجهها عنه. وقد اعترف بذلك على الملأ حين غنى لها: "سمراء من قوم عيسى من أباح لها قتل امرئٍ مسلمٍ قاسى بها ولها"، وقال بلسانه في الأغنية ذاتها: "رأيتها تضرب الناقوس قلت لها من علم الخوّد ضرباً بالنواقيس؟" وغالباً ما كانت الرؤية تنكشف عن أحد المستمعين المذهولين من ذوي المعرفة والبصيرة، فيضيفون استنتاجاً من قبيل: آآ، لأجل ذلك يقول: "وقلت للنفس أيّ الضرب يؤلمك، ضرب النواقيس أم ضرب النوى؟ قيسى!" كان يستمع لصوت أجراسها في النهار ويقاسى صدودها في الليل. آآآآ لقد تألّم في الحالين.

كانت هذه التعليقات تضاف تلقائياً إلى القصة الأصلية وتنتشر، حتى انتهت أخيراً إلى أنّ ناظم الغزالي مات لأنّ أغنيته لم تنجح في ترقيق قلب تلك السمراء، رغم أنه نجح سابقاً في كسب قلب يهودية اسمها سليمان بأغنية أسخف من هذه بكثير، تدور حول عيدٍ ما، والتردد في اختيار هدية للعيد، ثم الفشل في ذلك.

لم يكتفِ أحدٌ لحقيقة أن ناظم الغزالي مات قبل سنة وشهرين من افتتاح ملهى سمراء البادية، وقبل ثلاثة أشهر من افتتاح فندق مارزا نفسه. فمجرد رؤية ثديي راهبة مسيحية وفخذيها فكرة مثيرة تشعل النار في الرؤوس الصحراوية، وتستحقّ ثمن الرحلة إلى بيروت. خاصة أن بعض الرواة صوّبوا لَوْنَ الفتاة وأكّدوا أنها بيضاء كحليب الناقة، وأنّ سمراء اسمها لا لونها.

اختبار الأثر المدمر لجمالها المتخيّل شكّل تحدياً لبداية يحتاجون طوال

الوقت إلى اختبار رجولتهم، إن لم يكن بالفوز ببعض النساء البيضاء، فبقتل الذكور الآخرين.

افتعل العراقيون أسئلة شتى ليسمعوا المزيد عن ذلك الفردوس، وليمهدوا لأسئلتهم الحقيقية حول النساء: "يايش الباجة هناك؟ عدْهم تشريب وتمن على مرق؟". بينما غلّف الكويتيون رحلة مجونهم بالتصرف كقافلة تجارية ذاهبة في إيلاف الصيف إلى الشمال: "لين نبي نروح لبنان أول الربيع نتبضع مسك وعنبر، وش رأيك نيب حمل حرير؟" وعادة ما يُتني شريك المجون على الاقتراح: "الله يبارك، ونزيد قشطة وعسل". ويتبادل المستمعون الحاضرون الابتسامات ويتصرفون كأنهم لم يفهموا الكنايات.

كل ما يروى عن سمراء البادية، الذي أصبح اسمه اختصاراً "السمرا"، كان قابلاً للتصديق، ولا أحد يحتاج أو يريد أو يرغب في التحقق من صحته، ولا سيما الخبر الذي انتشر كالنار في القش عن أن سميرة توفيق نفسها تدخل إلى كازينو سمراء البادية في منتصف الليل، وتمر بين الطاولات. تقف عند بعضها، تحرك أنفها، دون أن تكلم أحداً. هي تبحث عن الرجل الذي سترتبط به. ولم يتسرب من الشروط التي وضعتها والمواصفات التي تبحث عنها سوى أنها تريده رجلاً شهماً وكريماً وتفوح منه رائحة الهال. لا أحد يحتاج أن يناقش نفسه ما إذا كان رجلاً وشهماً وكريماً، فالجميع كذلك.

فيما تسبب كثيرون بجروح على أعناقهم وصدورهم ورضوض على خصاهم، من فرك حبات الهال القاسية على أجسادهم كي تعثر عليهم سميرة توفيق، أخذ الشيخ قسام من هؤلاء أموالهم، وتابع صنع حياته وثروته لمن سيأتي في النهاية كي يرثها، والذي لم يكن في ذلك الوقت أكثر من صبي يتيم تربيته جدّة ما، وضعت إحدى قدميها في القبر، وأخرت نقل الثانية من أجل هذا اليتيم الذي مات أبوه في حرب حزيران، ليس بنيران العدو كما يفعل الشهداء، بل بقرار محكمة ميدانية نفذت فيه حكم الإعدام رمياً بالرصاص لفراره من المعركة وترك رفاقه الجرحى ينزفون حتى الموت.

جمع الشيخ قسّام الكثير من المال، ومارس متعّة الثلاث لأقصى ما
 يحتمل جسده لا لأقصى ما يريد، فضاحع فتاةً جديدة كل يوم، وزين طاولة
 غدائه بخروف مشوي كل يوم، وأصدر أوامر مريضة ووجه إهانات لعشرات
 من أصحاب الحاجات. وهي المتعة التي أُشبعَت أولاً، ففترّعت حواس
 الشيخ قسّام وغرائزه للتركيز على التكرار اليومي لجمع المال ومداعبة
 القاصرات ومضع اللحم الأحمر.

**

للأماكن، كما للبشر والسلالات، أقدارها، وظائف مكتوبة في اللوح
 المحفوظ. لذلك تجري الأشياء حولها بطريقة تبدو غير منطقيّة أحياناً.
 فالقدر، ودون أن يضطرّ للإفصاح عن خططه المستقبلية، يدفع بالأماكن
 كي تحقّق ما يريد هـو. وله وحده اختيار الزمن المناسب.

فندق مارا مندورٌ لمهمّة أرادها القدر. وإلا لماذا مات الخواجة المحترم
 وهو في أوج رضاه؟ ولماذا آلت ملكيّة المكان لرجل كالشيخ قسّام؟ ولماذا
 لم يتأثر كثيراً حين نشبت الحرب؟ ولماذا توافق جميع المتحاربين دونما
 اتفاق على أنهم بحاجة إلى مكان آمن بين خطوط التماس المتشابكة
 والمتبدّلة باستمرار؟ ولماذا كان فندق مارا هو هذا المكان بطوابقه العشرة
 وغرفه المئة والستين ومطعميه المميّزين، وملهاه الواسع الذي تقام فيه أكثر
 الحفلات مجوناً ولا مبالاة؟ ولماذا لم يصل إليه من الحرب سوى صوتها؟
 ولماذا ظلت لتسع سنوات تمرّ قربه، تؤدّي بعض معاركها على بعد أمتار
 منه، لكنها لا تجتاز الباب أبداً؟!

من اجتاز الباب في ذلك اليوم، كان شاباً بعمر الفندق، كلاهما تجاوز
 العشرين بقليل. وكلاهما مرّت به الأقدار والحروب دون أن تهدمه. أفصح
 القدر أخيراً عن أول إشارة إلى مشروعه. شاب مرتبك منطقي. مبنى واثق
 مشعّ. كان كلاهما بحاجة إلى الآخر، كان كلاهما مندوراً للآخر.

اصطدمت عينا الشيخ قسام به في اللحظة التي هزّت موظفة الاستقبال رأسها وزمّت شفيتها لتؤكد أنهم لا يحتاجون عمالاً، فأمر أحد مرافقيه: "أذهب وأحضر لي ذاك الشاب!".

لا أحد، ولا حتى الشيخ قسام نفسه، يعرف ما الذي لفت نظره في باحثٍ عن عمل تكاد تكشف ملامحه وثيابه أنه ينام منذ أسبوع في مداخل البنائيات، وأنه ناج بالمصادفة من معركة الإخوة المنقلبين على بعضهم، التي بدأت بقذيفة على غرفة عمله ونومه.

اتفاق العمل الذي أبرمه غريب الحصوص بهرة رأس يائسة، كان لما قبل قرن أو قرنين يسمى صكّ عبودية. سيقوم بكل المهام التي يكلفه بها الشيخ والتي لا يعرفها، ومواعيد عمله ستكون في أي وقت من الأربع وعشرين ساعة، ومقابل ذلك سينام ويأكل، وسيعطيه الشيخ مكافآت بقدر ما يعجبه أدائه.

خلال الأشهر التالية حمل غريب الحصوص أطناناً من المناشف وأغطية الأسرة وزجاجات الكحول وصناديق الخضار وأفخاذ العجول، غير أماكن عشرات الطاولات مئات المرات، حمل فتيات مغمى عليهن من السكر أو من سادية الزبون، تعلّق بحبل ومسح زجاج المبنى من الخارج، ذبح خرافاً، أمسك بالفئران الحيّة العالقة في المصائد وهرس رؤوسها خارج الفندق، رفع الكهربائي على كتفيه، تفقّد خزانات المياه، تشاجر مع موظفي البلدية حين حاولوا وضع حاوية قمامة جديدة قرب المدخل، ساعد الطبّخين بفرم الملفوف في أوقات الذروة، أقسم أيماً كاذبة لينقذ موظفي البار من غضب زبائن اكتشفوا غشّ الفودكا، أزال الأوساخ من مصرف مياه الحيّ في ليالي المطر الغزير، أحسن التعامل مع جنود سوريين لم يدفعوا ثمن ما شربوا من بيرة وما ضاجعوا من نساء. كان يفعل كلّ ما يُطلب منه، وما لا يُطلب. حين مضت ثلاثة أشهر لم يكن قد قبض أيّ قرش من الشيخ قسام.

وكل ما تقاضاه ثلاث وجبات جيدة من الطعام كلَّ يوم، وسريرٌ مريح وحمَّام ساخن متاح في أيِّ وقت، وابتسامة رضا من الشيخ بين الفينة والفينة.

العام يقترب من نهايته. انتهز لحظة مناسبة في حدود السابعة مساءً فيما الجميع يستعد لسهرة عيد الميلاد. طلب الإذن بالكلام، هرَّ الشيخ رأسه مبتسماً وكأنه يقول: أعرف ما تريد. مدَّ يده إلى حقيبة على الكرسيِّ المجاور، أخرج رزمة من فئة العشرين دولاراً، عدَّ خمساً وعشرين واحدة منها وناوله إيَّاهَا. شعر بالارتباك: لا يا معلِّم، فهمتني خطأ، كنت أريد أن أطلب إجازة.

شرح للشيخ أنه طالب في جامعة دمشق، وامتحاناته ستبدأ بعد عشرة أيام، وأنه سيعود بعد انتهائها مباشرة إلى العمل. تغيَّرت ملامح الشيخ ونظر إليه ملياً:

.أنت طالب جامعة أيضاً؟! أين كنت كل هذه السنين؟! أمسك هذه.

أعاد أوراق المال التي عدَّها إلى الرزمة الأصلية، وأعطاه إيَّاهَا كلَّها. كانت الألفا دولار مبلغاً أكثر من كافٍ ليستسلم تماماً لكلِّ ما قاله الشيخ عن الحاجة الشديدة له في فترة الأعياد، وعن أن الأعياد هنا لن تنتهي في ليلة رأس السنة كما كانت حساباته، وأن ميلاد المسيح له توارخ متعددة. كلُّ منها يحتاج إلى الكثير من الكحول والموسيقا والطعام، ويحتاج إلى عشرات من غريب الحصوص. والجامعة موجودة في كلِّ وقت. لكن الأعياد وأرباحها لا تأتي إلا مرَّة في السنة. والجامعات اللبنانية أكثر من الهمِّ على القلب الحزين، وعمداء بعضها من الزبائن الدائمين في السمراء، ويسهل التوسُّط عندهم للحصول على شهادة.

مع اختلال خطِّه الاستراتيجية، شعر بأنه كسب ثقة الشيخ، وهذا يصلح ليكون خطة استراتيجية بديلة، بدأت ملامحها التنفيذية بالظهور في اليوم التالي لسهرة ميلاد فاشلة، خرج بها معظم الزبائن مستائين من رداءة

الطعام وأصوات المطربين. من المزاج العكِر للفتيات اللواتي يُفترَض بهنّ الترفيه عن الزبائن، وأخيراً من إطلاق الرصاص بين ساقِي زبونين غاضبين أنهى الحفل قبل أن تصل الساعة إلى الثالثة صباحاً.

بين يوم الثلاثاء ذاك والاثنين الذي يليه، حصل غريب الحصوصو على ترقية وظيفية يحتاج الناس الطبيعيون إلى سنتين على الأقل لاجتيازها. فخلال ستة أيام فقط، تدرّج من عامل تراحيل إلى مشرف موظفين في "سمراء البادية". واستدعت الوظيفة الجديدة أن يمتلك اسماً جديداً.

ففي ذروة غضب الشيخ قسام، وحين كان يؤتّب موظفيه بكلمات قاسية بذئته، صرخ: غريب انزل للأسفل، لقد عيّنتك مشرفاً عليهم، من لا يعجبك اطرده، ثم أخبرني! وَجَم غريب والآخرين في أماكنهم. حاول أحد الموظفين القدامى أن يصبّ قرار الشيخ المتسرع: "شيخ، نحنا قصرنا، رُوّق دَمَك. إذا مش عاجبينك جيب حدن يفهم بالقصة، رجّع جيحي أو مايك". همهم كلُّ من الموظفين المؤتّبين باسم أحد المرشّحين.

نقل الشيخ قسام نظره بينهم بطريقة مخيفة، ثم تحدّث بهدوء: معكم حق، غريب غير مناسب. ثم وجّه كلامه لغريب: اعتباراً من اللحظة أصبح اسمك مايك.. انزل وأر هؤلاء المنايك كيف يكون العمل!

لمن كانوا في بهو الفندق وعلى الأدرّاج، بدا تصرّف الشيخ قسام غير مفهوم، ولا يشبهه أبداً. فرغم كلِّ اضطراباتة، يحافظ على الناس الذين يعملون معه، وقيم وزناً كبيراً لاختبارات الزمن، ولا يضع ثقته إلا بمن اجتاز عمادة النار والدم. واختياره لشابّ جديد بلا أيّ خبرة لإدارة بقعته الأثيرة من العالم أثار الشكّ فيما يفعل. خصوصاً أن الشاب المُختار وفوق كلِّ عيوبه يحمل عيباً أصلياً: عامل سوريّ؟

خلال أيام، وفيما كان مايك يجتهد كلاعب كرة قدم أعطاه المدرّب فرصته الأولى في الوقت المستقطع. بدأ قرار الشيخ قسام يصبح قابلاً

للتفسير. فهو يستخدم أساليب مبدعة في عقاب موظفيه، وأحدها تمكين الصغير من عنق الكبير، وإطلاق التافه ليتحكّم بمن يظنّ نفسه مهماً. لكنّه، على ما يبدو، يمتلك سبباً آخر، ويحضّر لشيء ما، بدأ ينكشف مع تسرّب أحداثٍ تجري في بيته. البيت الذي يفصله تماماً عن الفندق. ومعظم موظفيه المخلصين يعرفون شفاهاً أن للشيخ ابنتين شابتين، لكنهم لم يروهما أبداً، ولم تزورا الفندق ولا مرّة في حياتهما.

الفتاتان التوأم اللتان أنجبهما الشيخ قسّام من امرأة انتحرت في سن السادسة والعشرين بلغتا الثامنة عشرة الآن، وظهر كم ورثتا من جمال أمهما النادر، وصارت أيّ واحدة منهما حلاًماً لكلّ شابّ يحمل عينين في رأسه، دون أن يكون إسكندر استثناءً. وإسكندر أيضاً حلمُ كلّ فتاة وكلّ أهل فتاة يحملون عقولاً في رؤوسهم، فهو الابن البكر لشريف بك روضان، الزعيم السياسي والروحي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري لطائفة الشيخ قسّام، والذي يلتقي معه بالنسب الأصلي أيضاً.

ولأنّ النّعَم كالمصائب لا تأتي فرادى، فقد تعلّق قلب الشقيق الأصغر لإسكندر منذ اللقاء الأول بالفتاة الأخرى (ربما أحبّ الفتاة نفسها من يدري؟) وصارت الترتيبات لزواج ثنائي. إسكندر سيتزوج ديبالا والراضي سيتزوج ديانا. كانت المصاهرة ناجحة بكلّ المقاييس، ستزوّد الشيخ بنفوذ وحماية إضافيين. ستمحو بعضاً من ملامح تاريخه المُشين. ستمدج ثروته الكبيرة بواحدة من الثروات الهائلة للحرب الأهلية. ستمنحه أسباطاً باسم عائلة مشرّف.

الاستثناء الوحيد لجودة هذه الصفقة الكبرى هو قبو العجائب الذي يجمع متع الشيخ كلها. امتلاك الفندق أمر مقبول ويمكن تبريره، لكن امتلاك ملهى بهذا الفجور وإدارته سيكون محرّجاً للبنتين وللأنساب الجدد، وسيكون قابلاً للاستخدام من أعداء شريف بيك الطامحين للزعامة.

مبكراً بدأ الشيخ قسّام يتحضّر لتلك اللحظة التي ستبكي فيها إحدى الفتاتين، لأنّ أحداً من أهل زوجها استخدم "سمراء البادية" ليُهبّنها، واللحظة

التي سيواجهه فيها الصهران بطلب واضح بإغلاق الملهى، أو أن يفرض عليه الزعيم ذلك. في الوقت نفسه لم يكن عقله يتحمّل أن يتوقف عن مداعبة الفتيات، ووضعه الصغيرات منهن على فخذه فيما يتمايل مع الموسيقى.

بدأ يبحث عن حلّ منذ بدأت الفتاتان بمطالعة مجلات الموضة لاختيار فساتين الخطوبة. فكّر أن يسلم إدارة الملهى لشخص آخر، لكن أيّ واحد من رجاله الموثوقين سيكون حيلةً مكشوفة، وسيعرف الجميع أنه يختبئ خلفه.

الليلة التي غضب فيها من موظفيه، هي الليلة التي اختارت فيها الفتاتان مصمّم فستاني العرس. استغلّ فشلهم في حفلة عيد الميلاد ليقفز بعريب سنوات إلى الأمام. كان خياراً ممتازاً، بمواصفاته الشخصية، وبحدائه عهده به، وبإمكانية تركيبه على قصة مقنعة لأسبائه. سيهمس عن السياسي السوري الكبير الذي أخذ منه الملهى ببدل استثمار رمزي لقاء حماية بقية الفندق من انحراف سمّت المدفعية، ولم يستطع أن يرفض. وعن الجندي المفرز من دمشق ليدبر العملية بالنيابة عن معلّمه. في الوقت نفسه أثبتت مراقبته لعريب طيلة أشهر أنه عثر على المطيع الصامت، الذي لا يرفض ولا يتذمر ولا يثرثر ولا يطمح ولا يطمع.

سيجرّبه في وظيفة المشرف ويراقبه جيداً، وإذا نجح في الاختبار سينقذ تلك الخطة، ويجعله صورياً مستثمراً لـ "السمرا". إذا سارت خطة الشيخ كما يجب، ستكون صفقته تامة، جرّة من دنائير الريح الصافي: مصاهرة تقويّه، أعماله محمية، ثروته ستتضاعف، له حقّ التسلّل إلى مكانه الأثير ليمارس متعه القديمة. وأمام الجميع فقد تخلّى نهائياً عما يعيب سنّه وبناته. لديه واجهة مُقنعة تميّز بطاعة مطلقة.

سار كلّ شيء كما أراد له الشيخ قسّام. ليس في خطته سوى ثغرة صغيرة واحدة. غريب الحصو مثله مثل كلّ شيء آخر في هذا الكون، هنا حيث: لا شيء كما يبدو.

**

ليلة الاثنين الحادي والثلاثين من كانون الأول رأى مايك وجه الدنيا لأول مرة، بعد أن أدارت له قفاها لاثنين وعشرين عاماً من حياته، وعشرين جيلاً أو عشرين ألف جيل من حياة أسلافه. عرف أنّ للحياة شفتين، بل وتبتسمان أيضاً، وأنّ لها أنفاً وشعراً وعينين تبرقان، ويدين تناولان.

حتى تلك الليلة كان يظنّ أن وجه الحياة هو الحصول على فراش أحياناً، ووجبة طعام لا تهمّ مكوناتها، وابتسامتها كوبُ شاي ساخن وسيكارة.

عمل طيلة الأسبوع الذي فات كالمصعد. لم يتوقف عن الصعود والنزول، استعان بكلّ من في الفندق، خاطبهم باستجداء كي يصحّحوا أخطاء الاثنين الفائت، ويستعيدوا رضا الشيخ قسام ويعوّضوا غضب زبائنه المهمّين، فعل كلّ ما يستطيع بنفسه، ووقف كالتلميذ المؤدّب أمام من يعرف عمل الأشياء الأخرى. خاطب الطباّخين بلقب معلم، وال DJ أستاذ، والراقصات أخت، والعاشرات أنسة، والكهربائي باشا، ومنسّق الطاولات مدير.

استخدم الحفلات اليومية الصغيرة الخمس كتمارين ليلته الكبيرة التي سيتملئ فيها الملهى بخمسمئة شخص يحتاجون طعاماً لذيذاً، موسيقاً مضلّلة، كحولاً قوياً، شهوات نهمّة، مضاعف صديقة لتنقلهم إلى الغرف المدفأة مسبقاً مع عاهراتهم المختارات، موظفين بأكتاف يتكى عليها سكارى يصطحبون زوجاتهم أو صديقاتهم إلى السيارات.

بين العاشرة والحادية عشرة وصل الشيخ قسام، فوجد الصالة وكأنها قاعة فندق محترم تتحضّر لسهرة رأس سنة جيدة. رأى بعض فتياته بملابس سهرة عادية من تلك التي تلبسها السيدات في أعراس العائلة، موزّعات على الطاولات وكأنهن زبائن. عبّر عن رضاه عن التحضيرات بأن نادى مايك وأمره بشكل حاسم، وبصوت عالٍ سمعه الجميع:

. أحسنتُ، يكفيك ما فعلت. الليلة ليلتك. ستجلس معي على الطاولة، تستحقُّ أن تسهر كالمعلِّمين!

بدأت الدعوة لمايك وللآخرين مكافأة له على الجهد الذي بذله، ولم يغيّر من نتائجها أنها كانت أحد اختبارات الشيخ قسام وتدريباته للفتى القادم من القاع. بعد أن تجاوز ارتبائه من الجلوس إلى طاولة المعلم، ومن الجلوس بحدّ ذاته. ساعده الصخب وخفوت الإضاءة على الاندماج شيئاً فشيئاً، ومع تقدّم عدد كوؤوس الكحول التي أشار الشيخ أن يقدّموها له، ومخاطبته له بشكل مباشر مرّات عديدة، توقف عن النهوض احتراماً للنادل الذي يسكب الطعام أو يقدّم الكأس، وبعاد بين مرّات خفض رأسه وعينيه كلّما تحدّث أحد.

اختبر لذّة الطعام بشكل محترم، وأثر الكحول المناقض تماماً لطعمه، الجلوس بثقة وتلقّي الخدمة من بشر طبيعيين. ثم أضاف الشيخ قسام لمُسْتَيّن ليُكمل ليلته، فهمس في أذنه: "خُذْ غصون إلى إحدى الغرف وضاجعها"، ثم استدرك حين لمس قلّقه: "لا تخف! هي محترفة في التعامل مع الأعرار". وبعد عودته مرتبكاً وخجلاً إلى الصالة قدّم له سيجاراً من تلك التي تمتلك سيرة ذاتية، وأشعله له بيده، ثم بعد ساعة قال له: "لم تعد غراً الآن، اختر واحدة صغيرة من الفتيات وخذها إلى السرير!".

وشاية غصون، أكبر العاهرات سنّاً وأقدمهنّ معرفةً بالشيخ قسام، أكملت الشق الثاني من الاسم الذي يعرفه الجميع الآن، فحين سألتها إحدى الفتيات بمرح عن الفارق بين مايك القديم ومايك الجديد، وضعت يدها اليسرى بين ساقها وأشارت بإصبعها السبّابة للأمام وقالت: هذا المايك شرقي.

دون أن تعرف الفتيات ما إن كان قصدها الحجم أو اللون أو التصميم أو

مجرد الختان أو أي شيء آخر، بدأن باستخدام الاسم لتمييز مايك الجديد عن مايك القديم الذي كان مديرهن وقوادهن ذات يوم، وأبعده الشيخ لاعتدائه على إحدى فتيات الأثيرات.

أحب مايك الاسم، وعبر عن ذلك بالابتسام كلما استخدمه أحد. أحب الاسم الذي يجعله يمت بقربة لأحد أكثر الأشياء التي تعنيه. أعاد الاسم إليه مشاعر الطفولة والفتوة حين كان يحتمي بظله ويفكر أن هذا الشيء يمكن أن يكون أباه أو جده. لم يخبر أحداً بذلك، لأنه سيكون عسيراً على أي شخص أن يستوعب ذاك الجمال الغريب الكامن في شعور القربة وتشارك النسبة نفسها مع باب. حتى لو كان باب مدينة، فهو في النهاية سيبدو للبشر مجرد باب. بالنسبة لمايك الشرقي فقط: أصبحت حفيد الباب الشرقي، وجدتي هي زوجته المغروسة في قلبه. يا المئذنة البيضاء، يا جدتي الحنون!

ستة وثلاثون عاماً مضت بين اليوم الذي رفعت به غصون سبابتها كناية عن الانتصاب، واليوم الذي وضعت فيه BBC هذا الاسم على الشاشة طيلة عرض تحقيقها الاستقصائي، دون أن تعرف غصون إلى أين ستمضي إشارتها، ودون أن تعرف BBC من أين أتت بإشارتها.

ستة وثلاثون عاماً هي مساحة الجهد الذي احتاجه الزمن كي يكتمل، ويؤسس لقطعة منه ستستعاد كثيراً. وفي كل مرة سيتفاخر الزمن باللحظة التي سيقال فيها: اليوم صباحاً اجتمع الشرقيان.

كيف فرش الشرقي المائدة؟

بفطرتِه كمحرومٍ أزلِّي، شعرَ أنَّ أوَّانَ الوليمةِ قد حان، وأنه ما دام حصل على بعض الدنيا، فهو يريدُها كلَّها، يريدُها الآن.

تذوَّق برأس لسانه نكهةَ أخرى للحياة. استعذبها. فأراد منها ملء فمه وكفَّيه. وجد نفسه فجأة على عربة مسرعة ومقودها في يده. أمامه جسر، إن عبَّره وصل إلى ضفة لن ينتزعه منها أحد. كلُّ ما عليه فعله أن يتجنَّب الاصطدام بأعمدة الجسر أو أسواره. والجسر بكامل أركانه وحباله وحمولته اسمه الشيخ قسَّام، هو الوحيد الذي بإمكانه أن يلقي به إلى النهر، وهو لا يريد الغرق. فليُعطِ الشيخ ما يشاء، فليُعطِ الوهم الذي يريد، وليُعنه على نفسه كي يمضي في غيِّه. وحين يضع قدمه على اليايسة سيختار النهرُ بنفسه الجثة التي ستطفو عليه.

أدرِك بغريزة أكلِ الجِيفِ الأصيل أن الحصول على الفريسة لن يكون بالانقراض، بل بالترصُّد. امتلك مفاتيح الشيخ قسَّام تقريباً. خلال أسابيع التقط أنَّ الرجل كاد يشبع من متع الدنيا الصغيرة، وأنه باتَ بحاجة إلى أشياء أخرى لا تستطيع عاهراته الصغيرات أن يقدِّمنها، ولا أحدٌ من حشد موظفيه الذين يكرِّون أفعالهم بلا نهاية.

إنصتِ الضبع المترصِّدِ لأيِّ كلمةٍ تبدر من الشيخ قسَّام، راكمِ أثراً تصاعدياً لدى الشيخ نفسه، فصارت جملة أطول، ومواضيعه أكثر تشعباً، صوته أعمق، نبرته أهدأ، اعترافاته أصدق، تعابيره أدق...

يا للهول! القوَّاد العجوز يحتاج مُريداً.

بالنسبة لشباب قضى أعوامه الثلاثة الفاتئة مستمعاً بكل جوارحه لعادل العوّا وبديع الكسم ونايف بلّوز وغانم هنا، يتعلّم منهم التفكير ويتلقّى عبرهم المفاهيم، سيصعب عليه أن يلعب هذا الدور أمام قوّاد. لكنّه وقد تحوّل إلى مايك الشرقي، فليتنصّف كمايك شرقي. ولتذهب أيام الجوع إلى الجحيم، بعلوم أخلاقها وبأخلاقها. ومن حقّ أيّ كان إذا ما أنفق الوقت الكافي لإتقان شيء ما أن يصبح أستاذاً ويصبح له تلاميذ، وقد اختاره الأستاذ المتبحّر ليكون تلميذه الوحيد، وهذه تبدو أعلى منحة علمية في التاريخ، فليحصل عليها.

أعطى الشيخ ما يريد، ثم أعطاه أكثر مما يريد: الاهتمام منقطع النظير، إظهار الشغف، توجية الأسئلة التفصيلية، طلب الإعادة في اليوم التالي، إطلاق صرخات الدهشة عند الوقفات. وحين لمس أن ذاكرة الشيخ قسّام بدأت تقصّر، صار مستعداً للانتقال عتبة في إرواء ظمأ الشيخ إلى الاحترام. فاجترح الأفكار وأعادها أمام معلّمه على أنه سمعها منه قبل أيام. يُسرّ المعلم من نفسه، فيعطي من تلك النفس المزيد، ولمن؟ لمن منحها السرور بالطبع.

سنّه الصغير وخبرته الضئيلة والبيئة البعلية التي أتى منها لم تسعفه بما يكفي ليُجهز على الشيخ تماماً، وليكمل بناء المائدة التي سيفرش عليها وليمة الحياة. احتاج أن يستكشف أدوات معرفية تناسب عالمه الجديد. استشار زملاء العمل، افتعل أحاديث وديّة مع الفتيات، تبادل معهنّ الأسرار، التقط أفكاراً حوّلها لأسئلة يوجّهها للشيخ، الذي أصبح يستطرد في الإجابة لا سيّما إن لم يكن يعرفها.

صار زبوناً دائماً لمركز راني في برج حمود، بعد أن أهدها الشيخ قسّام جهازّي فيديو كاسيت من أحدث طرازات سوني ومن النظامين T6 و T7، وصار يشتري نسخة من كلّ فيلم بورنو جديد يصل إلى لبنان، وينظّم جلسات مشاهدة جماعية للفتيات ليحسنّ من ثقافتهن الجنسية، كما كان

يعلن. ولأن الشيخ يستمتع بمشاركة الفتيات مشاهدة هذا النوع من الأفلام والتعليق عليها، ويعطيه المزيد من المال لشراء المزيد من الأفلام، فقد وسّع مايك طيف اهتماماته لتشمل كلّ فيلم من أيّ نوع، فاشترى كلّ فيلم حصل على الأوسكار وكلّ فيلم قال البائع إنه مهمّ، وكلّ عدد من مجلّات بلاي بوي وبنتهاوس، وكانت تصل مباشرة من الولايات المتحدة، وتوزّع من لبنان سرّاً إلى الشرق الأوسط بكامله رغم الحرب. أسبوعياً يجول على الباعة ويشتري كلّ كتاب يحمل على غلافه كلمة جنس، جنسي، جسد، غريزة، امرأة، شبق، غلمة، رغبة، رجل.... وكان ما أثار ولعه بهذه الكتب هو كتاب رآه على حافة سور في كاراكاس عند بائع كتب مستعملة، قرأ على الغلاف "كولن ويلسن. أصول الدافع الجنسي" لقد سبق أن رأى هذا الكتاب كثيراً، ثم تذكّر أنه رآه يوماً تحت الزجاج الخلفي لسيارة الأستاذ الذي يبيّتها عنده، وأنه فكّر مرّات عديدة أن يسرقه أو يطلبه منه. اشترى الكتاب واكتشف حين فتحه كم كانت الأقدار بارعة في تقريبه من وجهته، فعلى الصفحة الخامسة قرأ اسم دار الآداب وعنوانها، واكتشف أنه جلس لشهرٍ أمامها، يقضي نصف يومه بالنظر إلى شرفتها المقابلة تماماً للكراج الذي عمل فيه قبل فندق مازا، تذكّر الرجل الذي كتب صفحة الغلاف الأخير، وعرف سيارته التي غسلها مرّات عديدة.

القوّاد الموهوب أخلص لموهبته، وأحلّ الغرائز محلّ الأفكار الكبرى التي كان يخطّط لدراستها، صار طالب دعاة بدل أن يكون طالب فلسفة، بحث عن كلّ الكتب التي استشهد بها كولن ويلسن، ثم الكتب التي استشهدت بها تلك الكتب، اختبر المنافسين، درّسهم كمقرّر. قام بزيارات خاطفة إلى بيوت الدعاة الأخرى، استأجر فتيات، طلب منهنّ أشياء غريبة وتفحّص استجابتهن، نام في الفنادق الأخرى، استأجر غرفاً وأجنحة، شرب كوؤوساً في البارات، جرّب كوكتيلاتنا الخاصة، راقب الصباح من المقاهي. فرّقت علاقته بهذه الأماكن بين الاجتهاد والموهبة، بين المعلومات والمعرفة، بين

البشر والأدكياء. كان مصيباً وبارعاً في التقاط روحها، وغير مكترث حتى إن أخطأ بلفظ أسمائها.

فيقول: "مَيّ فَلَوْر"، بدلاً من «مِيّ فَلَوْر» عن الفندق الصامد الذي لم يتوقف يوماً واحداً طيلة الحرب، ويقول «تشيز أندريه»، بدلاً من «شي أندريه»، عن البار الصغير الذي يتفاخر صاحبه أندريه بشاربيّه المعقوفين وبأنه بارٌّ بلا حَمَام، وبالصور المعلقة على الجدران لجورجينا رزق وشارل إزنافور ولبعض السياسيين والجواسيس ممن كانوا من رُوّاده. ويقول «الإتوال» بدلاً من «دي لي توال» عن المقهى العريق الذي سيشرب فيه رفيق الحريري فنجان قهوته الأخير بعد عشرين عاماً. ظل يكرّر هذه الأخطاء لسنوات. حتى صحّحت له فتاة اسمها هياما كانت تعلّمه الإنكليزية في أوقات فراغها، أن طريقة لفظه لاسم الفندق تعني عذريته، فهي كناية كلمة زهرتي (my flower) التي يلفظها، وهذا مضحك حتى لمن لا يعرفون أن اسم الفندق زهرة أيار (may flower)، وصوّبت اسم بار شي أندريه: عند أندريه بالفرنسية (Chez André)، أنت تلفظه أندريه جنبه بالإنكليزية (cheese Andre).

ثقة الشيخ قَسَام به تعرّزت يوماً بعد يوم، وحين أخبره أنه سيكتب له ورقة تحفظ حقّه في ملهى سمراء البادية، وسيعطيه إدارته وحصّة من عائداته فعلياً، كاد الأمر يتجاوز في ذهن الشيخ خطة انسحابه الشكلي إلى عطاء حقيقي يستحقّه الشاب اللامع.

التقط مايك اللحظة. أخلص لها. أطاع المعلّم في كلّ ما يقول ويفعل. وقّع الأوراق التي قدّمها له. مرّ عليها بطرف عينه كي يوحي للمعلم أنه لا يريد قراءتها. تعامل مع احتفاظ المعلم بكلّ النسخ على أنه أمرٌ بديهيّ، التقطت عينه أنّ ما أمضاه هو عقد استثمار، وملحق لهذا العقد فيه صكّ تنازل عن هذا الاستثمار، والتقط حسّه أنّ الشيخ لن يمنحه هذا الحق في الواقع.

واجه ذئبية القواد العجوز بشعلبية القواد الشاب، فالفرصة ستحين يوماً ليحصل على نسخة من العقد، وسيحوّله إلى عقدٍ فعليٍّ. عليه فقط أن يستمرَّ بالتصرّف كتلميذٍ مطيعٍ وراضٍ، ويكمنُ في ذلك الموضوع حتى تأتي اللحظة المناسبة.

أفنى كلّ طاقته في تحسين العمل، والاهتمام بالتفاصيل، وإرضاء الزبائن إلى الحد الأقصى. ساعدته مخيلته الجامحة على تحسين أداء الفتيات. ضمّ فتيات جديديات باستمرار، كسب صداقتهن، وظفّ مخيلته التي يتفّفها باستمرار لزيادة مهارتهن. كان يقدم الفتاة الجديدة للزبون الأكثر ثراءً قبل أن يختبرها بنفسه، لا لأنه شبع النساء، بل لأن منظر النقود الإضافية في يدها، بعد انتهاء جولاتها الساخنة، يثيره أكثر من جسدها العاري.

مايك القادم من الأسفل، اضطرَّ أن يناقض شخصية القواد التقليدية التي تتصف بالقسوة والسادية. كان مجبراً في البداية أن يعامل الفتيات بلطف. لأنه ليس واثقاً من نفسه بما يكفي، ولأنه ليس متأكداً من حدود الفعل الذي قد يُشعر الشيخ قسّام بالمنافسة. ولأنه كان يحتاجهن كي يتعلّم منهن. بنى صداقاتٍ معهن. يغريهن بالمكافآت والهدايا بدل تهديدهن بالضرب والموت، يقيهنّ باستخدام الطموح بدل حجز أوراقهنّ الثبوتية أو ربطهنّ بالحبال. مع الوقت وجد أنها وسيلة ناجعة، حسّنت العمل وزادت الأرباح.

لا تتق العاهرات بأحد، لأنّ لا أحد يعطيهنّ ما يستحقّ الثقة، ولا حتى تلميحاً بذلك. بيدلن أسماءهن بشكل دوري، ليس تخفياً كما نظن نحن الذين ننام في غرف مضجرة، بل لأن المرأة منهن قد وثقت برجل ما أو مالت إليه حين كان اسمها ساندرًا. ولمّا خذلها، لم تجد وسيلة لعقابه سوى أن تقتل ساندرًا وتجعل اسمها سارة. وبعد شهرين سيخذلها واحدٌ آخر فتقتل سارة لتصبح ميدو. العاهرات الدائمات والطارئات في السمرا

كَنْ يَثْقَنَ بِمَا يَكُ، فَهُوَ، بِفَضْلِ انْحِدَارِهِ مِنْ أَسْصِلٍ وَضَيْعٍ، كَانَ يَقْدَمُ لَهُنَّ مَا لَا يَقْدَمُهُ أَحَدٌ: لَمْ يَكُنْ يَظُنُّ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْهُنَّ.

كَانَ يُعْطِي الْفَتَاةَ ضَعْفَ أَجْرِهَا الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ حِينَ يُطْلَبُهَا زَيْونَ مَرَّةً ثَانِيَةً وَثَالِثَةً، يَدْرِيهِنَّ عَلَى التَّصْرِفِ كَمَلَاقِطٍ: الزَيْونَ الْإِضَافِيَّ لَيْسَ الزَيْونَ الْجَدِيدَ، فَهَذَا سِيَائِي وَجَدَهُ. دَائِمًا هُنَاكَ مَنْ يَرِيدُ اسْتِكْشَافَكَ، الزَيْونَ الْإِضَافِيَّ هُوَ مَنْ يَعُودُ مَرَّةً أُخْرَى. مِنْ تَعْيِيدِ رَجُلًا إِلَيْهَا فَلَهَا ضَعْفُ الْأَجْرِ. كَانَتْ الْكَبِيرَاتُ يَفْهَمْنَ مَا يَقُولُ أَكْثَرَ مِنَ الصَّغِيرَاتِ، لِذَلِكَ أَخَذَنَ الْأَمْرَ بِخَفَّةٍ.

رِيَابُ الَّتِي تَعْمَلُ مَعَ الشَّيْخِ مِنْذُ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِينَ عَامًا قَالَتْ مَا زَحَّةٌ: زَبَائِنِي فَقَدُوا الْقُدْرَةَ عَلَى الْإِتِّصَابِ، إِذَا عَادَ إِلَيَّ ابْنُ الزَيْونِ هَلْ أُسْتَحَقُّ الْمَكَافَأَةُ؟

غَصُونُ، الْأَقْدَمُ عَلَى الْإِطْلَاقِ قَالَتْ: أَنَا أَنْهَيْتُ كُلَّ رَجَالِ الْعَالَمِ. أَيُّ وَاحِدٍ آخِرِ الْآنَ لَنْ أَتَذَكَّرَهُ، لَكِنِّي أُسْتَحَقُّ عَلَيْهِ مَكَافَأَةً.

بَدَأَ بِنَاءَ شَبَكَةِ عِلَاقَاتِهِ الْخَاصَّةِ ضَمْنَ مَا زَا. تَصَيَّدَ أَخْطَاءَ فَادِحَةٍ لِمَوْضُفِينَ قَدَامِي وَأَخْفَاهَا عَنِ الشَّيْخِ قَسَامَ. مِثْلَمَا فَعَلَ بِمَسْؤُولِ الْمَشْتَرِيَاتِ سَعْدُ. جَمَعَ لَهُ اخْتِلَاسَاتِهِ وَنَسَبَتِهِ الْمَضَافَةَ عَلَى الْفَوَاتِيرِ لِأَشْهُرٍ طَوِيلَةٍ، ثُمَّ وَاجَهَهُ بِهَا دَفْعَةً وَاحِدَةً، وَغَفَرَهَا لَهُ، وَلَمْ يُجْعَلْهَا تُصَلُّ إِلَى الشَّيْخِ. وَهَكَذَا فَعَلَ بِإِبْرَاهِيمَ مَسْؤُولِ الصِّيَانَةِ، وَفَرِيدِ الْمَرَّابِ، وَتَالَا مَسْؤُولَةَ الْمَعَامَلَاتِ، وَنِينَا وَلِمَارِ اللَّتَيْنِ تَتَذَرَعَانِ بِإِجَازَةِ الدُّورَةِ الشَّهْرِيَّةِ لِتَقْضِيَ لِيَالِيَّ مَاجُورَةً بِصَحْبَةِ زَبَائِنِ تَعْرِفْنَ إِلَيْهِنَّ فِي السَّمَرَاءِ وَدَرْزِينَةَ أُخْرَى مِنَ الْفَتَيَاتِ اللَّوَاتِي يَعْمَلْنَ لِحَسَابِهِنَّ أحيانًا. وَالتَّقَطُّ الْمَوْضُفِينَ الْجَدِّدِ الَّذِينَ لَمْ يَمْنَحُوا وِلَاءَهُمْ لِلشَّيْخِ قَسَامَ بَعْدَ، مِثْلَ مَوْضُفَاتِ الْإِسْتِقْبَالِ وَالتَّنْظِيفِ وَمَسَاعِدِي الشَّيْفِ وَإِسْمَاعِيلِ مَوْضُفِ أَمْنِ الْفَنْدُقِ.

إِسْمَاعِيلُ مِثْلًا تَرَدَّدَ عَلَى مَا زَا بِشَكْلِ شَبْهِ يَوْمِي. كَانَ يُجْلِسُ بَدَائِيَّةً فِي السَّيَّارَةِ كَمَا يُفْتَرَضُ بِسَائِقِ سَيَادَةِ الْعَقِيدِ الَّذِي يَقْضِي وَقْتًا مَمْتَعًا يُشْرَبُ

فيه ويأكل ويرقص ويعقد صفقات ويداعب فتيات. في إحدى المرّات لمحّه مايك، فأخرج له زحاجة بيرة وصحن طعام. في المرة الثانية دعاه للجلوس في البهو وتناول طعامه هناك بدل الانتظار في السيارة، وخلال عامين من خدمته الإلزامية تعمّقت العلاقة بين المجتد السوري الضخم وابن بلده الذي يحمل اسماً لبنانياً صرفاً، ولكنه يعتني به دائماً ويقدم له الطعام والشراب والدفء وبعض المال والاحترام.

مع انتهاء خدمته العسكرية واقتراب عودته إلى بلده التي لا يملك فيها أيّ فرصة، طلب من مايك أن يؤمّن له عملاً، لأنه يريد البقاء في لبنان. عينّه مايك، بعد أن استأذن معلمه، في وظيفة حارس أمن على الباب الخارجي للفندق، أعطاه راتباً جيداً يضيف عليه مكافآت منتظمة من حسابه الخاص، ووجبات مميّزة وجلسات ودّية.

تناقص اهتمام الشيخ، لأسباب عديدة أهمّها شعوره بالأمان تجاه هذا الشاب الذي لم يسرقه ولم يخذله أبداً. صار جزءاً منه وامتداداً له، فرفع حصته من السمرا إلى أرقام أكبر وصلت حتى نصف العائدات في بعض الليالي التي يكون الشيخ فيها راضياً، ورفع حصة السمرا من فندق مازا إلى ما يحتاج من غرف حتى لو دخل تقسيم الطوابق، وخلط المصاعد ببعضها. حتى صار الشيخ يكتفي بزيارة كلّ بضعة أيام، يستفسر عن أحوال العمل ويراجع حساباته، ولا يبدو مكترثاً تماماً بما يسمع ويرى، يجيب عن أسئلة التلميذ النجيب الذي لا يتوقف عن التعلّم، ينفرد بالفتاة الجديدة التي اختارها مايك، وكأنه يؤدي واجباً ثقيلاً. يشرب كأسين. ثم يمضي لممارسة دوره الجديد كجدّ، وإدارة أعماله التجارية والعقارية.

صان مايك الأمانة فيما يخص العمل، تحديداً في الجزء الذي عرفه المعلم واعتاده عن العمل، فلم يأخذ ولم يُخف ليرةً واحدة مما يدفعه الزبائن مقابل إفراغ شهواتهم، ولا من الأموال التي يرمونها على الراقصات، ولا من الفواتير المضاعفة التي يدفعونها حين يغلبهم الكحول والطرب.

سَلَّمَ المعلم كل قرش يدخل في صندوق العمل، وترك له أن يعيد إليه نصيبه على أنه أغطية. قَلَّة أمانته تركزت في موضع آخر، موضع هامشي ليس ضمن حسابات الشيخ، وهو جمع أصحاب المصالح وأخذ العمولات على اتفقاتهم، واستخدام الفتيا لتسهيل هذه الاتفاقيات، ونقل الرسائل من هذا الطرف إلى ذلك دون أن يكون قد قصد إرسالها، وتحويل المعلومات التي تنسكب تحت تأثير الكحول أو تفاخر الفراش إلى سلع قابلة للبيع للخصوم.

استكانَ الشيخ لرضاه عن العمل، وإعجابه بخطة مايك في جمع أصحاب المصالح مع بعضهم، فهي تجعلهم يدفعون فواتير كبيرة ويكثرون التردد على المكان، دون أن يخطر له حجم الإكراميات التي يأخذها صبيُّه منهم مقابل هذه اللقاءات. تجاهلها لاعتقاده بضآلتها. يمرَّ سريعاً على حسابات العمل الحقيقي وأخباره، ويتذكر دائماً حكاية يرويها، أو نصيحة يسديها، أو زلَّة لسان يلقيها على أنها دعاية.

أبسط الأفعال حوّلها إلى مدخل تلقين درس، فحتى لو فتح حقيبة سيمسونيات، وفيما يحرك دولا ب الأرقام ليفك قفلها، يرفع أصبعه ويعطيه درساً: الأرقام لا تعلق بالذهن طويلاً، إذا كنت لا تستطيع حفظها، استعمل تواريخ لا يمكن نسيانها، تواريخ مهمة من حياتك.

وحين مدَّ يده ذات مرة إلى جيبه ليخرج ولاعة ليشعل سيجاراً، خرجت اثنتان فضيَّتان متطابقتان تماماً، ابتسم مايك، فأعطاه الشيخ درساً: لا تتق بشكل مطلق، واترك بديلاً لأيِّ أحد، ولو كان هذا الأحد مصعداً أو ساعة يد أو خزانة أو ابناً، اصنع نسخة أخرى، وهكذا لن تترك عنقك في يد أحد. حتى حين أنجبتُ ابنة أنجبت معها نسخة مطابقة!

ذات ليلة أبدى أحد زبائن الشيخ القدامى إعجابه بالمسبحة العاجية

التي يحملها، وأقسم أن يسرقها. مازحه الشيخ قائلاً: لا داعي لتسرقها، سأتحداك، وإن نجحت في التحدي خذها. وافق الزبون الصديق على التحدي الذي يقتضي أن يغمض الرجل عينيه ويخبئ الشيخ مسبحة دون أن ينهض عن الطاولة، وإن عثر عليها فهي له.

فشل الصديق في التحدي لأن الشيخ دسّ المسبحة بخفة في جيب الرجل الذي سيبحث عنها، وحين أعلن عجزه، نظر الشيخ إلى مايك وغمزه قائلاً: تعلم!

تعلم مايك فعلاً، وحفظ كل حرف وكل حركة وكل نظرة، لا لأن ذلك يرضي المعلم ويقيه أسيراً له فقط، بل لأنه سيحتاج إلى كل ذلك، كان يعرف أن كل نصيحة سيكون لها وظيفة ما في قادم الأيام.

أحسن كل من الرجلين التعامل مع حيوانه. الشيخ قسام يتسلل بحيوانه الأليف ويعلمه الكلام والقفز والتبول في المكان الصحيح. مايك الشرقي يحسن لعب الدور، ويترصده الحيوان البري الذي سيسطاده في اللحظة المناسبة. كان مايك جرو الشيخ قسام، الذي كان بالنسبة للجرو طريده.

خلال أربعة أو خمسة أعوام صار مايك يملك من المال ما لم يكن يخطر له أنها كمية موجودة في العالم الحقيقي، وكان قد كبر لعشرين عاماً، وصار مديراً حقيقياً، يدير شبكة علاقات معقدة انتقلت إليه جاهرة من معلمه العجوز. حسن ما استطاع منها، حول ما يمكن من جلسات لهو ومجون إلى جلسات عمل.

رتب سهرات تحولت إلى صفقات تنقلها إلى مايك بحرفيتها الفتيات اللواتي يدفعن بأثدائهن في وجوه الرجال الغاضبين كلما تعثر الاتفاق، أو يجلسن اثنتين اثنتين على أفخاذ المتفاوضين كلما عاد إلى سلاسته، أخذ عملته من كلا الطرفين في أغلب المرات، دون أن يفرض شروطاً أو

نسباً على أحد، لأن ذلك سيبقيها في عين ربِّ عمله إكراميات لا تستحقُّ الاهتمام. قدّم كل الزيت الذي سيسلك صرير المفاوضات، وترك للفائزين والخاسرين تقدير مكافأته.

جمع تلك المكافآت فوق بعضها في مكان أمين، وكلّما أضاف رزمة كان يعود إلى صورة هاملتون على ورقة العشرة دولارات، يقبلها لأنه يعتقد أنّ لها الفضل في كل ما يجري له. بينما يدين للشيخ قسام بالفضل عن ربع المداخيل الاعتيادية. لذلك استمرّ بأداء الأمانة بالطريقة نفسها في كلّ مرة، يضع عائدات البار والمطاعم وتأجير النساء والغرف بكاملها أمام الشيخ، ويمنحه في كلّ مرة سعادة أنه أب يعطي لابنه الأمين مصروفه.

ازداد المال، فيما تلاشى الشيخ قسام شيئاً فشيئاً، بحكم العمر والضرر.. ثم الموت.

تم... يمكنك الرحيل الآن

من يرى نسرين يظنُّها قفزت للتو عن غلاف مجلة فرنسية، بينما هي تظنُّ أنها فقدت عذريتها حين كانت تداعب نفسها داخل خمِّ الدجاج في قريتها الصغيرة، فقدت السيطرة، فاستخدمت لتكمل متعتها غصن شجرة توت تهشُّ به على الدجاجات. وحين انتهت رأت على الغصن قطرة دم، خافت أنها لم تعد عذراء، وأنها ستقتل كما قُتلت عمُّها من قبلها، ففعلت كما يفعل السوريون منذ اتفاقية باريس 1936: إذا ما خافوا أو استرخوا ذهبوا إلى بيروت.

الفتاة المدعورة لم تصل إلى فندق مازا مباشرة. وجهتها الرئيسية كانت قيادة لواء المدرعات 47 في السهب المحترق، حيث التقت الملازم الطازح الذي تسببت ذكرى قبليته باستخدام غصن التوت، وهو الذي ملأ مراهقتها بعهود الأبد، وتحديد الموت والفناء كحواف ما يمكن أن يفرقهما. وتنصّل منها جميعاً خلال ثلاث دقائق حين رآها أمامه بكامل فتنها وجديتها وصدقها، وقد أتت لتحصل العهود راويةً ما جرى لها. ثم أهدر دقيقة رابعة في كتابة عنوان ابنة القرية المجاورة، الموظفة في معمل للشيبس، ويمكن أن تجد لها عملاً. أسبل يديه واستدار نصف دائرة على كعب قدمه اليسرى، ومشى بخطوات منتظمة وهو يتمتم بشتائم طال بعضها ذاك التافه الغامض الذي أطلقت عليه العاهرة اسم غصن التوت، وتركها قرب "كولبة" الانضباط وعاد إلى مهامه الوطنية الكبرى.

قضت بضع ليالٍ سيئة في سرير واحد مع المرأة التي هربت قبلها

بسنوات من جحيم زوجها السادي، وتركت وراءها خمسة أطفال، وسمعة سيئة في قريتها الصغيرة بأنها المرأة التي شردت من تحت فخذ رجل، وسكنت مع عشر نساء في غرفة واحدة.

الحكايات التي سمعتها نسرين من سيدات الغرفة، عن أنفسهن وعن غيرهن، جعلتها تدرك أن لا فرار من القدر، وأنها أينما رحلنا سنحمل جحيمنا معنا. نصحتها رفيقة سكن أربعينية ذات وجه محروق: فتاة صغيرة وجميلة مثلك أينما ذهبت ستقابل ذئباً ينهش لحمها ثم يلقيها في طريق الذئاب الأخرى، اختصري الطريق، واذهبي إلى الذئب الذي يملك وِجَاراً أوسع!

بعد بحث استقصائي شمل بضع نساء وحيدات يحبين الثرثرة، حصلت الفاتنة الشقراء على عنوان فندق في الحمرا، مديره سوري ويوظف فتيات سوريات برواتب جيدة، لكنهن لا يعرفن طبيعة العمل تماماً.

بعد ما رأته وسمعته، صارت الفتاة جاهزة لتلقي قدرها بسلام أيّ ما انحرفت إرادته. لذلك لم تجفّل حين أخبرها مايك أنها ستقضي ليلتها مع المعلم الكبير. لم يكن لعقلها القدرة على تخيل هول ما ينتظرها. وظنّت أن منح زهرتها لرجل يبلغ ضعف عمر أبيها سيكون أقصى عقاب يفرضه القدر بحقّ ذنوبها، ولم تدرك جموح مخيلة القدر الذي لم يشأ أن يستلقي الرجل على صدرها، بل أن يموت هناك.

أراد القدرُ للشيخ قسّام ميتةً قائداً في جيوش بني العباس. كان قد مضى على آخر زيارته إلى مازا أكثر من ثلاثة أسابيع. أرسل من يخبر مايك أنه ضجّر، وأنه قادم في المساء لينستمع. عند وصوله همس لمايك الذي استقبله عند باب السيارة: "اشتقت لكم واشتقت لقسّام".

منذ الصباح وجّه مايك الطبّاخين ليحضّروا له جدياً تَبْلوه بالبيد ولبن الماعز القديم وورق الغار والقرنفل وقشور الليمون، ثم سلقوه، ثم جفّفوه ودهنوه بالعسل والزبدة وحشوا صدره بالكستناء ودهن مؤخرة عصفور

التين، ثم قلوه حتى الاحمرار بإلية الغنم المُسالمة، وضعوه فوق خبز الطابون
الفلسطيني وسكبوا فوقه بعضاً من ماء سلقه وبعضاً من دهن قَلِيهِ، ثم
زينوه من الأطراف بخضار من أربعة ألوان.

أكل الشيخ قَسَام وكأنه خارج من أسر. أكل اللحم المجاور للعمود
الفقري كلّه، ثم أكل لحم الكتف وتنفأ من العنق والفخذ. شرب نصف
زجاجة من ويسكي البوريون الأمريكي الممزوج بالعتسل. أحضروا له وعاءً
لغسل يديه فوق الطاولة. عبّر لمايك عن استمتاعه ورضاه، ثم أضاف
جملة وذودة وحميمة للغاية:

بعد شهر تماماً مثل اليوم ستكون قد أكملت عندي خمس سنوات.
انتظر مني مكافأة كبيرة.

لا أريد سوى رضاك يا معلم، وأن تبقى على رؤوسنا. يكفيني أنك
تتذكر التاريخ، هذه أكبر مكافأة في حياتي!
مايك أنت أصبحت ابني، ومنذ رأيتك أول مرّة شعرت نحوك بشيء
غريب، قبل معرفة أن اسمك غريب.

ثم ضحك لدعابته الرديئة، فيما يخبره مايك عن ملكة الجمال الجديدة
التي تنتظره في جناحه في الطابق الثاني، والتي خبأها له أسبوعين دون
أن يمسّها أو يراها أحد، سوى العاهرات الأكثر خبرة اللواتي طلب منهن
تدريب الفتاة دون إخافتها، وتحضيرها دون أن يُثِرْنَ نفورَها.

بعد دقائق خرجت الفتاة ذات السبعة عشر عاماً تصرخ بكلمات غير
مفهومة وتضرب جسدها بجدران الممرّات. وصلت عارية تماماً إلى الشارع،
قبل أن يتمكن حراس الأمن من لفتها بغطاء طاولة والسيطرة عليها وإعادتها
إلى الفندق.

عوى مايك الشرقي كالذئب. شقَّ عوائه الأسقف الثمانية ووصل إلى

السماء حين وقف بباب الجناح ورأى معلّمه مُلقى على الأرض عارياً وميتاً، وقد نفّضته امرأةٌ عنها ككابوس. كاد يفقد وعيه لشدة الألم، مسَّ أول حزن قلبه. مات الشخص الذي أعطاه دون نقصان حياةً مديدة غنية بما فيها من مال ومعرفة وخبرة وعلاقات وحكايات.

لو أُتيح لهذا الحزن أن ينشطر إلى حزتين لاستطاع أن يُفني مدينة يابانية. كان حزنًا حقيقياً عميقاً كبيراً مدمراً، لكنّه كان قصيراً، وكأنّما تكثّف حزن الدنيا كلّها في لحظة واحدة. تجاوز ذلك بسرعة، بسرعة غريبة، جرعة حزنٍ كضربة على الكوع. أنّ من الوجع، تخدّر رأسه وأطرافه، تضاعف حجم أفه، لكنّه بعد دقائق أخذ نفساً عميقاً ثم قال: لا بأس، أماننا عمل كثير، لنر ما سنفعل!

طلب من الموظفين والفتيات أن يخرجوا ويتركوه وحيداً مع معلّمه. أحنى الجميع رؤوسهم وخرجوا مقدّرين باحترام هذا الحزن النبيل الذي يستحقّ أن يعبر عن نفسه دون حرج وجود آخرين.

قفّل الباب، وشرع يفتّش ملابس المعلم، مطلقاً بين الحين والآخر صرخات بكاء لسمعها أولئك المتجمّعون في الممر. عثر على رزمة مفاتيح متشابكة مع حبات المسبحة، فكّها عن بعضها، وضع المسبحة في جيبه ليكسب الوقت. أخذ المفاتيح، واتجه إلى الخزانة الخاصة المختبئة داخل صندوق خيزران في الجدار يوحي أنه غطاء لمشعّ التدفئة. كان قد عرف مكان الخزانة منذ عامين حين طلبه المعلم إلى جناحه ليرسله بمبلغ من المال إلى أحد قادة الميليشيات. واحتفظ في ذاكرته من مناسبة أخرى برقم يظن أنه سيكون رقمها السري، وأقعى يتربّب هذه اللحظة سنوات. كانت تحتاج مفاتيح ورقماً سرياً. لم ينفع أيُّ مفتاح مع تلك الخزانة. لم ييأس، واتجه يجربّ المفاتيح في ثقب الخزانة الصغيرة الموجودة على رفّ خزانة الملابس، والتي تحتاج مفتاحاً واحداً بلا أرقام. نجح أحد المفاتيح. فتحها بلهفة ووجد فيها أربع رزم في كلّ منها مئة ورقة من فئة المئة

دولار، وبضع أوراق عليها جداول محاسبة، وعضو ذكري بلاستيكي، قيود يدين مزينة بالصوف، قطع جلدية مختلفة لتنوع المتعة على السرير، أختام لشركات عديدة منها الفندق، علبة حبر للأختام، مفتاحين صغيرين ومفتاحين كبيرين.

جرب المفاتيح الجديدة في الخزانة الرئيسية، فنزل اثنان منها بشكل سلس في مأخذيها. جرب الرقم 26466. كان الرقم صحيحاً، فانفتحت مغارة علي بابا، داخل الخزانة وجدّ رزماً من الدولارات والفرنكات الفرنسية والدنانير الكويتية وعملات أخرى لا يعرفها. قدر المبالغ بملايين الدولارات. وجد مصبّقات ومغلّفات، تفحصها سريعاً، وجد فيها عقوداً لشراء عقارات، وسندات أسهم في شركات مختلفة، دفاتر محاسبة، مغلّف مغلق فتحه بعجل فوجد فيه وصية الشيخ. لم يعثر على عقده الذي احتفظ لأجله بكلمات وإشارات عابرة تفصل بينها سنوات، ووضعها بجانب بعضها في ذاكرته، وأضاف إليها كل كلمة وكل نظرة أحسّ أنها مهمة، من المرة التي عرف فيها بمكان الخزانة، إلى المرة التي فهم طريقة الشيخ في اختيار الأرقام حين فتح حقيبة السيمسوننايت، والمرة التي عرف بها التاريخ المهم في حياته، حين أخبره عن موعد وصول أبي الصقر وحاشيته من الكويت، فقال: الخميس تحديداً لا أستطيع أن أكون في استقباله، فهو عيد ميلاد البنات وهذا أهم يوم في حياتي ولا أتخلف عنه أبداً.

هذه المعلومات وغيرها مما التقطه في لحظته رغم أنه بدا عابراً وسخيفاً، بنى منه لوحة بازل ترسم خارطة الكنز.

لقد كان الميت حقاً لا يحفظ من الأرقام سوى يوم السادس والعشرين من نيسان 1966 يوم ولدت الفتاتان التوأم، وهو الرقم السري الذي يمكن له حفظه، والذي جعل مايك ينجح في الوصول إلى المغارة، وجد كنوزاً كثيرة، لكنه لم يجد الكنز الذي يريد، إذ فلا بد أن في الجناح خزانة أخرى، وعليه أن يجدها بسرعة، تفحص الغرفة بعين من فهم عقل الشيخ تماماً.

حاول تذكّر اتجاه نظرات الشيخ في المرّات التي كان يتحدث فيها عن عقود، عن مبالغ كبيرة من المال. حضرت احتمالات عدة إلى رأسه وتفحصها جميعاً: بدءاً من الخطوط التي صنعها الزمن على جدران الشرفة، وحتى المكتبة التي بلا كتب....

جلس على المقعد، أحسّ أن الخارطة التي رسمها عبر سنوات لم تكن كافية للتغلب على خبث القواد الميت. دسّ المفاتيح الأربعة في جيبه، وضع الأدوات الجنسية في كيس الغسيل، كي يعدها عن العيون الفضولية، ألبس الجثة اللباس الداخلي للرجل الحي الذي كانته قبل دقائق. مدّ يده ليفتح الباب، ثم تراجع. تذكّر مشهداً رآه في الأفلام، وهو طبع بصمة رجل ميت على أوراق بيضاء، لم يعرف بماذا سينفعه ذلك، لكن ما دام قد سرقه المخرجون من بعضهم مراراً، فلا بدّ أن له فائدة ما.

تصرّف كممثل رديء في فيلم أخرجه ابن المنتج، وأعاد فتح الخزانة الصغيرة، أخرج علبة الحبر، أحضر بضعة أوراق من أحد الأدراج، صبح إبهام الشيخ الميت بالحبر، وطبع بصمته على جميع الأوراق التي وجدها، ثم انتبه إلى خطورة بقاء أثر الحبر على الإصبع، واكتشف أنه خطأ إخراجي تكرر في كلّ الأفلام التي رأى فيها هذا الحل، لكن معالجته أصبحت مسؤوليته الآن. هرع إلى البار صب قليلاً من زجاجة ويسكي على منديل ومسح الإبهام، تلاشى الحبر قليلاً، لكنه لم يمّح تماماً، سكب نقطاً من الفودكا، التاكيلا، الروم، جرّب العرق، فزال أثر الحبر تماماً، شعر بالارتياح، ونظر في الوجه الميت، رآه يتسمم وكأنه يقول: هل سأبقى لأعلمك إلى الأبد، الويسكي تحسّن المزاج، لكنها لا تساعد في الجرائم، العرق من يصلح لكلّ شيء.

خبأ الأوراق في خزانة الشيخ نفسها، وفتح الباب، اختار ثلاثة من رجال الفندق: معلّمنا راح، دعونا نستر آخر لحظاته، ساعدوني لئلبسه ثيابه ونضعه في سريره ونفرغ الغرفة من كلّ شيء محرج، ثم نسمح للغرباء بالدخول، ونخبر عائلته.

مشاركة مايك بمراسم رحيل معلّمه انتهت عند باب الفندق، في سيارة الإسعاف التي نقلت الجثة إلى المستشفى. جرت الشعائر في مسقط رأسه وليس في بيروت. شريف بيك كلّف قائد حرسه الشخصي بإدارة الشكل الاجتماعي لرحيل نسيبه، وتفادي كل ما هو مُخلج، وترتيب المراسم على أنه رجل بارز من الرواضنة ولا شيء آخر. كانت إحدى عمليات مهمّته زيارة فندق مازا، والطلب بشكل واضح ألا يحاول أي شخص من هذا المكان أن يذهب إلى الزهوانية أو القرى المجاورة لها، ثم أمرهم: أقفلوا الأبواب، وبعد انتهاء العزاء سيأتي من يصقّي حقوقكم ويستلم المكان. من منكم اسمه مايك؟ تقدّم مايك خطوة، فأضاف: أنت المسؤول حتى نعود!

قدّمت فترة العزاء فرصة ممتازة لمايك، فقد أغلق الفندق، وأرسل الجميع إلى بيوتهم، ولم يبقَ إلا من لا يملك مكاناً آخر للإقامة، ومنهم نسرین المذهولة وفتاتان لمنعها من الانتحار. في الليلتين الأولى والثانية تمكّن من قضاء وقتٍ كافٍ في جناح الشيخ وفي أروقة الفندق. نقل مئتي ألف دولار من الخزنة الكبيرة إلى الخزنة الصغيرة، وحوالي أربعة ملايين إلى مخبئه السري في سقف غرفته. قرأ العقود والأوراق بعناية واحتفظ بما قد يكون مفيداً. وجد وصية الشيخ آمنة وعادلة وبسيطة ومفيدة، ولا تحتاج إلى استخدام أي من مهاراته في تقليد خطّ الشيخ وتزوير توقيعه ولا استهلاك ورقة تحمل بصمة إبهامه. احتفظ بها في مغلفها ومكانها، وجلس على المقعد يتفحص الجناح، ويستحضر إشارات الشيخ وعباراته لعلّه يعثر على المفتاح الأخير للغز الخزنة الثالثة، مدّ يده إلى جيبه ففوجئ بالمسبحة، وتذكّر أنه لم يُرجعها إلى مكانها في جيب الميت مع المفاتيح. خاف للحظة أن هذا قد يكون خطأ، لكنّه رجّح أن غيابها لن يلفت نظر أحد. أمسك بها، وصار يقلّب حباتها ويفكّر ويتفحص كل سنتيمتر في جناح الشيخ ليعثر على الخزنة الثالثة السريّة. سقطت المسبحة من يده مرتين لأنه ليس معتاداً عليها، في المرّة الثالثة ملّ منها، وفيما كان يعيد دسّها في جيبه، قفز كالمسوع.

”أجل، تعلّمت يا معلّمي تعلّمت!“ تذكّره يوم أخفى المسبحة في جيب من يبحث عنها، تذكّر يوم أوصاه بصنع نسخة من كل شيء، وتذكّر يوم خصّه بالغرفة 715 وأزال لوحة رقمها عن الباب بنفسه قائلاً: هذه الغرفة لك وحدك، لكن ستبقى لي حصّة فيها دائماً.

مشعّ التدفئة في غرفته ليس له صندوق خيزران، ويجب البحث في كل الاحتمالات الأخرى، بعد تفحص تفاصيل الغرفة إصبعاً إصبعاً، وبفضل مشاهدة الأفلام أيضاً، ركّز تجاربه على اللوحة التي فوق السرير مباشرة.

طيلة سنوات عاش مع هذه اللوحة وأحبّها: صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود لغريتا غاربو جالسة على كرسي مقلوب وقد وضعت ذقنها فوق يديها المتشابكتين، اللوحة مؤطرة بالخشب ومثبتة بالجدار من الجهات الأربع. ربما جرّب فيما مضى أن يحركها بدافع الملل أو الاستكشاف، لكن لم يخطر له أن يضغط في منتصفها وينتبه لصوت يخرج منها، كرّر الحركة وجرّب تدوير يده بطرق متعدّدة، فنجحت إحداها، وانقلبت اللوحة بكاملها إلى الأعلى، خلفها كان الجدار عبارة عن خزنة تشبه خزنة الشيخ قسام، دسّ المفتاحين المتبقين بسهولة، جرّب الرقم 26466 فلم ينجح.

اللعين أغفل درساً. لا ليس لعيناً. المفتاح الأخير كان في الدرس الأخير، ”إنها غرفتي وهو يتذكّر يوم عملت عنده، في آخر يوم من أيلول 1984“.

أعاد وضع المفتاحين، ثم وضع الرقم 30984، فانفتح الباب عن الخزنة شبه الفارغة، والتي لا تحوي سوى بضعة أكياس قماشية صغيرة، وبضعة مصنّعات فيها أوراق. باستعراضها الأولى السريع وجد نسختي العقد الموقع معه، وصكّ تنازله عن هذا العقد وتعهّده بدفع الشرط الجزائي. قرأه بهدوء، فوجد أنه دون صكّ التنازل عقد ثمين للغاية، يعطيه الحقّ في استثمار الملهى والغرف الملحقة به (والتي تحدّد بقرار من رئيس مجلس الإدارة) لقاء مبلغ سنوي مقطوع وقدره ستمئة ألف ليرة لبنانية يسدّها المستثمر في

بداية كل سنة ميلادية. لقد صار ثميناً إذاً، بعد أن اختفى صكّ التنازل من الوجود، وغابت تُتف الورقة الممرقة في دوامة الماء المندفق في الحمام.

فتح الأكياس القماشية فوجد في واحدٍ منها ستّ قطع من الماس، وفي الأكياس الأخرى وجد أحجاراً لم يعرفها، اختار من تلك التي تشبه لون النييد ثلاثاً، واثنيتن من الماس الشفّاف، وضعها في واحد من الأكياس ثم أضاف إليها ستة أحجار لم يعجبه لونها الأخضر الباهت الذي يشبه لون العفن. أعاد ذلك الكيس إلى خزنة الشيخ، احتياطاً لأن يكون قد ذكر امتلاكه لأحجار كريمة قبل موته، واحتفظ بما مجموعه 33 حجراً متنوعاً لنفسه. شعر أنها قسمة عادلة: "لهم الربع الآن ولي ثلاثة أرباع، لقد عاملوني كمرايع لخمس سنوات".

حمل كلّ مصنّفات الأوراق ونقلها إلى الطاولة ليقراها بهدوء. في المصنف الأول وجد عقود شراكات كافية لإسقاط ثلاث حكومات ومجلسين نيايين. أذهله حجم الأعمال ونوعها، وهالته أكثر أسماء قرأها في هذه العقود: سياسيون يشاركون في تشغيل مولدات كهرباء مؤلها الشيخ، تنازل لمسؤول كبير عن طوابق كاملة في أبراج تم بناؤها في حرم الكورنيش البحري، شراكات في استيراد حاويات الكحول والتبغ مع شخصيات بارزة، قوائم بأعداد وأسعار قطع سلاح متنوعة وفي رأس كلّ منها اسمٌ مختلف، وبضعة عقود واتفاقات ستكون بالنسبة لمايك كنزاً يفوق كنوزه التي حصلها حتى الآن. ستكون أدوات ابتزاز فعّالة، لا سيما أن بعض هذه العقود تخصّ شريف بيك ذاته، بعضها باسمه وأغلبها باسم ابنه، وكثير منها سابق لتاريخ المصاهرة (هكذا إذاً؟).

في الصباح التالي وخلال ساعتين استأجر شقة من سيدة تتحدث عربية ركيكة في شارع أرمينيا بالجميزة. نقل بالتدريج وعلى مدى الأيام الثلاثة التالية كلّ ثروته إليها. بدّل أقفال الشقة وأغلقها جيداً وخرج عائداً إلى فندق مازا، على جدار البناء الأثري المجاور، قرأ لوحة حجرية كتبت عليها "قصر سرسق". تأمل المبنى الأثيق وتذكّر يوم سمع هذا الاسم أول مرة.

كان في العاشرة وكانت جدته آمنة في مرضها الأخير، تمشي بتناقل وتتحرك رغماً عنها. كانت يومئذٍ غاضبة وحزينة بشكل مضاعف، ناولت حفيدها اليتيم العائد من المدرسة رغييف خبز عليه حبة بطاطا مسلوقة ورشة ملح، قشّر الحبة وهرسها فوق الخبز، تناول أول لقمة منها، وقال لجدته: "بتعرفي شو طيّب معها؟ بيضتين مسلوقتين ومعلقة زبدة!".

استنكرت جدّته هذا الطموح الترفّ وسخرت منه: "والله يا ابن سرّسوق؟؟ ما بتاكل البطاطا غير مع بيض وزبدة، يطلعلك تتدلّل، اليوم تزوجت أمك زلمي جديد".

ترحّم على جدته وخاطبها: "إمّي صارت متجوزة عشرين مرة بعدك يا ستي، بس كرمالك بيت سرسوق صاروا جيرانني".

عائلة سرسوق، التي انقرضت تقريباً في المشرق. كانت منذ القرن التاسع عشر مضرب مثل في الثراء والجاه والقوة. عائلة امتلكت أراضي تمتدّ من القدس إلى حمص، ولم يبقَ منها الآن سوى قصر السيدة أناستازيا، آخر من حافظ على تقاليد الإقطاعيات الشرقية العريقة وبقيت في قصرها ببيروت، بعد هجرة معظم العائلة إلى الغرب، بسبب النفور القومي الذي خلقته صحيفة ما نشرت أنهم باعوا أراضيهم في فلسطين للوكالة اليهودية.

مجاورة هذا البيت الأثري دغدغت في مايك مواطن انتصار، نُبّهته إلى حجم القفزة التي حققها خلال هذه السنوات القليلة، ورفع صوته بشتم الخونة الذين سهّلوا لليهود احتلال فلسطين، فيما كان يزور توقيع الشيخ الراحل (الذي يتقنه تماماً بالطبع) فوق بصمة جثته على تفويض بإدارة واستثمار الفندق الآخر، الذي لم يكن يعرف بوجوده في المعاملتين على طريق كازينو لبنان، وبجانبه مجموعة أوراق أخرى تنتظر التزوير.

كيف أصبح مايك معلماً؟

اللقاءات والاتصالات المحمومة بين السوريين والسعوديين والفرنسيين والأمريكيين أوحى أن هناك وجبة دولية كبرى يجري طبخها، وأنَّ على الحرب اللبنانية أن تنتهي. لذلك وبتفويض من الوريثين زوجته وزوجة أخيه أراد إسكندر الأرجح بتوجيه من أبيه. أن يتخلص بسرعة من الإرث المشين، والتفرغ لمفاوضات أكبر ستحدّد من سيكون له مستقبل سياسي في لبنان ومن سيخرج من المشهد.

لذلك لم يضطرَّ مايك لاستخدام كل الأسلحة التي يملكها، وخبأ معظمها لأيام مجهولة. خطواته كانت بسيطة ومتقنة: أخبر إسكندر بأمانة وصدق أن للشيخ خزنتين في الفندق، واحدة كان يحمل مفاتيحها معه، وواحدة كان يأمنه على نسخة منها ولا يستطيع فتحها، لأن لها رقماً سرياً. وأوصاه قبل وفاته بأشهر إذا ما حصل له مكروه أن يسلم المفاتيح لبناته، ويخبرهم أن الرقم السري هو أكثر يوم يحبه، وأن لا أحد سواهما يعرف معنى ذلك.

لم يشأ إسكندر أن يصحب الفتاتين إلى المكان، لكنّه وافق على مضمض لأن المكان لا يدخله أحد الآن، ومايك أكّد أنها وصية المرحوم وأنه مؤتمن على تنفيذها.

تمّ الأمر بسرعة قياسية، في العاشرة من صباح اليوم التالي وصلت الشابتان متأنقتين بالأسود، تضعان نظارات سوداء كبيرة، وتحيط كلُّ منهما بعضاً من رأسها وشعرها بغطاء عزاء لا غطاء احتشام. برفقتها كان إسكندر

والراضي وبضعة من رجال شريف بيك يحيطون بهم، ومحام بكتفين كبيرتين ودون عنق، مع حقيبة جلدية ونظارة طبية سميكة.

حاول إسكندر إنجاز الأمر دون حضور أحد من الموظفين، لكنّ مايك أصرّ على تسليم المفاتيح للبنات حسب وصية المعلم. قادهم إلى الجناح، بعد أن دخل الأربعة مع المحامي، وانتشر الحرس على طرفي الجناح، أرشدهم إلى مكان الخزنتين، وسلّم المفاتيح لإحدى الفتاتين ولم يعرف أيهنّ تكون، ثم عاد للوقوف عند الباب ممسكاً بقبضته.

أعطت الفتاة المفاتيح لإسكندر الذي أخرج من جيبه مفاتيح عمّه الراحل أيضاً، فتح الخزانة الأولى، ثم اقترب من زوجته (وربما زوجة أخيه من يعرف؟) همس لها: "متأكدة من الرقم"، أشارت له بأصبعها السبابة: "ركّز هناك". نجح في التجربة الثانية وبدأ بإخراج الأموال والأوراق، وردّد ما يفعل بصوت عالٍ بعد أن يقدر حجم الرزم بالنظر: 240 ألف دولار، عقد وكالة برنكستون، عقد محرّكات، سند مصرف لبنان خمسة ملايين، مليون دولار، مليون دولار، مليون دولار، خمسمئة ألف دولار، عقد أرض بالرملة البيضاء، عشرة آلاف دينار، مليون دولار، سندات مصرف الكويت، ثلاثة ياقوت، ألماسين، 7 أحجار يشم.....

دوّن المحامي كلّ شيء، ومايك يطلق عبارات الترحّم على الفقيد، ويفكر بأن قطع النوع الثالث من الأحجار التي عرف الآن أن اسمها يشم كانت ستة، لم يستطع تحديد من المخطئ في العدّ هو أو إسكندر، وتمنى الاحتمال الثاني كي لا تنصّب قسمته.

أكمل إسكندر وضع كلّ شيء على السرير، والفتاتان واقفتان كالأصنام دون دموع ودون ردّات فعل، ترك المغلّف المغلق حتى النهاية، فتحه وقرأ ما فيه وأعطاه للمحامي الذي طلب خروج مايك قبل أن يقرأه.

وقف خارج الباب الذي لم يغلقه جيداً وتمتم وصية المرحوم مع صوت المحامي:

“أنا الموقع أدناه قسّام بن رعد الزهواني الروضاني أوصي بتحويل كلّ ما
أملك إلى مال، بيعوا كلّ شيء، والمال لابنتي ديبالا وديانا حسب الشرع.
ادفوني قرب أبي، واطلبوا الشيخ زاهر ليصلي عليّ إذا توفاني الله قبله.
والله خير الشاهدين”

ثم سمعه يقول: سنتأكد من البصمة والتوقيع لتصبح نافذة، وإسكندر
يعلق أن لا داعي لذلك، فهي لا تناقض الشرع ولا القانون، وليس فيها ما
يثير خلافاً، سنعتبرها نافذة.

نادى إسكندر أحد مرافقيه وطلب منه أن يذهب مع مايك ليعطيه
بعض الصناديق الفارغة. جمعوا كلّ شيء، حملة الحرس إلى السيارات،
وأثناء خروجهم، افترّ فم إحدى الفتاتين عن ابتسامة بوجه مايك، لم يفهمها
في البداية، لكن حين خرج إسكندر بعدهم جميعاً فهم ما تداولوه بينهم
حين كان يحضر الصناديق. ربت على كتفه وقال له: “يعطيك العافية،
الشيخ كان حاطط ثقته بمحلّها، الأمانة بتسوى مال الدنيا، بكرة إلنا قعدة
لنشوف شو بدنا نعمل”.

اللمسة الأكثر سحرية لمايك والتي تسببت على ما يبدو بابتسامة الفتاة
وتربيتة إسكندر، هي المئتا ألف دولار التي أضافها إلى أربعين ألفاً في
خزنة ظلّ مفتاحها بحوزته لبعض الوقت، مما جعل المبلغ يصلح اختباراً
دقيقاً للأمانة. والضربة القاضية لنجاح خطته، هي رهانه على أن الشيخ
قسّام كان يخفي عالمه هذا عن عالمه ذاك. نجح رهانه لأنه لمس عبر
السنين أن ابنتي الشيخ كانتا مثل كئيبة الآداب لغريب الحصوص، بينما كان
مازا يماثل ورش البيتون في مخالفات شرقي دمشق، حيث لا يجوز أن ترى
الفتاتان أترية مازا على ملابسه، ولا يجوز لمازا أن يعرف بوجود الفتاتين.

في اليوم التالي. عرض مايك على إسكندر بحضور المحامي عقد
الاستثمار الدائم، وقراراً مختوماً وموقعاً من رئيس مجلس الإدارة بإلحاق

سنة طوابق من الفندق بملهى سمراء البادية وبالتالي بعقد الاستثمار. في منتصف التفاوض أبرز ثلاثة تفويضات لاستثمار وإدارة فندق المعاملتين ولملهيين آخرين في جونية وطبرجا يدخلان حيز التنفيذ بعد ثلاثة أشهر. خيرهم بين الاستمرار بها ببدل الاستثمار السنوي المتفق عليه، أو التنازل عنها مقابل جزء من ثمن بقية الصفقة، فهو يريد تحويل عقد استثمار السمرا إلى عقد ملكية ولديه شريك في دمشق مستعدّ لدفع ثمنه. ولأن إسكندر أراد إغلاق هذا الملف بأيّ طريقة، ولأن المحامي رأى الموقف القانوني ضعيفاً، ولأن الشاب المستثمر قد أثبت أمانته بما لا يقبل مجالاً للشك، فقد حصل مايك على أكثر مما كان يخطّط، وبسعر أقلّ مما يتوقع. أراد الملهى فحصل على الفندق بكامله، سدّد من ثمنه المتهاود ما جمعه خلال خمس سنوات: 740 دولاراً من عمله لشهر في كراج، 826 ألف دولار أعطاه إياها الشيخ قسام على دفعات يومية وأسبوعية وشهرية خلال أربع سنوات وأحد عشر شهراً، وأربعة ملايين دولار أعطاه إياها الشيخ قسام (بعد) وفاته بساعات كمكافأة له بمناسبة مرور خمس سنوات على عمله معه، وأربعة أخرى من الملايين التي حصلها من وراء معلمه كعمولات متفرقة من توليف المتضادين وبيع الأسرار على مدى السنوات. وسيحصل على تسهيلات بدفع بقية ثمن الفندق بمواعيد مريحة، وسيستمر بعقود الأماكن الأخرى، ويسدّد بدل استثمارها ودفعات من ثمنها على مدى خمس سنوات، وبينود عقد لخصها حين وضعها في مستقرها الآمن بعبارة واحدة:

لقد أتمّ قسام الزهواني عليّ نعمته.

تفقّد نسرین هو أول ما فعله بعد عودته من مكتب المحامي. كان رأس الفتاة يهترّ كمريض باركنسون، ولم يستطع أن يعرف ما إن كانت عاجزة عن الكلام أو غير راغبة فيه، حاول أن يعرف ما إذا انتعظ الرجل قبل أن يموت فوقها، أراد أن يتأكد أنها لم تعبر لحظة احتواء عضو حيّ لذكر ميت في

جسدها، وهذا سيحدّد أنها ما زالت صالحة للاستخدام. فمنذ رآها شعر أن هذا الجمال سيكون له شأن عظيم إذا ما خبّأه لزمّنه الصحيح. فهو جمال كالندي لا يجوز وضعه في موضع السيف بالعلّاء. طمأنته الفتيات اللواتي قضين الوقت معها، أنها تهدأ شيئاً فشيئاً، ونوبات ارتجافها تتباعد، لكنها تشتدّ فقط عندما ترى رجلاً.

مدّد حداد الفندق لثلاثة أيام أخرى، قضاها متجولاً بين الغرف والطوابق، مكملاً رسم خطط القفزة التالية، التقسيمات الجديدة للطوابق، وظائف المبنى المرسومة في رأسه بدقّة مهندس مدني وبرشاقة مهندس معماري. كيفية بناء حاشية وجعلها تبدو كفريق عمل، تحديد من سيرقيهم. الثلاثون شخصاً الذين سيطردهم وهم: كل من رأوه ذليلاً، كل من شهد واحدة من صغائره، ومديران آخران، لمجرد بثّ الخوف في البقية بأنه يمكن الاستغناء عنهم مهما كانت أهميتهم. وكان آخر تحديث وصل إلى مازا: "ورثة الشيخ سيغلقون الفندق ويطردوننا جميعاً".

**

"ألن تسقيني قهوة من يدك اليوم؟" قبل انتهاء الجملة كانت غصون تُخرج الموقد النحاسي الذي بحجم قبضة اليد وبقيّة المطبخ الصغير من حقيبتها. ورثما نضجت القهوة ببطء على نار الكحول الزرقاء، كان قد اجتمع حولهما كلّ من سيلعب دوراً في صنع زعامته الجديدة. كلّف كلّ واحد بدوره المرسوم لليلته الكبيرة. غصون ورباب وسعد، إسماعيل الذي أصبح منذ اللحظة مراققه الخاص، فريق إسماعيل الذي سيبدأ عمله بمهمّة تطويق القاعة التي دعا إليها كل موظفي الشيخ قسام، وبثّ الهيبة فيها: "لتناول لقمة رحمة عن روح معلمنا، والنقاش في المستقبل".

وكما يُصنع العكيد في قلب المعركة، أعلن سعد أن المعلم مايك أنقذهم من إغلاق الفندق، وأقنع ممولاً من دمشق كي يشتريه ويتشلهم

عن رصيف البطالة، صيحة استحسان من غصون، مهممات مؤيدة متفرقة، زغرودة من رباب. ثم ذكر أسماء بضعة رجال ويضع نساء لم يفهموا ماذا حصل، سوى أن رجال إسماعيل الغامضين الجدد يركضون باتجاه من ذكر اسمه ليخرجه من القاعة محاطاً بأربعة أذرع ثقيلة.

لم يكن مايك الشرقي يمتلك موهبة صدام حسين النادرة بمعرفة الخائن قبل أن يعرف نفسه، لذلك عوّضها بادعائها. نسبها لنفسه دون وجه حق، كما فعل صدام نفسه، وقال أثناء خروجهم: "يوماً ما ستعرفون ما كان هؤلاء الخونة سيفعلونه".

الأسابيع التالية كانت أشبه بإصدار تجريبي لمنتج جديد، الموظفون يحاولون فهم أدوارهم. الورش تعمل ليلاً نهاراً، واحدة تعيد تصميم ملهى السمرا وتغيير ألوانه الفاقعة وروحه الصحراوية، واحدة تحوّل مطعم الفطور في الطابق الأرضي إلى مطعم للمأكولات البحرية. اقتطع أجزاء من البهو الأرضي وحوّلها لمتاجر صغيرة للحلاقة والساعات وأشرطة الفيديو. غرف الطابق الأول بكاملها أزيلت جدرانها واستبدلت بواجهات زجاجية تكشف عن متاجر للملابس والأحذية والحقائب والأجهزة الكهربائية وصالونات الوشم والمسّاج. محاولات لإعادة التصميم القديم لبار الخواجة دريان بأقصى ما تحفظ الذاكرة الشفوية المتناقلة من شخص لشخص، وصلت إلى نتيجة معقولة لكن في الطابق الحادي عشر هذه المرّة، بقبة زجاجية وباسم الطابق القديم نفسه PLAN Z.

أراد أن يحوّل الفندق إلى فندق، وأن يُتم ذلك خلال زمن قياسي وضعه لنفسه كتحديّ. أراد أن يحتفل بالذكرى الخامسة لدخوله من ذاك الباب بأن يغيّر المكان بقدر ما غيّر المكان، وهذا يعني أنه يجب إنهاء العمل خلال ثلاثة أسابيع.

أعاد ترتيب الغرف، بدّل "موكيت" الأرضيات بكامله، أزال ورق الجدران،

فعل كل ما يمكن أن يطرد رائحة العرق البشري الخاص الذي تفرزه الأجساد حين تتلاصق.

لم يكن من الصعب في تلك الأيام، أن تحصل على رخصة لأي شيء تريد، وأن تمتلك أي شيء، أن تفعل ما تشاء. تحتاج فقط إلى أن تملك المال الكافي، وتحتاج إلى محام من أولئك الذين يُجيبون برقم إذا ما سألتهم أي سؤال:

كيف يمكنني كأجنبي أن أسجل عقاراً؟ خمسة آلاف.

هل أستطيع أن أغير تصنيف فندق من نجمتين إلى أربع نجوم؟ ثلاثون ألفاً.

هل يمكنني أن أفتح متاجر في الطابق الأول؟ أربعة آلاف.

كيف سأتلصص من فلان؟ عشرة آلاف.

خطة مايك للفندق كانت تستدعي الحذف لا الإضافة، أراد تقليل عدد الزبائن لا زيادتهم، أراد تحويل العاهرات إلى موظفات، أراد عاهرات يستوعبن أن يكنّ موظفات، أو موظفات يصلحن ليكنّ عاهرات.

خلال خمس سنوات من العمل في عمق هذه المهنة، والتتلمذ على يد مزيج بارع مكوّن من الشيخ قسام، ومن بوح عاهرات شعرن بالطمأنينة، من قراءة الكتب والأفلام، ومن بضعة ملايين مخبأة في مكان آمن، صارت لمايك الشرقي نظرية، وامتلك المخبر الذي يتيح له إثباتها.

الدعارة كالزراعة، مهنة طيبة وبسيطة، يمكنك أن تبيع محصولك كما هو، لكن إذا أردت أن تربح أكثر فعليك أن تحوّلته إلى شيء آخر. حصيلة السنوات الخمس أوصلت مايك إلى قناعة أن الاستثمار الأفضل لأجساد النساء ليس الإيلاج فيها، بل الولوج عبرها إلى عقول الرجال وإراداتهم.

الفتيات اللواتي اختار استمراهن ووزعن على الأعمال المختلفة،

بائعات وحلاقات وفتيات استقبال وسكرتيرات وموظفات علاقات عامة، أراد جعل كل شيء يبدو طبيعياً. لكلّ واحدة مهمّة من تلك التي تجدها في أيّ مكان بالعالم، وإذا ما قرّرن الموافقة على مرافقة رجل إلى غرفته، فهذا لأنه رجل لا لأنه زبون. جعل لنسرين التي بدأت بالتعافي مهمّة خاصة تناسب وضعها النفسي وتناسب خطة مايك لاستثمار جمالها: الفتاة المنيعّة التي عليها ألا تسمح للرجال بتجاوز حدودهم معها. كانت أول عاهرة على الإطلاق تأخذ أجراً لقاء رفض مضاجعة الرجال.

اليوم المقرّر لافتتاح الفندق بشكله الجديد واسمه الجديد، كان عملياً اليوم الذي انتهت فيه الحرب الأهلية اللبنانية. في الثلاثين من أيلول 1989، اثنان وستون نائباً من الثلاثة وسبعين الذين بقوا على قيد الحياة بعد خمسة عشر عاماً من الحرب وسبعة عشر عاماً على آخر مرة انتخبهم بها أحد، سافروا إلى الطائف ليتقاسموا الدماء التي سالت في الحرب. لم تنته التعديلات في الفندق كما كان يخطّط، ولا التعديلات في لبنان الكبير كما كان رعاة الاتفاق يخطّطون.

الأعمال التي رغب مايك أن ينهيها بعشرين يوماً احتاجت إلى ثلاثة أشهر، فقدّ خلالها العائدون من الطائف رئيس جمهورية بانفجار وصلت الارتجاجات التي أحدثتها في الظريف إلى نوافذ "أبولو هوتيل" الذي حمّل لسبعة عشر عاماً اسم "مازا هوتيل".

انعقد مجلس النواب وانتخب رئيساً جديداً، ونجح مايك في صنع فندق جديد. كلاهما يخفي وظيفته الحقيقية، فيه بار مفتوح على السماء، وفيه مطعم للمأكولات البحرية له بوابة على الشارع مباشرة، ومطعم آخر يقدّم المندي والمناسف والخراف المشوّة. أمّا الصالة الكبرى التي بلا أعمدة فأصبحت مطعماً راقياً تقام فيه الحفلات الفنية ويغني فيه نجوم ذلك الزمان، ويقدم الفرصة لاكتشاف المواهب الجديدة في الرقص والغناء والتهرج.

ما امتصّه من الشيخ قَسَام خلال خمس سنوات، أخضعه لعملية استقلاب معقّدة، وأعاد إنتاجه بنظرية معاكسة تماماً لتعليمات معلّمه، فكلُّ ما عليك أن تفعل لتصنع بيت دعاة ناجحاً، ألا تجعله يبدو كبيت دعاة الرجال يستاوؤن من أنفسهم بعد أن يضاجعوا العاهرات، لكنهم يشعرون بالزهو بعد أن يضاجعوا النساء. إذاً فكلُّ ما عليك فعله أن تجعل العاهرات يبدن كالنساء، وأن تجعل الماخور يبدو كسوق تجاري أو شركة إنتاج كاسيتات أو حزب أو مؤسسة إعلامية أو كتلة برلمانية أو منظمة غير ربحية.

ليجعل فتياتِه ينجحن في أداء مهمتهن، كان عليه مخاطبتهن بلغة يفهمنها. في جلسات مرتجلة لشرب القهوة من مطبخ غصون المتنقل، أخبرهنّ فرادى وزرافات، أنه لم يعد يريد لهنّ أن يعملن في تلك المهنة السيئة، ويريد تحويلهن إلى سيدات محترمات، وسيؤمّن لهنّ وظائف لاقئة، ولن يمانع أن يمارسن الجنس مع الرجال الذين يعجبونهنّ، أو الذين سيعجبونهن بعد أن يرشحن لهنّ بنفسه، كل ما عليهنّ فعله هو التشاور معه، وسيعطيهن علاوات لقاء ذلك: لا أريد لأرجلكن أن تبقى مرفوعة كل الوقت، هذا متعب ويسبب دوالي الساقين، سنعمل على إبقائها في مكانها الطبيعي في الأسفل، وترفعنها أحياناً. الرجال مساكين يحتاجون لمسات سخيفة، المسنّ كلُّ رجل في الموضع التافه الذي يريد من جسده أو من روحه، سيعود إليكنّ إلى الأبد.

حين ناقشته غصون بأن بعض الفتيات لا يمكن أن يفهمن معنى موضع، ومعنى لمس، وهنّ لا يصلحن لشيء إلا للاستلقاء على السرير، وإغماض العينين وممارسة العمل بشكله المباشر والبسيط، أخبرها أنه استعدّ لذلك، وأنهم سيقون بحاجة دائماً لهذا العمل لكنّه يريد إبعاده عن أبولو هوتيل. واستثمر فندقاً صغيراً في المعاملتين وملهين للرقص، وسيستلمها بشكل قانوني خلال شهر، ويريد أن تساعدّه خلال هذه الفترة لتجريب الفتيات واختبار من ستبقى في أبولو ومن ستذهب إلى الباطر،

وأنه قرّر تعيينها مديرة على الأماكن الثلاثة هناك، الفندق والمهيين، على أن يكون لها مكان في أبولو، لأنها ورياب ستقومان بمهام خاصة هنا. اختار من سيساعدها، من سيجمع المال ويحصيه، ومن سيحرس الأماكن ويضرب الفتيات ويخيف الزبائن.

سيكون الياطر عالم الظلمة في كون مايك الصغير، تُطرد إليه الأرواح الوضيعة، أو التي ترتكب خطيئة الغباء، وأبولو سيكون عالم النور الذي تصعد إليه الأرواح الشجاعة حين ترتقي.

سيكون على أرواح الياطر أن تشقى وتكافح، وتقف على قارعة الطريق لتلتقط رزقها، ستشمّ روائح أجساد تركم الأنوف، ستسمع كلمات تسمئّر منها النفوس، تخوض معارك لا تنتهي، تتشاجر فيما بينها. تنحّي خلافاتها لتتحد ضد غرباء، ثم تعود لتتصارع مع بعضها، تخلق أوهاماً وتسميها آمالاً لتتمكّن من الاستمرار.

في أبولو ليس هناك سوى الظلّ والماء والموسيقا. ببساطة كان الياطر يشبه العالم الأرضي، العالم الحقيقي، وكان أبولو الأمل للأرواح المعذّبة وفرصتها الوحيدة للارتقاء.

بالطبع لم يكن مايك الشرقي في ذلك الوقت واعياً تماماً لما يفعل، قادته غريته، كانت لديه نظرية بخصوص أبولو، لكنّه ليس واثقاً بها بشكل كافٍ، ففتح دكاناً خلفيةً تباع فيها الأجساد بشكلها الخام. في حال فشلت نظريته في إخضاع الدعارة لعملية صناعة تحويلية، سيكون لديه دخل وعمل أشبه بوظيفة حكومية، أمان بلا أفق، مراوحة في المكان دون تقدّم، لكن بلا تراجع.

ورّع الأقفال (الذين هم أصحاب السلطات المتنوعة) على المفتاحين، مفتاح الدعارة الفجّة الصريحة، مفتاح الرقي الذي يخفي بداخله فجوراً أعلى سعراً، كلاً بما يطابق ثقوبه. اكتشف مع الوقت أن المال الحقيقي

في مهنة الدعارة لا يأتي من الرجال حين يكونون سُكاري وشبّقين، ففي هذه الأوقات يدفعون فتات المال، المبالغ الضخمة يدفعونها حين يكونون بقمة صحوهم، يلعبون لعبة الناضجين الجديين.

حين يكون الرجال أسرى لشهواتهم، يكون في زاوية ما من رؤوسهم بضع خلايا عاقلة تردعهم عن المغالاة، فيساومون ويماحكون، أو على الأقل لا يفرطون، ويدعون التصرف كحكماء. ما يعمي الرجال حقاً هو الطمع لا العُلْمة، وما يُسكرهم هو الصفقات لا الكحول.

من خلال الفتيات أنشأ علاقات من نوع خاص مع بعض الزبائن، يهتّم بهم، ينصحهم بالأجساد الأفضل، يرسل لهم نساء مختارات، يوصي الفتيات بما عليهن قوله لترك الانطباع الذي يريد، يشعرهم بالتميّز حين يكونون في النادي أو الملهى، وبالخصوصية حين يكونون في الغرف، يرمي سنارات الجشع في الأوقات المناسبة، يجعلهم مستمتعين ثم يجعلهم يكسبون.

بأنفه الثعلبي التقط رائحة جبّار عبد القادر، صاحب الطاولة المفتوحة الذي ينفق بلا حساب ويستضيف وجوهاً جديدة كل يوم. عرف أن هذا العراقي المقيم أغلب الوقت في لبنان أهمّ بكثير مما يبدو عليه كسكّير مهتّك، اعتنى به بشكل خاص بعد أن عرف أن لديه بيتاً في اليرزة ينام فيه حين لا يغلبه السكر وينام في أبولو. وبمصادفة بحتة سببها عطل مفاجئ في السيارة اضطرت جبّار للاستعانة بإحدى سيارات مايك وسائقه مرسال، اكتشف أن الحقائق المحصّنة التي تأتي مع الضيوف ثم تخرج من الفندق، كانت تذهب في الحقيقة إلى تيار قيادة الجيش في بعداً أيام الحكومتين. أمّن لضيوفه القادمين من العراق برحلات قصيرة ما تطلبه غرائزهم من شراب ثقيل وشبّان جميلين ونساء صغيرات، وأمّن له الاحترام والتقدير الذي يريد أمام ضيوفه، والخصوصية التي يحتاج لإتمام أعماله، وخيارات متعددة من النساء ذوات المؤخرات الكبيرة والأفخاذ متعددة الطبقات. لخصّ لغصون ذوق جبّار وأصدقائه بعبارة

واحدة: "انظري لأسفل قدمها، لا يجوز أن يكون لها كاحل، يجب أن تكون عظام قدمها مطموسة".

متنّ علاقته بضباط الجيش السوري أصحاب النفوذ الأكبر في منطقته، متكنناً على ما أعطاه إياه الشيخ الراحل من علاقات جاهزة، ومستعيناً بجنسيته ولهجته واشتراكه معهم في الجوع للمال والنساء والكلام. كان يفهمهم، يفهم ما ينقصهم، ولذلك حين يقدم لهم أي شيء، يعرف أنهم سيعتقدونه كل شيء، يتعلّم كي يعلمهم، ويثير انتباههم. يقرأ ويسأل خبراء البارات وموظفات وكالات الأزياء، تجار الساعات الأرمن. مختصي المطبخ الفرنسي، ليعيد عليهم وصف مكوّنات الطبق الذي يأكلون، أو الأجواء التي رافقت صناعة ساعة اليد التي قبلوها هدية للتو، وخلطات المعادن الداخلة في تركيبها، ضرورة وسبب عدم إغلاق الزر الأسفل للجاكيت الرجالي. كانوا يسرّون بسماع المزيد لأنهم سيعيدونه على زملائهم وعلى زوجاتهم وهم يتبحّجون بمعارفهم.

ولأنه يعرف ذلك الشعور العميق للذكر البدوي المهزوم حين يعتلي فتاة من الروم فيشعر أنه هزم قيصر، قدّم لهم فتيات (لا يهم إن كنّ من طرابلس أو طرطوس أو ريف حلب) بعد أن يدرهنّ على لهجة كسروان، وينسج لكلّ واحدة منهن قصة حياة، ويوزع هويات كسروان على الرتب بحسب تسلسلها، فللرائد فتيات ذوق مصبح، وللمقدم فتاة من ذوق مكاييل، العقيد يحظى بفتاة من الكسليك، وبنات جونيّه للعميدَيْن القائديْن فقط.

الترتيب يصبح مغايراً حين تصل وفود العراقيين، فتاة الكسليك تصبح من صيدا، والفتاة التي من النبطية تصبح لرئيس الوفد، وحين يصل الكويتيون يعود نسب كل فتاة إلى قربتها، ويصبحن سوريات أو أردنيات أو لبنانيات.

يشترى للضباط البدلات الرسمية وربطات العنق، ويفتعل المناسبات كي يقدمها لهم، مثل سكب الشراب على بدلاتهم الرثة، دعوتهم إلى سهرات راقية في عيد الثورة المجيد وعيد القوى الجوية والدفاع الجوي ويوم المدفعية وجميع المناسبات الوطنية، تعلم أن يحدثهم عن خلطة الحبوب الخاصة في فئات جوني ووكر فيما يصبها في كوؤسهم، ليجعلهم ينسون رواية الحكايات عن عرق التين. يعرفهم بمديري البنوك ليرشدوهم إلى كيفية فتح حسابات لا تكشفها قياداتهم. يتوسط بينهم وبين المهريين الكبار ويحتفظ بحقائب الحصص لديه حتى وصول البضاعة. المستوى الأعلى من الضباط يحتاج إلى مستوى أعلى من الخدمات، كان يطلب منه أن يوثق لهم بعض لياالي المجون التي ينظمها لشخصيات محددة، يزودهم بمعلومات تفصيلية عن صفقات واتفاقات تلتقط فتياته بعض أطرافها، كان عليه كي يستمر أن يتصرف كمخبر عند الكبار، وشريك للصغار.

بالمقابل أمنوا له الحماية التي يحتاج، وألقوا له بفتات معلومات ليتعیش منها، فيبيع أخباراً عن أشخاص اختفوا، معلومات عن آخر تحركات هياكل عظمية كانت لرجال تحتاج أمهاتهم إلى التعلق بأمل زائف، عن معتقلين تم ترحيلهم إلى دمشق. رتب سهرات يلتقي فيها بكل عفوية مهربو المخدرات وضباط الجمارك، مزقوا العملة والصرافون، رؤساء البلديات ومقاولو المخالفات، أمراء الحرب وسدنة ردعها. وهناك فوق الطاولات التي تشبه تصاميم البار في الإعلانات، كانت تُنجز صفقات تنتج عمولات تبدو معها الفنادق والملاهي والدعارة مجرد أعمال هواة.

علوم الأنساب المتعدّدة

انتهاء الحروب يخلق شعوراً بالأمان، لكن مع نهاية هذه الحرب سادَ جوٌّ من القلق. فنهاية الحرب في بلدان كهذه تهدّد بعودة النظام والقانون، وتعيق الأعمال غير الشرعية، وهي أغلب الأعمال بالطبع. فقلقُ الذين لا يحبّون الوقوف على إشارات المرور، وقلقُ الذين يزرعون القنّب، قلقُ الذين يستوردون التبغ عبر مرافئ مرتجلة، ثم يعيدون تصديره إلى سورية عبر البراري أو في السيارات العسكرية، قلقُ الذين يبيعون الحقائق في الدورة دون ترخيص بلدية، كما قلقُ الذين يقبضون رواتب مقاتليهم من معمر القذافي. مايك كان واحداً من القلقين، واحداً من الذين يمتلكون عشرة أسباب للقلق. فأخرج بعضاً من أوراقه السريّة، تأملها، اختار منها ما يصلح ليكون رسالة، ما يمكن أن ينتشر ضمن الدائرة التي تعنيه، ما يصلح درعاً يحميه.

اختار ورقتين تتعلقان بالأستاذ رغيد المتيني، النائب في البرلمان. زعيمٌ لمنطقته ولنصف طائفته، يقول شعراً على التلفزيون، يصرخ حين يكرّر شعاراته الوطنية والإنسانية، يسرّح شعره الأشهب على طريقة أنور وجدي، يرعى الثقافة والمثقفين، يهتم بالفنون، يفتح المعارض، يشارك أطفال الكنيسة مخيمهم الصيفي، يحضر الأمسيات الأدبية، يتسم من جهة واحدة حين يسأله المذيعون الشرسون عن الوجه العروبي للوجدان اللبناني.

ولأنه اختار الصورة المثالية للرجل الوطني ذي الثقافة الفرانكوفونية وجلس في إطارها، فقد بهزّه أن تنشر وسيلة إعلامية ما عقداً من تلك

العقود الخاصة التي وقّع بنفسه تفويضاً بتنفيذها لقواد معروف مثل الشيخ قسّام. خصوصاً إذا كان مضمون الورقة الأولى كتاب موجّه من وزير النفط السوري إلى مؤسّسة اسمها "سادكوب" لبيع عشرة ملايين لتر من المازوت بالسعر السوري المدعوم للنائب المناضل ضد النفوذ السوري في لبنان، والورقة الثانية كتاب من النائب إلى الوزارة "الشقيقة" تتضمّن تفويضاً للمواطن اللبناني قسّام الزهواني باستلام الكمية وبيعها في السوق بالسعر اللبناني الحرّ.

فهم بسهولة شديدة أن النائب باع موقفاً ما لقاء هذه الورقة، وباع الورقة كما هي بمبلغ مقطوع لتموّل كالشيخ قسّام، وبسهولة أشدّ نجح في الوصول إلى رقم الهاتف المباشر لمكتب النائب:

.سعادة النائب، أنا مايك مساعد المرحوم قسّام....

تلقى صمتاً بالطبع.

.لقد أئتمني على بعض الأوراق، ومنها مغلف مغلق طلب مني أن أسلمك إيّاه كي لا يقع بيد أحد.

.ما محتويات المغلف؟

.سعادة النائب إنه مغلق، سأرسله مع أحد موظفي قسم العلاقات العامة لدينا.

.لديكم أين؟

.أعمال الشيخ قسّام ستستمر عبرنا لا عبر عائلته.

.ومتى سترسل المغلف؟

.لأجل ذلك أتصل بسعادتك، لأعرف الوقت المناسب لك، وأودّ

التأكيد أن وصية المرحوم تسليمه لك شخصياً.

أرسله غداً في الثامنة، تعرفون مكتبي أليس كذلك؟

. في الثامنة تماماً سيكون أحد موظفينا عندك، أعتذر عن إشغال وقتك.

الاتصال الثاني الذي أجراه مايك كان لطلب غصون، تشاور معها في اختيار الفتاة الأنسب للقيام بالمهمة. وقع الخيار على هيمما، امرأة في السابعة والعشرين، من منطقة النائب، جميلة، ذكية، أنيقة، لا يمكنك أن تصدق أنها عاهرة حتى لو مددت رأسها من شبّاك سيارتك وهي تضع واقياً ذكرياً في فمها.

استدعاها مايك وشرح لها مهمتها: استخدممي اسم عائلتك الحقيقي، اجعليه يتعلّق بك، لا تمنحيه شيئاً سوى الهوس، تصرفي وكأنك موظفة العلاقات العامة الجديّة، لا بأس أن ترتدي خاتماً، قولي إنك مخطوبة.

في التاسعة والنصف من مساء اليوم التالي وبعد دقائق من إنجاز هيمما لمهمتها، اتصل النائب دون وسيط: مسيو مايك متى نستطيع أن نلتقي؟

**

اللقاء الأول بين النائب ومايك تم بالطبع في بار PLAN Z وكان لقاءً عملياً لغاية، من تلك التي لا تحتاج إلى مقدمات ولا مجاملات، بدأه الأستاذ رغيد بطريقته المباشرة:

. ماذا تريد؟

. لا شيء.

. وغير ذلك؟

. رضاكم ورعايتكم وسروركم.

. أين بقية العقود؟

. محفوظة في مكان آمن، مثل كل شيء آخر.

الأوراق التي أرسلتها لي كم نسخة لديك منها؟

أنا لا أنسخ، ليس لديّ سوى نسخ المرحوم.

ما الشيء الآخر الذي تحفظه مع العقود؟

المرحوم. سامحه الله. كان عنده هواية غريبة بعض الشيء، كان يضع

كاميرات سرّية في الغرف، لكن لاستخدامه الشخصي فقط.

ومن الآخر كم تريد؟

صداقتكم لا تقدّر بثمن، وتشريفكم لنا يساوي مال الدنيا، لقد افتتحنا

منذ أيام نادي ومطعم STARS في الفندق، وبنقصه تشريفكم، أتمنّى

أن تقبل دعوتي لنكمل كأسنا وتتناول العشاء في الطابق السفلي، الليلة

ستغني داليدا رحمة "غزل الهوا مغازل" و"ع الشوك لو مشيتني".

اختيار ممتاز، داليدا فنانة ناجحة، وصوتها جميل، ولمن يعمل في

السياسة يجب أن يحضر كلّ حفلاتها، سمعت أنها المطربة المفضلة لأبي

يعرب وجماعة عنجر، لا بد أنهم من رشّحها للغناء عندك، هل سيحضر

أحد منهم اليوم؟

عند باب المصعد كانت لمسة مايك الإضافية المتقنة، حين ظهرت

هيما بالمصادفة تحمل مصنّف أوراق، كانت تبحث بلهفة عن مديرها،

صافحت النائب بحرارة وعبرّت عن سعادتها بهذه المصادفة، واستأذنته

بنصف دقيقة تحدثت فيها بصوت هامس تعمّدت أن يكون مسموعاً:

جماعة LTR يحتاجون جواباً في الثامنة صباحاً.

اعتذري منهم، ندرس عروض جهة أخرى.

اعتذرت ثانية عن المقاطعة وأمسكت يد النائب بكلتا يديها وضغطت

عليها بلطف.

روى مايك للنائب عن LTR شركة الإنتاج الفني التي "تفاوض معها لإنتاج برنامج جديد للمواهب".

اهتمّ النائب ووجدها فرصة لخلق مسار تعاون جديد لا يبقى العلاقة في خانة الابتزاز فقط، رغم أنه عرف بالطبع أن لا إل تي آر ولا من يؤلترون: فعلاً استديو الفن صار قديماً، والبلد تحتاج برنامج مواهب بشكل جديد، إذا كنت ترغب، يمكن أن أرتّب لك اجتماعاً مع جماعتنا، قناتنا التلفزيونية بحاجة إلى برنامج منوعات ناجح يجذب الجمهور قبل المعركة السياسية القادمة.

. بالتأكد التعاون معكم ومع حلفائكم شرف كبير وأفضل خيار ممكن.

الفاسدون من السياسيين وأصحاب النفوذ (وهم الجميع تقريباً) صاروا يعلمون أن وثائق الكثير من الأعمال وتسجيلات لجلسات حميمة قد أصبحت في يد فتى سوريّ صغير، يعرف ما يريد ولكنه منفتح، يسهل التفاهم معه، ولكن تصعب معاداته.

شيطان، نوع جديد من الشياطين لا يستخدم قرنيه كثيراً، يظهرهما فقط لتعرف أنه شيطان، لكنه يرفرف لك بجناحين أبيضين يخرجهما من بين كتفيه إذا أعطيته ما يريد.

ضمّن بعض ضباط الدرك، ومداخل من مستويات مختلفة إلى العدلية، وأصحاب النفوذ العسكري الفعلي في منطقة رأس بيروت، وفي كسروان، عزّز الحراسة حول الفندق، وحول بقية أعماله، بعد أن أمّن غطاءً لها عبر القبول بالإشراف المباشر على سلاحها من صاحب الشأن في كل منطقة.

المريح أن مايك لم يكن يريد أشياء كثيرة أو كبيرة، كان يريد الوجود فحسب، يريد ألا يعيقوه. مشروعه وخطّته لا يضيران أحداً، يريد أن ينسوه فقط، أن يشيحوا بوجوههم عنه، وفوق ذلك لا مانع لديه من الاستمرار

بدفع المال كما كان يفعل معلّمه، وبنقذ لهم الصفقات التي تجعلهم يريحون، ويضيف إليه أنه لا يرسل عاهرات بل نساء محترمات. السهرات التي يدعو إليها غير محرّجة، وحتى لو التقطت فيها صور فلن يكون لها أثر سيّئ، طلباته محدّدة وتأتي في وقتها المناسب، ودون تعمّد أو تحضير: المشروع السياسي الذي تتحدث عنه عظيم جداً، لديّ رغبة شديدة أن أعطي صوتي لقائمتكم في الانتخابات عندما تحصل، لكن المزج أنني لست لبنانياً.

لا يحقّ الانتخاب إلا لمن يحملون الجنسية.

أحنى عنقه إلى كتفه الأيسر ورسم ابتسامة الطفل المذنب: أعرف.

إمممم. الجنسية تحتاج إلى مرسوم، لكن لا بأس سنبدل جهدنا.

خلال أشهر، وبمساعدة بعض الإعلانات الصحفية والتلفزيونية وبحضور بعض وجوه البلد السياسية والفنية، كان نادي ستارز يأخذ حضوراً جديداً لدى المجتمع ويجمع المتناقضات فيه، وصار اسمه يتردّد بشكل دوري وطبيعي "ومدفع غالباً" في تغطيات المجلات الفنية لأخبار النجوم وأسرار عالمهم. فكانت المجلات الصفراء إذا ما أرادت أن تغمز من قناة أحد النجوم أو تبتزّهم تقول "علاقة فلان مع زوجته ليست على ما يرام، وقد شوهد قبل أيام جالساً مع النجمة الصاعدة ذات المفاتن البارزة (ن. ز) في نادي ستارز" وفي لقاءات الثرثرة التي تجربها القنوات التلفزيونية مع المطربين والمطربات، كان الصحفيون يسألون أسئلة مثيرة من قبيل: "هل صحيح أن سبب خلافك مع الصبوحه أنها تجاهلتك حينما التقيتما في نادي ستارز؟"، تتفض النجمة اللامعة: "غير صحيح مطلقاً، أصلاً أنا لم أسهر في ستارز منذ أسبوعين والصبوحه بتضلّها حبيبة قلبي".

الشبكة الوطنية للإعلام السمعيصري أرسلت ماغو بو نورس ليتفق مع مايك على تصوير حلقات موسم 1990 من برنامج "منجم النجوم" في

صالة ستارز الواسعة، أعجبه ماغو من اللقاء الأول وقرّر شراءه، قال في نفسه: "هذا الشاب خلق لي". أخبره أنه سيكون مساعد المخرج ومنسق الإنتاج، وهذه فرصة غير مرضية لشاب مريض بالطموح، ومتغلغل بالوسط الفني ومتقبّل لعيوب من فيه، ومتصالح مع أمراضه. اتفقا أن يباشر عمله الآن ويتفرغ له تماماً فور انتهاء التصوير. سيكون مديراً لنادي ستارز ومديراً لمصنع النجوم الذي يخطط له، كانت مهمته اختيار الفنانين والاتفاق معهم وتنظيم حفلاتهم، واختيار المواهب الجديدة وإطلاقها وتلميعها. تحويل فتاة عادية إلى نجمة. جعل هذه النجمة مركز صراع أصحاب الثروة والنفوذ. استقطاب مجلات الشبكة والموعد ونادين وبناء علاقة مصلحة متبادلة معهم، شراء معدّي برامج المنوعات ومقدّميها في التلفزيونات المختلفة. صوّرت الشبكة البرنامج وأقامت فيه أولى الحفلات الخاصة للفائزين، ونقلتها على الهواء مباشرة على LCS القناة التابعة للشبكة، كما قامت أحياناً ببث بعض الحفلات المميزة خصوصاً تلك التي يرتدي فيها طوني حنّاً ملابس الدون كيشوت دي لا مانشا بعد استسلامه، أو يوزع فيها ربيع الخولي غمزات وإيحاءات ستؤخر التعامل بجدية مع الراهب الذي سيكونه فيما بعد، أو حفلات أولئك المطربين القادمين من مصر، والذين ملّهم الناس هناك.

لم يخب ظن مايك بماغو. في منتصف الصيف كان أبولو قد تحول إلى فندق حقاً، وستارز أصبح نادياً فنياً تُحجز تذاكره قبل أسبوع للعشاء، وقبل يومين على الغداء. وتُحجز ليلة مع فتياته النجمات عبر شبكة وسطاء وكأنهنّ رحلة إلى القمر.

يُبدع ماغو حلولاً للمهام التي يكلف بها، ويعطي رأيه المهني الحاسم ويوحي لمديره أنه ترك له اتخاذ القرار: مها ستكون مطربة السيكس، ما رأيك؟ سالي سنحوّلها إلى مطربة بريئة ساذجة، إذا كنت موافقاً. إيمان سنصنع منها صحفية فنية. عسل لا تنفع سنرسلها إلى الياطر بعد إذذك

طبعاً. حلا تملك مؤخرة عبقرية ستتعلم الرقص رغماً عنها، ويجب أن يزيدوا من البطاطا المقلية في وجباتها، فالرقص الشرقي يحتاج مؤخرة أكبر قليلاً وبطناً فيه بعض الدهن.

فندق الياطر في المعاملتين لديه أيضاً حفلاته الخاصة التي تغني فيها فريحة العبد الله وسميعة ومطبعة السواس، وترقص فيها مراهقات نوريات بقامات كالرماح وروائح كالبيوت الطينية المتناثرة التي تشكل قرية على أطراف البادية اسمها هليلية الحموي، ويطلق عليها الجوار اسم "المبدلية" منذ أعمارها أجداد غريب الحصو بعد أن بدلوا دينهم للمرة الثالثة في أربعة أجيال.

المواطن اللبناني مايك الشرقي وقف على ما بناه معلّمه الراحل، ومدّ قامته إلى طابق أعلى في شبكة الأعمال المعقدة التي غلّقت بلده الجديد بعيد الحرب. نجح في تحقيق اختراقات هامة فيها، بدأ بفهم لعبة التوازنات من داخلها، مستعيناً بأسرار تلتقطها الفتيات من السرير وملاحظات يصطادها من طاولات السهر. حصل على الجنسية خلال ثلاثة أو أربعة أشهر من طلبها، وأضيف اسمه إلى خدمة العلم في الجيش اللبناني سورياً، فلم يكن متأكداً من أنه سيُعفى منها في بلده الأصلي، لأنه لا يريد معرفة ما إن كان وحيد أم أمه أم أصبح عنده إخوة.

نجح في خلق فاصل بين إسكندر والراضي، وبدأ ببعض الأعمال السرية بالشراكة مع الراضي: الأستاذ إسكندر عينه على السياسة، أنت مستقبلك في الأعمال، يمكنني أن أقدم الكثير إذا وضعنا أيدينا معاً.

الأستاذ رغيد لم يكن بحاجة إلى كل ذلك الجهد وكل تلك المخيلة التي أطلقها مايك لتجسدها هياما باقتدار، ففي دعوة العشاء الأولى التي قبلتها هياما من الأستاذ رغيد بعيداً عن الأعين المزعجة في أبولو، فوجئ بوصولها مع أمها التي أصرت على مرافقتها (والتي لم تكن في

الحقيقة سوى الزميلة رباب). استاء الأستاذ من الحضور الغليظ والمفاجئ
للأم الخمسينية التي تبدو أربيعينية، وهمس في أذن الشابة الحسنة حين
غادرت الأم إلى الحمام: كنت وعدت نفسي أن أكمل سهرتنا في الشاليه،
لكن حضور أمك أفسد خطتي.

ولماذا أفسدها؟

لن تتركنا نذهب براحتنا.

هي أصرت أن تأتي فقط من أجل هذا الاحتمال، ستكون معنا في كل
المراحل، كلُّها كلُّها إذا لم يكن ذلك مزعجاً لك، وإذا لم يعجبك فستكتفي
بأن تستخدم أصابعها السحرية لترخي لك عضلاتك، إنها مختصة بالمساج،
بنوع خاص من المساج.

ارتبك الرجل الذي كان يظن نفسه قد بلغ سدرة الفحش، وأراد التأكد
مما سمع: هل تقصدين؟؟؟

هزّت هيماً رأسها وابتسمت بخبث، توهّج وجه الرجل واضطرب موضع
حاجبيه وهو يستوعب هذه التجربة الجديدة التي سيخوضها بعد قليل،
والتي سيجمع فيها أمّاً وابتها على فراش واحد.

ربما مهّدت هيماً بأدائها الرفيع لعلاقة طلقاء بين رغيد ومايك، لكن
الوقت أثبت أنها علاقة لم تكن بحاجة إلى كلِّ هذا الجهد، ومع ذلك
قدّم نجاحها نموذجاً لطريقة التعامل مع متنفّذين وأصحاب سلطة ومال
آخرين، ودفع لتكرارها بطرق مختلفة مع هؤلاء، خصوصاً ممن لم يكن من
السهل استثارة رغبتهم وإثارة اهتمامهم بالطرق البدائية البريئة، كإرسال
فتاة شابة تخلع ملابسها أمامهم أو تتحرّش بمواضع عفتهم، فقامت فتيات
عديدات بدور الابنة، فيما لعبت عاهرات مستقيلات، ممن قامت غصون
باستدعائهن من التقاعد، دور الأم. ولعبت فتيات أخريات دور أختين على
فراش واحد، ولعب بعض الرجال دور الزوج الجالس على حافة السرير

فيما زوجته راكعة على ركبتها بين ساقى رجل منتشٍ بكسر رجل آخر.
العب كثيرة أنجبتها المخيلة لفتح الأبواب وتوسّع الشبكة، لكن الأستاذ
رغيد فتح لمائك الشرقي أبواباً أكثر مما فعل السرير وأجساد النساء، ورفع
من مستوى شبكة علاقاته إلى الطابق الأخير. رغم فارق العمر، ورغم التباين
الحادّ في منشأ كلّ منهما، والبيئة التي أتى منها، والهدف الذي يتطلّع
إليه، فإن المشاريع الجديدة التي باسرا تأسيسها معاً بيّنت لكلّ منهما
كم هو مناسب للآخر، والتناغم الغريب الذي يظهرانه حين يجتمعان مع
آخرين، أثبت أن:

الذكاء نسب، والعقل جينة.

القلعة المبنية على الماء

فجأة انقلب كل شيء، وامتلاً البهو ذات صباح بعشرات العائلات الكويتية التي لا يعرف رجالها مكاناً آخر في بيروت سوى فندق مازا، الذي أصبح أبولو الآن. فور خروج مايك من المصعد التقطت عيناه أبا الصقر.

تقدم منه مخترقاً جموع النساء الملتقات بالعباءات المذهبة، وأكوام الحقائق والأطفال، ضمّه بضربات حميمة على الكتف، وبشتائم مقذعة لصدّام الغدّار، ونبوءات واثقة لسرعة اندحاره مهزوماً.

تداخلت الأسئلة وضاعت أجوبتها بين مايك، الذي يريد أن يعرف ما الذي جرى للكويت وكيف استطاعوا المغادرة وكيف وصلوا إلى لبنان، وأبي الصقر الذي يريد أن يعرف أين سيؤمنون إقامة لهذا الجيش من الأقارب والأصدقاء والزوجات والخادمات والأبناء، وفي الوقت نفسه يريد معرفة ما جرى للفندق، وكيف مات الشيخ قسام، وما إن كان أحد من العراقيين موجوداً الآن.

هدأ مايك من روع الزبون المفضّل له وللشيخ قسام، والذي كان يقضي شهراً من كل عام في فندق مازا وينفق على المعاصي فيه نصف بئر نפט، وجاءه الآن مذعوراً مرتجفاً قلقاً، طلب منه أن يصعد للجلوس في مكتبه ريثما يؤمن النساء والأطفال.

أخبره أبو الصقر أن هناك عائلاتٍ أخرى من أقاربهم ومعارفهم قادمة على الرحلات التالية للخطوط السعودية، وبعضهم بالسيارات عبر الأردن، وسيبدأ وصولهم في المساء، ويعتمدون عليه في تأمين إقاماتهم، طمأنه

مايك أن كل شيء سيكون على ما يرام، قدّم له فنجان القهوة بنفسه وياشر العمل.

جاءت استجابة مايك لارتدادات مغامرة صدام حسين أسرع من استجابة الأمريكيين، وأنجح من استجابة الأردنيين، وأقل قدرية من استجابة السوفييت، وأكثر إتقاناً ولياقة من مصر رئيسة الدورة الطارئة للقمة العربية، وكانت رؤيته لما يريد واضحة مثل الانكليز تماماً، وتماهى مع المسؤولية التي فرضها الحدث كالسعوديين تقريباً، وخرج، في المحصلة، بأرباح أكبر من أرباح السوريين.

شكّل مايك الشرقي تحالفه الخاص لمواجهة الغزو العراقي. كان تحالفاً متقناً وسريعاً، لم يحتج إلى قرار مجلس أمن ولا إلى بيان من الجامعة العربية، تم اكمال أركانه خلال ساعات. حُشدت صنوف الخدمات، استُدعي الاحتياط، أُلغيت الأوامر السابقة، أُعفيت مقرّات العمليات من تنفيذ مهامها الاعتيادية، وكُلّفت بأعمال طارئة تناسب حساسية الموقف، تم التنسيق سريعاً مع الحلفاء الخارجيين، وُضعت خطط الإجراء والإحلال، وتم تأمين خطوط الإمداد، واللوجستيات الخلفية، والتقنيات الحديثة.

زيارة عنجر هي أول ما فعله قبل البدء بخطته التنفيذية، والاستفسار عن أيّ تعليمات يجب الالتزام بها، حصل على المباركة التي يحتاج، وتعرّف على العناصر الأربعة الذين سيتخفّون كموظفين لديه اعتباراً من الغد.

تكتيكياً طلب بتهديب من جبار عبد القادر أن يتوقف عن المجيء إلى أبوولو، وعقد اجتماعاته في أماكن أخرى ريثما تهدأ النفوس قليلاً، ووعده بالمقابل أن يخبره بكلّ تحرك مريب يبيده الكويتيون ضد مصالح العراق، طلب من الموظفين أن يخلوا الغرف التي يستطيعون، ويعتذروا من جميع الزبائن، ويسلموا الغرف الفارغة بأسرع وقت، طلب من الموظفين المقيمين في الفندق إخلاء غرفهم مؤقتاً لتسكنها الخادמות الآسيويات،

وجّه مطعم المندي والمناسف لجلب عمّال إضافيين، وبدء العمل بالطاقة القصوى قبل أن يحين موعد الغداء. اتصل سريعاً بالفنادق المجاورة ليحجز كل الأجنحة والغرف المتاحة، أرسل من يفاوض لحجز فنادق كاملة ودفع بدل استثمارها سلفاً، قبل أن يعرف أصحابها حجم العمل القادم. بدأ برسم خطة إجلاء للقوات تستدعي نقل بعض عاهرات الياطر إلى جوار أبولو، وإحلال عاهرات الاحتياط مكانهن، تأمين سبل الإمدادات، وملء المخازن بالرز الهندي والبيرة الألمانية والخراف السورية المذبوحة والويسكي الاسكتلندي الشعبي والواقيات الذكرية، هيكله أسطول النقل، وتوفير سيارات جاهزة على مدار الأربع وعشرين ساعة لنقل الرجال إلى جونبة وطبرجا بعيداً عن زوجاتهم، نقل الزوجات إلى الأسواق، إعادة الجميع في وقت الفطور والغداء والعشاء. تقنياً كان يجب البحث عن صالة واسعة قريبة جداً من أبولو وتزويدها بما يتوفر من الألعاب الإلكترونية، وصناديق الكولا لتمضية وقت الأطفال.

تعبوياً وجَب تغيير البرنامج الفني اليومي في "ستارز" واستعارة الروح القتالية لمطربات الياطر مع رفع الجاهزية إلى درجة الاستنفار، ومؤازرة اللون الغنائي بتنويعات فرائية ودجلوبة.

احتاجت الوقائع المتسارعة إلى شيء من الارتجال وبعض التعديل، فمثلاً تبين خلال يومين أن الجيل الكويتي الجديد يحبّ الدجاج المقلي أكثر ممّا يحب الرز ولحم الخراف، ويحب المياه الغازية بطعم الكولا وليس بطعم البرتقال، والمطربات النوريات يصلحن لكبار السن فقط، ويثرن الضجر بسرعة، والذائقة الموسيقية الجديدة صنعها التلفزيون عبر الأغاني التي ييثرها على مدار الساعة.

الكويتيون الذين عرفهم مايك خلال السنوات الماضية وتعمّقت معرفته بهم كانوا من جيل آخر، جيل كبر قبل أن تنفجر الثروة، جيل لم يدرسه فلسطينيون ويخدمه آسيويون ويزخرف بيته سوريون ويكتب له مصريون.

تكيّف مع الأمر بسرعة، وخلال الأسبوع الذي تحولت فيه الكويت من إمارة آل الصباح إلى جمهورية علاء حسين، ثم إلى محافظة علي حسن المجيد، تحوّل فندق أبولو إلى مستقرّ عائلات، وتحول مطعم المأكولات البحرية إلى مطعم أمريكي يقلي نصف طن من البطاطا كل يوم ويُنتج طنين من الكوليسترول، وتحولت فنادق برازر والمطلّة وزهرة كليمنصو وتيراسا إلى منشآت مدارة ومستثمرة من شركة أبولو للاستثمارات السياحية (التي تأسست في اليوم نفسه).

امتّن أبو الصقر لحسن إدارة مايك للأزمة الدولية الكبرى، وأعجب بأدائه، وقدّر جهوده للترويح عنهم، وتخفيف ألم فقدان البلاد. في الفترة الأولى عبّر عن هذا الامتنان بأبلغ طريقة ممكنة: دون تدقيق بالفواتير الباهظة والمضاعفة مرّات عديدة، انتقلت رزم الدنانير من حقائبه وحقائب أقاربه وأصحابه إلى خزائن مايك الشرقي، لتسديد ثمن الخدمات التي يستهلكونها، والاهتمام الذي يتلقّونه، ثم صارت قيم الفواتير تدفع على شكل أحجار كريمة وقطع ذهبية، وبعد بضعة أشهر ومع تناقص المدخرات صارت شيكات وسندات على حسابات مصرفية لا أحد يعرف مصيرها ولا مصير البنوك التي ضمنتها.

قبّل مايك هذه الضمانات مع بعض القلق أولاً، ثم مع بعض التردد، ثم ارتاح لها فجأة، حين سمع في الأخبار عن قائمة الدول التي بدأت قواتها بالوصول إلى السعودية للمشاركة في التحالف الدولي لتنفيذ قرارات مجلس الأمن بالقوة مفضّين بالقرار 678 لتنفيذ القرار 660. بين هذه الدول الـ 37 رأى ما طمأنه إلى المصير الذي ينتظر هذه الحرب: ربّعه القدامى الذين يعرفون من أين تتبع الأرزاق، والذين يبيعون ديوان "طفولة نهد" على باب الجامع الأموي، ويسرقون سجّاده، لا يمكن أن يصطقوا في الجانب الخاسر. لم يكونوا مرّة على حق، لكنهم دائماً كانوا على صواب. في السابع من تشرين الأول تصاعد قلقه، أصدر أمير الكويت من مقرّه

المؤقت في الطائف مرسوماً بإلغاء الاعتراف ببعض فئات الدينار الكويتي، هرع إلى مخبئه، مسد كومة الدنانير التي جمعها، احتضنها، كاد يبكي وهو يضع يده على جبينها ويتلمس حرارتها، كانت ابنة الذي أخبره الأطباء للتو أنه قد يموت، لم يستطع الانتظار حتى اليوم التالي، بحث عن أبي الصقر المختفي منذ يومين، عرف أخيراً أنه ليس في لبنان كلّه، عائلته ما زالت هنا، لكنّه في السعودية وسيعود غداً.

حين عاد لم يشأ مايك أن يسأله عن رحلته رغم أنها أثارت فضوله وتبّهته إلى أن الرجل اختفى بضع مرات من قبل بالطريقة نفسها، يختفي فجأة ويظهر فجأة، كان يريد أن يعرف معنى المرسوم الأميري وتبعاته عليه وعلى ثروته الجديدة التي بقيت بعملتها الأصلية.

طمأنه أبو الصقر أن القرار يخصّ أرقاماً محددة من العملة وليس فئات محددة، وهي الأرقام المتسلسلة للكميات التي كانت في المصرف المركزي حين سيطر عليه العراقيون، ومعلوماتهم أنها أصبحت في بغداد.

في جلساته الحميمة مع أبي الصقر والتي صارت شبه يومية، فهم سرّ رحلاته القصيرة التي قام بها إلى الطائف، عرف ماذا يعمل الرجل بالضبط، وعرف من أين تنبع ثروته ومن أين تأتي زعامته حتى على رجال هارين من بلدهم الذي تحت الاحتلال، لم يعرف الرتبة والمنصب بالضبط، لكنّه تأكّد من أن أبا الصقر مسؤول عن ملقّات سرّية للحكومة، واحدة منها الآن مراقبة الوجود العراقي في لبنان، والإشراف على جموع الكويتيين النازحين مؤقتاً، وتتبع أيّ شبهة اتصال مع غرباء. صار مايك مساعداً في هذه المهمة، ووعد أن يُبقي حواسّه وحواسّ موظفيه في حالة تأهب قصوى لأيّ احتمال من هذا النوع، وواصل الاهتمام بالكويتيين الذين يتزايدون، وينتقلون من مناطق وفنادق أخرى إلى عالم مايك الشرقي، الأصلح تكيّفاً مع مزاجهم واحتياجهم.

بعض الرجال يقضون سهراتهم في الشمال في الياطر والملاهي المحيطة به، والبعض يفصل البقاء مع عائلاتهم في أبولو وفنادق قلب بيروت، وعليه أن يؤمن لهؤلاء الترفيه اللازم ريثما ينجز جورج بوش وعوده، ويقضي الله أمراً كان مفعولاً.

ماغو، مدير ستارز، استفد كل حيله، فشلت أغلب الحفلات، والصالة تفرغ من زبائنها خلال نصف ساعة، قلب الأمر مع مايك: "معلم ما خلىنا وسيلة، جزينا كل المطربين، ما عم يعجبهم شي، ما بقي غير صباح فخري وسميرة توفيق ما غنولهم، صباح بالبرازيل وسميرة بالأردن".

بعد نقاش قصير، وصلا إلى نتيجة مريكة، فلا شيء يطرب الكويت إلا العراقيين، وهي النتيجة التي سيصل إليها كل العشاق في النهاية: لا شيء قادر على احتلالك سوى من يطربك.

كان لا بد مما ليس منه بد، بدأ باستعراض المطربين العراقيين الذين يصلحون لهذا الطرف الخاص، والتواصل معهم. ماغو استبعد علي العيساوي مباشرة: هو النجم الصاعد الآن، لكن علاقته بعدي ستستفرد زبائننا، وسمعت أنه يسجل أغنية اسمها "الله لا يوفقج أمريكا"، فؤاد سالم معارض لصدام وقد يكون هو ومحمود أنور مناسيين، ولو كان سعدون جابر متوفراً لكان الخيار الأفضل على الإطلاق، لكنه بين لندن والقاهرة يحضر للدكتوراه في أغاني الهددة والمهد.

علق مايك ساخراً: هدهدة؟ يعني طفل أحمق لا يريد أن ينام؟ هل هذا وقته؟ اتصل به وأحضره، أعطه ما يريد واحجز له في الدرجة الأولى. أظن الكويتيين الآن بحاجة لسماع "يا طيور الطيارة مري بهلي" واتصل بفريدة، وحاول مع هذا العيساوي ولو لحفلة واحدة. دع الكويتيين يفرغون فيه غضبهم من عدي. اتصل بياس خضر، وصلاح عبد الغفور وفاضل عواد وحتى سعد الحلي، كل من يقبل أحضره، حاول مع مائدة نزهت وساجدة.

. طلفاح؟

. لا، عبيد أسهل.

سبعة أشهر من الطعام والشراب واللهو والطرب والصفقات، خادع فيها كويتيين ضاقت بهم السبل، فأقنعهم ببيع أملاك وأعمال بعُشر ثمنها لمتمولين مغامرين كانوا يشترون سمكاً في الماء، رتب بمساعدة الأستاذ رغيد لقاءات أعمال سال فيها لعابُ لبناني وسوري على ثروات كويتية هائلة، حصل عمولات لم يكن يتخيلها، وضعها فوق الفواتير الخرافية التي قبضها أو أجلها.

في السابع والعشرين من شباط تجمعت في جيب مايك معظم الدنانير الكويتية التي اختار مالكوها السابقون لبنان منفى مؤقتاً لهم، وكان قد ترتب له على كثير منهم ديونٌ ضخمة، ضمانتها الرئيسية كلمة شرف من أبي الصقر الذي يكفل الجميع بعبارته: "لين ترجعنا الكويت كلشي تبيه يصير!"، وضمانتها الثانوية أوراق تبدو الآن بلا قيمة.

في السابع والعشرين من شباط بكى الرجل المهيب أبو الصقر على كتف مايك الشرقي، بكى فرحاً لتحرير البلاد، وبكى امتناناً لمايك الذي سرقهم بلا هوادة لسبعة أشهر، ولجورج بوش الذي سيسرقهم لعقود. واساه مايك بضمة صادقة: "لكل الكرام عشرة، ولكل عشرة جابر، وإن تعثر جابر الكرام، يُعاد مايك إلى أصله!"

في السابع والعشرين من شباط أعلن جورج بوش ما أدرّ دموع أبي الصقر بجملتين قالهما بطريقة توحى أنهما جملة واحدة: "الكويت حرة، الجيش العراقي هُزم!".

لم تكن عابرة وبريئة تلك الفاصلة التي أزيلت من بين الكلمات الخمس. كان يربط في عقل العالم إلى الأبد بين كلمة الحرية وهزيمة الجيش العراقي. كذلك كان مايك يفصل بين السجل والفعل، يميّز بين المَن؟ والماذا؟،

كي يُقفل دائرة مكارم الأخلاق، ويدسّ لنفسه نقطة منها، ويطلقها لتكرّر عودها الأبدي، الذي بدأته بجدنا القاتل قايل (رحمه الله وغفر له).

صفقات الرحيل المتعجّل جاءت فرصة أخرى لمايك، اختار الراضي ليشاركة واحدة منها، لا لميزة فيه سوى أنه يتخذ قراراته بسرعة:

. سيارات سعرها مجاني تقريباً، أدخلها في قيود الجمارك على أنها مستوردة إلى لبنان، وفارق السعر لي ولك مناصفة، هناك حوالي ثلاثة أو أربعة آلاف سيارة كويتية أغلبها صناعة أمريكية، سيعود أصحابها بالطائرة وتركوا لنا تفويضاً بها، يرون التخلي عنها أسهل من إنجاز معاملاتها، وهي مجمّعة في ساحات بحراستنا، ويمكن أن نأخذها منهم بسعر التراب، وإذا نجحت العملية يوجد عدد أكبر في سورية ولا يمكنهم إبقاؤها هناك، نستطيع إخراجها باتجاه لبنان.

استغرب الراضي العدد الكبير لمن يريدون التخلي عن سياراتهم، فشرح له مايك الأمر ببساطة: الجمارك مدّدت الدخول للسيارات الكويتية بسبب الظرف الاستثنائي أربع عشرة مرة، والآن بات على كلّ صاحب سيارة أن يجري تسوية وينجز معاملة، وهذا ما لا طاقة لكويتي أو لأيّ أحد أن يفعله، وقد وقّع أصحاب هذه السيارات نموذج تفويض موحّداً لنا، ليتخلّصوا من هذا العبء.

صحيح أنها صفقة لا تزيد أرباحها عن عشرة أو اثني عشر مليون دولار، لكنها مغرية للراضي لأنه يستطيع تليفيها بسهولة، ولأنها تحقّق له معنى شخصياً وترضي سعيه لإثبات نجاحه وقدرته على الاستقلال عن أبيه وأخيه المتسلّطين، وستحقّق لمايك الدخول من الباب الآخر إلى العالم الذي بدأ منه في لبنان. سيصبح لديه كراجات لا كراج، وهي كراجات تباع ولا تركز. تتقاضى رزم دولارات لا فئات معدنية من الليرة اللبنانية. أراد مايك أن يحوّل هذه الصفقة التي قدّمها له أبو الصقر ببساطة إلى فرصة دائمة

لعمل جديد على طريقة معلّمه القديم، وأراد أن يربط الراضي به بشكل دائم، لأنه سيقى صبيّ الصبي قسّام في نظر شريف بيك وإسكندر الذي يكاد يصبح إسكندر بيك. والراضي مدخله المناسب لهذه الكتلة وعلاقتها.

تمّت الصفقة. وصار لدى مايك والراضي شركة سيارات باسم متملق: (شركة الجنوب للآليات) مديرها فريد الذي ورثه من مرأب الشيخ قسّام، وهو من أقارب الشيخ الراحل، وبالتالي من أقارب الراضي. وصار لهذه الشركة ساحات بعضها مسوّر وبعضها في العراء، لكنها موزعة بطريقة لا تُضطرُّ أحداً للذهاب إلى منطقة الأعداء السابقين. فتمّ تصميم مواقع الفروع وعددها بعدد الطوائف اللبنانية.

خلال النصف الأول من آذار عاد معظم الكويتيين إلى بلادهم المحرّرة، وبيوتهم الفاخرة، وبدأ أصحاب بعض الجنسيات الأخرى بالعودة إلى أعمالهم ببطء، ما عدا الفلسطينيين الذين بدأ من بقي منهم في الكويت بالخروج جماعياً.

”بيجر“ موضوع على الهزاز

تغيير العملة هو ثاني قرار اتخذته الحكومة الكويتية بعد قرار فرض الأحكام العرفية، وهو ما أثار دعر مايك الشرقي حقاً هذه المرة، لأنه صدر بعد تسعة أيام من عودة الحكومة. واضح وصريح، أعطى مهلة قصيرة لمن يملكون العملة القديمة لاستبدالها. وضاعف قلقة عدم تمكنه من الوصول إلى أبي الصقر لبضعة أيام، بذل فيها ألف محاولة عبر عشرات الكويتيين الذين احتفظ بأرقامهم، والجواب الأكثر تكراراً كان مرعباً: ”البيجر ينطيه إنك اتصلت، عساه حاطه ع الهزاز“ وليس لدى أحد من معارفه الكويتيين من جواب عن مصير الدنانير التي يملكها.

لقاء كل خدمة وكل سلعة أخذ مايك من الكويتيين عشرة أضعاف تكلفتها. حتى الليلة السابقة اعتقد أنه ضاعف ثروته عشرات المرّات، وفجأة اكتشف أنه فقد كل شيء. اشترى طيلة الأشهر السبعة بالدولار وباع بالدينار، ترتبت عليه التزامات كبيرة نتيجة التوسعات التي قام بها، والفنادق التي استثمرها، وجيش الموظفين الذين أضافهم. انتهت الدولارات تقريباً، وصارت كومة الدنانير بلا قيمة، لأن صدام على ما يبدو أخذ أكثر بكثير مما أخبره أبو الصقر قبل أربعة أشهر، وكل دينار في الخارج الآن سيحمل رائحة ابن صبحة التكريتي.

أسبوع ثقيل ثقيل ذلك الذي مرّ. ناس عقله بين ذكريات الفقر وغرف ركن الدين والدويلعة وبستان الدور وبلدا، وبين أسئلة البحث عن حل: متى سيبدوون بمنح التأشيرات؟ هل يمكن حمل كل هذه الأموال ببساطة؟

هل سيسمحون للأجانب باستبدال أموالهم؟ هل يحق لمن يؤدّي خدمته العسكرية أن يسافر؟ هل سينتهي فرض الأحكام العرفية أم سيُمدّد؟ هل اختفى أبو الصقر إلى الأبد؟ هل ضاع كل شيء؟ هل تأمر عليه العالم بكامله ليعيده من حيث جاء؟

حاول تحديد الثغرة التي لم يحسب حسابها، تدافعت الاحتمالات في رأسه كسجناء أمام قائمة الإفراج. شعر أن أبا الصقر كان جزءاً من مؤامرة حيكّت عليه. شعر أن الله يعاقبه لأنه يسهّل المعاصي على خلقه. شعر أن الحسد الذي أحاط به منذ دخل هذا المكان قد حقق غايته، تذكّر عبارات الحسد التي سمعها من كثيرين خلال هذه الأشهر، حتى الأستاذ رغيد والراضي وشركاء السياسة والعمل قال كلٌّ منهم مرّة واحدة على الأقل وبطريقته الخاصة: "نفت الكويت كلّه صار عندك!". رأى زوال النعمة في عيون الجميع، رأى صلوات عميقة ترغب بسقوطه. جمع بصورة ذهنية واحدة عيون كلّ من يعرفهم، كلّ من تعامل معهم خلال هذه الأشهر، سدّدوا النظرات نفسها. ذكرّته بالنظرات التي حكمت عالمه السابق، عالم غريب الحصوص المتهالك، لم يجد فارقاً بين نظرات احتقار فقره، ونظرات احتقار غناه.

اكتشف أنه لن يصبح مايك الشرقي أبداً، ذلك كان حلماً، وهذه هي اليقظة. ما زال سليل تلك العائلة الوضيعة، ما زال في دمه آثام أجيال أورثته اللعنة وعليه دفع حسابها، الأب الذي خان دم رفاقه. الأم التي هجرت ابنها حين كان في الخامسة وراحت تبدّل الأزواج بأسرع مما تبدّل عاهراته الزنائن. الأجداد الذين هجروا قريتهم وتخلّوا عن إمامهم الحاضر بعد أن يتسوا من الصلاة له يبطنون خاوية استجداءً للمدد، وانصاعوا لطقوس العماد المضحكة مقابل كيسين من الطحين كانت توزعهما البعثات التبشيرية للعائلات الكاثوليكية التي آمنت بالرب المثلث حديثاً. الجيل الأقرب من الأجداد الذين تخلّوا عن دينهم الجديد و"دخلوا في دين الله أفواجا" أتباعاً

لدين معلّمهم نظير أغا البرازي، بعد موسمين فقط من العمل "مربعين" في أراضٍ يملكها في الجفتلك شرقي حماة.

عادت إليه أسوأ الكوابيس، عادت ليلة الخامس من حزيران 1967، ليلة قامت الحرب حمل نظير الحصو ابنه الوحيد من غرفته في القابون، إلى غرفة عمّته العجوز في ركن الدين: عمّتي، ليس لي في هذه الدنيا سواك. أتاني أمر الالتحاق بالجبهة، ولا أعرف أين أتّرك غريب. أمه مختفية منذ أيام، ولا أعرف عنها شيئاً.

آمنة، الأرملة العجوز التي بلا أبناء، احتضنت الطفل المذعور:

. أعادك الله سالماً، لا تخفّ! أنا جدّته، سأعتني به، حتى تعود أو تعود أمّه.

وهو ما لم يفعله أيُّ منهما.

الفتى الذي ولد وعاش وحيداً وبيتماً وطريداً وعارياً، الفتى الذي ماتت جدّته وهو في الرابعة عشرة، وقضى سنواته بعد وفاتها مطروداً من مكان إلى مكان: طُرد من المدرسة في الصف التاسع، ثم طُرد من غرفة جدّته في السادسة عشرة، وطُرد من كلّ الأماكن التي سكنها والأعمال التي مارسها، وأخيراً طُرد من البلد الذي يفترض أن يُشدد له باعتزاز كلّ صباح. استطاع هذا الفتى، بقوة اليأس، وفي الوقت المستقطع من الورش والبسطات ودون مدرسة أو مدرّسين، أن يحقّق أمنية جدّته بأن يكون أول فرد من الحصو يحصل على الثانوية، وقد فعلها بعد محاولتين فقط. سجّل في الجامعة في فرع كان وقتذاك يقبل "جميع المتقدّمين"، لكنّه لم يصبح قطّ طالب جامعة حقيقياً، لم يقبله أحدٌ، ظلّ أقلّ شأناً من "جميع المتقدّمين" الآخرين، ولم يجرؤ حتى على تبادل تحية الصباح مع زميلات الدفعة، وفي النهاية ترك الجامعة قبل أن تبدأ السنة الرابعة.

البشر كلّهم أعداؤه، وآلاف العيون التي أحاطت به في حياته كانت

تزرع سهامها فيه. فجأة أثنته الجراح، انفتحت كل الثقوب التي أحدثتها الكراهية في روحه: من أنا لأستحق كل هذه الثروة؟!

العين البشرية أهم مسبب للأمراض بإحداثها شروخاً في أرواح الآخرين. تفعل ذلك عبر بث الكراهية والاستخفاف. البشرية تستخدم عيونها لتهين بعضها طوال الوقت.

حين تتملّى عينٌ بشرية شيئاً يخصّك، يصبح هذا الشيء عارك. حين يهبط عابراً غريب في الشارع بعينيه إلى حذائك المهترئ، يصبح الحذاء ذلاً. ستحاول إخفاء كلّ قدم بالأخرى، فتنعثر. وحين تنزل إلى حذائك الجديد اللامع سيصبح لعنتك، وستصبح أنت العار. فمن أنت أيها المهترئ لتلبس حذاءً جديداً؟! تسلّل نظرات الإذلال إلى داخل روحك وتتجمّع هناك، كما يتجمّع الرمل في كليتيك.

الفقر ذلّ، الغنى ذلّ، الحاجة ذلّ، عادية الملامح ذلّ، تواضع الملابس ذلّ، تفاخرها ذلّ، العري ذلّ، السير على قدمين ذلّ، السير دون قدمين ذلّ، الحب ذلّ، الكراهية ذلّ. والبشرية لا تتوقف عن إذلال بعضها، فهي طريقتها الوحيدة لتلقي عن كرامتها الذلّ الذي يلحق بها طوال الوقت. ونظرات البشر هي تبادل لكرة الذلّ سريعة التنقل كطابة البيغ بونغ.

مع الوقت، وما لم تبدّد بعضها بإذلال الآخرين، ستملؤك تلك الجبّات بقناعة أنك لا تستحق الحذاء الجديد الذي تلبسه، ستمشي بطريقة خرقاء، وستصطدم قدمك بحواف الأسوار، وستمزق حذاءك، ستمزّق نعمتك، ستمزّق عافيتك، ستبدّد ثروتك، ستكسر قدم حصانك، ستنسى تغيير زيت محرّك سيارتك، وفصل قاطع السلك الذي سيحرق متحرك، ستفتعل شجاراً مع حبيبك، ستحوّل ثروتك الهائلة إلى عملة أخرى تلاشى عمّا قريب، ستفعل كل ما يمكن أن يحرّك من تلك النظرات: ستعطيهم ما يريدون.

ولأننا نحن البشر لا نستطيع أن نلوم أنفسنا، ولأننا لا نستطيع أن نحصي ملايين الأسباب ونتتبع أثرها، فقد أطلقنا على كل ذلك كلمة واحدة: الحسد.

أصاب الحسدُ منه مقتلاً. حين استعاد تلك النظرات، وجمع كلَّ العيون التي حدّقت به في حياته، كان يمضي ليلته الرابعة دون نوم. كان يحاول ذلك في سرير الخواجة دريان في الطابق العاشر، تذكّر كيف مات الرجل ومتى، تطير من المقارنة، ونهض سريعاً ليهرب من السرير والجنح المشووم، لكنّه سقط عند الباب.

ألف مائة بلا ممحاة

لا بد أن لدى سكان القطب الشمالي اسماً أو اسمين لهذه الدرجة من الأبيض، لكن إذا كنا نتحدث لغة أخرى فلا نستطيع سوى أن نقول: عايده امرأة بيضاء.

يمكن لنا أن نضيف: بيضاء أكثر مما يجب، أكثر مما تحتاج، أكثر مما نألف، لكننا عندئذ سنكون قد استخدمنا كلمات كثيرة، وأجبرنا أنفسنا على تدقيق باقي الصفات، لنبرر الكلمات الملتبسة. فسنضطرّ لنقول إن أوردة عنقها وحنكها تندرج تحت بشرتها الرقيقة من الوردى إلى الأخضر، وإن عينيها صغيرتان كثقبي مزمار، وأنفها حادّ ومختصر كشطبة قلم جديد، شعرها الذي بلا لون تقريباً يغطّي كتفيها المتحفّظين وجبهتها المعروفة، وإنه فيما امتلكت النساء شفاهاً تقاسمت التشبه بشار التوت الحمراء والوردية والبنفسجية، كانت حصّة عايده شفتين باهتتين رقيقتين كورقتين من شجرة التوت نفسها، ممتدّتين إلى درجة تجعلها تبدو امرأة بلا أسنان.

مزيح من الراهبة والممرضة، عملت لثلاثين عاماً في مستشفى بحسّ جبيل الصوان، وتبيت أغلب لياليها في دير راهبات المحبة الملاصق، وأبعد مكان تذهب إليه بيت أهلها القديم في بكفياً. تذهب سيراً على الأقدام كلّ بضعة أيام لتتفقد الحجارة وتسقي النباتات وتنفض الستائر وتنام في سرير طفولتها، ثم تعيد شدّ القماش فوق الأثاث تحسباً لغياب طويل.

ما من شيء استثنائي في عايده سوى طبيعيتها. كانت امرأة عادية بطريقة استثنائية، تفتخر أنها لم تركب سيارة منذ عشر سنوات، ولم تفوت

قدّاساً منذ عشرين، ولم تأكل لحماً منذ ثلاثين، ولم يلمسها رجل منذ ولدت. صاغت حياتها على صورة الأم المثالية البديلة التي يحلم بها كلّ طفل اكتشف للتوّ أنّ أمّه قد دنت "قداستها" ومارست الجنس مع أبيه.

حين فتح مايك الشرقي عينيه بعد أربعين يوماً من الغيبوبة اختلط عليه بياضُ عايده مع بياض ملابسها ومع بياض السقف العالي. احتاج إلى دقائق حتى يفرز ابتسامتها عن باقي الشاشة التي تحيط به، واحتاج إلى صوتها الذي كصوت طفلة كي يدرك أنه حيّ، كان صوتها يزغرد وهي تطلب من أحدٍ ما أن يسرع ليخبر الدكتور شعنيني أن المريض فتح عينيه. اكتفى الطبيب المخضرم بفحص المريض، دون أن يجيب عن أسئلته، وأعطى عايده ورقة: "أجروا هذه التحاليل والصور، وسنجري تخطيطاً للأعصاب بعد ساعتين، ولا تسمحوا بالزيارات!".

احتاج مايك إلى بضع ساعات حتى تمكّن من المشي داخل الغرفة، ويومين مع زند عايده للمشي في حديقة المستشفى المفتوحة على الجبال، ولثلاثة أيام مطعّمة بمئات الأسئلة اللجوجة للدكتور شعنيني ولممرضته المحبّة حتى بدأ يفهم ما جرى تماماً. عرف أنّ عملياته الحيوية اقتربت من الصفر، وأنهم نقلوه أولاً إلى مستشفى الجامعة الأمريكية، ثم اجتمع أطباء القلبية والداخلية والغدد والعصبية، واحتاجوا إلى استشارات أطباء الكلية وجراحة الدماغ وحتى الجلدية. الطبيب الذي أجرى تخطيط الدماغ والأعصاب، قدر أنّ هناك خطأ ما، فعمر المريض لا يتناسب أبداً مع ما يراه، وحين استدعوا البروفيسور جبران شعنيني من مستشفى آخر كاستشاري عصبية، كرّر هذا الرأي أمامه قائلاً: "لا يمكن لهذه الجملة العصبية أن تكون لشخص عمره أقلّ من سبعين عاماً، وقضاها تحت ضغط متواصل"، قرأ البروفيسور كلّ ما يخصّ الحالة، ثم أكّد الرأي الأول معدّلاً الزمن فقط: "بل ألف عام".

طلب الدكتور شعيني نقل المريض إلى مستشفى في الجبل تحتفي فيه حتى أصوات الحياة وأنفاسها، واقترح مشفى بجنس بين بكفياً وبرماناً لنقاوة الهواء وهدوء البيئة المحيطة، ولأنه يريد أن يشرف عليه شخصياً.

خلال نزهاته القصيرة في الحديقة عرف من عائدة أن من زاروه في المستشفى كانوا بالعشرات كل يوم، وبعضهم أرادوا نقله إلى أماكن أفضل، وأن ثلاثة من المرافقين تناوبوا النوم جالسين على الأرض قرب الباب، وأخبرته ضاحكة عن مرافق له اسمه مرسال كان يفتشها ويتذوق السيرومات قبل أن يسمح لها بتعليقها، وعن صديقه الخليجي الطويل الذي تشاجر مع الدكتور شعيني لأنه أراد نقله إلى سويسرا.

”ظهر أبو الصقر؟ والزوار بالعشرات؟ ما الذي سبب كل ذلك إذا؟“

في اليوم الرابع سمح الطبيب باستقبال الزوار بشرط عدم الحديث في العمل. احتاجت عائدة وزملاؤها إلى الاستعانة بإسماعيل واثنين من رجاله لتنظيم دخول الزوار وتحديد وقت بقائهم. امتلأت الممرات الواسعة بباقات الورد، والغرفة بابتسامات رسمها موظفو أبولو، عاهرات الياطر، مطربون، نوّاب، مستثمرون، سياسيون، أصحاب فنادق، ضباط لبنانيون، ضباط سوريون، عناصر مخفر حبيش، مورّدو مواد، راقصات، مديرو بنوك، رئيس جامعة الاستقلال.

طمأنوه بمجاملاتهم وبعباراتهم المقتضبة أن كل شيء على ما يرام، وأن العمل مستمرّ وكأنه موجود، طمأنوه أكثر بذرف بعض الفتيات للدموع المخلوطة بابتسامة، أخبروه أن أبا الصقر قد جاء خصيصاً لزيارته، وأنه سيجد حلاً لكل شيء.

قرّر الدكتور شعيني أن يقضي مايك أسبوعين آخرين، يراقب وضعه الصحي ويجري له جلستي علاج يومياً صباحية ومساءلية، وهما الأسبوعان اللذان كشفاً لمايك عن نوع جديد من الحياة لا يشبه الحياتين السابقتين اللتين عرفهما.

قضى أغلب الأسبوعين بصحبة عايذة. أمسكت يده فيما يغفو في سريره، بدلت له ملابسه، مسحت ظهره وباطن فخذيه بالكحول، تنزهت معه في الغابة المجاورة، قرأت له من الكتاب المقدس، ومن القرآن مرّتين، حلقت ذقنه، حكّت له عن معجزات شفيعتها القديسة رفقة. وعن فجيعة سكارليت جوهانسون، وعن الحبّ الذي ذهب مع الريح، حكّت له عن أهلها الراحلين، عن حبّها لمهنتها ولمرضاهها، أعطته رأي قلبها فيمن زاروه وصنّفتهم: مُحَبِّين ومنافقين، كذّابين وصادقين، خُسر وسود. ضحكت من قلبها معه وأضحكته، روت له حكايات كثيرة تنتهي جميعاً إلى العظة ذاتها: كلّمّا فعلت خيراً عاد عليك بالخير.

عرّفته على الطفلة التي أسمتها بالطبع رفقة، والتي ترعاها منذ أشهر، وحكّت بتأثر شديد عن تلك المرأة التي أسعفها عابرو طريق إلى المستشفى بحالة سيئة ومعها طفلة عمرها بين السنة والنصف والسنتين، لم تكن الأم العشرينية تحمل أيّ وثيقة شخصية، واضطروا لاستقبالها لأنها دخلت بحالة إسعاف، ولأنّ أعراضها رغم شدّتها كانت مجرد أعراض أنفلونزا مترافقة مع بعض الطفح الجلدي.

ماتت بعد يومين، ورجّح الطبيب المشرف أنها كانت في المراحل الأخيرة من ذلك المرض الحديث الذي اسمه السيدا، وأنها وصلت إلى المشفى فيما كان الفيروس يلتهم قضمته الأخيرة من جهازها المناعي. لم يسأل عنها أحد، لم يعرفوا لها اسماً، حتى إن موظف البلدية الذي استلم جثتها لم يعرف أيّ صلاة ستتلى عليها.

طلبت عايذة من إدارة المستشفى ومن راعية الدير أن تحتفظ بالطفلة وترعاها وتستاعدها في ذلك الراهبات، ريثما يستجيب أحد لبلاغ الشرطة أو إعلان الصحيفة ويظهر أحد من أقاربها. أما وقد مضت سنة على ذلك دون أن يظهر أحد، وأنهى قلب عايذة امتلاك تلك اللعنة المسماة أمومة، وتعلّقت بالطفلة بطريقة خجلت من ذكر درجتها في الفترة الأولى، فقد صار هوسها أن تجد طريقة لتتبسّى الطفلة إلى الأبد.

سألها مايك ما إن كان يستطيع مشاركتها الخير الذي سيعود من رعاية رفقة، إذا ما دفع مصروفها، وأخبرته أن المصروف شأن غير مهم. والمشكلة الآن كيف ستحتفظ بها؟ هي لا تعرف ما إن كانت الطفلة مسجلة في القيود أو لا، لها أب معروف أم لا؟ هل الأم من الآثام كما بدت؟ هل الطفلة ثمرة سفاح؟

حتى تلك اللحظة لم تكن الطفلة قد مدت بعد أصابعها الصغيرة لتعبث بذقنه فيما هي تغفو بين يديه، لذلك لم يخطر له أي شيء حقيقي يمكن فعله أو قوله، حين تغلّبت عابدة على خجلها وروت له أن الطفلة نامت في حضنها كل ليلة، وبعد بضعة أيام من لمس تلك البشرة وشم تلك الرائحة والنظر ملياً إلى ذاك الوجه، صارت تشعر بقطرات من الحليب في ثديها، رغم أنها بلغت الحادية والخمسين وقد جفّ رحمها منذ سبع سنوات؛

واكتفى بقول ما يقوله الأثانيون حين يظنون في أنفسهم الغيرة، وما يقوله البخلاء حين يتوهّمون أنهم أطلقوا لعطائهم المدى: هذه الطفلة ستكون امتناني للربّ الذي نجّاني، هي مسؤوليتي ما دمت حيّاً، سأفعل كل ما أستطيع لأجلها، فقط أخبريني بكلّ ما تحتاج.

ابتسمت عابدة وشكرته، لأنها تعرف جيداً الفارق بين العطاء الذي يعني أن تكون، والكرم الذي يعني أن تبدو. كان تعهد مايك كريماً للغاية وهو يستحقّ الشكر كما يليق بأيّ فعل كريم. كما يهدف أيّ فعل كريم أصلاً، أشعرته بالامتنان الذي يريد، وقالت له: "ليمكّنك الله من فعل الخير!"، لأنها من أولئك الذين يحسنون التمييز، يشكرون الكرم بحرارة وعمق وبيالغون في مدحه كما يعتنون بنبته صغيرة لعلها تصبح شجرة ذات يوم، يرعون الكرم الجاهل لعلّه يصبح ذات يوم عطاءً واعياً لا يتطلب امتناناً، ولا يغضبه الجحود.

داخل مايك جرت في تلك اللحظة عملية مساومة رديئة مع الله، قال لنفسه: إذا استعدت ثروتى فسأعطي هذه الطفلة شيئاً ما، رغم أنها بغفوتها الهائلة قد حفرت ثقباً ضئيلاً في صخرة قلبه، قد يتوسع يوماً لينفذ منه الضوء، أو تنتش فيه بذرة ما.

حين عبّرت عايذة عن استيائها من إصرار إسماعيل ومرسال على الملاحقة اللصيقة لهما أثناء نزهاتهما في الطبيعة، والتي تحتاج حسب معرفتها إلى أكبر قدر من الهدوء، وأقلّ قدرٍ من البشر، كانت تلك ربما من المرات القليلة التي تستاء فيها من شيء، ابتسم مايك وهوّن عليها: "إسماعيل يمكن أن يتعد قليلاً إذا طلبت منه، لكن مرسال، كيف سأصفه؟ إنه جحش، لكنّه الجحش الضرورة!".

كان يعبر المراحل الأخيرة من الأزمة الحادّة التي تعرّض لها، والتي لم تكن بسبب أيام قلقه الأخيرة، بل بسبب سنوات نجاحه. عجز عقله عن استيعاب ما يحقّق، وراكم قلقاً كل يوم، فما يحصل عليه لم يكن مؤسساً على خيال، أو على رغبة، بل يأتي هكذا، من العدم.

لم يتهيأ عقله لتلقّي هذا. فالواقع الذي لم تسبقه مخيلة سيكون ضرراً خالصاً. الرياضي الذي لم يتخيّل نفسه مراراً على منصّة التتويج قد يموت إذا ما وقف عليها فجأة ذات مرّة. والعالم الذي يخترع تقنية لم يحلم بها الشعراء قبله لن تكون تقنيته مفيدة بشيء. والمرأة التي تقبل رجلاً لم تتخيّل قبلته مراراً ستشعر أنها تُغتصب أو تُستأجر.

بعد سنوات شرح الدكتور شعنيني لطلابه معنى الضغط الهائل فقال: ليس بالضرورة أن يكون الضغط مشاكل وهموماً وقلقاً، ربما يكون العكس تماماً. لقد عالجت مريضاً ذات يوم، ظلّ لسبع سنوات يتلقّى خبراً جيداً كلّ يوم ويتقدّم خطوة كلّ يوم، ويتعلّم معرفة جديدة كلّ يوم، ويتذوّق متعةً مختلفة كلّ يوم، ويكسب ثروة كلّ يوم، في النهاية انهار تماماً، لأن

المسافة التي قطعها دون توقّف، من القاع الذي كان فيه إلى القمة التي وصلها، فأقّت قدرة عقله على التحمّل. حين توقف هذا الخط البياني الصاعد لبضعة أيام، انتبه عقله وجملته العصبية لما تراكم فوقها، فانهار. كلّ ليرة خبأها في خزانته، خبأً مقابلها قلقاً بحجمها، كلّ معلومة يعرفها، وكل متعة، تأتي وتجلب معها خوف فقداها، وشعور عدم استحقاتها. رأيتم إذا جئت برجل جائع، لا أقصد جائعاً الآن، بل جائع حقيقي، ووضعته أمام أصناف الطعام، واستمرّ بالأكل دون توقف، وهو يعرف في قرارة نفسه أن هذا الطعام ليس له، تخيلوا أن يستمرّ ذلك لسبع سنوات!

لقد عالجت هذا المريض، عالجتُه عصبياً ونفسياً، وأرى أنه نجا عصبياً لأن فيه قوة المتكيّف البدائي، ونجا نفسياً لأنه فعل أشياء يقول الناس إنها خيرة، فمنحتَه أيضاً شعور الاستحقاق.

في بحث للدكتور شعنيني أيضاً، نشر في دورية جمعية العلوم النفسية (العدد 4/1997، شعنيني، جبران، ص 134 - 156) حلل نموذجاً يُعتقد أنه يقصد به المريض نفسه، وقد جاء في أحد أمثله التطبيقية:

”مريض شاب عاش طفولة قاسية للغاية، كان محروماً من أبسط الأشياء، ثم انتقل إلى مستوى مختلف تماماً، امتلك ثروة كبيرة خلال سنوات قليلة، تبدو حالة نموذجية لاضطرابات نفسية متفق عليها، لكن حالة هذا المريض كانت مختلفة تماماً، وصل إلى الانهيار.

في إحدى الجلسات التي اعتمدنا فيها مدرسة العلاج المعرفي السلوكي، عادت إلى ذاكرته واقعة يمكن اعتبارها مفتاحية لفهم الحالة. فقد كان في السادسة، يتيماً تربّيه جدّته العجوز، عاقبه المعلم القاسي في الأسبوع الأول من المدرسة لأنه أخطأ بكتابة حرف الألف، طلب من الجدّة أن تشتري له ممحاة كي يصحّح الأخطاء، قالت: ليس معنا عشرة قروش، لا يمكننا شراء ممحاة. حاول ألا تخطئ.

غيابُ المحاماة وضع ذلك الطفل تحت ضغط شديد، أبقى حواسه متيقظة طيلة الوقت، كي لا يتعرّض لعقاب المعلم، لا يمكنه التراجع عن الخطأ كبقية خلق الله، ولا يمكنه تحمّل العقاب القاسي.

صار مصمّماً على العمل بهذه الطريقة. كلُّ خطأ مهما كان صغيراً سيدفع ثمنه غالباً، صارت هذه الدرجة من الانتباه وتحفيز الحواس كتلة هائلة تضغط على بنيته العقلية والعصبية، حتى وصل تشعّب حياته، وتعقيد عمله، إلى مرحلة تتطلب بالضرورة ارتكاب أخطاء، فسقط.

قبلت عابدة من مايك في ثالث محاولة مبلغ عشرة آلاف دولار أوصى بإحضارها من الفندق، ولكنها اشترطت أن تشتري أشياء لرفقة بمئتي دولار، وتوزّع المبلغ المتبقي على أشخاص محتاجين، شكراً للرب الذي نجّاه.

ونقلت له في اليومين التاليين وصف السعادة التي عادت بها من عجز ستجري عملياتها الجراحية أخيراً، وأخرى حصلت على سماعة أذنين، وأطفال حصلوا على ملابس وألعاب، وقد كانت بارعة وصادقة لدرجة أنها كانت المرة الأولى التي يشعر فيها مايك الشرقي (وغريب الحصو كذلك) بأن مساعدة الآخرين فعلاً يصنع لذة غريبة ويحقّق معنى ما.

كان ينجو ويشفى، ولاكتمال ذلك عليه أن يتعاطى الدواء الحقيقي الذي يشفيه، أي تحويل الدنانير الكويتية إلى دولارات.

وفي اليوم الذي سمح فيه الدكتور بالخروج من المستشفى، ظهرت علبة الدواء من بعيد. جاء اتصال من أبي الصقر، أنه قادم خلال أيام.

روبية ثم دينار ثم لا شيء

في الثاني والعشرين من حزيران 1982 صدرت الصحف الفرنسية وصفحاتها الأولى متفقة جميعاً على التندر على ما جرى في الليلة السابقة في مدينة الوليد الإسبانية، والتعامل معه كنكتة تاريخية، حتى إن "اللوموند" جعلت مانشيت الصفحة الأولى تلخيصاً لما جرى: "نزل الأمير، أعطى الحكم بئر نفط، ألغى الهدف!"

الأمير المقصود فهد الجابر الصباح، رئيس اللجنة الأولمبية الكويتية، وهو الوحيد من أسرة الصباح الذي أدركته القوات العراقية حين احتلت الكويت وقتلته في الساعات الأولى لدخول قصر دسمان صباح 2 آب. والحكم هو السوفييتي ميرزولاف ستوبار، الذي أوقف عن التحكيم قبل أن يهنأ بلقب "الحكم الروسي"، الذي كان سيحوزه بفاصل أشهر عن احتلال الكويت. والملغى هدف آلان جيراس، هو الرابع في مرمى الكويت حتى تلك الدقيقة من مباراة الكويت وفرنسا ضمن المجموعة الرابعة في الدور الأول لكأس العالم، التي كان لها أن تنتهي بخمسة أهداف لهدف، لولا نزول الأمير بدشداشته البيضاء إلى منتصف الملعب تحت عدسات الكاميرات.

العالم بكامله يومذاك كان يعتقد أن الكويت أغنى بلد على الإطلاق، وأن كل رجل يلبس دشداشة يحمل في جيبه بئري نفط على الأقل، وكل سوفييتي يمكن أن يفعل أي شيء لقاء زجاجة كولا وبنطال جينز ومئة دولار.

لكن ما لم يكن يعرفه الناس يومذاك أن اقتصاد الكويت ليس بهذا الحجم الذي يبدو عليه، لدرجة أن العشرات والخمسات وكسور الدينار

ظلت كافية لتلبية احتياجات هذا الاقتصاد منذ اعتماد الدينار عملة محلية في الكويت بدلاً من الروبية الهندية في عام 1960، ولم يحتج إلى قطعة نقد من فئة العشرين ديناراً حتى عام 1986، وهي الفئة التي تجتمع منها في خزائن مايك الشرقي ما كان لما قبل أشهر يعادل ميزانية حكومة صغيرة، ولم يخطر لمايك أنه يمكن أن يحصل شيء ما ويطيح بها بلمسة واحدة.

تراكبت الاعتقادات كلها فوق تلة الورق الملون التي لا بد من قدح خيال ما لجعلها دنانير مجدداً. وهو ما تبين أنه هدف ممكن إذا ما استقبل مايك أبا الصقر القادم خصيصاً للاطمئنان على صحة صديقه، والبحث معاً عن حل لهذه المعضلة. وقد بدأ اهتمام أبي الصقر بوصفه البدوي الشهم الذي يلتزم بوعوده اتجاه صديقه، لكنه أصبح شريكاً في عوائد عملية الإنقاذ، بسبب إصرار هذا الصديق، ثم بسبب إدراكه لفداحة المبلغ الموجود بعد انتهاء مهلة الاستبدال، والذي كان يفوق مئة ضعف توقعاته.

أمضى مايك ثلاثة أيام يجري فيها استشارات مأجورة، تخللتها تسع دعوات طعام، وفناجين قهوة كثيرة وزجاجات نبيذ وويسكي وكونياك أكثر، شرب وأكل منها مدير بنك ومحرر اقتصادي وعميد كلية اقتصاد، وعضوان في مجلس النقد السوري، ومصرف لبنان، ومدير حسابات في كازينو لبنان، ويسار حمدي، أكبر تاجر ومهرب عملات بين سورية ولبنان، ومنصور منصور، كبير المحامين السابق في مكتب أرنست آند يونغ في الشرق الأوسط، ويقين دده، رجل الأعمال التركي المقيم في لبنان منذ شاع عنه أنه باع ساحة تقسيم لأحد السياح السعوديين، وجبار عبد القادر السائح العراقي الدائم في لبنان، ومنسق العلاقات مع تيار قيادة الجيش.

كل من أكلوا وشربوا واستلموا مغلفات دون توقيع إيصالات، قدموا أفكاراً مفيدة لهذا الشأن ولغيره، وانتهت اجتماعاتهم إلى أن هناك فرصة كبيرة للتعاون في أعمال كثيرة، وهم مستعدون لها، ومستعدون لتقديم أي استشارة أو خدمة.

في جلسة ليلية على كراسيٍ قماشية أمام البحر، استمع أبو الصقر لحصيلة استشارات مايك، وناقشا احتمالات كثيرة. كان الأرجح بينها هو الأسرى الكويتيون الـ 420 الذين أخذهم الجيش العراقي معه أثناء انسحابه، فلا بد أن لهؤلاء أموالاً احتفظوا بها في مكان ما، وعند عودتهم من الأسر سيحتاجون أن يستبدلوها، ويجب أن يكون لهم استثناء ما.

أثناء النقاش في كيفية استخدام هذه الثغرة، كشف أبو الصقر عن ملامح خطته: "في أول عملية تبادل أسرى سأكون موجوداً بالتأكيد وسأختار أحد العائدين، وأهمس في أذنه عند نقطة الأمم المتحدة بأن يصرّح بالمبلغ الذي يحتفظ به في مكان سرّي، نعطيه الدنانير ونستبدلها باسمه". الجواب الذي أعاد الكمد لوجه مايك كان رداً على سؤاله: متى؟

لا أحد يعلم، ربما شهر، ربما سنوات.

التمع الحلّ النهائي بسبب جملة من مرسال الذي شعر أن هموم معلّمه تتفاقم وتتجدّد: "معلّم إذا حدا زاعجك، منجيبو، إذا بيكون عند الجن الأزرق منجيبو لعندك لهون هوّي وكلّ عيلتو!". أثنى إسماعيل والمرافق الآخر على اقتراح مرسال وزأروا كالأسود معربين عن استعدادهم للموت في سبيل معلّمهم.

عثر أبو الصقر على ضالّته في الجملة الأخيرة:

هذه هي، عائلته. سنختار عائلة أحد الأسرى ونقنعهم أن يقولوا إنهم عثروا على مبلغ خبّاه والدهم في مكان مخفي في المنزل، ونستبدله باسمهم. أستطيع أخذ موافقة من الحكومة على هذه العملية. انتظار مزاج صدام حسين قد يضعّ أعمارنا وأموالنا. ثم أضاف: هؤلاء الرجال مخلصون، حافظ عليهم وكافئهم!

أكملاً ليلتهما يبحثان التفاصيل العملية، مثل نقل الأموال بشكل سرّي

إلى الكويت، الحصول على الموافقات الحكومية اللازمة، العثور على العائلة المناسبة والاتفاق معها.

**

يتولى يسار حمدي عملية نقل الأموال من بيروت إلى الكويت عبر مطار المنامة لقاء مبلغ مقطوع على كل حقيبة. وعثر أبو الصقر على الشخص المناسب، وهو عبد الرزاق الهكط، الشاب الذي يعمل تحت إمرته. صنع قصة عن أبيه الموظف في قصر بيان، والذي اختفى مع دخول القوات العراقية إلى "حولي". فهم الشاب المطلوب منه، وأطاع رئيسه، ورضي بالمبلغ الذي سيحصل عليه وهو أكثر قليلاً من خمسة بالمئة من إجمالي المبلغ المستبدل، والذي لن يكلفه سوى التفاوض عن الحقيقة الصغيرة بخصوص وفاة أبيه، الموظف فعلاً في قصر بيان، التي حدثت بسكتة قلبية طبيعية أثناء الأيام الأولى للغزو، مما جعلهم يتأخرون بتوثيق واقعة الوفاة. وهو التأخير الذي استخدمه أبو الصقر لتسجيله كمفقود حرب.

العريضة التي قدمها عبد الرزاق إلى الحكومة، تضمنت وصف ما حصل معه، وأرفق بها المحضر الموقع من أعلى الجهات وأكثرها مصداقية واحترافية، والذي يثبت واقعة عثور المواطن عبد الرزاق في قبو المنزل على صناديق احتفظ فيها والده الأسير بثروة العائلة وإرث آبائه وأجداده. ولم يكن المحضر الذي يؤكد التحقق من هذه الواقعة موقعاً من رتبة أقل من أبي الصقر نفسه.

وفيما كانت المرجعيات الرسمية تناقش هذه الواقعة وتدرس كيفية التصرف معها، بدأت الصحافة بنشر أجزاء من تلك العريضة، وصارت بعض عباراتها أشبه بالشعارات لعشرات الناشطين والفاعلين في قضية الأسرى وجمعيتهم.

"الأسرى في قلوبنا، وأموالهم التي يحتفظون بها قبل وقوعهم في الأسر

دَيْنٌ على كلِّ ضمير حيٍّ في الكويت وفي الإنسانية جمعاء، مهما بلغت هذه الأموال وحتى لو كانت بعملة أهل الكهف... فضمير كلِّ كويتيٍّ "يسامح ولكن لا ينسى" إلا فيما يخص الأسرى، فهو "لا يسامح ولا ينسى ولا يعقل ولا يقصّر ولا يألو جهداً".

بعد شهرين كانت الـ 60% من المبلغ الإجمالي (وهي حصّة مايك) قد عادت دنانير مجدّداً، وتم تحويلها لدولارات خلال دقائق، وتمت عملية نقلها مصرفياً دون إجراءات إفصاح، بخدمة جليّة ومدفوعة الثمن من جمال عبد الناصر، مدير بنك الخليج والعالم الجديد.

نجاح خطة أبي الصقر شجّع مايك على القفز بعيداً، ولم يكتفِ باستعادة تلك الثروة كما كان يحلم، وكما قايض ربّه قبيل خروجه من مستشفى بحّس، بل أعاد الضبع الشره إلى مقدمة رأسه، وبدأ يستفسر عن كمية الدنانير التي أخذها صدام من الكويت، وأبين يمكن أن تكون الآن. ولم يكن من الصعب أن يعثر على الخيط الذي يوصله إلى قلب كرة الصوف المعقدة.

"الأموال والغنائم الكويتية ليست ملفاً واحداً، إذا كنت تبحث عن لوحات أو مقتنيات أثرية، فعليك بعاصم التكريتي وعزيز نومان الخفاجي، الذهب والعملات الأجنبية بيد عديّ، أمّا إذا أردت استعادة حاسوب ما أو كتب أو مستندات من الأرشيف الوطني، فعليك بنقيب الأطباء الدكتور راجي التكريتي!" هكذا أجاب جبار عبد القادر حين سأله عن مصير غنائم معركة الكويت المظفّرة، وجواب السؤال الثاني جاء مشجّعاً للغاية: "صاحبك الكميّ من أقرب الرجال لقصي: الكميّ عينه!".

العلاقة مع الكميّ تعود إلى أيام الشيخ قسّام، وهو من ضيوف جبار الدورين الذين يهتمّ بهم مايك بشكل خاص ويؤمّن لهم طلبات خاصة جداً. ولنقل إنه كان من النوع الذي يملّ بسرعة، وبعد يومين من رحلة استجمامه يقول لمايك: "النساء جنس عاطل ومضجر، أليس لديكم نوعٌ آخر؟!".

لذلك كان من السهل إرسال دعوة للكميت وتحضير مجموعة من الأنواع الجندرية للترفيه عنه بضعة أيام، بعد محنة الحرب الأمريكية الظالمة على العراق العظيم. بدأ تحضيره بجلسة عمل في PLAN Z، استهلها ببعض الشتائم للكويت ولآل الصباح الذين استعانوا بالأجنبي على أشقائهم، وجلبوا الغزاة لأرض العرب، ودنسوا أرض الأنبياء والرسل بقوات الكفر والأكام. ثم عرض فيها ما يريد بشكل واضح: "لديكم 100 مليار دولار من العملات المتنوعة والسبائك الذهبية جمعتوها من المصارف وخرنات الشركات في الكويت، هي حق للعراق بالطبع منذ أيام نبوخذ نصر وأبو جعفر المنصور، وهذا لا يختلف فيه اثنان. لكن بين هذه الأموال حوالي 2 % بالعملة الكويتية. دون شروح كثيرة، لدي من يشتريها، ويدفع قيمتها الحقيقية وفوقها 50 مليون دولاراً".

. وكم قيمتها الحقيقية؟

. صفر.

. ماذا تقول؟ حسب كلامك الذي لا أوافقك عليه تساوي ملياري دولار.

. كانت تساوي، بل كانت تساوي مليارين وربع مليار، لكنها الآن لا تساوي شيئاً. هذه عملة ملغاة. ندفع فوق الصفر خمسين مليوناً ونستلم في الرمادي أو دھوك، وتتولى المسؤولية عن عملية النقل.

. وما الذي سيفعله زونك بها، ما دامت هي ملغاة؟

. لنقل.. يريدھا كتذكّار.

. طلب الكميت مهلة أسبوعين ليسأل من هم أعلى منه.

خلال هذه المهلة تذكّر مايك عرضه السخي الذي قدّمه للرب، وفكّر أن يسدّد الفاتورة السابقة كي يسهّل الحصول على الفاتورة التالية. ملأ سيارة بالألعاب والملابس والهدايا، وحمل مبلغاً كبيراً من المال، ويمّم وجهه شطر عابدة ورفقة.

دون مقدمات، أخبر عايدة أنه جاء الآن لينهي معها ما سيقدّمه ليضمن حياة رقيقة، وأبدى استعداداه لدفع أي مبلغ وفعل أي شيء.

بهذوئها المفرط، ابتسمت عايدة: أخبرتك أن لا مشكلة بالمال، أنا أصدقك الآن أنك تريد أن تنقذ هذه الطفلة وتشاركني رعايتها، أريد أولاً أن يكون لها وجود قانوني، وأريد ألا يتزعمها مني أحد. كنت عاهدت ربي أن أقابله عذراء، ولولا ذلك لتزوجت أي رجل كي أسجلها على اسمه.

. سنجد حلاً، أعطني بضعة أيام!

عاد الكميت يحمل موافقة على العرض من حيث المبدأ، واعتراضات بالجملة على الأرقام. فالمئة مليار دولار أكاذيب كويتية، والرقم أقل من ذلك بكثير، ونسبة العملة الكويتية أكثر من 2 % لكنها أقل من الـ 600 مليون دينار التي تحدّث عنها مايك: "يا راعي المروّة، كلّ الكمية المطبوعة من العملة الكويتية أقل من 600 مليون" ونسبة الـ 2.25 % من القيمة الحقيقية قليلة جداً، وأصحاب الشأن يفضلون حرقها باحتفال شعبي في بغداد على بيعها بهذا السعر.

عند انتهاء زجاجة الويسكي الأولى كانت المفاوضات قد وصلت إلى طريق مسدود، والفتاة التي أحضرت الزجاجة الثانية همست لمايك بوضع كلمات، نقلها بطريقته الخبيثة لكميت: "يخبروني أنهم جاهزون بانتظارك" رسم ملامح سؤال على وجهه، فسارع مايك للتوضيح: "سيمو وميمي، ظننتك تعرف" ازداد استغراب الكميت ولم يعرف من سيمو وميمي، فأوضح: "سيمو الشاب صاحب الشعر الأشقر الذي أعجبك ليلة مغادرتك وقلت إنك تريده مرّة أخرى حين عودتك، وميمي المرأة التي استقبلتك في المطار اليوم" تغيّرت ملامح الكميت نحو الانفراج: "وهل هما معاً؟" غمزه مايك غمزة خبيثة: "إنهما زوجان، وهما في السرير الآن، يستحّنان معاً لأجلك بانتظار انتهاء اجتماعنا".

اشتعل المقعد تحت الكميّات ولم يعد يستطيع الجلوس، وخلال دقائق كان قد وصل إلى قاع ما سُمح له بالتفاوض عليه:

. سنجرّب الصفقة بدفعة أولى خمسين مليون، والثلث 10 % من سعر 1 آب 1990، والتسليم في بغداد، والتسديد بسبائك ذهبية، وأنا أريد 1 % أستلمها هنا بالدولار.

ضحك يسار حمدي لفكرة نقل الأموال إلى بيروت أولاً، وكان الأسهل له والأقل تكلفة على مايك نقلها عبر البوكمال فدير الزور فدمشق فالكويت. أنجز أبو الصقر ما عليه بجهد أبسط بكثير من استبدال الدفعة الأولى. وكل ما فعله هو العثور على أبناء جدد فقدوا آباءهم ووجدوا ثروتهم. وقدموا طلبات تتضمن اسم عبد الرزاق الهكط وكلمة "أسوة بـ" مكرّرة عدّة مرات. صادقها أبو الصقر وتحقّق منها، وتابع عملية صرفها، وحصل على خمسين بالمئة أعطاهم منها عشرة.

خلال أسابيع نُقلت الدفعة الثالثة وكانت أربعة أضعاف الثانية، بطريق آخر من بغداد إلى الحسكة، ثم ماردين، فمطار دالامان الحديث في موغلا التركية، فالكويت.

أثناء رحلة حقائب المال فكّر مايك أن يبقي حصته في الكويت للبدء باستثمارات هناك في مجال العقارات والسياحة، طرح الأمر على أبي الصقر الذي شجّعه بشدّة وعرض شراكته، لكنّه نصح مرحلياً بعدم إبقاء مبلغ بهذا الحجم في مصرف كويتي، كي لا يلفت نظر أحد للطريقة الملتوية التي استخدموها. واقترح أن ينقله إلى دبي التي بدأت فيها حركة اقتصادية ضخمة، وبدأت بنوك كبرى بافتتاح فروع لها هناك، وهي تقدّم خدمات ميسّرة للغاية ولا تسأل لا عن الدجاجة ولا عن البيضة، ولا من منهما كانت أولاً.

المدينة التي تبيع المستقبل

قبل سفره إلى دبي بيوم، قام بزيارة سريعة إلى بكفياً ليحصل على مباركة عايذة ورفقة، حمل لهما الهدايا، أعطى عايذة مغلّفاً فيه خمسون ألف دولار: "أريد أن تتوقفني عن العمل". ضحكت عايذة وأعدت له المغلّف: ومن أخبرك أنني أعمل من أجل المال؟ أصرّ أن تأخذ المال وأن تفعل به ما تشاء، فقالت: سأوزّعه كما هو، هناك كثيرون يحتاجونه أكثر منّي ومن رفقة، المكان الذي ستذهب إليه ينتظرك فيه رزق وفير، أتمنى لك التوفيق. قبل الطفلة النائمة وذهب ليستعدّ للسفر.

كان الاتفاق أن يستلم المال في دبي نقداً من مندوب يسار. ويصل أبو الصقر في اليوم التالي ليلاقيه هناك. يفتحان حسابات مصرفية ويضع كلّ منهما حصّته فيه، ويقضيان معاً يومين يناقشان فيهما الأعمال، ويستكشfan المدينة التي تعدّ بالفرص.

استلم حصّته من الدفعة الثانية، وحصّة أبي الصقر عن الدفعات الثلاث، العراقيتين والمايكية. وضع الحقائق في جناحه الواسع في الفندق، وخرج ليتعرّف على المدينة ويمضي الساعات المتبقية حتى وصول أبي الصقر، الذي اختفى من الوجود للمرة الثانية في عام ونصف. لم يصل. ولا هاتف يمكنه الوصول إليه. ولا "بيجر ينطيه إشارة" مضى يومان من الترقب والانتظار في مكان غريب. ثم جاء التفسير من التلفزيون هذه المرّة.

بيان من مصدر رسمي كويتي يأسف لاستغلال بعض ضعاف النفوس

قضية الأسرى المقدّسة ليحقق أرباحاً باسمهم وعلى حساب قضيتهم، ويكشف للرأي العام عن ضبط شبكة تشترك فيها أطراف دولية ومحلية قامت بعملية تلاعب تقوم على استخدام أبشع الوسائل للترّيح من أنبل القضايا، وأن السلطات المعنية قامت بإلقاء القبض على رأس هذه الشبكة، وهو موظف في موقع حسّاس. تمّ إلقاء القبض عليه أثناء محاولته الفرار من المطار، وألقت القبض على عدد من المتورّطين الذين رضخوا للترغيب والترهيب، وأسأؤوا لذويهم حين لفقوا الأكاذيب. ووعد المصدر بأن تنجح السلطات الأمنية في الوصول إلى الأطراف الخارجية لهذه الشبكة عن طريق التعاون مع الدول الصديقة والشقيقة، وتحقق السلطات الآن مع رأس هذه الشبكة في شبهة التواصل مع العدو.

خرج المدير المصري لفرع البنك الإماراتي ليرحّب شخصياً بالمستثمر اللبناني الراجب بافتتاح بعض المشاريع في دبي، بعد أن أخبره زميله جمال من بيروت عن أهمية هذا المستثمر في قطاع السياحة وصناعة الترفيه في برّ الشام كلّه. قدّم له شرحاً وافياً عن التسهيلات والخدمات المصرفية غير المتوافرة في أيّ مكان في العالم، وفيما كان يملأ بيانات فتح الحساب، اقترح عليه زيارة هيئة الاستثمار للتعرف على الفرص المتاحة في المدينة. وبعد أن قرأ حجم الإيداع الافتتاحي في الحساب، عدّل نصيحته وأخبره أن من يريد استثمار مبلغ بهذا الحجم لا يحتاج إلى زيارة الهيئة: فقط سأصل بهم، وسيرسلون أحد المديرين لزيارتك في مكان إقامتك. وأضاف لمسة شخصية بأن كتب له على ورقة صغيرة عنوان بار مختبئ في الفهيدى يقدّم عروضاً مميّزة لنخبة الوافدين.

الرقم الكبير الذي أثار اهتمام المدير المصري كان محتوى واحدة من ستّ حقائب وصلت تهريباً إلى جناح مايك في الفندق.

وزّع محتوى الحقائب الأخرى على عدة حسابات في بنوك مختلفة متذكّراً دروس معلمه الشيخ قسام. وضع توقيعه على آخر بيان فيما يتحسّر

على صديقه الشهم: "مسكين يا أبا الصقر، من سيقنعهم أنك كنت تريد أن تساعدني فقط، على كلِّ لقد ساعدتني كثيراً، فرَّح الله عنك، حين تخرج بالسلامة ربما ستجد أموالك بانتظارك، أو ربما سأستثمرها بالنيابة عنك!".

**

الراقصات الروسيات اللواتي رأهن في الليلة السابقة كنَّ مسيطرات على تفكيره، حين أخذه طلعت القيمري، مدير علاقات المستثمرين في إدارة المشاريع، بجولة في السيارة على طول حصة دبي من شارع الدفاع، كان يهزُّ رأسه تحسُّراً لأن هذه الفكرة لم تخطر له قبل زملائه في دبي، لذلك لم يستطع أن يرى ما يتحدث عنه ذلك الشاب الفلسطيني السوري، فقد كانت عينا مايك ترى مساحات من الرمال، وكلمات طلعت تصف أبراجاً وفنادق ومباني شاهقة. لم يساعده الوصف الدقيق، ولا مزج الكلمات العربية والإنكليزية، فسأله بشكل واضح: "من سيبنى هذه الأبراج؟" أجاب بكلمة واحدة وبابتسامة: "أنت!".

الإجابة السريعة والذكية كانت كافية ليطلب منه إيقاف السيارة والجلوس في مقهى لتبادل حديث مفيد. كانت السيارة قد قطعت ببطء 53 كيلومتراً من الرمال التي تتخللها بضعة مبانٍ شاهقة، تبدو وكأنَّ مارد المصباح العملاق قد غرس أصابعه تحتها في نيويورك أو لوس أنجلوس وحملها مع أساساتها ونباتاتها ووضعها في هذه الرمال قبل الفجر بقليل. لا يمكن أن تكون غير ذلك، وإلا فلماذا لا يوجد حولها شيء يشبهها. ولماذا لم تكن موجودة في الليلة السابقة؟

أول انطباع تشكَّل لديه بعد الجلوس في المقهى الإيطالي الأنيق أن الرشوة ليست جزءاً من ثقافة هذا المكان، وبالتالي قد يكون مربكاً العمل فيها. وأن طلعت مخلص للمؤسسة التي يعمل بها، ومؤمن تماماً بما

يفعل. يسوق المدينة بطريقة بارعة، ويبيع ما ستستمرّ دبي ببيعته لسنوات طويلة: المستقبل.

البرج الذي تراه الآن هناك برج الشيخ راشد، إن كبرى الشركات المالية في العالم تشتري أو تستأجر فيه الآن، لقد افتتحتة الملكة إليزابيث بنفسها وكانت ترتدي فستاناً أبيض. وتوقع خلال عامين أن يصبح من أهم ثلاثة مراكز للتجارة عالمياً. نحن مدينة طموحة، نخطط لننافس وول ستريت. وما نعرضه عليك أن تقنص حصة منه، يمكنك أن تبني الأمبار ستيت إذا شئت. أنت تشتري بالتراب مستقبل الذهب.

أجاب طلعت عن كل الأسئلة التي خطرت لمايك، أخبره عن التسهيلات والتحفيزات، وسهولة الحصول على إقامات وقروض وعقارات ورخص. اقترح عليه أن يأخذ أحد مشاريع الفنادق في هذا الشارع وبنينه، أو يبني أبراجاً سكنية أو تجارية، نصحه بأحد المواقع الحساسة المطروحة حالياً، ووعدته بإرسال دفتر الشروط والمخططات الأولية إلى الفندق بعد الظهر، لكن السؤال الأكثر أهمية لمايك جاء جوابه سلبياً: "بشرفني العمل معك، وشكراً لإطرائك. لكنني سعيد ومستقرّ في عملي وأتطور بطريقة جيدة".

ازداد إصرار مايك، وأراد الحصول على هذا الشاب بأيّ ثمن، إنه النموذج المفضّل لديه. الذكي الذي يتظاهر بالعادية، الطموح الذي يتظاهر بالقناعة:

لا بأس، أتفهّم حبكّ لعملك وإخلاصك لمؤسستك، لكن أريد دعوتك كصديق لتقضي إجازتك القادمة عندي في بيروت، سنمضي بضعة أيام من ألف ليلة وليلة، ولا أقبل الاعتذار أبداً.

قبل طلعت الدعوة التي لن يصلح بعدها أبداً. والتي سينقذها خلال شهر، وستحوله من خريج كلية الاقتصاد المتفوق الذي يبني مستقبله حجراً

حجرًا، إلى آلة جِّبارة في مصنع مايك الشرقي لتوليد المال، وستدفعه لخلع خاتم الفضة الذي يلبسه في خنصره اليمنى لإعلان ارتباطه بمرؤى التي تنتظره في مخيم اليرموك، وستسلب مرؤى اعتقاد طلعت أنها أجمل من وما أنجبه الفلسطينيون منذ أنجبت راحيل بنت لابان ولدًا من ابن عمّتها يعقوب، وسيُلقى بمرؤى إلى جبّ النسيان حين ستحسر فتيات مايك الشرقي عن آهات فجورهن لاستقباله، كما خرجت عذراوات أوّرشليم ليحسرن عن رؤوسهنّ على الأسوار ويغنّين في استقبال النبي سليمان: "أنا لحيبي وحيبي لي!".

**

في الطائرة باتجاه بيروت، أحصى مايك حجم الأرباح التي قدّمها له صدام حسين بمغامرته المجنونة تلك خلال سنة وتسعة أشهر، والتي ضاعفت ثروته لا عشر مرّات كما جمحت خططه، بل خمسين مرّة، أحصى النقود السائلة الموجودة في البنوك والمخبأين السريين. وقف في مقعد الطائرة التي كانت وقتئذٍ تعبر بادية الشام، وكاد يصرخ: "عفا أبو عداي، والله ما قصرت!". أضاف القيمة التقديرية لأبولو والياطر والملهيين، التي يتابع تسديد ثمنها شهرياً لورثة الشيخ قسام.

انتفض حين جمع الأرقام على بعضها، نظر حوله وتفحص وجوه الركاب الآخرين واحداً واحداً، وكاد يصرخ فيهم: هل تعرفون كم يملك هذا الرجل العادي الجالس بينكم؟

أراد أن يخبر أحداً ما أن خطوات صغيرة تفصله عن الرقم الخرافي، مبلغ قد لا يحتاج سوى لعملية استثنائية واحدة أو استمرار أعماله الاعتيادية بنجاح لسنة أو سنتين وسيملك لقب ملياردير، وسيصبح في الطابق نفسه مع رجل لبنان القوي الذي يملأ الشاشات والصحف بوجهه الكبير وبثروته الأكبر، والذي سيصبح رئيساً للحكومة بعد بضعة أشهر.

الموضع الجديد الذي آل إليه، بات يحتم عليه أن يوزع ثقته على أشخاص كثير، ويعطي صلاحيات أوسع لمن يعملون معه، وهذه مهمة شاقّة لرجل لا يمكنه منح الثقة لشيء أو لأحد. رسم في ذهنه خارطة الأشخاص والمواضع التي سيعملون بها، فكّر بمن يمكنه الاعتماد عليهم أكثر من الآخرين. قرّر أن يفعل كما تفعل الشركات الحقيقية، سيضع هيكلية ويحدّد مواصفات الوظائف، عليه أن يخلق مؤسسة. أليس بيع الجسد كبيع الغسلات؟ لم يعد يبيع أجساداً فقط، أضاف سلعاً أخرى على الرفوف، وسيصيف أخرى وأخرى، وسيصبح متجره عابراً للحدود، إن لم تكن دبي فسيبحث عن أماكن أخرى خارج لبنان الصغير.

أول مكان فكّر فيه هو الباب الشرقي في دمشق، عبر في ذاكرته الشارع المستقيم، تخيّله يعجّ بالبارات، وتخيّل الغرف العلوية لأبنية الشارع كلّها ملأى برجال ونساء يخلعون ثيابهم على عجل، تخيّل أقواساً من الضوء الملون تصل البيوت الطينية ببعضها. تخيّل بوابة الغوطة مقابل الباب الشرقي وقد تحوّلت إلى أبراج زجاجية هائلة كتلك التي تحدّث عنها طلعت، تراجع عن الفكرة سريعاً: ما زال الوقت مبكراً يا دمشق، ما زلت أقوى منّي يا مدينة!

”قال ربّ بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين“

خلال أيام كان أستاذان جامعيان رشّحهما الدكتور شاكِر عريجي عميد كلية الاقتصاد والإدارة يحاولان فهم ما يريدُه مايك، وتفرّعات عمله، وحجم النمو المتوقع، ويدوّنان الملاحظات ليقوما بوضع نظام الشركة وهيكلتها وتوصيف الوظائف، حين قاطعهم ضابط في الأمن العام واستأذن باصطحاب مايك إلى الخارج قليلاً:

. بسبب معرفتي بك وخدماتك السابقة، طلبت من رؤسائي ألا نعزّضك لحرّح اعتقالك أمام الزبائن، لدينا تعليمات من أعلى الجهات بتوقيفك، أنت مطلوب في تحقيق دولي، لذلك أرجو أن ترافقني بهدوء، الدورية تنتظرنا في الشارع.

التحقيق بالطبع يدور حول التلاعب بقضية الدنانير الكويتية، والتعليمات أتت من ليون ودمشق والرملة البيضا في وقت واحد، فالسلطات الكويتية بعد التحقيق مع أبي الصقر خاطبت الأنتربول الدولي بشكل رسمي، وخاطبت سورية ولبنان بشكل أخوي لتضمن أعلى درجات الاهتمام بضبط الشبكة كاملة. وكان الرئيس الهراوي يقيم وقتئذٍ في الرملة البيضا بدلاً من قصر بعبداء الذي لم يُقم أحد بإصلاح أضرار إخراج العماد عون منه بالقوة. أتت التعليمات من مبنى أعاره رجل الأعمال رفيق الحريري لرئاسة الجمهورية وأنفق على مصاريفه ربع مليون دولار شهرياً، قبل أن يحوّلَه مقرأً لجريدة المستقبل.

جلسات التحقيق كانت تستمر لساعات طويلة في كلّ يوم من الأسبوع

الأول، لكنّها صارت متباعدة فيما بعد، ولم يستطع أن يتأكد من الجهة أو الدولة التي ينتمي إليها كلّ من المحقّقين الذين شاركوا فيها أو فقط استمعوا ودوّنوا الملاحظات.

في اليوم الرابع والعشرين كان مايك الشرقي قد اعترف بكلّ شيء، وزوّد المحقّقين بكلّ ما يريدون لاستكمال ملفّاتهم، وتضمّنت الإفادة الرسمية التي وقّعها ووضع بصمته عليها كلّ تفاصيل ما جرى:

”أجل أعرف تلك القصة، وأعترف أنني شاركت بها، لم أعرف مدى خطورتها وحجمها وقتذاك كما فهمت الآن. حين بدأت حرب الكويت جاء رجل اسمه أبو الصقر ولا أعرف له اسماً أكثر من ذلك، وتعاقد معي على تأجير غرف في الفندق له ليقوم بتأجيرها للكويتيين الآخرين، وتقديم وجبات الطعام وغيرها، وقدّمت له عرضاً بسعر مخفّض لأنه متعاقد بالجملة. بعد فترة طلب منّي أن أوّمن له خزنة كبيرة ليضع فيها أمواله لأن الخزنة الموجودة في جناحه لا تتسع، وطلب بعدها أن يضع في أمانتي مبلغاً من المال، وهذا ما حصل فعلاً، لم أعدّه ولكنه كان مبلغاً كبيراً جداً، وكان يضيف على هذا المبلغ بشكل دائم. ثم بعد فترة وكنت مريضاً زارني في المستشفى، ويمكنكم التأكيد من المطار أنه جاء إلى لبنان خلال فترة وجودي في المستشفى ليوم واحد أو أكثر لا أعرف، طلب منّي أن أسلّمه الأموال التي أودعها عندي، ولم أكن أستطيع النهوض ومغادرة المستشفى، فهدّدي بالقتل إن لم أسلّمه الأموال اليوم، تحاملت على نفسي، وغافلت الأطباء والممرضات وهربت من المستشفى ليلاً، سلّمت الأمانة له، وتسبّب ذلك بدخولي في غيبوبة لفترة.

بعد خروجي من المستشفى بفترة قصيرة، عاد أبو الصقر، وقال لي إنه يبحث عن شخص يعمل مع المخابرات العراقية ومقيم في بيروت، لكنّه لا يعرف اسمه الحقيقي، أخبرته أنني أعرف شخصاً عراقياً يتردّد على مطعم الفندق كثيراً، وربما يكون قادراً على مساعدته فيمن يبحث عنه.

عرّفته على شخص اسمه جِبَّار ولا أعرف اسم عائلته، وجلست معهما في بداية اللقاء وتركتهما وحدهما، ففي مهنتنا المطاعم والفنادق من قلة الذوق أن تجلس مع الزبائن لوقتٍ طويل، أذكر أنهما اجتمعا عدة مرات، ثم أحضر جِبَّار شخصاً آخر اسمه الكميّت واجتمعوا هم الثلاثة معاً.

كانوا مسرورين في آخر يوم، لأنهم تناولوا الطعام والشراب وكانت فاتورتهم 92 دولاراً، فدفَع أبو الصقر للعمال 300 دولار، ثم أخذني جانباً وشكرني لأنّي عرّفته على هذا الشخص.

بعد فترة اتصل بي أبو الصقر من الكويت، وقال إن الكميّت سيحضر حقائب يريد أن يتركها أمانة عندي حتى يرسل من يستلمها، وأكّد على إتمام الأمر بسريّة، وهدّدني إن أخبرت أحداً، وقال إنه يستطيع الوصول إليّ أينما كنت، وبالفعل حضر الكميّت وجِبَّار وشخص آخر لا أعرفه لكن عينيه جاحظتان بشكل واضح، وحاجبيه سميكان ومتّصلان، ومعهما ستّ حقائب مقلّلة، احتفظت بها ليومين، ثم أرسل أبو الصقر شخصاً سورياً اسمه رأفت، لا أعرف اسم عائلته، ولكن لديه جرح طويل في خدّه الأيسر يصل حتى عينه، واستلم الحقائب.

شعرت أن الموضوع فيه شيء غير قانوني، لكنّي لم أعرف ما هو، نحن في مهنتنا لا نسأل الزبائن كثيراً كي لا ننقّروهم.

وأنا مُستعدّ للتعاون مع التحقيق وربما أستطيع أن أساعدكم بنصب كمين للمدعو جِبَّار وللعراقي الآخر الكميّت وتسليمكم إياهما، وأنا أشهد أنهما شريكا أبي الصقر، وأعترف أنني خبأت الحقائب عندي ولم أكن أعرف محتوياتها.

نجح مايك في مساعدة العدالة، وعبر عن امتنانه لإطلاق سراحه بأن نفّذ حصته من الاتفاق الذي عقد نصفه مع المحققين، وعقد المحامي منصور نصفه الآخر من الخارج، فكان عليه لينجو أن يدفع نصف المال الذي حصّله للمسؤولين عن التحقيق، ولأن لا أحد استطاع معرفة النسب

الحقيقية لتقاسم الحصص بينه وبين العراقيين وبين أبي الضقر والمتعاونين معه، فقد دفع عملياً نصف المال الذي اعتقدوا أنه حصته وليس نصف حصته، والشق الثاني كان يقتضي أن يسلمهم المتعاونين العراقيين هنا في بيروت.

أحضر جبار إلى الياطر ليقدم له النورية الجديدة القادمة من سورية قبل أن يلوئها الزبائن الآخرون. زنتها له بالقول: "إنها تفصل حملات صدرها لدى خياطة خاصة، لأن المصانع لا تنتج هذا القياس"، ورتب للدورية المشتركة السورية اللبنانية أن تلقي القبض عليه عارياً، وتنقله مخدراً إلى دمشق فالكويت.

ولم ينجح وعده الثاني بتسليم الكميته، لأن المخابرات العراقية سبقته إليه. ويقال إنه أعدم مع نقيب الأطباء بتهمة الخيانة العظمى، لأنه كان وسيطاً في تسليم جهاز كومبيوتر منقول من الكويت ويحتوي معلومات حساسة إلى شخص كويتي.

المال كله الآن بحوزة مايك، وخيوط الصفقة تقطعت. الشركاء كلهم دفعوا ثمن ما اقترفت أياديهم الأثمة. والطرف السوري اللبناني من التحقيق كان متعاوناً جداً، وأرسل للأشقاء الكويتيين محاضر ونتائج تحريات تثبت صحة إفادته وتضعف الشكوك في علاقته بتلك الجريمة، وتقلل من دوره فيها، وتجعله مشاركاً هامشياً في الملف، وكان الثمن مضحكاً بالنسبة لمن سيعرف قيمة تلك الصفقات، وضخماً لمن قبضوه، ورحمة إلهية بالنسبة لمايك نفسه.

المستقبل يحتاج إلى عدم الالتفات للوراء، والنجاة مرّات ومرات تحتاج إلى الشكر مرّات ومرات. فكّر بعائدة، وبرفقة التي أصبحت تعويذته السحرية الجديدة التي تجلب مئات الملايين، وتخرجه من السجون وقاع الآبار، أخرج ورقة الهاملتون. تعويذة الآلاف. من مخبئها. وضعها في جيب قميصه، واتجه إلى بكفياً.

رجل وامرأة وطوابع

الربُّ يحسب حساباً لكلِّ شيءٍ، ويترك الاحتمالات كلها مفتوحة، كأن يخلق مهبلًا لطفلة ستصبح الأم تيريزا، ويخلق أزواجاً من الخصى لأولاد، هو يعلم أنهم سيشكلون يوماً مجلس كرادلة ويصبحون باباوات. بالطريقة نفسها خلق رحماً لعابدة الجليخ، ووهبها 372 بويضة تناوبت قناتا فالوب على إهدارها دون كلل في رحمها شهراً بعد شهر، وخلق لها مبيضين وكظرًا توزع الأستروجين والبروجستيرون في دمها، وقد دفع أحد الهرمونين (أو كلاهما من يدري؟) بالدم إلى شرايين وجهها حين أحس مايك الشرقي ظهره ورأسه أمامها ممسكاً بيده عشرة دولارات:

هذه الورقة حصلت عليها في أول يوم لي في لبنان، ولقد جلبت لي الرزق طيلة سنوات. إنها تعويذتي المجرّبة، اقبلها منّي، ضعيها أمانةً عندك حتى تكبر رفقّة، وحين يصبح الوقت مناسباً، انقلي إليها التعويذة، وكونا تعويذتي لقادم الأيام، اقبلها منّي مهراً، واجعلي رفقّة ابنتي.

ارتبكت الأنثى الحقيقية التي حاولت خنقها لخمسين عاماً، وصار لونها كقرص الشمس قبل الغروب بدقيقتين:

تعرض عليّ الزواج؟!

أعرض أن أجعلك أمّاً لرفقّة.

يعني لا تريدني؟

أريدك وأعرض عليك مهراً.

صحت المرأة، وأجهزت على محاولة هرموناتها بثلاث كلمات:

لكنّي عاهدت ربّي!

ابقي على عهدك، سنسجّل زواجنا، وسأحترم إرادتك وعهودك،
ونسجل رفقة ابنة لي ولك، وسأكون مسؤولاً عن كلّ ما تحتاجان.

استعادت عايدة لونها البارد وهي تمسك بورقة الهاملتون في يدها، وهو يحكي لها ما تعنيه له هذه الورقة وما فعلته له. استتيقت رفقة ومشت كالألة باتجاه مايك وجلست في حضنه، وكأنها تفعل ذلك طيلة الوقت، ملامح الأب التي ظهرت فجأة على الوجه القلق، وابتلال العينين بطبقة خجولة من الدمع. إدراك أهمية ورقة النقد التي عرضها كمهر. السلام الذي ارتسم على وجه الطفلة وهي تلقي برأسها على صدر مايك، جعل عايدة تشعر برجفة غريبة. تدرّج الضوء على وجهه، انعكاس الشمس القادمة من النافذة على الربع العلوي الأيسر من الوجه، لمعان نصف وجنة ونصف جبين وجفن كامل، مباعدة الشفتين عن بعضهما بهذا الفراغ الطفيف، الحلم الذي رآته في الليلة السابقة. تأملات الصحو التي ترافقها منذ نصف قرن. كل ذلك جعلها ترى ما لا تستقيم رؤيته منطقياً: في هذا الوجه خيط مسحوب من ضياء الطفل الناصري، وبقية الوجه كقشّ المغارة. هزّت رأسها لتطرد الفكرة الغريبة.

. موافقة.

احتاج تسجيل الزواج إلى ترتيبات قانونية تتطلب السفر إلى بلد آخر لتجاوز القانون اللبناني الذي يحصر واقعات الزواج بالمحكمة الخاصة لكلّ طائفة. المحامي منصور اقترح قبرص لسهولة إجراءاتها وسرعة الوصول إليها، ولأن له أعمالاً مشتركة مع مكتب محاماة هناك.

واحتاج إلى بعض الوقت حتى اطمأنت عايدة على بعض مرضاها الذين لا تستطيع تركهم لأحدٍ آخر، وحتى استوعبت أن اسم مايك الشرقي المسجّل في جواز السفر اللبناني، هو اسم بديل لهذا الشخص الذي سيصبح زوجها. وأنه يريد تسجيل الزواج باسمه القديم وبجنسيته الأولى،

كانت مذهولة لدرجة أنها لم تفكر حتى اليوم التالي بالاسم الثلاثي القبيح الذي ستحملة ابنتها: "رفقة غريب الحصى". وتراجعت عن خطتها لتغيير اسمها وإضافة اسم عائلة مايك إلى اسم عائلتها، لأن كلمة جَلِيخ لا تناسب كلمة الحصى خصوصاً إذا جاءت قبلها، وسيصبح اسمها مضحكاً أكثر مما كان في المدرسة.

أثناء ذلك الانتظار حصّن مايك مستقبل أعماله اللبنانية بدسّ أصبعه في حملات بعض المرشحين لأول انتخابات تجري في لبنان منذ عشرين عاماً، وأول انتخابات على الإطلاق تثير اهتمام شخص سوري لا يعمل في مركز قيادة المخابرات في عنجر. وفيما كانت الدول وأجهرتها وأذرعها تركّب اللوائح محدّية دعوات المقاطعة الداخلية الواسعة، ومتمكّنة على خارطة التوافقات الدولية الجديدة التي خلطتها حرب صدام المعتوهة، انتمت مساهمة مايك الشرقي إلى القاع المظلم حيث يُحسن اللعب تماماً. نوع آخر تماماً مثل إرسال واحدة من فاجراته لتقاطع اجتماعاً لأحد المرشحين عن دائرة كسروان مع زعامات المنطقة، وتشتّمه أمامهم وتهمه بأنه طلب منها الصعود في سيارته على طريق غزير قبل شهر، وطلب منها أن تمارس معه الجنس الفموي، ثم ألقاها في طريق مقفر دون أن يعطيها أجرها. استخدمت الألفاظ العامية المباشرة وهي تصف ما يجري، وقالت إنها عرفت من الصور المنتشرة ووصلت إليه، وختمت حفلة فجورها بما يعتبره الرجال إهانة الإهانات: "أصلاً لو كان في شي يستاهل كنت سامحتك بالعشرين دولار" الابتسامات التي خلّفتها العبارة الأخيرة كانت كافية لينسحب أي رجل متوسط الذكاء من الانتخابات ومن الشأن العام كلّ.

المذيع الشاب غير المرتبط بأحد والذي بلا خلفية سياسية، رأى في دعوات البطريك وآل الجميل لمقاطعة الانتخابات فرصة له ليضع قدماً في متن المتن، وأحسن التحضير لفرسته، وشبّك حضوراً وعلاقات مع عائلات الدائرة. لذلك احتاج مايك إلى فاجرة أكثر ذكاءً وصبراً وسفالة، فتطوّعت لمار في حملته وداومت في مقرّها، وتقربت منه، وتصرّفت

كعاشقة مفتونة بالكاريزما الخاصة للإعلامي البارز والسياسي الذي يهدّ عروش التقليديين، واستدرجته إلى الفراش، وغادرت فوراً وادّعت عليه بجرم الاغتصاب، وطلبت الخضوع لفحص طبي جنائي قبل أن تزول آثاره من جسدها.

اصطحب مرشحين آخرين إلى عنجر، قبض ثمن تلك المشاركات في الحرب الديمقراطية، وأعاد التبرع بجزء منها في حملات مرشحين آخرين على رأسهم الأستاذ رغيد وقائمته.

**

في تلك الانتخابات كان المواطن اللبناني مايك الشريقي واحداً من الـ 70% من الناخبين الذين لم يشاركوا فيها، ليس استجابة لدعوة صايب سلام أو سمير جعجع للمقاطعة، بل لأنه في اليوم المخصص لدائرة بيروت وجبل لبنان، كان في الطائرة إلى قبرص بصحبة عايذة ورقفة. لم يستطع التخلف عن الموعد الدقيق الذي حدّده المحامي، لارتباطه بتنسيق معقّد للسماح بسفر ورقفة دون أوراق ثبوتية. وكذلك أراد لحدث تأسيس عائلة أن يكون ككل الأحداث الهامة في سنواته التسع الماضية: يحصل حين يلوّح خريف بيروت مبشراً بأنه قادم.

انتهت إجراءات الزواج خلال دقائق بأوراق محضرة وموعد محجوز مسبقاً في دار البلدية في لارنكا. وخلافاً لطقوس الزواج المألوفة لم يقبل العريس العروس، ولم يمسك بيدها وهما خارجان باتجاه ليماسول في الجنوب لقضاء الليلة واليوم التالي قبل العودة إلى بيروت. ولم ينزلا في جناح العسل في الفندق، بل في جناحين كلٌّ منهما في طابق.

بدوا كأسرة عادية سعيدة وهم يمشون ببطء على طول الشاطئ، كانت رفقة تركض وقد أبهجتها نسائم أول أيلول القادمة من الشرق، من بيروت التي تبعد أقل من مئتي كيلومتر، وعايذة تركض خلفها لتبقيها في المدى الفعّال ليدها، أفلتت رفقة وركضت باتجاه بائع بالونات عجوز، حين وصل

إليها مايك كانت قد اختارت البالونات ذات الألوان الأكثر بهجة. استفسر من البائع بهزة رأس عن سعرها، فأجاب: "شيلينغ"، لم يفهمه فأخرج من جيبه قطع النقد الصغيرة من عملات متنوعة ومدّ يده للبائع ليختار منها ما يريد، كان بين الفكة جنيه استرليني ودولارات مفردة وأوراق من فئة عشرين جنيه قبرصي، مد البائع يده ليأخذ الجنيه المعدني الذي تربيّ على استخدامه، فسقط أرضاً بينهما. التقطته رفقة وتأمّلت تداخل الفضي والذهبي فيه، ثم شدّت قبضتها عليه تريد الاحتفاظ به، ضحك مايك والبائع وأعطاه بدلاً عنه.

تابعت رفقة بهجتها متراقصة مع بوالينها الملونة، ومايك يمرّر بصره على كامل الشاطئ المنحني، ويدرس ما إن كان هذا الشاطئ يصلح ليكون نقلته الخارجية بدلاً من دبي. لفت نظره تجمّع من أكواخ خشبية أنيقة تشكّل منتجعاً ملحقاً بمبنى متوسط الحجم، وجّه النزهة المسائية تلقائياً باتجاهه. فيما العمال يطوون المظلات البيضاء الواسعة استعداداً لاستقبال زائن المساء، عبّر لعائدة عن ارتياحه للمكان، وعرض أن يتناولوا العشاء ثم يعودوا لفندقهم، رحّب بهم شاب تشير سحنته أنه عربي، وساعدهم في الجلوس، شكره مايك بالعربية ليستكشفه، أشرق الشاب، وكرّر ترحابه بحرارة أكبر وباللهجة المصرية، عرفهم بأن اسمه محمد، وسألهم من أي البلاد هم، وحين عرف أنهم عائلة سورية لبنانية، عرض أن يغيّر لهم طاولتهم لأن الجالسين على الطاولة المجاورة قد لا يكونون مريحين لهم: إنهم إسرائيليون، وسيملؤون المكان بعد قليل.

طلب سمكاً مشويّاً له ولرفقة، وباذنجان بالجبّين والبندورة لعائدة. وزجاجة نبيذ كومانداريا الذي تعتبره الجزيرة أحد رموزها الوطنية. وخلال العشاء وفيما كان يحدث عائدة عن مشروع فندق جديد يفكر به في دبي، وأن هذا المكان أعجبه أكثر، ودون أن ينتبه أو يفكر، فعل ما لم يفعله لأحد ولم يفعله له أحد: أخرج الحسك من سمكة رفقة واحدة واحدة، نظّفها من الطرفين ومن المنتصف، وتفحص بأصابعه كل لقمة قبل أن يطعمها إياها.

خلال الساعتين اللتين احتاجهما العشاء حاول اقتناص بعض الدقائق من محمد للاستفسار منه عن آلاف الأسئلة التي يحتاج إلى إجابات عنها، لكن ازدحام المكان ووصول زبائن إضافيين على مدار الوقت، لم يسمحا بإكمال أيّ جواب. دعاه لتناول الإفطار معاً في صباح الغد في فندقه على الخاصة المقابلة للشاطئ، وودع مع الفاتورة ضعفيها ك مبلغ مشجّع لقبول الدعوة، وفيما كان يعدّ النقود ليدفع الفاتورة أعادت له رفقة الجنيه الذي احتفظت به طيلة الوقت. وكأنها أرادت أن تساعد في دفع الفاتورة.

في الصباح التالي عرف من محمد أنه فلسطيني من رفح، لكنّه مولود في مصر، وأنه يعمل في قبرص منذ أربع سنوات، أخبره مايك أنه يملك فنادق في بيروت، ويريد أن يفهم كيف تجري الأمور هنا، وهل البلد مناسب لإقامة مشروع سياحي، وأي نوع من الأعمال السياحية يناسبها.

زوّد محمد بكمّ لم يتوقعه من المعلومات، المدينة تستقبل من السياح سنوياً عشرة أضعاف عدد سكانها أغلبهم أوريون وإسرائيليون، زوّارها يأتون بشكل أساسي لسببين: التمدّد تحت الشمس، ولعب القمار.

لا أحد يأتي من أجل الآثار أو الطعام، كما تدّعي إعلانات البلدية، ولا من أجل الدعارة. الإسرائيليون يأتون ليلعبوا لأن الكازينوهات ممنوعة في بلادهم وهم مهووسون بالقمار. المدينة قريبة جداً، بين ميناء ليماسول وميناء حيفا أقل من 150 عقدة.

رغم أن المعلومات التي سمعها بكثافة كانت تشبه منشوراً ترويجياً، لكنّه أحسّ أن في هواء هذا الشاطئ فرصة تحتاج أن يلتقطها، وفي الطائرة أثناء العودة حسم قراره:

النقطة التالية قبرص. تّباً لدبي، لن أبني قصرأ على رمال يمكن أن تغور عندما تغير غيمة رأيها وتتوقف فوق.

كيف أصبح مايك معلماً.. معلماً حقيقياً

هذه المرّة؟!

آلاف الملقّات بانتظاره في بيروت، وصباحه الأول بعد العودة من قبرص كان أكثر أهمية من تلك الظهيرة التي دخل فيها فندق مازا جائعاً ومتعباً ويائساً، وذلك الفجر الذي رفته فيه دمشق بكامل قوّتها، وتلك الليلة التي مات فيها الشيخ قسّام فوق صدر نسرين التي حولها مايك إلى موظفة استقبال في البار، بعد أن استسلم أخيراً إلى أنها مجرد صورة صنعها الربّ على برنامج الفوتوشوب، ولم يستخدم أيّ تطبيقات أو وسائل إضافية لتحريكها.

عليه في هذا اليوم أن يصادق على هيكلية الشركة التي وضعها مختصّون، ويراجع تقارير الفترة الماضية، ويكلّف المحامين بتسجيل الزواج ثم خلق وجود قانوني لرفقة، وتسجيلها في السجلات اللبنانية والسورية، وعليه أن يعقد اجتماعات عمل مع الراضي ومع رغيد، واجتماعاً مع إسكندر ومحاميه لتسديد الدفعة الأخيرة من ثمن الياطر، وتثبيت عقود بيعه وبيع الملهيين الآخرين اللذين انتهى تسديد ثمنهما.

وعليه أيضاً أن يعقد اجتماعات مع المستشارين ليحسم قرار استثماره القادم في قبرص، ويختار لارنكا الطائرة أم ليماسول الباخرة. وأن يتأكد من صواب قراره بإلغاء فكرة الاستثمار في دبي، لا سيّما أن طلعت سيصل بعد يومين تلبية لدعوة مايك الملحّة، والتي لم يعد قادراً على التراجع عنها. بعد كلّ ذلك عليه أن يزور عايده وقد أصبحت زوجته الآن، ليرى كيف ستكون ترتيبات الحياة، وأثناء ذلك عليه أن يختار الأشخاص الثمانية

الرئيسيين الذين سيديرون: المال، القانون، الفن، السياسة، اختيار البشر، العلاقات، القرارات، الأعمال القذرة.

صار بحاجة إلى بيت، ولم يعد مناسباً أن يبقى مقيماً في الفندق، ويحتاج أيضاً إلى مكتب بعيد يستطيع إدارة أعماله منه دون الانشغال بالتفاصيل. اختار برماناً مكاناً للسكن، وكلف من يبحث له عن بيت مناسب، واختار جلّ الديب موقعاً للمكتب، لأنه يريد أن يكون في منتصف المسافة بين جونوية ورأس بيروت، وهو المكتب الذي بدأ بستّ غرف تحوّل خلال سنوات إلى بناء من ثمانية طوابق.

في ذلك اليوم تحول مايك الشرقي إلى مؤسسة. شكّل مجلس مستشاريه، واختار أركان حربه. اعتمد آلية تعيين المديرين والموظفين التي اقترحها الخبراء. وضع خطوط الفصل بين الأعمال التي يمكن جعلها تبدو محترمة، وتلك التي ستكشف نفسها باستمرار.

قفز بـ"هيما" من وظيفة منسّقة علاقات عامة إلى مديرة فندق، دون أيّ خبرة، اللهم سوى الانفراد بالرجال في غرف الفنادق. ومنح غصون صلاحيات أوسع لتصبح مديرة الفندق الوضيع والملاهي المجاورة له في جونوية، وتقضي معظم نهارها في تدخين الأرجيلة وشرب القهوة التي تصنعها بنفسها طيلة الوقت، ومحاولة تبادل الأحاديث المسلية مع الزبائن، وتهوين حجم العمل الكبير عن الفتيات في المواسم: "هل تظنّين هذا متعباً، يوم كنت في عمرك ضاجعت مدينة كاملة!"، ثم تضيف بتفاخر: "لثلاثين عاماً كنت أنام مع عشرة رجال في اليوم، لقد ركع بين هذين الفخذين مئة ألف رجل!" ثم تخبط على فخذيها وتهمس: "وعشر نساء!"، وابتدعت طريقة لمراقبة أمانة المحاسبين والفتيات، وهي وضع صندوق الواقيات الذكورية بين قدميها، وإحصاء عددها كلّ بضع ساعات.

أبقى ماغو في مكانه مع صلاحيات أوسع. ولخصّ مهام إبراهيم الجديدة

بإطلاق لقب المفكّ عليه، لأنه الشخص القادر على فكّ أيّ عقدة، وحلّ المشاكل التي تتطلّب قلباً خالياً من الرحمة وضميراً متساهلاً للغاية. رندة ستكون سكرتيرته الخاصة ومديرة مكتبه، وهي من ستشرف على تجهيز مكتب جلّ الديب، أطلق على عبود تسمية مدير الإدارة العامة، وكلفه تنسيق العمل بين مختلف الشركات في لبنان، وسعد سيكون المدير المالي، وسيدقّق سجلاته بشكل دوري جون أبي مسعد محاسبياً، ويراقب التقارير اقتصادياً د. شاكر عرجي. فريد يدير شركة السيارات بالراضي أو دونه، ومجلس مستشارين لاتخاذ القرارات الكبيرة.

كان حذراً من التحول إلى شيخ قسّام، ومن ظهور غريب حصو جديد في حياته، لذلك اعتمد نصيحة أبي مسعد، الخبير في مصرف لبنان قبل الظهر، وفي مجلس مايك الشرقي بقية اليوم: ستحتاج إلى أسماء كثيرة لتمرّ عبرها بعض الأعمال، والأفضل أن تستبدل بالأشخاص عند الحاجة شركات، أسّس شركات بقدر ما تستطيع، أسّسها في بلدان عدّة، ولتكن كلّها شركات أموال إما مساهمة أو محدودة المسؤولية، ستكون شخصيات اعتبارية تعادل الشخصيات الحقيقية، ولكنّها ستخفيها.

لم يستطع الاجتماع بإسكندر المشغول بالانتخابات النيابية التي خاضها بنفسه هذه المرّة، بدلاً من أبيه الذي فضّل جعل نفسه زعيماً أعلى من هذه السفاسف، وأنجز الاتفاق على مسار الإجراءات مع المحامي، وكلف محاميه الرئيسي الأستاذ منصور منصور باستكمالها.

الراضي، الذي لم يبدُ مكترثاً كثيراً بمعركة شقيقه الانتخابية، اختار PLAN Z لعقد اجتماع تصفية حساب آخر دفعة من السيارات الكويتية التي تمّ فكّ مصادرتها في سورية، وتشارك كأس، والتشاور بشأن فرصة جديدة معروضة عليه.

”دعهم يُحضرون لنا زجاجة جوني ووكر، لأن الصفقة التي أتيتك بها لها علاقة باسكتلندا!“.

ضحك مايك:

جوني ووكر؟ لا تقل لي إنك تريدها بلاك ليبل!

لا الصفقة كبيرة، ثلاث سفن، تستحق غولد أو بلو.

مسكين يا راضي بيك، بلو ليبل نشره مع من يشترون سيارتين، السفن تحتاج سنغل مالت، لدي زجاجة ديلمور عمرها 45 عاماً، أفنّعني بجديّة الصفقة لأمر بإحضارها!

شركة إيرانية لديها ثلاث ناقلات نفط ضخمة متوقفة منذ ست سنوات، تعرّضت لهجوم خلال حرب الخليج الأولى، ولا يمكن إصلاحها إلا في اسكتلندا حيث صنّعت أول مرة، واسكتلندا لا تسمح قوانينها بالتعامل مع إيران، سنشترىها باسمك ونسجلها في مكان آخر، نصلحها، ثم نعيد بيعها للإيرانيين أنفسهم، أحضّر الزجاجة!

يعني قصفها أبو عداي؟ حتى الآن يمكنني إحضار زجاجة تشيفاز ريفال أو ديمبل على الأكثر، أعرف أنك اتفقت مع الإيرانيين سلفاً، لكنني لن أضحي بزجاجة الديلمور ما لم تثبت لي أن الشركة الاسكتلندية ستقوم بالعملية.

أحضّر زجاجة الديلمور! مدير الشركة سيأخذ حصّة، لقد طلب تسعة عشر مليون دولار، وسيستلمها في بيروت، للدقّة قال إنه يريد 19 مليوناً ومئة وتسعين ألف دولار.

الرقم غريب، لماذا يحتوي على كسور؟ وفوق ذلك هو كبير جداً مقابل إصلاح سفن، لكن لا بأس، أنا أحبّهم، أحبّ هذا النوع من الرجال. أحبّ المرتشين صنّاع العصر الجديد، إنهم من يجعل الأعمال ممكنة،

لولاهم لكننا ما نزال نعيش في الكهوف، أو في السجن. مرسال.. اذهب إلى جناحي وخذ معك أحد موظفي البار ليدلّك على زجاجة اسمها ديلمور 45، أحضرها لنذبحها على شرف الراضي بيك! وعاد ليوجّه كلامه للراضي: أليس غريباً أن يوافق شخص اسكتلندي على عمل بهذه الخطورة، ويطلب رشوة بكلّ صراحة؟

لقد أوصلني صديق إلى مدير الشركة مباشرة، أخبره أن لدينا عقد صيانة سفن، دون أن يخبره التفاصيل، حين حادثته وبمجرد أن ذكرت له اسمي، تبين أنه يعرف والدي شريف بك، سألتني عنه إن كان ما يزال حياً، وطلب مني أن أكون صادقاً معه وأخبره الحقيقة كاملة كي يساعدني، فشرحت له كل شيء، فوافق وطلب هذا المبلغ.

مع انتهاء نصف الزجاجة التي كان مايك قد أعاد ملأها مراراً بالغلبنفيديك 3 من أجل اجتماعات مع هذا النوع من الرجال مدّعي الذائقة الرفيعة الذين لا يميزون ويسكي ثمنه أربعون دولاراً معبأً في زجاجة ثمنها ثلاثون ألف دولار، اتفقا على تفاصيل الصفقة وحجم التمويل المطلوب ومدة التنفيذ، وترتيب زيارة مدير الشركة إلى بيروت، وكان الوقت قد أصبح متأخراً للقيام بأهم ما على جدول اليوم.

وهو أول ما فعله في الصباح التالي. اتجه إلى مستشفى بجنس مباشرة، لأن عايده، كما توقع، كانت هناك تتجول بملابسها البيضاء بين غرف المرضى توزّع عليهم الأمل والابتسامات، كانت قد أودعت رفقة عند الراهبات في الدير، وعادت إلى حياتها الطبيعية. انتظرها رثماً أنهت جولتها وخرجاً ليجلسا في الحديقة.

طمأنها أن الإجراءات ستنتهي خلال أيام، أخبرها عن رغبته بشراء بيت لها، وتخصيصها بالمال اللازم لترتاح من العمل، رفضت كلا الاقتراحين،

وقالت إنها لن تغيّر أيّ شيء في حياتها، ولا تريد منه أيّ مال، ولا تريد حتى أن يكثر من زيارتها وزيارة رفقته.

“الطفلة كانت تحتاج أباً على الورق، وما هو خارج الورق أنا مسؤولة عنه، لقد أنقذك الرب لأنه أراد إنقاذ هذه الطفلة وإبقاءها في حضني، لقد وافقت على الزواج منك لأنّي رأيت بعين قلبي صدق امتنانك للرب. لكنّي لن أكون زوجة لأحد. إذا أردت شكر الرب على شيء ما، ولم تجد إلا المال لتعبّر له عن ذلك، فابحث عن أحباب الله وأعطهم ذلك المال، الفقراء يحبّهم الله ويدخلهم ملكوته. هناك من يحتاجون إلى المال أكثر منّا، وسينير الرب قلبك لتجد ما هو أكثر من المال لتعطيه، مايك في داخل قلبك عود أخضر، اسقه، سيكبر!”.

ترك لعائدة مغلف المال الذي يحمله، وعرف دون أن تخبره أنها ستوزّعه كما هو ولن تحتفظ بشيء منه، مسحت على رأسه ووضعت عينيها في قعر عينيّه ومنحته ابتسامته أمّ في حفل تخرّج ابنها الوحيد، وفيما يغادر شيّعته بجملة أخيرة: صحيح، نسيت أن أخبرك، حين كنّا في قبرص حدثني عن مشروع في الخليج، رأيت في الحلم ليلة أمس، رأيت القديسة رفقته تملأ يدها بالرمل وتبتسم، وقفت فوق تلة رمل ودهنتها بالزيت، وصار الرمل يلمع.

خالف مايك الشرقي تسعاً من الوصايا العشر للمسيح، وخالف الـ 123 تحريماً ونهياً وكرهات التي وردت في القرآن والسنة أو أضافتها بدع الشيوخ على مرّ الزمان، وأهمّل فروض الإسلام الخمسة، اللهم إلا إذ اعتبرنا تخصيص راتب شهري لعاهرة متقاعدّة نوعاً من أنواع الرّكاة.

كان راضياً عن نفسه، مثلنا جميعاً، لا نحصي الذنوب التي اقترفناها، بل تلك التي لم نفعل بعد رغم أنها موجودة في الطبيعة والمخيّلة. معصيتان لم يرتكبهما مايك الشرقي طيلة حياته: القتل، وظنّ السوء بعائدة.

فلنحرت الرمل إذا!

حصيلة الآراء التي سمعها من مستشاريه قالت إنه لا خطر من ذوبان الرمال، ودبي باجتماع المذاهب ستكون قطعة من المستقبل.

تهطل سيول من الأموال على هذه البقعة من العالم، وتتجمع كما يتجمع المطر الغزير في بحيرة صناعية، وما لم يكن أمام هذه البحيرة بوابات تصريف يمكن التحكم بها بالقدر والوقت المناسبين فسينفجر هذا السد ويغرق كل ما حوله.

الكويت سحبت جرحها وانكفأت إلى كهف بعيد، لتنتوي على نفسها لزمن طويل وتجفف دموعها على مهل. البحرين وقطر أصغر من البوابات، وسيتسرب الماء - المال عن جوانبها. السعودية أكثر تجهماً وبدانةً من أن تلعب هذا الدور، والمهمة تحتاج إلى من هو أكثر خفة ورشاقة. فلتكن الإمارات بوابة المال من ذلك الشرق وإليه.

لم يدخل طلعت الجناح المحجوز له في فندق أبولو، وأبقى حقائبه في الاستقبال، وطلب الاجتماع بمايك سريعاً، أخبره أنه ليس في إجازة، وأن مديره حولوا إجازته إلى مهمة عمل حين أخبرهم أنه سيقابل مستثمرين لبنانيين وسوريين، ولذلك فهو يعتذر عن قبول دعوة مايك وسيدفع ثمن إقامته. لكنه سيغادر مباشرة باتجاه دمشق، لأن له خطيبة وأهلاً هناك يريد أن يراهم، وسيعود بعد بضعة أيام. وسيعطيه الآن ملف العرض المعتمد من هيئة الاستثمار، ويترك له دراسته ريثما يعود.

أخبره مايك أن حقائبه أصبحت في الجناح، وأنه حضر له برنامجاً غنياً

سيقابل فيه بعض الشخصيات الهامة التي ستخدم مهمته إذا كان يعتبر نفسه في حالة عمل، وأنه سيرسل من يوصله إلى دمشق.

اصعد الآن لتأخذ حماماً وترتاح قليلاً عشاؤنا اليوم في جونية، سنمرح قليلاً وأعرفك على مجموعة رجال أعمال بينهم نائبان نجحا للتوّ في الانتخابات، ستساعدني في إقناعهم بالدخول معنا في هذا المشروع". دخلت فنتان كانت كلّ واحدة منهن كافية للإطاحة بكلّ القرارات الصارمة والخطط المتقنة ليس لشاب فلسطيني عازب يروّج لإمارة ناشئة، بل لمخطّط إنكليزي وضع الإمارة والشاب ضمن لوحة رؤيته: رافقا الأستاذ طلعت إلى جناحه وساعدها في حمامه، إنه متعب من السفر.

في الطريق إلى جونية أخبره طلعت:

. سيتغيّر اسم شارع الدفاع، سيصبح شارع الشيخ زايد، وهذا يعني أن زرّ الإقلاع أضاء، وكلّ الجهود ستصبّ الآن لتحويله إلى ورشة عمل هائلة. وإطلاق اسم رئيس الدولة على الشارع تعني أن كل الإمكانيات ستكون مسخرة لجعله أعجوبة العالم الجديد.

الشروط الجديدة للاستثمار العقاري ليس لها مثيل في العالم، إنها فرصة نادرة لن تتكرر، يمكنك استلام الأرض والبدء بالبناء بعد تسديد خمسة بالمئة من ثمنها فقط، وتدفع المتبقي على عشر سنوات، وحين تبدأ البناء يمكنك البيع مباشرة. والأهم أنه يمكنك أن تسدّد وتقبض بشكل مباشر، وليس بالضرورة عبر حساب مصرفي، أي يمكنك نقل المال بحقيبة ولن يسألك أحد عن مصدر أموالك، وحين تبيع لن تسأل زبونك من أين أتى بالمال، يأتينا الكثير من رجال الأعمال الروس الذين يرغبون بالاستقرار في دبي، وهم يشترون عقارات بالجملة.

الأرقام كانت أكثر إغراء من الشروط، ألقاها طلعت من مسافة قريبة إلى أذن مايك وهما في المقعد الخلفي لسيارة يقودها مرسال بيضاء كما

يحب مايك، أخبره إياها بالقدم المربع وبالدرهم الإماراتي كما هي في السجلات، ثم حوّلها إلى متر مربع ودولار أمريكي كي يفهمها مايك وتحقّق إرادته: ثمن القدم المربع على الشارع الرئيسي 100 درهم، تدفع منها خمسة دراهم وتبدأ البناء. في النسق الثاني تأخذها بخمسين وتدفع درهمين ونصف، يعني أرض في شارع الدفاع تصلح لبناء برج من خمسين طابقاً أو فندق من 1500 غرفة تحتاج إلى 100 ألف قدم، يعني تسعة أو عشرة آلاف متر مربع، ثمنها 3 ملايين دولار، ادفع 150 ألف دولار وأبدأ البناء، أحضرت لك ملفّات لبضعة خيارات ستطرح خلال أيام للاستثمار.

أول شيء استنتجه مايك أن طلعت لم يسمح للفتيات بدخول الحمام معه، فما زال محافظاً على رصافته وصفاء ذهنه وانتمائه إلى عمله، وثاني استنتاج أنه لن يحتاج إلى شركاء جدد في هذه الفرصة، وأمّوال شريكه الموجودة في دبي أصلاً تكفي، وشريكه المغيّب مضى في سرداب قد لا يعود منه لألف عام. دخول هذا العالم الجديد سيكون من أموال أبي الصقر، وهؤلاء الذين دعاهم اليوم ليأكلوا الطعام، كان يخطّط في الحقيقة لجعل طلعت يأكلهم على العشاء بعروضه المغربية وطريقته الساحرة، لكن ما زوّده به طلعت من معلومات خلال الطريق جعلته يغيّر الخطة، ويقرر أن يأكلهم بنفسه فيما بعد.

عند باب المطعم وضع مايك يده على كتف طلعت بودّ صديق: ستتناول العشاء مع الأشخاص الذين دعوتهم، ونسهر ونمرح ونشاهد الراقصات، ولن نتحدث بالأعمال، فهذا ليس وقتها، قدّم لهم شرحاً عاماً عن المدينة، وسأقنعهم فيما بعد بطريقتي، بالنسبة لما يهّمك، اعتبر أنني سأشتري ما يدفع رؤسائك ليمنحوك ترقية.

لم يفهم طلعت سبب التغيير المفاجئ، لكنّه استجاب تماماً لطلب الرجل الذي يستمرّ بإثارة إعجابه، واندمج حتى أذنيه في السهرة الصاخبة التي تناوب فيها خمسة مطربين وثلاثون صنفاً من الطعام وعشرون نوعاً

من المشروبات، واثننا عشرة راقصة قدّمن عرضاً قادماً من شارع البيغال في باريس.

خلال دقائق الهدوء التي يمكن الحديث فيها، قدّم للشركاء المحتملين عرضاً بعبارات فضفاضة للفرص التي تُعدُّ بها دبي، وشجّعهم على زيارتها واستكشاف تلك الفرص. ومضت ساعات الليل، وكأنهم مجموعة أصدقاء هربوا في العطلة الأسبوعية من ضغوط العمل إلى جلسة مرحة تشجدهم بالنشاط للأسبوع التالي.

لم تفلح محاولات مايك لاختراق طلعت من خصيتيه، بعد أن أثبت أنّ جيبه أيضاً ليس كعباً يمكن للسهم اختراقه، واعتذر بتهديب شديد عن اختيار واحدة من الفتيات أو أكثر لترافقه إلى الفندق، وفضّل أن ينام مباشرة ليرتاح ويغادر في الصباح إلى دمشق.

قبل مغادرته، أعطى مايك ملفات لعدد من المشاريع التي سيتم طرحها الآن في شارع الشيخ زايد، منها فندق، ومجمّع من أربعة أبراج سكنية يجب أن تكون متشابهة، وأبراج تجارية متفرقة، ومول تجاري آخر في برّ دبي قرب برجمان، طلب منه أن يدرسها ويتخذ قراره سريعاً لأنه سيعود بعد أسبوع إلى بيروت، وستكون عودته إلى دبي في اليوم التالي.

وثق مايك بحدسه، لم يُجر استشارات كثيرة، ولم يدرس الملفات بالتفصيل: الطفل الذي بلا ممحاة، يمكنه أن يخطئ قدر ما يشاء الآن، فهو سيكتب على دفتر ولد آخر.

أجرى بضعة حسابات سريعة، وقال لنفسه: ماذا لو أن أبا الصقر لم يعتقل؟ أو أنه سيظهر في وقت ما؟ لن تكون هذه الأموال بحوزتي، قرّر استثمار أموال أبي الصقر دون أن يدفع فلساً واحداً من جيبه، إذا ربح فهي له، وإذا خسرت فهي لأبي الصقر، أموال جاءت من باطن الرمل وإلى باطن الرمل تعود، والأستاذ الذي نسي اسمه الآن سيعاقب أبا الصقر إن كان في الأحرف أخطاءً.

لم يستهلك طلعت الأيام السبعة لفسحته في دمشق، وعاد في اليوم الثالث، يبدو عليه التوتر والغضب. طلب من مايك عقد اجتماع سريع لأنه سيقرب موعد حجزه ويعود إلى دبي.

تعامل معه مايك بهدوء، وأصرّ على استبقائه. تعامل معه كصديق، ودعاه إلى سهرة هادئة في الجبل، وحاول أن يعرف ما الذي أصابه في دمشق. في البداية لم يقل سوى أنها بعض المشاكل العائلية، ثم تحدّث بإسهاب عن مروي، عن خطيبته التي يحبها أكثر من نفسه، والتي يخلص لها رغم آلاف الكيلومترات بينهما، ويفعل كل شيء في الحياة من أجلها، ولكنها لا تقدّر قيمته، وأنها استقبلته بالاتهامات وافتعلت مشكلة كبيرة واتهمته بأنه خانها في بيروت، وأن كل الرجال خونة، وخلعت خاتم الخطوبة وألقته بوجهه.

ضحك مايك، وحاول التخفيف عنه: أرايت؟ كان عليك أن تخونها فعلاً، هي الآن غيورة وواهمة وظالمة، لو أنك فعلتها، لكانت فقط غيورة. لتتحدّث بالأعمال، ماذا قرّرت؟

قبل الأعمال. حدّثني عن نفسك، منذ متى وأنت في دبي؟

منذ تسع سنوات، درست في جامعة دمشق، وبعد التخرج مباشرة سافرت قبل أن يستدعوني للخدمة العسكرية، نحن الفلسطينيون خدمتنا صارمة.

منذ التقينا أردت أن أسألك عن هذا الأمر، أنت فلسطيني ولكن اسم عائلتك يدل أنك من دمشق، القيمري أليس نسبة إلى القيمرية؟

لا بالعكس، القيمرية نسبة لعائلة القيمر، نحن من أكراد الناصرة، وأحد أجدادنا رحل إلى دمشق وسكن هذا الحي وتسمّى باسمه.

وهل في فلسطين أكراد؟

.ولمَ لا يكون؟ أليس لها شمال؟

ضحكا للنكتة التي لا يمكن أن تصدر سوى عن كردي، ولا يمكن أن يفهمها إلا عراقي أو سوري، واستعاد طلعت بعضاً من جدّيته وأضاف: لقد جاؤوا إلى فلسطين مع صلاح الدين.

كان المكان الذي تناولا فيه العشاء قرب برّمانا هادئاً وراقياً، ساعدهما على تبادل الكثير من الأحاديث الشخصية، تخلّلتها بعض تفاصيل العمل؛ كان مايك يدفع الأشياء باتجاه واحد: يريد ضمّ طلعت إلى فريقه، يريد أن يكون رجله في دبي، ذراعه داخل الهيئات الرسمية.

كان طلعت يتمنّع بهذيب، ويبيدي استعداداه لتقديم كل مساعدة ممكنة، وتسهيل أعمال مايك لأقصى ما يستطيع من موقعه في الهيئة. والتقط مايك تلك الملامح الغائمة من شخصية الطموح غير المنضبط وقد بدأت تظهر على طلعت بعد شعوره بالأريحية.

عادا باكراً إلى الفندق، ومنذ دخول البهو والجلوس لشرب شيء ساخن بعد العشاء، بدا طلعت أقل تشدّداً، فنظر ملياً إلى مؤخّرة الفتاة التي أخذت الطلب، وإلى ساقية نهدي الفتاة التي قدمت الشاي حين أطالت انحناءتها أمامه، وأبدى استجابة موحية للسيدة التي جاءت ويدها كأس نبيذ لتلقي التحية على مايك وتتعرف على ضيفه، ثم عبّرت عن إعجابها بحذائه.

غمزه مايك: لا تعرف ما معنى حذاء أليس كذلك؟ إنها تريدك، لا تتركها!

ظهيرة اليوم التالي كان طلعت قد بدأ يتكشّف عن رجلٍ آخر، استيقظ في ساعة متأخرة، طلب غداءً ليتناوله بدل الفطور وفي السرير أيضاً. كان جائعاً بسبب حجم الجهد الذي بذله طيلة الليل، مع نساء تناوين وتعاونٍ عليه.

حين دخل مكتب مايك، كان خاتم خطوبته الفضي قد سبقه إلى الدرج الأيمن العلوي، بعد أن صفع به الجدار في نوبة شبق فاقمتها رشقات الكونيك المدقّة على منحنيات الأجساد. ومع الخاتم كانت منظومته الأخلاقية واتماؤه إلى مؤسسته وصرامته في رفض الولاء المزدوج قد أصبحت في الدرج ذاته.

ألقي كل ذلك بجملتين: يبدو أن في الحياة ما يستحقّ إعادة النظر، ماذا تريد مني أن أفعل؟

تحدّث مايك بإسهاب، وأضاف لمسة شخصية غير مألوفة: سأحدثك كصديق، لتفهمني وتفهم ما سنفعل. أنا ولدت في دمشق، ليس في دمشق تماماً، في حيّ يشبه الأكواخ على أطرافها، كان أبي عسكرياً، هربت أمي وهجرتنا، ومات أبي بعد اختفائها بأيام، بقيت عند عمّة أبي وكنت أناديها جديتي. والمرة الوحيدة التي زرت فيها قرية أجدادي كانت يوم دفن أبي، اصطحبتني جديتي إلى هناك، كنت طفلاً في الخامسة، لا أعرف ما يحصل، هي أقدم ذكرى في رأسي، رجلان فقط من أبناء عمومة أبي شاركا في الدفن، حفراً قبراً بعيداً عن باقي الموتى، ووضعاه فيه دون صلاة. كنت وجدتي نقف شرقي القرية وتحيط بنا الرمال من كل الجهات، حين انتهينا لم يستقبلنا أي بيت من بيوت القرية، لم يسقنا أحد كوب ماء، مشينا لزمان أظنه لساعات، وصلنا إلى الحصو، القرية الكبيرة في المنطقة، وفيها أهل أمي، هناك سمحت لنا امرأة عجوز أن ننام أمام بيتها بين ثلاثة جدران من الحجارة تنام فيه الأغنام، في الصباح غادرنا تلك المنطقة والرمال تغطي جفوني وشعري وملابسي.

حين رافقتني في تلك الجولة في شارع الدفاع، كنت تحاول جعلني أرى مستقبل العالم، وأنا كنت أرى ذلك المستقبل بصعوبة لأنني عدت إلى الماضي. شعرت بثقل الرمال على رموشي، وكنت أرى مقبرة أبي الذليلة بين الأبراج اللامعة، أنا يا صديقي لا أحب الرمال، ولا أتق بها، تثير خوفي،

لذلك كنت متردداً، ولم أحسم قرارى بالاستثمار في تلك المدينة إلا قبل يوم من وصولك. عرض عليّ الخبراء معطيات وتحليلات كثيرة مشجعة، لكن هناك شخص أتق به كثيراً، إنها امرأة لا تشبهنا، أخبرتني بشيء جعلني أراجع ترددي، ثم أخبرتني أنت حين كنا في الطريق إلى جونية بمعلومة حسمت الأمر.

لم أعرف أن حياتك كانت قاسية بهذا الشكل، شخصيتك توحى أنك ولدت هنا، كنت أظن أن طفولتي في المخيم هي أقسى طفولة يمكن أن يعيشها إنسان، نحن متشابهان يا صديقي، أنا أيضاً عشت طفولة كهذه، وحتى حين أصبحت في الجامعة كنت أعمل في ورشة بلوك لأكمل دراستي، وغالباً ما كنت أذهب من آخر شارع اليرموك وحتى البرامكة سيراً على الأقدام لأنني لا أملك ثمن تذكرة الباص. على كل لا نجاح دون معاناة كبيرة، نحن أبناء اليوم، وأنا معك حتى النهاية.

. سننجح معاً. دعنا نبدأ العمل فوراً، الحياة لا تنتظر أحداً، خصوصاً من كان مثلنا، علمتني التجارب أن لا أعمال دون معلومات، وهذا ما أريده منك، لا أريد أن تخالف القوانين، ولا أن تمرّر لي ما لا يمرّ. أنت في قلب اللعبة، في مركز التحكم بها، وستكون مطلعاً على كل تفاصيلها، وهذه المعلومات قيمتها تقدّر بالذهب إذا أحسنّا استخدامها.

كي أفهمك أكثر، ما المعلومة التي جعلتك تحسم قرارك؟

. الروس يشترون بكثافة في دبي.

. الروس؟ هذا أثار اهتمامك أكثر من القرارات التي ستصدر بتغيير اسم الشارع، وبتسليم المستثمر مقابل دفع خمسة بالمئة، وبملفات الأبراج المطروحة؟ يبدو أنني بحاجة إلى أن أتعلّم منك الاقتصاد.

. من يملك المال في روسيا؟ إلى ما قبل عامين كان كل شيء بيد الدولة، ولم يكن يوجد أحد يملك أي مال، الثروات التي ظهرت الآن هي

أموال مسروقة من الدولة أو من تجارة الممنوعات. والروسي الذي يشتري في دبي هو واحد من هؤلاء إذاً، وما الذي يأتي به إلى دبي؟ هل تصدق أن شخصاً عاش حياته بين الثلوج يمكن أن يستقر في مكان حرارته خمسون درجة؟ إنه يريد تبيض أمواله.

وماذا يعني هذا لنا؟

أنه مستعد لدفع مئة بما قيمته خمسون، ولن يهتم للتفاصيل. إذا ما اشترى شقة فلن يهتم بما إن كانت المغسلة جيدة أم لا، كل ما يهمه أن تسجل الشقة باسمه ليبيعه فيما بعد، وربما في اليوم نفسه، ويقبض ثمنها بتحويل مصرفي لتصبح بيبض.

تقصد أن التسهيلات التي تقدمها دبي ستستفيد منها شبكات تبيض الأموال؟

ربما يكون الموضوع معاكساً. الشبكات هي الأصل، والتسهيلات نتيجة.

صمت طلعت طويلاً، ثم ارتسمت على وجهه ملامح من عرف للتو أن بابا نويل غير موجود:

ولكن هناك الكثير من الجنسيات التي تشتري في دبي الآن، ومنهم أورييون ويابانيون وأمريكان، وهؤلاء سيهتمون بنوع المغسلة، ولن يدفعوا مئة بما قيمته تسعون.

هناك الكثير من الأبرياء الذي سيبنون لهؤلاء ويربحون 12 %، وسينفقون منها 2.5 % على أعمال الخير امتناناً. دعنا نحن بنبي للآخرين، ونجني الأرباح التي لن يكون مقبولاً شرعياً إخراج الركاة منها، وإذا قبلت فيصعب حسابها.

ضحك طلعت للتعبير: ماذا تريدنا أن نفعل؟

من الملفات التي أحضرتها لي، سنختار الأكثر قابلية للبيع السريع،
ونبدأ به، وأنت من سيقدر ذلك.

ما دوري في الموضوع؟

أخبرتكم، أريد منكم أن توسّع دائرة اطلاعك على كل التفاصيل، وكلما
كان لدينا معلومات أكثر سبقنا الآخرين بخطوة، سأعطيك ضعف راتبك
في الهيئة، وسأعطيك نسبة على كل صفقة تتم عن طريقك.
أريد أن أكون شريكاً.

ستكون نسبتك نوعاً من أنواع الشراكة، لكن ستساعدني في كل
التفاصيل، أنا لا أعرف البلد، ستختار لي المقاولين والموردين، وسماسة
البيع.

لنبدأ بمشروع الأبراج الأربعة، جاءتنا تعليمات بالاهتمام بهذا المشروع
ومنحه الأولوية، هذا يعني أنه يهّمهم بشكل خاص، وسيفعلون كل شيء
لجعله ينجح.

هل تعرف معلومات كافية عنه؟

سيطرح رسمياً خلال أسبوع إلى أسبوعين، ويجب أن يكون عرضنا
وأموالنا جاهزين في الثامنة صباحاً يوم طرحه، لأنه قد يشهد منافسة.
المشروع 400 ألف قدم مربع، يتضمن بناء أربعة أبراج متشابهة كل منها
ستون طابقاً، فيه طابقان تجاريان، وطابقان للسيارات، وطابقان للخدمات،
وأربعة وخمسون طابقاً من الشقق الفاخرة.

أنا لا أعرف من الأقدام إلا تلك التي رفستني، ماذا يعني ذلك؟ كم
تكلفة المشروع؟ كم يجب أن ندفع الآن؟

بالمتر أظنها 37 ألف متر مربع تقريباً، وثمانها 40 مليون درهم، يجب

تسديد مليونين منها الآن لتحصل على إذن العمل، يعني أكثر قليلاً من نصف مليون دولار.

وكم أحتاج للبناء؟ لا فكرة لديّ عن أسعار البناء في دبي.

. ستبني نصف مليون متر مربع تقريباً، هذه حسابات معقّدة، الدراسة الدقيقة مطلوبة أصلاً ضمن العرض النهائي.

كم تريد على هذا المشروع؟

عاد طلعت إلى الخلف وبدأ بحكم الاعتياد بتدوير خاتمه غير الموجود في إصبعه: شقّة في الطابق الأخير من كل برج عند انتهائه، وأول شقّة أريدها باسم مروى لأنني سأ تزوجها رغم كل حماقاتها.

مدّ مايك يده مصافحاً: اتفقنا، سأكتب لك شيكاً على حسابي في مصرف أبو ظبي الوطني لتكلّف من يحضّر لنا الدراسات اللازمة لتقديم العرض الأولي، وسألحق بك حين تخبرني بالموعد الدقيق.

الليلة الأخيرة لطلعت في بيروت كانت في PLAN Z، اجتماع تعارف مع من سيخوض معهم التفاصيل على مدى سنوات قادمة، عرّف به مايك للطاغم الموجود: أقدم لكم طلعت القيمري، انضمّ إلى فريقنا اليوم، سيكون مدير فرعنا في دبي، ستعملون معه جميعاً، وستزورونه هناك، لذلك أنبهكم إلى بعض القضايا الهامة، يحب البيرة أكثر من الويسكي، وإذا شرب فودكا يُفسدها بعصير البرتقال، ويحب الخضار أكثر من اللحم، ومخلص لخطيبته، ويحب النوم باكراً، وأشكّ أنه يمارس الرياضة ويأكل سبانخ، ما عدا ذلك فهو شخص جيد.

أخذت السهرة شكلاً حميماً، تقبّل فيه الجميع سخريّة مايك بروح مرحة وزادوا عليها سخريّة من بعضهم ومن أنفسهم، فعرّف عن سعد: هذا المدير المالي خُلِق ليكون لصاً، لكنّه لا يسرقني أبداً، فمن شدّة بخله،

لا يحب إنفاق المال حتى لو كان هو من سيختلسه. وهذا ماغو مخرب الفن العربي، كلما جاءت فتاة جميلة ينام معها، ثم يصنع منها مطربة ويلقيها في وجوهنا.

اعترض ماغو: غير صحيح مطلقاً، لو كان الأمر كذلك فلماذا عدد المطربين الرجال أكثر من النساء، قاطعته تالا: لأن المطربين يخرجون من غرفتك منكوشين أكثر من المطربات، دافعت غصون عنه موجهة كلامها لطلعت: لا تصدقهم، إنهم يظلمونه، عشرين واحدة من بناتي جرين معه، إنه عنين.

بين خلطات الكحول التي تصبها فتيات كالشهب، وصحون الطعام التي تأتي كالثُحف بالمصعد، وبين المرح والضحك والرقص والغناء والمزاح البديء، وجدَّ طلعت جانباً جديداً من نفسه، وشعر أنه يمكن أن ينتمي إلى هؤلاء الناس الذين يتحدثون عن مجونهم وتهتكهم كما يشربون الماء، يمارسون الجنس ويتحدثون عنه كما القبائل البدائية، حتى الأستاذ منصور، المحامي الخمسيني الرصين، فكَّ ربطة عنقه الحريرية وعقدها على خصر هيماء وهي ترقص فوق الطاولة، فصفعته لأنه تدرَّع بربطة الخصر كي يقرصها في مكان حميم، وتلقَّى صفعتها بضحك ومرح: "المهم مسكتك!".

غادر طلعت بعد الظهر ليفتح لمايك الشرقي بوابة في الرمال، وعاد الراضي في المساء ليلمع مع مايك فتح بوابة في البحر. أركان صفقة السفن الإيرانية قد اكتملت، ويجب البدء بالتنفيذ.

ويدخل سمك السلمون إلى المياه العذبة من نهر "كلايد" كي يبيض هناك

وَقَّع الراضي اتفاقاً، بوصفه شريكاً متضامناً في شركة الجنوب للآليات، ومفوضاً من مدير الشركة السيد مايك الشرقي - لبناني الجنسية، اشترى بموجبه سفناً من شركة إيرانية خاصّة، باعته ثلاث سفن في المرحلة الأولى قابلة للزيادة بشروط العقد نفسها، وبسداد مؤجّل. وإذا لم يدفع ثمن السفن خلال عامين من تاريخ الاتفاق، فيتوجب عليه إعادتها للبائع، الذي يلتزم بموجب العقد بتسديد قيمة أيّ تحسينات تقع على السفن، وكذلك تغريمه بقيمة أيّ أضرار وقعت عليها.

كان بإمكان الراضي إكمال الصفقة بنفسه، لكنّه يحتاج إلى مايك لثلاثة أسباب: يريد أرباح الصفقة دون أن يغامر بتمويلها، ويحتاج لمفاجآت قد تحتاج إلى أعمال قرصنة وتهريب يتقنها مايك أكثر منه. والأهم من هذا وذاك، أنه يريد اسماً بديلاً كي لا يقاسمه أرباحها أخوه، الذي سيحتاج بالطبع بأن الصفقة أعطيت للعائلة لا له.

أدرك مايك ذلك، وعرف أيّ دور عليه أن يلعب، لكن ما كان يريد، يختلف عمّا يعتقدّه الراضي، فهو لن يكتفي بنصف أرباح الصفقة، بل يريد لها أن تكون محراثاً يشقّ طريقه في عالم البحر. لذلك جهّز فريقاً كاملاً من العلاقات العامة للتخصير لزيارة السيد ساكس، الرئيس التنفيذي لشركة ESSE إلى بيروت، ربّوا له برنامجاً منوّعاً يتدرّج من زيارة الكنيسة الإنجيلية المشيخية في زحلة، وقبو نبيذ في دير البرقوق، إلى حفل غناء شرقي من

ذلك النوع الذي ترافق المطربة في نهايته الضيف إلى الفراش، واختاروا
دزينة من السمراوات يقمن على راحته على مدار الساعة.

منذ الدقائق الأولى للاجتماع الثلاثي، شعر مايك أن معظم التحضيرات
لن تُستخدم، وأن وسائله المعتادة والمجربة لن تجدي نفعاً مع هذا الرجل
الجددي للغاية، واكتشف أن الراضي لم يكن يعرف عمّا يتحدث، وأنه التقط
كلمات متفرقة، ورأى فيها رمزاً من الريح، وعلى عادة الأبناء المدللين لم
يجهد نفسه بفهم الطريقة التي ستتم فيها العملية.

شرح السيد ساكس لمايك أن نقل ملكية السفن لشخص آخر وتسجيلها
في دولة أخرى، لا يعني شيئاً، ولن يحل المشكلة هكذا بسهولة، وأن العملية
أعقد بكثير. بسّط الأمر قائلاً: هذا يشبه رجلاً مطلوباً للقضاء في دولة ما.
يحصل على جنسية جديدة واسم جديد، لكنّ شهادة ميلاده موجودة لدى
قسم الشرطة وتظهر عليها أي تغييرات في وقوعاته. والسفينة حين تولد
يصبح لها رقم تعريفى هو أشبه بشهادة ميلاد، ومهما غيرت من مالكين
ورفعت من أعلام، سيبقى هذا الرقم ملتصقاً بها إلى الأبد. ما ساقدمه
لكم تغيير شهادة الميلاد، وهو أمر معقّد للغاية، وأنتم عليكم تغيير الاسم
والجنسية.

في الاجتماع الثاني على العشاء كان السيد ساكس أكثر صراحة بعد
أن نشأ رابط انسجام وثقة بينه وبين مايك، وروى أن شركته قبل أحد عشر
عاماً فقدت الاتصال بطاقم بحارة في شرق المتوسط. وبعد بحثٍ وتقصّ
ساعدت فيه الـ MI6، وصلوا إلى أنهم مخطوفون في لبنان، واستطاعوا
الوصول إلى من فاوضهم وسلّمهم البحارة العشرة المفقودين بعد أن قبض
مليون جنيه إسترليني عن كل رأس، "لقد قضيت في هذه المدينة خمسة
عشر يوماً أفاوضهم ويتلاعبون بي ويعطونني الوعود ويخدعونني، في النهاية

طلبوا فدية ثم رفعوها ثم رفعوها، ثم سلّمتهم المبلغ بنفسى، والآن أريد استعادته"، أراد الدخول فى صفقة مشبوهة وخطرة، لأنه يريد استعادة عشرة ملايين جنيه دفعها كفدية لعصابة خاطفين. فالخضوع للابتزاز ما زال إهانة تؤرّقه. والخاطف الذى ادّعى أنه المفاوض، وقبض المبلغ بنفسه لم يكن سوى: "شريف والد هذا الشاب" وأشار إلى الراضى الذى سلّهُ الارتباك.

مع انتهاء العشاء كانت كلّ التفاصيل قد تحوّلت إلى خطة تنفيذية، سيصطحب فريق مايك السيد ساكس بجولة سياحية إلى زحلة لزيارة كنيسة طائفته وأقبية النيذ، وحين يعود فى المساء سيكون المحامون قد جهّزوا العقود مع الشركة ومع السيد ساكس شخصياً، وسيدرس مع مستشاريه ما إن كان سيسجل السفن فى بنما كما يفعل الجميع، أو فى أتيغوا وباربادوس كما نصحه السيد ساكس: "من أجل مستقبلك الشخصى".

ستحصل السفن الثلاث على شهادات ميلاد تعود لسفن غارقة منذ الحرب العالمية الثانية، وستسحبها قاطرات بحرية، يفصّل السيد ساكس أن تكون هندية، وستدخل إلى غالاسكو من بحر الشمال عبر نهر كلايد، أي على خطأ سمك السلمون الذى يعود إلى هذه المياه العذبة حيث ولد أول مرة، ليترك بيوضه هناك ثم يموت، بعد أربع سنوات قضاها تائهاً فى تيارات المحيطات.

أراد مايك الاستئثار بالرجل وعدم تشتيت العلاقة معه بثرثرات الراضى وذكرى والده السيئة. فعرض عليه أن يأخذ مبلغاً مقطوعاً، ويترك له إدارة العملية وإدارة العلاقة مع السيد ساكس بالكامل، وتحملّ الريح والخسارة. وافق الراضى بسرور شديد، وتم تقدير أرباح الصفقة بـ 15 - 20 بالمئة

من قيمتها، وقبل الراضي بأخذ سبعة بالمئة من القيمة النهائية لما سيقبضونه من الإيرانيين بعد حسم المبلغ الذي سيأخذه ساكس، وبعد تحويله من دولار كما يقتضي الاتفاق مع الإيرانيين إلى جنيه كما الاتفاق مع الاسكتلنديين.

السيد ساكس لم يكن يطلب رشوة، كان يريد الثأر، سيقوم بلعبة التفاف صغيرة على القانون، ليس بوصفه مديراً لشركة تصنيع سفن وصيانتها وتسييرها، بل بحكم عضويته القديمة وعلاقاته المتجذرة في الغرفة والاتحاد الدوليين للملاحة. بينما السيد مايك لم يكن يريد التفاوض مع الرجل بل إعطائه ما يريد. رأى أن أهميته تتجاوز بكثير ما يبدو عليه، ولأن قبول الرجل المشاركة في هذه اللعبة والمجيء بنفسه إلى بيروت لإتمامها، يحمل معنى شخصياً وليس مالياً، لذلك عرض مايك توقيع العقدين بالجنيه الإسترليني، وهو ما وافق عليه السيد ساكس بحماس، معتبراً ذكر رقم عشرة ملايين جنيه بشكل صريح في العقد الثاني نوعاً من أنواع الاعتذار. وقد كرّر مايك الاعتذار بصيغة أخرى أثناء وداع الضيف الكبير في المطار: حين خطفوا بحارتك لم أكن لبنانياً أصلاً، ومع ذلك أرجو أن تقبل اعتذاري بالنيابة عنهم، لما تسببوا به من قلق وألم لكم ولأسر البحارة. ما لا يعرفونه أن ابني كان بينهم، ولقد ضروه.

صمّت مايك وزمّ العضلات المحيطة بشفتيه امتعاضاً شجعاً ساكس على الإدلاء باعترافه الأخير: الأمر ليس بالصعوبة التي صورتها، خياراتي كثيرة وسهلة، فأنا من القلائل الذين يعرفون أن في قاع المحيطات ثمانمئة ألف سفينة غارقة، نصفها غرق في القرنين الأخيرين.

من حَسَرَ الشمس عن الإمبراطورية؟

لم يكن جورج سوروس يعرف مايك الشرقي ولا سمع به، أو خطر له يوماً، هو أو حتى تلك الدول الواقعة على خط الانهدام الإفريقي، والتي ينتمي مايك إلى اثنتين منها. ولم يكن مايك الشرقي قد سمع بسوروس أو فهم وقتذاك معنى صندوق تحوُّط أو مضارب بورصة. ومع ذلك فقد كان الرجلان يلتقيان بعقيدة مركزية: الصحيح هو الريح والخاطيء هو الخسارة، باقى المفاهيم امسحوا بها مؤخراتكم.

مايك علّمته الفطرة ومعاشرة القوادين والفاستدين والمهريين. سوروس تعلّم من أمّته التي أراد رجل يتيّم اسمه ألكسندر هاملتون أن تكون أمّة تُبنى وكأنها شركة، وأن تبحث عن الريح قبل أي شيء آخر، حتى لو كان هذا الشيء المحافظة على علاقات تجارية ودودة مع بريطانيا العظمى أثناء حرب الاستقلال عنها. الرجل الذي ماتت أمّه وهجره أبوه وربّاه أقرباء بعيدون، تبنّاه الأب المؤسس وتاجر العبيد جورج واشنطن، وجعله يده اليمنى في الحرب، ووزير خزانته في السلم. ورغم أنه ترك جامعته في منتصف رحلتها، فقد أسس اقتصاد الولايات المتحدة كما نعرفه. فأسس المجلس الاحتياطي الفيدرالي وفسّر الدستور بعقل التاجر، واصطدم مع بقية الآباء المؤسسين جيفرسون وماديسون وكل الفلاحين من أمثالهما، لأنه عرف قبلنا بممّتي عام أن المال هو ما يجلب المال وليس القطن والتبغ والأخلاق.

كان أثر الرجل كبيراً لدرجة أن صورته ما زالت تطبع على ورقة العشرة دولارات حتى اليوم، ويتقاسم ذلك الشرف مع ستة آخرين بينهم خمسة رؤساء، وهي الصورة التي حملها مايك الشرقي لسنوات كتعويذة دون أن يعرف كم تتشابه حياته مع ذاك الهاملتون، وكم جاء زمنه مناسباً لاتخاذ هاملتون تعويذة. فالولايات المتحدة إذا ما أنجبت رجلاً عظيماً. وهذا احتمال غير مرجح في القرن الحالي. أو أجمعت على رمز عميق ما، وأرادت تكريم أحدهما بوضع صورته على إحدى فئات العملة، فأنها ستطرح أول ما تطرح بهاملتون، ولن تبدأ تغيير تقاليدھا النقدية من رؤسائها المرسومين على الأوراق الأخرى من الواحد إلى المئة، بل من المنتصف تماماً من فئة العشرة دولارات، وستفعل كما فعل مايك الشرقي حين استبدل تعويذته، وستضع عليها عايذة ما، رفقة ما، لا يهم من هي تحديداً، المهم أنها ستكون امرأة.

أراد سوروس أن يحجب الشمس عن الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، وضع خطة تبدو أنها مسروقة من سجلات الجحيم. واختار يوم الأربعاء السادس عشر من أيلول لتركيع بريطانيا العظمى على ركبتيها، أي بعد يوم واحد من توقيع مايك عقدين يتضمن الصغير منهما تقديم خدمات استشارية مقابل عشرة ملايين جنيه إسترليني بدلاً من قيمتها بعملة أخرى، والآخر بمئتين وعشرة ملايين جنيه تتضمن تنفيذ أعمال إعادة بناء سفن بناءً على التقرير الفني بحجم الأضرار. وقّع العقدين مع رجل اسكتلندي اسمه ساكس، بدا ممتناً لاعتماد عملته الوطنية وهو يوقّع واحداً بالأصالة عن نفسه والآخر بالنيابة عن شركته.

الرجل الاسكتلندي كان يسعّر صفقته الشخصية بـ 19 مليون دولار وأكثر قليلاً، كما كانت تساوي في عام 1981، وسره، لأسباب عاطفية، أن تكون بعملتها الأصلية التي كانت تنهار بطريقة غير مسبوقه حين حطت طائرته في مطار غالاسكو.

في الثامنة وأربعين دقيقة من صباح ذلك اليوم بدأ صندوق "كواتم فاند" الذي يرأسه سوروس، الجالس في مكتبه على الجانب الآخر من الأطلسي، بتنفيذ الخطة التي تحوَّط لها على مدى أشهر. وبدأ بطرح الجنيحات الإسترلينية في البورصة بكميات أذهلت الحكومة التي كان جون ميجر قد ورثها من مارغريت تاتشر مقيّدة باتفاق آلية سعر الصرف الأوربية. فقدَ البريطانيون الوعي واتخذوا خلال عشر ساعات قرارات تحتاج الاقتصادات عادةً لسنوات كي تستوعبها. فرفعوا سعر الفائدة مرّة كل ساعتين، وأدخلوا مفهوم المئتين والثلاثمئة نقطة تحريك إلى الدقائق، وكان آخر ما فعلوه في الساعة مساءً إعلان الانسحاب من اتفاقية التسعير الأوربية، وهو الإعلان الذي أحرَّ تشكيل الاتحاد الأوربي لسبع سنوات أخرى، وأضاف إلى ثروة سوروس مليار دولار، وخسارة العملة الملكية ربع قيمتها أمام الدولار.

أطلقت أوربا على ذلك اليوم اسم الأربعاء الأسود، وأطلق عليه سوروس اسم الأربعاء المذهل، وأسماه مايك الشرقي: يوم رفقة.

ففي نهاية اليوم، وبحسبة بسيطة، وجد أن فارق العملات بين العقود مع جميع الأطراف، قد حقَّق له بضع عشرات من الملايين، وأن كبير مضاربي الكوكب كان يعمل على خدمته دون أن يدري.

أول شيء خطر بباله هو رفقة تجري على شاطئ البحر في ليماسول، وتقف عند بائع البوالين، وتختار من العملات التي في يده جنيهاً إسترلينياً لتحتفظ به كلعبة، ثم تعيده إليه ليدفع ثمن العشاء، فقرّر سريعاً: هذا المال سأبدأ به العمل في قبرص كما أرادت رفقة، ولتكن الرمال والبحر معاً.

أراد أن يحمل إليها شيئاً، لكن كانت الأولوية لرحلة دبي التي لا تحتمل التأجيل، وقد أنجز رجله البارح هناك كل شيء بطريقة جعلته يكتفي بيوم

واحد، وقّع فيه الطلبات والتعهدات وسدّد الدفعة الأولى من ثمن الأرض، ومبالغ التأمين المطلوبة، والتقى برمزي سليمان، مدير الشركة الهندسية التي رشّحها طلعت لتنفيذ الأعمال المدنية، ورنّد باقر، المهندس العراقية الكندية التي ستقدّم مقترحات المخططات المعمارية، وعقّت منزلاوي، مديرة شركة التسويق العقاري الأبرع في دبي، وباشر إجراءات تسجيل شركة في دبي المدينة، وشركة أخرى في المنطقة الحرّة، وسجّل توكيلاً لمكتب قانوني لمتابعة الإجراءات، ومكتب مالي لمراقبة الحسابات.

وفي المساء كان طلعت قد ربّبت له لقاءً بدأ مع مستثمر روسي ينظم برامج ترفيهية وفنية في دبي، وانتهى على طاولة بار مع مجموعة أخرى من الروس الذين يأكلون كالأباطرة المتوجّجين حديثاً، وينفقون كالأباطرة المخلوعين، ويضحكون كمن خلعهم.

لم يكن أيّ من النقاشات ناضجاً وكافياً، لرداءة المترجمة ذات الأنوثة الفصيحة واللغة العربية المتلعثمة، ولأن استجابة مايك لطريقتهم في التفاوض كانت محبطة، فقد كانوا كمن يبيع الماء في عين الفيحة وهم يغمزون فتياتهم ليلتصقن بمايك ويتحرّشن به.

أخبرهم مايك أنه يفوّض طلعت بالاتفاق معهم على كلّ هذه المواضيع وغيرها، ونصحهم في المرة القادمة أن يجلبوا مترجماً يعرف معنى "أنا شبعان نسوان، جاي لأعمل معكم شغل!".

يوم واحد في بيروت، زار فيه عايده وأعطاه الهدايا والملابس التي أحضرها لرفقة من دبي، وأخبرها أنه ذاهب إلى قبرص ليؤسّس عملاً هناك، طلب مباركتها، وعرض عليها دون إلحاح أن ترافقه. تمتّ له التوفيق، واعتذرت عن الرحلة: لن أركب الطائرة مرّة أخرى في حياتي.

في اليوم الثاني غادر بعد الظهر إلى لارنكا، وكان كلّ ما يفكر فيه أنه

قبل أيّ شيء يجب العثور على طلعت قبرصي، يريد رجلاً يستطيع الوثوق فيه، ويعرف البلد جيداً، ويتحدّث لغتها.

المترجم الذي رشّحه محمد كان موجوداً في مكان قريب: إنه يسكن في البناء الملاصق لبيتي، رأيتُه وأنا في الطريق إلى هنا. صحفي سوري يعيش متنقلاً بين نيقوسيا ولارنكا وليماسول، يكتب مقالات في المجلات والصحف، ويعمل مترجماً حراً لفترات متقطّعة مع بعض السياح أو أصحاب الأعمال، سأراه بالتأكيد في طريق عودتي وأرسله لك إلى الفندق.

مهاة الأشقياء التي لا شرقية ولا غربية

بسبب نشأته اليسارية، ومغالاته بالاستماع لأغاني المناضلين الغاضبة، وقراءته لبعض الكتب الأيقونية، ومواظبته الطقوسية على متابعة المنشورات الشيوعية، العلنية منها والسرية، تهرّب بيان ملحم من أداء الخدمة العسكرية كي لا يكون جزءاً من الآلة الحربية التي لا يراها (أو هكذا قرأ مرة) إلا أداة بيد الطغاة يستخدمونها لقمع الشعوب، وإخفاء قدرتها على الفعل، وإعفاء تطلعاتها نحو التحرّر. لكنه أخيراً سيق إليها مرغماً بعد أن استخدمت السلطات خطة متقنة أكثر ذكاءً من خطته للهروب. دقّ شرطيّ من مخفر الحي باب البيت: "أنت فلان؟ عطيني هويتك وتفضّل معي! جاي اسمك بالنشرة الشرطة عليك حكم تخلف داخلي".

كان أكبر من رفاق دورته ببضع سنوات، ومع ذلك فقد كانوا جميعاً جزءاً من قوات الردع التي دخلت لبنان لوقف حربها الأهلية في عام 1976، وهي مهمّة لم تُثر غضبه، لأنها بدت له نبيلة، ولأنه سيساهم في وقف اقتتال قام على أساس طائفي وليس على أساس طبقي كما يجدر بالصراعات أن تكون. لكن خلال أيام قليلة من وصوله، أتاها أمر التحرك باتجاه تل الزعتر حيث كانت قوات الكتائب وحراس الأرز تحاصر المخيم الفلسطيني منذ اثنين وخمسين يوماً، وتقصفه بألف قذيفة مدفعية كلّ يوم. في الطريق أدرك أن المهمة معاكسة تماماً لما اعتقده، وأنهم ليسوا ذاهبين لنجدة الفلسطينيين، بل لتغطية دخول المخيم وإبادة من فيه، ثم إزالته بالجرافات.

الشعارات والمشاعر التي تربي عليها غلبت الخوف وغلبت صوت العقل. ففرّ من تنفيذ المهمة (فراراً خارجياً هذه المرّة). تخفّى لبضعة أيام في الشوف، قبل أن يساعده أحد رجال كمال جنبلاط في الوصول إلى مقر قيادة فتح، حيث وجّه ياسر عرفات شخصياً بمساعدته في الهرب من لبنان، وكان الطريق المتاح وقتئذٍ أن يؤمّنوا وصوله إلى قبرص، يبقى هناك لبضعة أيام، ثم ينقلونه إلى تونس.

نسيه أبو عمّار لانشغاله بمواجهة مشاريع تصفية القضية الفلسطينية. ونسيته منظمة التحرير لانشغالها بالتحرير. تعلّم اللغة. وانتقل من عمل إلى عمل ومن مكان إلى مكان. احتضنه بعض اليساريين الفلسطينيين لفترات متقطّعة، وساعده في تأمين فرص عمل هنا وهناك في الصحافة الفلسطينية التي انتقلت نصف مطبوعاتها من بيروت إلى قبرص. كان يكتب مقالات إنشائية تحضّ على الصمود، وتشتم المؤامرات، وتؤكد حتمية سقوط المشاريع الإمبريالية، تنشرها مجلات الأفق والبلسم والكرمل وصوت البلاد بين الفينة والفينة، وكلما كانت عندها صفحتان فارغتان قبل الطبع بقليل.

حين التقاه كان قد مضى سبعة عشر عاماً من الأيام المعدودة التي سينتظرها مؤقتاً في قبرص. أجهز ميخائيل غورباتشوف خلالها على آخر ما آمن به، وعاش لأجله. لذلك فقد وجده مايك في أفضل حالاته: المناضل الذي بلا قضية، المؤمن الذي بلا عقيدة، المهزوم الذي لم تحطّمه المرارة تماماً.

أول ما رآه فيه مايك أنه يضحك كثيراً، يعرف المدينة جيداً، دقيق الملاحظة، غير متطلب:

. أبقى معك بقدر ما تشاء، حتى لو احتاجت أعمالك إلى سنوات،

خمسة وسبعون دولاراً وزجاجة فودكا في اليوم. الطعام لا يهمني كثيراً،
سندويتش بسطرما، أو سجق، ستكون كافية.

أبرم هذا الاتفاق على فنجان قهوة في الثامنة صباحاً، وفي الحادية
عشرة كان قد أتم كل بنوده. فبعد زيارة مقر البلدية، وترجمة أسئلة مايك،
وأجوبة الموظف، سأله على درج الخروج:

. أهذا ما تريد؟ أخبرني يا رجل! كنت وفّرت عليك أجر التاكسي، هيا
نعد!

جلسا في المطعم الخارجي للفندق تحت شمس أيلول اللطيفة لتناول
فطور متأخر. كان بيان يرّكب نكتة من كل شيء، من شكل الصحون، حركة
موج البحر، طريقة مشي النزلاء. لم يكن ساخراً بل كان مرحاً، شرح لمايك
بطريقة مبسّطة كيف تسير الأمور هنا: لست أول مجنون يفكر بذلك. واحد
من كل 300 شخص في قبرص يملك فندقاً، وكل عشرة أشخاص يملكون
مطعماً ويشربون صندوقاً من النبيذ كل يوم. إذا كنت تريد مشروعاً سياحياً
في هذه البلاد فمن المضحك أن تبنيه، هناك الآلاف ممن أدركتهم هذه
الحرفة قبلك، وكل يوم تجد من يريد بيع منشأته السياحية لأنه وصل إلى
جدار الاستسلام، أو ضجر من المهنة أو من المكان، أو لم يرغب ورثته في
إكمال مسيرته. وأنت تعلم أنك بحال كهذه ستشتري ما تريد بنصف سعره،
وتموّل البنوك 75% من قيمة هذا النوع من المشاريع.

. هل تعرف عرضاً مناسباً؟

. تريده عن يمينك أو عن يسارك؟

. توجد الكثير من العروض إذاً. بماذا تنصحنني؟

. لو قبل عامين أو ثلاثة لكنت نصحتك باليسار طبعاً، لكن الآن كلّه

سيان بالنسبة لي. جدياً يوجد عدة عروض، أخبرني فقط بما تريد، فندق؟
مطعم؟ ملهى؟ صغير؟ كبير؟

. أريد كازينو وفندقاً، أو فندقاً يصلح لافتتاح كازينو فيه.

. كازينو عروض أو لعب؟

. الاثنين معاً.

. إذا كان لديك الهمة للحركة، سأجعلك ترى عشرات العروض.

لم يتوقف بيان عن نقل مايك من مكانٍ إلى آخر حتى منتصف الليل.
ولم يتوقف مايك عن الضحك على السخریات اللطيفة التي يطلقها بيان
على كل شيء لا سيما على نفسه وتاريخه. في اليوم التالي أجبره على بدء
الجولة باكراً، وقضيا اليوم كخطيبين سعيدين يبحثان عن بيت الزوجية.

قبل المساء بقليل عثر على ضالته. فندق بعيد عن صخب الشاطئ
وازدحامه، مبني حيث يبدأ جبل ترودوس بالنهوض، ولذلك فهو مكان
يتسبب باضطراب الحواس. على الشرفة يمكنك أن ترى البحر، لكنك
تشمّ الهواء القادم من الجبل، وتسمع أصوات الغابة، تتذوق النبيذ وتلمس
أنفك.

لم تكن هذه الصفة النادرة ما أثار شغف مايك بالمكان، بل لأنه يكاد
يكون أحاً لفندق أبولو في بيروت. ربما الأخ الصغير غير الشقيق، لأنه
عبارة عن أربعة طوابق فيها ثلاث صالات، لكنهما سيبدوان متشابهين لمن
يعرفهما جيداً أو يراهما يمشيان معاً، ويمكن لتغيير حجارة الواجهة وإعادة
فتح الصالات على بعضها أن تجعلهما توءمين، واحد طويل وواحد قصير.

في اليوم التالي لم يكن بيان مترجماً لعملية التفاوض على السعر
والشروط، بل كان مفاوضاً ينقل إلى مايك السؤال والجواب معاً (قالوا

إنه.. وقلت لهم...). الفندق عليه رهن للمصرف يعادل نصف الثمن الذي طلبوه، وهم يريدون قبض هذا النصف قبل البدء بإجراءات التسليم ونقل الملكية، لتسوية ملف القرض المتعثراً.

براعة بيان وتدخلات مايك الطفيفة نجحت في الوصول إلى صفقة ممتازة. تم التوصل لسعر مقبول، يعادل 60 % من السعر الرائج و40 % مما طلبوه، يقبضون بشكل مباشر حصتهم منها، وهي تعادل أقل من ربع الثمن، ويجري مايك تسوية مع المصرف، ينقل القرض له بضمانة الفندق، يسدّد الأقساط المتأخرة، ويجدول الدفعات المتبقية.

اتفقوا على مهلة أسبوعين لينجز المشتري الاتفاق مع المصرف، ويحضر الدفعة المتفق عليها، ويكون البائعون قد أنجزوا التفويضات القانونية من ورثة المالك السابق. ثم اتجها إلى مطاعم الشاطئ للاحتفال.

. بالنسبة إلى شيوعي، أنت بارع جداً في التفاوض التجاري!

. منذ عامين، حين رأيت وجه بوريس يلتسين المنتفخ على التلفاز، أخرجت رأس المال من المكتبة وأعدت قراءته، لكن بالمقلوب هذه المرة، بدأت من الصفحة الأخيرة، ثم عدت إلى بدايته، الغريب أنه ما زال صحيحاً. أنا لم أقرأ ماركس بما يكفي، ولا أعرف عنه سوى ما درسته في الجامعة، ومعظمها تعليقات ومقتطفات عنه لاله.

. هذا جهل لا يضّر. بهذه المقتطفات يمكنك أن تصبح أميناً عاماً لحزب شيوعي. وإذا عرفت اسمه الثلاثي وكم كان عمره حين تزوج ستصبح عضو مكتب سياسي.

. أبعدني عن السياسة ودعنا نتحدث في الاقتصاد، واطلب لنا فودكا سميرنوف أو أسولوت عن روح الرفيق لينين.

. سميرنوف بريطانية يا صاحبي، وأبسولوت سويدية، عن روح الرفاق
سنشرب فودكا لا يمكننا قراءة أحرف اسمها.

. تصرّف، واطلب لنا سمكاً جيداً! اعفني من مزاجك المتواضع في
الطعام!

. عاداتي في الطعام تكيف وليست مزاجاً. سأطلب طعاماً قبرصياً
لأعزّقك على مطبخهم، سأطلب كيليفيتو لأجعلك تغني "على علم ضمّ
شمل البلاد"، خروف يجمع دير الزور وصلنفة وحلب ومشتى الحلو.

. افعل ما تشاء، أنا ضيفك الآن، وأريد أن أكون كذلك كلما أتيت إلى
هذه البلاد.

. أهلاً وسهلاً بك سيد مايك، أنا تشرّفت بك صديقاً، ولك بيت في
ليماسول!

. لا. أريد أن أكون ضيفك في الفندق.

. أيّ فندق؟

. الذي اشتريناه للتوّ، أريدك أن تشرف عليه بالنيابة عني.

. أنا لا أعرف هذه المهنة نهائياً، لا أصلح لها.

. سنعيّن موظفين، بدءاً من المدير حتى الحارس، أريدك نائباً عني،
تراقب العمل، وتنجز المعاملات. سأرسل من بيروت مديراً للفندق، ومديراً
للحسابات، لكنّ أيّاً منهما لن يكون قادراً على فهم البلد بسرعة، أريدك
أن تكون معهم في كلّ خطوة. أنا أقدر جهد من يعمل معي، سأعطيك
الأجر الذي تريد، وأعطيك نسبة على كل عمل. ما فعلته اليوم مثلاً أعتبره
إنجازاً، أنت لم تتصرف كمتّرجم، تصرّفت كشريك. أقدر ذلك، وأراه يستحق
المكافأة، كم تعتقد أنني سأمنحك مقابله؟

أنا معك منذ ثلاثة أيام، ولقد اتفقنا على الأجر.

أنا أقدر قيمة الأشياء، أعرف تماماً أن لا أحد كان قادراً على تخفيض السعر إلى النصف مقابل نقل الالتزام المصرفي. الريح الإضافي الذي حقّقه لي تستحق نسبة منه، سأعطيك 225 دولاراً أجرك عن أيام الترجمة، وفوقها 100 ألف دولار.

صُعق بيان وهو يسمع الرقم، أراد أن يتعقّف ويعترض، لكنّه لم يستطع ولم يعرف ما يقول، ثم عادت له روحه المرحّة: سأشتري بيتاً وأكتب عليه: "هذا من فضل القيمة!"

غادر مايك في اليوم التالي عائداً إلى بيروت، بعد أن عرّف بيان على مكتب المحاماة الموكلّ منه مسبقاً حين أنجز معاملة الزواج. وكلفه بالتفاوض مع المصرف، وترك له ما يكفي من المال ليدفع الرشاوى اللازمة، ويحضّر العقود ويسلّك المعاملات الرسمية. ولم يجرؤ على إخباره بما يخطط له تماماً، منتظراً غرقه التام في مستنقع الدنيا.

فيما كان يفكّر بمن سيختار من طاقمه ليجعله رجلاً أول في لبنان، ويجري مقارنات في عقله بين التزام عبود مع حرفيته وبلادته، وذكاء هيمان مع قلة خبرتها واستهتارها، وفور دخوله من باب الفندق في بيروت، تحقّق أسوأ كوابيسه:

كانت قطعة من الجحيم تنتظره هناك.

امرأة غريبة ما كان لها أن تبدو غريبة

"سيدي تلك المرأة تنتظرك منذ يومين!" هكذا استقبلته إحدى الموظفين، وأشارت إلى مرايا البهو التي تعكس امرأة خمسينية جالسة على الرصيف المقابل.

تابع مايك باتجاه مكتبه، استفسر من رنده عن تلك المرأة، وما إن كانت قد عرفت ماذا تريد. أخبرته أنها لم تنجح في معرفة أي شيء منها. ثم حاول إسماعيل أن يعرف من هي وماذا تريد، واكتفت بالقول إنها على معرفة قديمة بالسيد مايك، وإنها أتت من مكان بعيد، وحين أخبروها أنه مسافر قالت إنها لن تغادر قبل أن تراه ولو انتظرت سنة. طلبوا منها المغادرة والعودة لاحقاً، فانصاعت، وخرجت من الفندق، ثم افترشت الرصيف، ورفضت التحرك من مكانها. تدخل كل ساعتين لتسأل موظفات الاستقبال ما إن كان السيد "مارك أو مايك" قد وصل، ثم تعود إلى مقرها على الرصيف، فاضطروا لتركها في النهاية. وأضافت رنده ضاحكة: "لقد شتّمت مرّسالة!".

اصنعوا لي فنجان قهوة، وأرسلوا من يحضرها.

وقفت المرأة بالباب طويلاً، حاولت أن ترسم على وجهها ملامح بكاء، لم تنجح. أمالّت عنقها نحو اليسار، حاولت أن تجعل صوتها يخرج كسيراً، فشلت أيضاً، فخرج صوتها حاداً ووظيفياً كما هو حقاً:

- "كيفك يا غريب؟!"

التيار الكهربائي الذي سرى في جسده لم يبدأ من أعلى جمجمته كما يحدث لمن تصيبهم القشعريرة عادة، بل جاء من مأخذ متعددة في اللحظة نفسها. من قمة الرأس ومن أعلى ومؤخرة الكتفين، من الإليتين وأطراف أصابع القدمين، اصطدمت التيارات ببعضها ورفعته ببطء، أمسك بحافة الطاولة بكلتا قبضتيه، كي يساعد ركبتيه على حمل باقي جسده.

كان سؤاله مزيجاً من الاستنكار والاستفسار، كان فيه نبرة من يصلي ليكون مخطئاً. خرج صوته كمن يفحّ في نومه ليطرد كابوساً: فضة الجاروش؟؟؟!

كم اجتهد عقله طيلة سنوات ليمحو هذا الاسم من ذاكرته، وليطرد هذا الوجه من شاشة الذاكرة. كل ذلك الجهد قد ضاع في لحظة واحدة وهي تقف أمامه بوجهها الأزرق وبعظمتي وجنتيها البارزتين، وقامتها الضئيلة، وبديها الرفيعتين، وعادت له أكثر الذكريات ظلاماً: مشاعر الذل والانكسار، بكاء العجز واليأس والاستسلام، شعوره الدائم أنه أقلّ من الآخرين.

من أيّ قبرٍ مفتوحٍ خرجت؟ من أيّ جحيمٍ عادت؟ لماذا لا تحمل بيدها إزميلاً لتفتّح التجاوبف في رؤوس الآخرين؟ الصور الأخيرة العالقة في ذاكرته عن هذه المرأة مليئة بالأنياب والبرائن والأزاميل، وحوش بوجوه مرعبة متبدّلة، مليئة بالصرخ، وبالكلمات التي تنخر العظم، برجال يدخلون ويخرجون غاضبين، بمسدّسات تلقّم وسكاكين تشوّح في الهواء، نحيب آمنة المظلومة الذي يشقّ السماء نصفين، شلل جسده الصغير، إدراك عقله البسيط لمعنى الظلم الشديد، العجز عن الإتيان بأي فعل لمواجهته، أو للتعبير عن أنه ظلم، كلام، الكثير من الكلام، الكثير من الليل، الكثير من البكاء.

حضرت جدّته بكامل وجعها أمامه. آمنة الحصو لم تكن جدّته فعلاً، كانت عمّة أبيه التي استعاضت بأبناء الآخرين عن أبناء لم تنجبهم، عاشت مع زوجها ثلاثين عاماً قبل أن يموت ويتركها لوحدها، في غرفة أشبه

بالكوخ على سطح أعلى بيت في ركن الدين. البيت الذي كنتَ تحتاج إلى الصعود ألف درجة لتصل إليه. كانت في عشية الخامس من حزيران 1967 قد استنفدت كل أسباب الحياة، وتستعدّ للموت بما يليق به من انطفاء، حين دقّ ابن أخيها الباب في ليلة لم يمرّ أعرق منها على هذا الشرق، وأودع لديها طفلاً لم يتم الخامسة بعد، وذهب إلى الحرب. وفعل مثلما فعلنا جميعاً حين ذهبنا إلى تلك الحرب التي لم يعد منها أحد: هُزِمنا. وتركنا رفاقنا ينزفون إلى الأبد.

أنا جدّته. سأعتني به، حتى تعود أو تعود أمّه.

برّت آمنة بهذا الوعد لتسع سنوات، ولم يردعها عن الاستمرار سوى أنها ماتت. فالرجل عاد بعد سبعة أيام على شكل إشعار لاستلام جثة من براد المشفى العسكري، والأم عادت بعد ذلك، لا لتستعيد ابنها بل لتفتعل المعارك.

نظير الحصو أعدم وهو لا يعرف تماماً أين اختفت زوجته، لكنّه رجّح أنها فعلت كالمرة السابقة قبل أربع سنوات، حين هربت تحت جناح الليل مع رجل قال لها: تعالي. ثم عادت بعد شهرين مطرودة من عند الرجل، يومذاك كبّس نظير ملحاً على جرحه، وتظاهر بتصديق ندمها ودموعها، لأن لديهما صبيّاً لم يبلغ السنة بعد، وهو لا يعرف كيف يتدبّر أمره.

بعد موت نظير بأشهر، ظهرت الأم. ظهرت فجأة من الظلام كما تفعل دائماً. بعد أن طردها الرجل الآخر على ما يبدو، وشمّت أخبار ما جرى، فوقفت بباب بيت آمنة وبدأت بالصراخ مطالبة بحقّها، وهي تسيل نهرأ من الأدعية راجيةً الرب العادل أن يأخذ حقّها ممن ظلموها.

تجمّع أهل الحي على صراخ المرأة، فخرجت آمنة التي لم تكن قد استوعبت بعد ما تريده المرأة الغاضبة، أخبرتها أن الولد بأمانتها، وأنها ترعاه كما ائتمنها أبوه، وأنها تستطيع أخذه متى تشاء.

صرخت زوجة نظير كاشفة عن أياها: "ولد؟ تهنؤ ببعضكم، كل الحصو
عاطلين، وما بدّي من أتركم شي. في تعويض وراتب تقاعدي باسم جوزي
أبو ابني، بدّي آياه!".

تدخّل أحد عقلاء الحي مستغرباً ما تقوله تلك المرأة، وحاول توجيه
نصيحة لها أن تطالب بابنها قبل التعويض، فصرخت في وجهه: "وانت
كمان متشارك معها؟ بحجّة الولد سرقته الراتب!".

صمت الرجل خوفاً من فجورها، وحاول شخص آخر التدخل موجهاً
كلامه للعجوز طالباً منها أن تجيب على ما تقوله تلك المرأة، أجابت آمنة
وهي تغالب السقوط:

.المرحوم ابن أخي مات بحكم محكمة، مات محروماً من كل حقوقه،
لا راتب ولا تعويض، طرده من الجيش، وهذه المستورة هربت من عنده
قبل موته.

قاطعتها بكامل قوتها وصلابة موقفها: "طبعاً بدّي إهرب، كيف فيني
ضل مع زلمة مسكتو فوق عمته؟!".

تعالت صيحات الاستغفار، وتهاوت العجوز السبعينية أرضاً، فيما
أكملت المرأة المهاجمة سيل اتهاماتها، وتهديداتها بأنها ستأكد وتسأل،
وإذا ما تبين أن هناك تعويضاً ما فستعود لتأخذه من عيونهم.

اضطرت آمنة الحصو فيما بعد أن تذهب إلى شيخ الحي، الذي كان
قد سمع بتفاصيل القصة النادرة، وطلبت منه أن يرافقها إلى قبر الشيخ
رسلان لتقسم على المصحف الموضوع عند رأسه أنّها بريئة، ولا تريد أن
تموت وهي مطعون بشرفها، ومتهمة بآبن أخيها الذي تكبره بأربعين عاماً،
تلقى الشيخ الطلب بهدوء وابتسامة: نحن نعرفك يا أم محيو منذ ثلاثين
عاماً، والوالعون في أعراض الناس لا نسمع لهم.

أمام إصرارها، وافق على إرسال زوجته وابنه معها. ظهرت براءة أمّنة، لكنّ جرحها لم يندمل، وظلت تبكي كل ليلة حتى ماتت. ولم تعد فضة إلى ذلك الحي مرّة أخرى أبداً. لكنّ غريب رآها مرة. كان في الحادية عشرة، عرفها ولم تعرفه، رآها على باب القصر العدلي تتشاجر مع أحد أزواجها الذي يبدو أنه طلقها للتو. كان العابرون يقفون للمشاهدة دون أن يجرؤ أحد منهم على التدخل، بسبب فداحة ما تقول، فقد كانت تهدّد الرجل بأنه سيدفع لها ما تريد وإلا ستعود لتخبر القاضي أنها طلقته لأنها ضبّطته فوق أخته.

توقف غريب يومذاك عن العمل عند باب القصر العدلي، وانتقل للعمل قرب الباب الشرقي، وروى لجدّته أن صبيانا أكبر قد ضربوه وهدّدوه. في السنوات التالية كانت تصله أخبار متفرّقة عن أمّه التي تزوجت رجلاً جديداً، ثم يسمع أن الرجل ذهب إلى السجن لأنه قتل ابنته الشابة وتبين أنها مظلومة. ثم تزوجت واحداً جديداً، وحتى بعد وفاة جدّته وهو في الرابعة عشرة، ومغادرته الحي بعد ذلك بستين، كانت الأخبار تجد طريقها إليه رغم أنفه.

همّت فضة الجاروش بالكلام، فرفع يده ليمنعها من ذلك: ماذا تريدان؟

”إجيت سلّم عليك!“

كيف وصلت لي؟

من يسأل لا يتوه.

كانت هذه الزيارة أحد الأعراض الجانبية لتشعب العمل وزيادة عدد الموظفين، فلا بد في النهاية أن يكون أحدهم من الحصوص أو هليلية الحموي أو جوارها، أو من أبناء الجاروش أو أنسابهم أو أقربائهم في الوطن أو المهجر. ولا بد في ساعات العمل الطويلة أن يسمع ثثرات عن الاسم القديم للمعلم، أو أصوله البعيدة، ولا بد أن يكرّر تلك الأقاويل على سبيل

التباهي أو لأسباب أسخف. وعادةً ما تنتهي هذه السلسلة من الثثرة بأن يصل طرف خيط إلى فضة. جرى شيء كهذا مع شكسبير، ومع المسيح، ومع أحمد عربي، ومع النجاشي الذي لا يُظلم عنده أحد، مع غيفارا ومع إيميليانو زاباتا. ودائماً ما كان هناك نوعٌ من أنواع فضة جاروش ما تتبّع الخيوط فتصلُ إلى غريبها.

لكن أحداً ممّن يثرثرون بسهولة لا يمكنه أن يتحسّس معنى أن تعيش حياة كاملة وأنت تحمل عار أن فضة الجاروش أمك.

ولا أحد منهم يعرف فداحة الذنب الذي ارتكبه بأن يكون سبباً في ظهورها أمام غريب الحصو مرةً أخرى، لمجرد أنها تريد ابتزازه لحل مشاكل أحد أزواجها، أو لتشتري زوجاً جديداً.
هذه المرّة تهتِ يا فضة الجاروش.

“أنا جاي لعند ابني”.

لا ابن لك.

“ابني ومسؤول عني”.

أقسم بروح آمنة الحصو، إن لم تخرجي الآن، لأجعلن الكلاب تشفق عليك!

“ما بدي شي، بس بدي تخصصلي راتب يكفيني!”.

أمسك الهاتف وطلب مرسال ورجاله، أمرهم أن يلقوا بها على الحدود السورية. وقال لهم بصوت حاسم: إذا فتحت فمها بكلمة واحدة خلال الطريق ادفنوها حيّة في برّ الياس.

لم تستطع فضة المقاومة، لكنها همست أثناء خروجها بعبارة واحدة: “والله لندمك يا ابن نظير!”.

فضة الجاروش لم تكن أمّاً سيئة. كانت مجرد مرافعة فاقعة اضطرت إليها الحياة، بعد مرافعات كثيرة أقلّ قسوة وبلاغة، فشلت في تحشيدنا ضد تلك السقطة التي يقع فيها العقل البشري بسبب معاييره البيولوجية الساذجة. فتقديس الأمومة هو التنازل العقلي الأولي المؤسس لكل ما تلاه من تنازلات.

هذا العالم مليء بأطفال يُلقنون بأن الجنس فعل آثم ودنس، وحين ينتبهون أنّ أمهاتهم فعلنه، لا يجدون أمامهم درعاً يحمون به أرواحهم سوى المبالغة بتقديس الأمومة، لأنه التبرير الوحيد المقنع لما حصل. لذلك فالعالم مزدحمٌ بأمهات قديسات. وهو في الوقت نفسه يعجّ بنساء ثرّارات، مؤذيات، عديمات النظافة، طمّاعات، دنيئات، ظالمات، طعامهن سيّء، مطابخهن قذرة، أبناؤهنّ مليئون بالأمراض النفسية، أزواجهنّ كئيبيون، فمن أين يأتي العالم بهؤلاء أو بأولئك؟

لا بد أن بعض الأمهات يستحقّن التقديس، ولكن حتماً هناك كثيرات لسن جديرات به. ومع ذلك فأبناؤهنّ المُقدّسون يصبحون مستعدين عقلياً لتقديس أيّ شيء، أي عقيدة، أي زعيم، أي إيديولوجيا، أي حكاية أسطورية، أي إيمان، فهم قد تنازلوا مرّة، ووجدوا الأمر بلا تبعات، بل ووجدوه محبباً وموصى به من الأنبياء. فليكرروه ما شاؤوا.

وتر مشدود لم يتوقف حتى في أنتيغوا

لينسى تلك التجربة، كان على مايك أن ينغمس في العمل حتى أذنيه، ففضى الأشهر التالية على الطائرة، كانت لديه رحلة كل أسبوع تقريباً يتنقل بين الشواطئ، من الخليج، إلى شاطئ المتوسط حيث يكون البحر غرباً، ثم شاطئه حيث يكون البحر شرقاً وجنوباً، ثم إلى الكاريبي في رحلة طالت قليلاً، ثم رحلة شخصية قصيرة إلى بحر الشمال.

كان قد حصل على تراخيص لشركتين في الإمارات وشركة في قبرص، ويستعد للإقلاع بمشروع عقاري ضخم في الأولى، بعد أن وافق على "الكروكي" الأولى للتصميم المعماري المبهر، وبإشراف المهندسون الإنشائيون بإعداد المخططات التنفيذية، للحصول على موافقة السلطات عليها، وفي الثانية أصبح صاحب فندق بدأت فيه عمليات التعديل من الخارج ليصبح أكثر شبهاً بأبولو، ومن الداخل ليصبح أقرب ما يمكن إلى ملاهي لاس فيغاس التي فتنت مايك الشرقي في الأفلام التي كان يشاهدها في لياليه الطويلة بالغرفة 715 بفندق مازا على مدى خمس سنوات من حياته في ظل الشيخ قسام.

كانت أول ناقلة نפט إيرانية قد غادرت ميناء عبادان تسحبها سفينة قَطْر ترفع علم الهند وكتب عليها (TATA). قرّر السفر بنفسه لينجز عملية تسجيل السفن بأسماء جديدة (شريل، سيدة النجاة، رفقة) قطع رحلة طيران معقّدة إلى أنتيغوا في أقصى المحيط الأطلسي، لأنه عرف من السيد ساكس أنه يستطيع الحصول على جنسية هذه الدولة الصغيرة لقاء

خمسين ألف دولار يضعها في البنك لنيّة الاستثمار، وأن هذه الجنسية تكاد تكون كالجنسية البريطانية في سهولة السفر والانتقال والحصول على التأشيرات، حتى أنها تتيح لحاملها دخول مئة وأربعين بلداً دون تأشيرة. العمل في لبنان كان يتوسع بهدوء، ويأخذ شكل المؤسسة الحقيقية. المعارك اليومية الصغيرة صار لها إطفائيون متفرغون يملكون المهارات والصلاحيات لتهديد هذا وشراء ذلك. ففي هذا العالم لا بدّ في كل يوم من فتاة تتعرض لقسوة تدخلها المستشفى، أو لرجل يخطر له إطلاق النار أثناء ممارسة الجنس، أو دورية من جهة قضائية أو أمنية ما تدهم أحد المرافق لتطبّق قانون الآداب العامة أو مكافحة المخدرات أو الاتجار بالبشر. لا بدّ من مصرف يرتاب في التحويل، أو سيّارة تابعة للشبكة تصدم طفلاً في الشارع، أو فتاة هاربة يعثر عليها أحد أشقائها، أو أن يرسل منافس غاضب من يطلق النار على نوافذ إحدى المنشآت، أو باتجاه مايك نفسه فيما يهجم بالصعود في السيارة.

لم يعد مايك مضطراً الآن لإطفاء هذه الحرائق بنفسه، فقد استقرّت شبكة علاقاته على أرض آمنة، وصار لديه الكادر المتخصص القادر على متابعة التنسيق مع هذه الشبكات، وتسديد مستحقّاتها الشهرية وحصصها عن الصفقات الطارئة، وتلقّي التعليمات منها، وتنفيذ الأوامر، وحمايته بشكل شخصي وفق بروتوكول مُحكّم صمّمه وأشرف على تنفيذه ضابط متقاعد من زغرنا اكتسب مهاراته في جيش لبنان الجنوبي، ثم من التعاون مع المخابرات السورية بعد انشقاغه عن أنطوان لحد.

في كل مرحلة من حياته كان الانتباه لما هو فيه يأتي كاللحظة التي يبدأ فيها الماء بتشكيل الفقاعات، يباغته صوتها فينتبه أنه وضع النار تحتها منذ مئة درجة. في هذه المرحلة جاءته الفقاعة من فتاة دخلت مكتبه تحمل أوراقاً تحتاج إلى توقيعه، كانت أول مرّة يراها، كان عائداً من رحلة سريعة، وذهب مباشرة من المطار إلى مكتبه في جلّ الديب.

سألها: من أنت؟

أجابت الفتاة برصانة: حنين، من طاقم السكرتاريا الخاص.

. منذ متى تعملين هنا؟

. كنت في الفندق، عملت في الموارد البشرية ستة أشهر، ورافقت بعض الزبائن بعد العمل، ونقلوني إلى هنا بدلاً من السيدة ريموندا.

. وريموندا أين أصبحت؟

. في العلاقات الخارجية.

. ولماذا لم أرك سابقاً؟

. لقد رأيتني أستاذ. كنت بجانب رندة حين حضرنا اجتماعك مع الهنود، وأرسلتني لأسلم الأوراق إلى المرفأ، وكلفنتني مرّة بمتابعة حوارات إلى قبرص.

. شكراً لك، اتركي الأوراق وأرسلني رندة!

. طلب رندة لأنه كان يريد التأكد من شيء واحد، هل بدأ يفقد ذاكرته؟ هل بدأ مصير الشيخ قسّام باكرأ؟

. طلب منها أن تحدّثه عن حنين، فقالت إنها فتاة ذكيّة للغاية ومهاراتها عالية، تتحدث ستّ لغات، لفتت نظر عبود، فاقترح نقلها إلى فريقنا في المكتب الرئيسي.

. لا. حدّثيني لماذا لا أتذكّر أنني رأيتها سابقاً؟

. هي أولاً قليلة الكلام، وشخصيتها هادئة، ثم أنت كان الله في عونك، كم ستتسع ذاكرتك؟ حجم العمل وعدد الموظفين صار كبيراً.

. أعدّي لي تقريراً بعدد الموظفين!

. لا يحتاج ذلك تقريراً، أنا أحفظهم، في أبولو 142، في الفنادق

المستثمرة 224، وفي الياطر وملاهي جونيه 312، في قبرص لدينا ستة ونحتاج 200 للإقلاع بالعمل، بيان بدأ باختيارهم الآن. شركة السيارات فيها 68، في دبي أصبحوا 19، في المكتب الرئيسي 40، شركة STARS V بعد شراء الاستديو أصبح فيها 50، المالية....

. يعني أصبح لدينا أكثر من ألف؟

. مع الفتيات اللواتي يأخذن على القطعة والمرافقين والسائقين نقترّب من الألفين.

شعر بالذعر، وانتبه إلى المسافة التي صارت تبعده عن تفاصيل عمله: أريد قائمة بالموظفين وأعمالهم ورواتبهم، وأبلغني سعد وعبود وماغو وغصون وفريد وهيما أن يكونوا هنا في التاسعة صباحاً!

في مناسبات كهذه يسأل مايك نفسه: "إلى أين أمضي؟ إلى أين سأصل؟" لم يكن مهماً المكان الذي سيصل إليه. ما كان يقوده ويسيّره هو عزم منطقة الإحماء التي تقع خلف منطقة السباق، منطقة الحياة. في كل الألعاب التي تحتاج قفزاً أو قذفاً من أي نوع يعتمد المتحدي تقنية العودة للخلف، لأقصى ما يستطيع في الخلف. تزوده الخطوات القصيرة التي تسبق الصفر بعزم يفرغه حين يبدأ التحدي.

مايك جاء من حافة العالم، من المكان الذي لا شيء خلفه سوى العماة. عبر منطقة إحماء تمتد على مسافة أجيال ربما تعود للجد الأول الذي هبط إلى الأرض عقاباً بحسب رواية الرب، وللخلية الرطبة المؤسّسة بحسب رواية دارون.

هل حاول أحد أن يوقف وترّاً مشدوداً وهو يمضي ليفرغ شحنة توتره؟ لا شيء قادر، سوى الارتطام بجدار العالم من الجهة المقابلة. على الوتر المشدود أن يقطع مسافة كافية وإلا فإنه سيصعب جلود من يأتي في طريقه.

تناقش الفقهاء والفلاسفة على مدى القرون ما إذا كنتا مسيرين أم مخيرين. لا بد أن مجيئك إلى الحياة كوتر مشدود. مثله مثل أن تقع في الحب. ليس اختياراً. فعلى ما يبدو أن بعضنا مخيرٌ وبعضنا مسيرٌ، وأسهل طريقة لفرز أولئك عن هؤلاء معيار الإثارة أو الضجر. البعض مضجرون، حيواتهم ساكنة بطريقة تدفع على التثاؤب. أما الأوتار المشدودة والعشاق، أولئك الموظفون عند أقدارهم، هم من تصلح حيواتهم لتؤلف عنها الكتب والأفلام. وحين نحكي عنهم في سهراتنا "الاختيارية" سننقسم حول ما إذا كانوا ملائكة أم شياطين، حول ما إذا كنتا نكرههم بشدة أو نحبهم بشدة.

مايك الشرقي كان وترأ مشدوداً. نُقِبَ قوسه أول الدنيا، ومربط إصبع الآلهة التي شدته هو العدم، والمسافة التي عليه قطعها هي الحياة بكاملها. الحياة حتى نهاية الزمن، كي يعادل شحنة القوة التي يحملها الوتر.

أول عمل مارسه غريب الحصو في حياته كان مسح زجاج السيارات قرب القصر العدلي بدمشق، كان في العاشرة أو الحادية عشرة، أخبرته جدته ألا يحصي الفرنكات التي يجمعها، كي لا تضيع منها البركة، وأن يحتفظ بها تاركاً لله أن يضاعفها. أحصاها في نهاية الأسبوع الذي عمله بهذه المهنة، واعتزلها بعد وقت قصير، وانتقل بعدها إلى الباب الشرقي ليمارس أعمالاً كثيرة حافظ فيها جميعاً على تلك النصيحة. أخبرته جدته أن المركب الذي ليس فيه شيء لله يغرق، وأن هذا لا يعني أن يعطي حسنة من عمله للفقراء "نحن أفقر خلق الله"، بل أن يتكّل على الله ويترك له تسيير رحلة المركب.

المرّة الوحيدة التي أحصى فيها النقود أولاً بأول، ويوماً بيوم، كانت أموال الكويتيين خلال فترة نزوحهم إلى لبنان، ولذلك كاد يفقدها. ولم ينقذها سوى تطبيق مَثَلِ جدته بمعناه البدائي، وأعطى من مركبه شراعاً لرفقة، كي تناول لله حصته.

إحصاء موظفيه وأجورهم وتشعّب الأعمال التي يمارسونها كان واحداً من النعم التي يجب تركها لله. لذلك حين أحصاها عاد إليه الذعر القديم، عاد إليه خوف فقدانها، طلب اجتماع الغد ليتدارس مع طاقم المديرين إعادة تقييم كل الأعمال، لأنه أرادَ خطوة إلى الوراء، أراد تبريد العيون.

في الاجتماع الذي توسّع في الدقائق الأخيرة بارتجال منه، وجد أن كل الأعمال في لبنان رابحة، لا شيء يخسر، والتفاوت في حجم أرباح كل عمل يتناسب عكساً مع مدى براءته. في الأماكن الأخرى كان ما يزال في مرحلة الزراعة، ولم تحن مواعيد القطاف بعد.

في دبي سيبدأ البناء خلال شهر أو اثنين في مجمع أبراج أبوولو، وطلعت لديه المعطيات الكافية والمؤكّدة بأن نزول الحفارات في موقع البناء والبدء بوضع الأساسات سيكون كافياً للبدء بالبيع على المخطط، ويمكنه أن يقبض 40% من ثمن الشقق المباعة. في قبرص سينطلق فندق وكازينو "بنات يعقوب" قريباً، ولديه حتى الآن عقبات أهمّها أن العمل في القمار يتناقض تماماً مع شخصية بيان التي لم تستطع تقبّل أنهم سيكونون مستعدّين لاستقبال الإسرائيليين، ووضع شرطاً واضحاً للعمل مع مايك، أن لا يكون مضطراً لأيّ سبب وفي أي وقت للتعامل مع أيّ منهم بشكل مباشر: بعد ما جرى في العالم، صرت مستعدّاً لأفعل أي شيء، لكن التطبيع ليس شيئاً يمكن لي أو لأيّ أحد فعله.

العقبة الثانية كانت عدم العثور حتى الآن على الشخص البارح الخبير في إدارة كازينو قمار. اختار بشكل مؤقت لبنانياً رشحوه له على أنه صاحب خبرة كبيرة، وعمل مع فريد الأطرش في كازينو بعين مريسة قبل الحرب، صحيح أنه منفتح ويقال إنه شقيق الرجل الذي صنع صحن حمّص باللحم وقدمه إفطاراً لشارون يوم دخل الأشرفية في عام 1982، ولكنه قديم للغاية، حتى إنه قال إن اللعب عبر الآلات الالكترونية ضلال وهرطقة وبدعة.

وكما بدا للوهلة الأولى، أثبت السيد ساكس أنه الرجل الجدير بالثقة، فإضافةً إلى أنه أعاد مبلغ العشرة ملايين جنيهه إلى الشركة، بعد أن اشترط عليها دفع نصفها كتعويض للبحارة الذين تعرّضوا لتجربة الاختطاف، أنجز تسليم أول ناقلتي نفط خلال المدة المحددة. غطّى المبلغ الذي قبضه مايك كامل تكاليف العملية بما فيها حصص الراضي وساكس والآخرين وتكلفة السفينة الكبرى التي بقيت للنهائية. والتي بدأ يفكّر بها بطريقة مختلفة بإيحاء من السيد ساكس، حين شرح أن هذه السفينة لم تصمّم كناقلة بالأساس، وتم إجراء تعديلات عليها لتصبح ناقلة. وتصميم حوضها يناسب أن تكون سفينة ركّاب، ويمكن إعادتها كذلك بسهولة.

في سورية كان يزرع أولى البذار لغابته الكبيرة التي تنتظر الزمن المناسب. اختار رجله الأمين إسماعيل، ليكون مبعوثه إلى دمشق. كان صعباً التخلي عنه كمرافق شخصي، والاستعاضة عنه بالجحش الضرورة مرسال. وهو أيضاً لا يمتلك المؤهلات الكافية ليدير أعمالاً معقّدة، لكنّ المهمة هناك لا تحتاج إلى مواصفات خاصة، فكل ما عليه فعله مبدئياً شراء محل وتحويله إلى مكتب عقاري. الجلوس فيه طيلة النهار وتنفيذ المهمة الرئيسية:

اخرج من الباب الشرقي، انظر إلى يسارك أربعة كيلومترات، وإلى يمينك كيلومترين اثنين، وإلى الأمام أربعة كيلومترات، أي من الدوبلعة وحتى حرسنا والزبلطاني، ومن الباب الشرقي وحتى جوبر، كل متر أرض يُعرض للبيع في هذا المستطيل اشتريه.

ذلك المستطيل الفوضوي الأشبه بمكبّ نفايات كان أحد أحلامه الكبرى، لأنه مزيج من ذاكرة غريب الحصو بحُفر الطين وتلال القمامة التي عبرها مقهوراً آلاف المرات، ومن ذاكرة مايك الشرقي الذي فكّر فيها كلما وقف على نافذة في دبي أو الدوحة أو اسطنبول الجديدة، وتخيّلها منطقة أبراج زجاجية تخفي تحتها كل القمامة التي ألقتها هذه المدينة خارجاً عبر

مئات السنين. كانت صورتها تعبر في رأسه مع رجال صغار يقفون في ساحاتها، وسيارات ضئيلة موزعة بينها.

كانت لدى إسماعيل مهام ثانوية غير مستعجلة: أثناء وجودك هناك، ترصد لنا أي فرص للعمل. تجار يريدون تهريب بضاعتهم، بضاعة مطلوبة نستطيع توريدها، أموال يريدون تصريفها أو تحويلها، افعل لهم ما يشاؤون، اربطهم بنا أكثر، هناك ثروات تتشكل الآن وتظهر على السطح، سنلتقط أصحابها فيما ينضجون.

كانت سورية في ذلك الوقت تشهد بداية خجولة للتحرك من تاريخها الاشتراكي المضجر والطويل وغير الموفق، وقد بدأت فيها بعض الاستثمارات السخيفة المتشابهة.

طلب إسماعيل من معلمه رجلين محددين من الياطر يريد اصطحابهما إلى دمشق لمساعدته. اختارهما لأنهما مجربان ومخلصان، ولأنهما يمكن أن يفعلوا أي شيء، فكلاهما بدأ العمل في إيصال العاهرات إلى مواعيدهن، وانتظارهن على أبواب الفنادق أو الشقق. وترقياً فصارت مهمة سامر استقطاب فتيات جديدات، وقام بمهام من هذا النوع في سورية، وجلب الكثير من الفتيات من هناك. ومهمة شفيق تزويد منشآت شركة أبولو وزبائنها المهمين بالمخدرات، ولذلك تربطه علاقات جيدة مع تجار البقاع، ويمكن أن يؤسس مشروعاً ممتازاً إذا "فتحنا هذا الخط مع سورية، أو عبر سورية إلى الخليج".

لم يطاوعه قلبه على اجتياز أي خطوة نحو الخلف، ولا التخلي عن أي عمل يدرّ ربحاً مهما كان حجمه، فاختر ادعاء الخطوة، وأنهى اجتماعه الموسع بإبلاغ طاقم عمل بيروت أن يركزوا في العمل أكثر لأن: لدينا خسائر كبيرة في دبي وقبرص معاً.

خلال تلك الفترة نجح تناغم ماغو وطلعت معاً في إنجاز اتفاق

ممتاز مع السيدة الروسية البدينة التي تورّد الفتيات إلى الإمارات تحت مسمّيات مختلفة. ولأن حجم التوريدات لدى السيدة ريبكا ريباكوف أكبر من طاقة نوادي لبنان على العمل، اقترحت طلعت استئجار نادٍ في دبي وتقديم العروض فيه، والاستفادة من خبرة ماغو لتسويق الفتيات من خلاله، والبحث عن أماكن أخرى لتوسيع "متاجر العرض" والوصول إلى كمية تصريف للبضائع تجعل السيدة ريباكوف توافق على عقد حصري.

كانت العلاقة مع هذه السيدة أبعد بكثير من العمل المباشر رغم أهميته. كانت بوابة مهمّة لعلاقات مع أثرياء روس أكثر جديّة من مجموعة التافهين الذين التقاهم مايك في زيارته الأولى لدبي، ولم يصل معهم سوى إلى إرسال بعض العاهرات الشقراوات، ووعد شفوي بشراء أربع شقق حين يكتمل البرج الأول.

حين قدّم ماغو حصيلة رحلته إلى دبي، أضاف ما أثار إعجاب مايك، وأعاد تحريك مخيلته الفعّالة: لقد دعوتها لزيارتنا في بيروت، سننظم لها رحلة ممتعة، إنها سيدة في الستين، من المناسب أن نأخذها لتزور الكنائس الأرثوذكسية في سورية ولبنان، وسنقيم لها سهرات في....

.تظن أنك ستمتعها بزيارة الكنائس؟ حضروا لها شابين في العشرينات، يبقيانها في السرير كلّ الوقت وستشعل لكم بخوراً.

كيف سقينا "الموداك"؟

أول شقة باعها مايك في دبي كانت للسيدة ريبكا ريباكوف، خلال سهرة اختلط فيها المرح والمزاح بالعمل. كانت تطلق الشتائم على كل شيء بلغات مختلفة، وتكرّر من لغتها الأم كلمة موداك لتصف بها كل ما هو قانوني أو حكومي أو شرعي أو أخلاقي أو لا يسبب السمنة أو يخفض الشحوم. لم تكن تريد السكن في الشقة، بل كانت فقط تريد تحويل عائدات عملها المتراكمة في دبي إلى حساب في مستقرّها النهائي في فنلندا حيث تنوي أن تقضي تقاعدها. قدّم لها مايك السلسلة كلّها. اشترت الشقة رقم واحد في البرج رقم واحد من سلسلة أبراج أبولو. دبي، التي بدأ بناؤها للتو. وقعت عقدها في لبنان، وكم هي محظوظة إذ وجدت مشترياً في اليوم نفسه، مقيماً في بيروت أيضاً وموجوداً في الصالة، بل والطاولة ذاتها، ولديه حساب مصرفي في غلاسكو بحكم جنسيته الأتيغوانية، ويستطيع تحويل المبلغ بسهولة إلى هلسنكي. اشترت من شركة أبراج أبولو الإماراتية وباعت بسهولة شديدة لشركة استثمارات أبولو اللبنانية، فاشترت شقة ثانية ستفخر بها على أصدقائها الروس المقيمين في دبي. أخذ مايك العقود الثلاثة، وطلب إرسالها في طائرة الصباح إلى طلعت ليقوم بتوثيقها في السجلات الرسمية. طبعاً لم يكن لعمليات البيع والشراء هذه أي أهمية لو لم يكن المصرف (الذي تصفه ريبكا أيضاً بأنه موداك) بحاجة إلى نسخة منها لقبول التحويل. لن يقبض أحد من أحد، سوى العشرين بالمئة التي ستحسمها من حسابها لدى مايك، وتودع في حساب مايك المبلغ الذي تنوي تحويله إلى فنلندا مرفقاً بصورة مصدّقة عن عقد البيع.

كان لسان ريبكا الطويل وروحها المرحة والصبيانية كافيين لتسويق معظم البرج الأول من سلسلة أبولو، فكلّما قابلت واحداً من بلدها تفاخرت أمامه: حوّلت المال إلى أصعب مكان في العالم خلال دقائق، لم ينقص سوى 20 % والموداك لم يستطيعوا أن يرفضوا.

كانت خدمة ممتازة بالنسبة لمن يعملون في الرقيق الأبيض ونهب مؤسسات الدولة وتهريب المخدرات وفرض الأتاوات وقطع الطرق. التكلفة منخفضة، التنفيذ سريع، وفوق كل ذلك، كانوا يتعاملون مع أصدقاء. فريق من الأصدقاء المرحين الذين لا يطلقون الأحكام، ومهما كان سوء ما جمعت المال منه، كانت لديهم حكايات أكثر شناعة، تجعلك تشعر ببراءتك.

الروسي القادم إلى دبي خصيصاً للاستفادة من الفرصة التي أخبرته عنها صديقه ريبكا، يباليغ في الشرب فيعترف أنه فكّ الأرضيات الخشبية لجامعة بياتريس لومومبا وأحرقها على سبيل التسلية وهو يشرب من زجاجة الفودكا، وأنه كلما شرب الفودكا من الزجاجة مباشرة الآن تذكّرها وشعر أنه نيرون. يلتقط طلعت المقبض ويرتجل مخططاً غير موجود في أذهان المهندسين و(سيكّلّفهم به في الصباح التالي): لذلك سنعطيك شقة ليس فيها خشب نهائياً كي لا نعيد المشهد لذاكرتك. أحد التصاميم الداخلية في البرج الثاني ستكون أبوابه زجاجية ونوافذه من الألمنيوم، والستائر الخارجية من النيكل، والأرضيات من الغرانيت، والخرائن من الجبس، والمقاعد من الكروم، سيزيد سعرها قليلاً لكنها عصرية للغاية، يمكننا توقيع العقد الآن. بالمناسبة ما معنى كلمة موداك؟

ينسى الرجل المُنتشي موضوعه الأساسي، وترجع فكرة أنه سيشتري وسيساوم إلى منطقة خلفية في رأسه لتتخمر على مهلها، ويسرد في شرح الأصول القديمة للشتائم الروسية المميزة، ويبدأ بتذكّر كل "المواديك" الذين يعرفهم، والذين لم يكونوا بالفعل سوى "خنازير مخصّية" كما المعنى القديم للشتيمة.

احتاجت الشركة الهندسية إلى مضاعفة عدد عمالها وآلياتها، لتلبّي احتياجات البدء بالبرج رقم اثنين، ومتابعة العمل في البرج رقم واحد، الذي بدأت أعمال إكساء الطوابق الدنيا منه على التوازي مع إكمال أعمال البيتون في الطوابق العليا. ولم يوافق مايك على اقتراح طلعت بتأسيس شركة هندسية لتقوم بتنفيذ مشاريعهم ومشاريع الآخرين. كان الرأي الذي قاله لطلعت أنه عمل مرهق وتفصيله كثيرة، والأفضل بدلاً من ذلك مساعدة رمزي ليوسّع شركته، وينقذ لهم الأعمال المدنية، وأرباح رمزي لا تعادل تعب إدارة شركة بعدد عمال كبير وآليات وتفصيل كثيرة تحت شمس حارقة. وما لم يقله: "سأمشي في تلك الأرض الرملية بحذر شديد، ولا أريد أن يكون لي الكثير فيها. يوماً ما سأضطرّ للهرب منها تحت جناح الليل، لا أريد أن أثقل على قافلتى".

اختر العمل في الجانب الأسود من اقتصاد الإمارة، وهو يلمس يوماً بعد يوم تضاؤل هذا الجزء، وعرف أنه سيأتي يوم لن يكون له مكان فيها. طلعت لم يكن يدعم اقتراحه بالمشروع الجديد الذي حجزوا الأرض له في المارينا، بل بالمعلومات السرية حتى الآن، والتي أتيح له الاطلاع على أطراف منها: الإمارة تخطّط لتبليط البحر.

كانت فترة ذهبية لمدينة دفعت إليها المصادفات أو بعد الرؤية بأصحاب الحظوظ الذهبية من كل أنحاء العالم. وكان مايك الشرقي واحداً منهم بالتأكيد، بل أكثر منهم بقليل، وهذا ما جعل صديقاً بريطانياً قديماً للسيد ساكس يعرفه على صديقين أمريكيين يبحثان عن شخص بهذه المواصفات تحديداً، في هذا المكان تحديداً، لأنه خيارهم الأمثل لنقل حقائب الدولارات ذات الأرقام المكررة من أفغانستان إلى العالم الحقيقي.

الحكايات التي وصلت من هناك تقول إنها مطبوعة كاملة نُقلت إلى الحدود الباكستانية الأفغانية، كانت تطبع الدولارات وتوزع الحقائب على أمراء الحرب الأفغان. الفارق بينها وبين أي مطبوعة غير شرعية أخرى أنها لم

تكن مطبعة تزوير بالمعنى البسيط لكلمة تزوير، بل كانت مطبعة حقيقية من النوع ذاته الذي يستخدمه مكتب النقش والطباعة في مصنعيه بواشنطن وتكساس، ولم تكن مخفية عن السلطات (في الحقيقة لم تكن مخفية عن واحدة أو اثنتين منها على الأقل) وكانت تكرر قائمة كبيرة من الأرقام الحقيقية لفئة المئة دولار، وأنها كانت بعلم فريق إدارة الحرب ضد الوجود السوفيتي في بلد اليورانيوم والأفيون. كانت رداً أميناً على رفض الكونغرس تخصيص ميزانيات أكبر من الثلاثمئة مليون دولار السخيفة والتي لا تشكّل شيئاً من تكاليف تلك الحرب الطويلة.

بالطبع، كان لا بد للقائمين على هذه المهمة السرية من أن يحتفظوا لأنفسهم بحقيبتين في السنوات الأولى، ثم يبضع حقائق في السنوات التالية، ثم بغرفة كاملة في النهاية. وبعد انتهاء تلك الحرب، وقبل بدء واحدة جديدة، لا بد لهذا المال أن يتسرّب بطريقة ما ليمتزج ببحر اقتصاد العالم، ولا بد أن يكون لمايك الشرقي حصّة ما من هذا المال. وحتى حين كشفت صحيفة أمريكية في أواخر التسعينات عن هذه الفضيحة، وفتح الكونغرس تحقيقاً (سنعرف نتائجه الدقيقة في عام 2048)، فإن من دخلوا السجن كانوا أشخاصاً آخرين أقل أهمية أعادهم تهورهم وحنينهم إلى مرابع الصبا. بينما لم يتحقق الوصول إلى الرجلين الأساسيين الذين كانا على صلة مباشرة بمايك، لأنهما قضيا سنواتهما الأخيرة متنقلين بين دبي وبيروت وقبرص وبلغاريا مستخدمين جوازات سفرهما المتعددة، وقد اشترى البرج رقم ثلاثة بكامله من مشروع مايك، وطلبيا بعض التعديلات على هندسته الداخلية ليناسب أكثر خطتهما لتأجيرهما كمكاتب وشقق.

رحلة مايك التي وقّع فيها ذلك العقد الضخم والخطر كان لها سبب آخر تزامنت معه، فقد سافر إلى دبي بشكل عاجل، لأنّ طلعت اختار لابنه البكر اسماً مركباً "يوسف الغريب القيمري"، وأراد أن يعبر عن تأثره

بتقدير طلعت له بأن يرى المولود في ساعاته الأولى، ويقدم لمرؤى هديتها وهي ثلاثة كيلوغرامات من الذهب، على وزن يوسف الغريب تماماً حين ولد.

بدأ العمل بطيئاً في ليماسول، كان يتطور على قدر شخص واحد وقدرته على العمل. عيسو الذهبي الذي هاجر من دمشق قبل عامين فقط، بعد وساطة بيل كلينتون، واختار أن يتابع مهنته السابقة التي مارسها في مكتبه بالقصاع لثلاثين عاماً، وهو الآن يملك مكتباً سياحياً في حيفا، وينظم رحلة أسبوعية إلى ليماسول.

أمانة بيان ومرحه لم يكونا كافيين لتحقيق قفزات نجاح، لكنّه كان ضرورياً لمايك، ليس فقط لأنه أمين وقادر على ضبط الموظفين وكشف الأعيهم، ولا لأنه فتح أبواباً جديدة بحكم علاقاته المتشابكة في ذلك البلد، ولا لأنه يستطيع إيجاد الحلول لما يواجهه العمل من عقبات.

ضرورة بيان كانت في ثقافته، فمايك يُدرك أصلاً أن عقلك لن يكون قادراً على إنتاج الأفكار ما لم تزوده بالمادة الأولية لها بشكل دائم. والمشكلة في الأفكار أنها تصنع من الأفكار أيضاً، ومايك لم يعد لديه الوقت والظروف ليقرأ كتباً ويشاهد أفلاماً كما كان يفعل حين كان الشيخ قسام حياً، لذلك كان بيان بالنسبة له أشبه بصفحة ملخصات الكتب في ملحق أدبي لصحيفة محترمة، وكانت كل زيارة لمايك إلى ليماسول تحتوي جلسة أو جلستين يستمع فيها إلى بيان، ويشحن عقله كي لا يسمح له أن يصبح أملس، ومع الوقت نحت الرجلان مشروع صداقة حقيقية.

ثم مشى على الماء

تباعدت زيارته لبكفيًا، واقتصرت علاقته برفقة وعايدة على إرسال المال، لضيق وقته ولاعتقاده أن إرسال المال عطاءٌ كافٍ لحصته من الصفقة التي عقدها مع الرب، دون أن يترك للرب الفرصة لإبداء رأيه بينودها، واكتفى بنتائج عمله الجيدة وأرباحه الكبيرة كعلامة من الرب أنه موافق على الصفقة، فتوقيع الرب على أيِّ عقد سيكون بالطبع توقيعاً خفيًا لا يراه إلا ملتقطو الإشارات.

في العالم الفاني سار كل شيء بإيقاع متصاعد، باستثناء بنات يعقوب، إذ تبين أن الرحلة بالطائرة من الشاطئ الشرقي للمتوسط إلى لارنكا تحتاج خمساً وأربعين دقيقة، والرحلة بالسيارة من المطار إلى ليماسول تحتاج خمساً وأربعين دقيقة أخرى، هذا وقت قصير ومناسب، لولا أنه سيصبح أربعة أضعاف مع حساب وقت الوصول إلى المطار وانتظار الرحلة ثم وقت مغادرته، والمهنة التي اختارها مايك لمنشأته الجديدة تقوم على من يقضون إجازاتهم الأسبوعية لا السنوية، وهؤلاء لا يتيح إيمانهم إضاعة الكثير من الوقت على الدروب، والرحلة بالبحر تحتاج إلى وقت أطول قليلاً من رحلة الطائرة، إلا إذا كان الزبائن يتنقلون بطرّادات عسكرية.

والوظيفة الثانوية التي ظهرت لبنات يعقوب بطلب من رغيد المتيني ليست قادرة حتى الآن على التحول إلى استثمار مريح وكافٍ للاستغناء عن وظيفة نادي القمار التي صُمم المكان من أجلها. صحيح أنها كانت مسلية وممتعة، لكن مايك قدّمها كإسهام سياسي ولم يأخذ ثمنها.

فحين جاءه الأستاذ رغيد بطلب إعارته طابقاً في فندقه في قبرص لبضعة أيام، ظنَّ أن الشريك يحتاج إلى بعض المرح، وأنه سيصطحب أصدقاءه لقضاء عطلة بعيداً عن العيون الفضولية، لكنَّ الأستاذ اضطرَّ أن يكون صريحاً كي يؤمِّن له مايك ما يضمن نجاح المهمة: أحتاج إلى مكان منزوٍ أنا وثلاثة نواب آخرين، سنجتمع مع شخصيات فرنسية وأمريكية، هناك مؤامرة تحاك على البلد ونريد إجهاضها مبكراً.

لم يستخدم مايك كثيراً من الدهاء كي يستدرج رغيد ليفشي بالسِر، وكفاه التعبير عن قلقه على البلد ليهمس أن الحريري يخطط مع عبد الحليم خدام منذ الآن للتمديد للرئيس الهراوي، وهذا يعني إرباك الحياة السياسية، والشخصيات الغربية تريد مكاناً للقاء لا يستطيع أحد الوصول إليه.

ضحك مايك: لا يستطيع أحد؟ ألم تجد إلا قبرص، وفي ليماسول تحديداً؟ يا رجل حتى الدانمارك والبوليساريو لديها عناصر مخبرات هناك!

أوضح رغيد أن ما يخشاه هو الصحافة والسوريون، وموقع فندق بنات يعقوب مناسب لتجنّب هذين الخطرين.

قدّم مايك كل ما يلزم لتزويد أيام اللقاءات السرية ببعض المرح الذي يجعلها أكثر سهولة وجدوى، وأحسن بيان إدارة العملية بنفسه لشعوره بأنه يمارس لعبته المفضّلة: السياسة.

نتائج اللقاءات كانت مريحة لجميع من شارك بها، حتى إن الأستاذ رغيد، حين استأذن مايك بإرسال مكافآت لمن قاموا على راحتهم ومتعتهم أثناء وجودهم في قبرص، اقترح تحويل الفندق لأداء هذه الوظيفة: إنه مكان مناسب جداً جداً لعقد اللقاءات السرية، والجميع يحتاج إلى إبقاء الخطوط الخلفية مفتوحة، بالنسبة لي سأقترح هذا المكان لكل من أعرف أنّهم قد يحتاجونه.

كانت فكرة جيدة نظرياً تلك التي اقترحها الأستاذ رغيد، لكن عملياً كان

الفندق يكاد لا يغطي نفقاته وأقساط القروض، وقبل تحويل بنات يعقوب إلى فندق مفاوضات، يجب البحث عن حل للموضع الراهن، وتنمية مهنة القمار، حتى لو كان بالقفز للأمام.

الحل أتى من مزج جملتين، واحدة قالها عيسو الذهبي: لو أنك تسحب بنات يعقوب ليصبح أقرب إلينا لاستطعت أن أحضر عشرة أضعاف الزبائن.

والثانية قالها السيد ساكس على الهاتف: مؤسف أن يكون هذا الجسد لناقلة نفط، لو أنني أستطيع أن أمارس هوايتي الحقيقية لجعلتها فندقاً عائماً.

بعد استفسارات واستشارات، وصلت إلى طهران رسالة باسم الراضي تعترف أن حجم الأضرار في الناقلة الثالثة أكبر مما كان متوقعاً، وأن حجم التآكل في حوضها خطر على المدى الطويل، أو أنها ستكون معرضة لمخاطر خلال السنوات الثلاث أو الأربع القادمة، وهناك عرض لشرائها على وضعها بتعويض معقول.

أخذ الراضي ثلاثة ملايين إضافية وأخذت الشركة الإيرانية خمسة عشر، واحتاجت رفقة (السفينة) إلى سنة وشهرين حتى أخذت ملامحها، وصارت سفينة ركاب سياحية من تلك التي تراها في مسلسلات الرابعة بعد الظهر على قناة تلفزيون عائلية في تركيا أو فنزويلا. كانت تحتوي على صالة لآلات اللعب، وصالة لألعاب الورق، وست "كابينات" صغيرة أخرى لمن يحبون اللعب بخصوصية، وصالة واسعة للرقص تحتوي ثلاثة أعمدة للتعري، ومطعمين، ومثني غرفة موزعة على الطوابق الستة الظاهرة فوق حافة السفينة والستة المختبئة في بطنها.

بقيت السفينة تحمل اسم رفقة، لكن جنسيتها تغيرت، فتم تسجيلها بمساعدة ساكس كسفينة رحلات سياحية في اسكتلندا على اسم شركة يملك مايك 99% من أسهمها، ورفعت العلم البريطاني المهيب.

يوم الجمعة الخامس والعشرين من كانون الأول 1998، التقى عيد ميلاد المسيح مع اليوم السابع من شهر رمضان من العام الهجري 1419، وبدأت السفينة رفقة رحلتها الأسبوعية الأولى، بعد أن تزودت بالموءن والوقود من ميناء طرابلس، منطلقاً في الرابعة بعد الظهر من نقطة في البحر مقابل ميناء جونية الصغير تحمل عدداً محدوداً من الركاب، بينهم مالكة مايك الشرقي ونخبة مختارة من مديري منشآته في لبنان، وبعض موظفيه الذين نقلهم لممارسة أعمال جديدة، وسرب من الفتيات متعدّدات الجنسية وألوان البشرة، واللواتي سيكملن تجهيز السفينة بمستلزمات إبحارها. إضافة إلى ضيوف أجانب مثل السيدة ربيكا واثنين معها من روسيا، وضيّفين عجوزين أمريكيين أتيا من دبي خصيصاً للمشاركة في هذا الحدث، والتحرّر من بعض ما يحملون من دولارات ترهق كاهلهم هي عائذات تأجير برج أبولو 3 في شارع الشيخ زايد.

بعد ستين ميلاً التقت رفقة بثلاثة قوارب تحمل أربعين سائحاً قادمين من ميناء حيفا، وهم المعيار الذي تم عليه اختيار القادمين من جونية، حيث تم اختيار من يمتلكون القدرة على تلقّي صدمة اللقاء مع الدفعة الثانية من رفاق الرحلة.

في مرفأ ليماسول انضم ضيف الشرف السيد ساكس، الذي أخذ إجازة من عمله ليشارك في الرحلة الأولى لما يعتبره لوحته الفنية الخاصّة، واصطحب معه بعض الأصدقاء وبعض من شاركوا في إنجاز هذه التحفة، وانضم بضعة أشخاص من كادر بنات يعقوب لم يكن بينهم بيان ملحم بالتأكيد، رغم أنه أكثر الناس امتناناً لبناء هذه السفينة، فهو يعتبرها تكريم مايك له بإبعاد أبناء يعقوب بن لاوي عن بنات يعقوب وعنه، وإعفائه من مشاهدتهم بكثرة.

تهادت رفقة باتجاه اليونان، وقد بدأ ليلها الماجن بأقصى جموح لمخيلة مايك الشرقي التي ربّأها لأربعة عشر عاماً كي تنتزع من النفس البشرية

أحط نوازعها وتجسدها واقعاً. على السطح وبين الطوابق تنتقل نساء
أوكرانيات وأثيوبيات كما ولدتهن أمهاتهن، يحملن صواني الكحول لتوزيعها
على مدار الساعة.

على أعمدة الرقص الثلاثة توزعت الأصناف الجندرية الثلاثة الأكثر
شيوعاً في النوع البشري، فعلى العمود الأول كانت ترقص فتاة تتغير كل
خمس دقائق بعد أن تنهي خلع قطع ملابسها واحدة بعد أخرى، وعلى
العمود الثاني يرقص شاب بعضلات صدر مكورة وبطن مقسم بخطوط
منتظمة كوجبة الروستو العائلية، وعلى الثالث ترقص امرأة بصدر عارم
ومكياج صارخ، وحين تخلع آخر وأصغر قطعة من ملابسها في النهاية، يظهر
أنها ما زالت تحتفظ بذكرى صغيرة وغير فعالة من الأيام التي كانت فيها
رجلاً. ولم يكن مسموحاً لرواد الرحلة أن يصطحبوا إلى قمراتهم أي خيار
يعجبهم من الراقصات والراقصين إلا بعد انتهاء عرضهم.

اصطحب مايك ضيوفه الخاصين في جولة للاطلاع على مرافق السفينة
الجديدة وأماكن اللهو والمرح فيها. اقترب منه عيسو، منظم الرحلة من
حيفا، وأراد إظهار خبرته بالثقافة العربية، فهتأ مايك بقدم شهر رمضان،
أشار بيده إلى مظاهر المجون التي ملأت الزوايا والمنصات، وسأله ضاحكاً:
- أليست هذه العشر الأوائل من رمضان التي تُصَفدُ فيها الشياطين
وتُقَيَّدُ بالسلاسل؟

- أجل، إنها تُصَفدُ هنا.

- أردت باسمي وباسم من معي أن أشكرك لتكريمنا باختيار اسم رفقة
للسفينة.

- إنه اسم ابنتي.

- أجل صحيح، رفقة ابنتك، لكنها أيضاً زوجة جدنا إسحاق، تعني لنا

الكثير، ونشكرك على اختيار هذا الاسم، نحن نجلُّها، ونلفظ اسمها رفقة أو ربيكا لا فرق.

سمعت ربيكا اسمها وانضمت إلى المحادثة، فأخبرها مايك أنه اكتشف للتو أن السفينة تحمل اسمها، عبّرت عن سعادتها بإطلاق صرخات صاخبة، وعادت للتفاخر بأجساد فتياتها المتلألئات اللواتي يضيء جمالهن المكان.

كان مقرراً أن تتوقف السفينة في ميناء بيرايوس حتى الرابعة بعد الظهر، كي يتاح لركابها أن يتجولوا في أثينا لبضع ساعات قبل متابعة رحلتهم، لكن معظم هؤلاء الركاب كانوا عند وصولها الميناء في الساعة صباحاً قد فقدوا ما تبقى من قدرتهم على المشي، ومن بقي صاحباً منهم، كان إما عارياً في الفراش أو عارياً على منصة الرقص، أو عارياً يبحث عمّن يشتري ثيابه المعلقة على يده ليكمل المقامرة.

كان زوار الرحلة الأولى بالنسبة لمايك حقل تجارب لنوع المتع التي ستجدها على رفقة (التي بدأ مباشرة يستخدم لها اسم ربيكا أيضاً) وهم أيضاً مسوّقون محتملون لهذه الرحلة الدورية التي تستطيع القيام بها في أي وقت، وتعيش حريتك المطلقة عائماً على الماء، وستزور سبعة موانئ موزعة على المتوسط لتحمل ركاباً وتنزل ركاباً، صُممت السفينة لتستمر بالقيام بهذه الرحلة إلى الأبد، وصممت الرحلة ليكون بإمكانك أن تنضم إليها وتعادرها في أي وقت تشاء ومن أي مدينة تشاء.

أراد لها أن تكون المكان الأكثر حرية في العالم، ليس فقط في حرية الجسد، بل ستكون المكان الذي يلتقي فيه القبرصي الجنوبي مع القبرصي الشمالي، واليوناني مع التركي، والعربي مع الإسرائيلي، ويغني فيه الإيطالي مع اللبناني، ويمتزج فيه الحمص المقدسي مع اللحم السوري، ويكسر عرق زحلة بماء الألب، وويسكي بن نيفيس بثلج الأولمب، ويلج فيه عضو

ذكرى غير مختون مهبلًا يختفي وجه صاحبتة تحت نقابٍ مدعى، ويتمتم
فمها بأدعيةٍ بدل التأوهات.

تابعت السفينة رحلتها التجريبية تلك، وظهر بالتجربة أن حجم المتع
الموجودة على سطحها وفي بطنها العميق ستشغل أي إنسان عن الاستمتاع
بالساعات الثماني المقررة للوقوف في مرفأٍ مختلف كل يوم لتجديد
المخازين وإنزال الركاب للتجول في سبع مدن مختارة من عشرين مدينة
متاحة على خط الرحلة الدوراني، الذي لا توجد له نقطة بداية أو نقطة
نهاية.

كانت رحلة كالخول لا كالسنة، ابدأ العد من أي مكان تريد، وبعد سبعة
أيام ستعود إلى المكان نفسه، ولكنها لن تنجح أبداً في التحول إلى برنامج
سياحي هجين، كما ستضطر لبيعها مكاتب السياحة المتعاقد معها في
الدول المختلفة، متعة في الليل وتسوق وسياحة ثقافية في النهار، وسرعان
ما أخذت اسمها الصريح الوقح: "سبع ليالٍ".

البعض كان يأتي ليقامر ويخسر، البعض يأتي ليمارس الجنس متنقلاً
بين سمراوات وشقراوات، والبعض يأتي فقط ليمارس لذة الحديث
الفاحش، أو التصرف دون قيود. فرقة كانت المكان الوحيد في العالم
الذي يمكنك فيه أن تمسك فتاة تمرّ قربك من صدرها أو تمد يدك إلى
ما بين ساقها إذا ما أردت ذلك، وسيقابل بابتسامة ذلك الفعل الذي
ستسجن لأجله سبع سنوات في أي مكان في العالم.

ما ينطبق على النساء ينطبق على الشبان في سفينة المجون تلك،
فليس الرجال وحدهم من يحتاجون إلى شركاء جنسيين لقاء المال، وليس
الرجال كلهم بحاجة إلى نساء لإرواء نهمهم الجنسي. كان قانون السفينة
يقتضي أن يكون الزائن جزءاً من اللعبة، وبمجرد انضمامهم إلى الرحلة
يمكن لهم اختيار من يشاؤون لمشاركته الفراش، وفي الوقت نفسه يمكن

للآخرين اختيارهم، ولهم القبول أو الرفض، كانت الرحلة أشبه ما تكون بحفل مجون جماعي يتحرر فيه مئات الأشخاص من كل قيودهم دفعةً واحدة.

على سطح السفينة في الرحلة الأولى كان هناك استثناءان: نسرين التي أراد لها مايك أن تمارس الدور الذي رسمه لها منذ سنوات: "العاهرة التي لا يستطيع أحد مضاجعتها"، وأرادها الحلقة الناقصة التي تبقى ذكرى غامضة لدى من يجربون هذه الرحلة، لأنها ستعيدهم مرةً ثانية. لن يعيدهم تمنع نسرين، لأنهم سينسون هذا التفصيل، بل سيبقى في عقلهم الباطن أنهم تركوا شيئاً ناقصاً ولا بد أن يعودوا يوماً ليكملوه. أو ربما كان يقول ذلك لنفسه كي لا يعترف أن الفتاة وقعت في قلبه مذراها أول مرة، ولأنه لا يريد الوقوع في لعنة الحب فقد رسم لها حيزاً يجبره على تجنبها دون نساء الأرض، ولأجل هذا أو ذاك كانت نسرين الوحيدة من بين طاقم السفينة وزوآدها التي ترتدي ملابس محتشمة، والاستثناء الثاني في تلك الرحلة كان مايك نفسه، فقد كانت علاقته مع الجنس في ذلك الوقت أصبحت كعلاقة شعور الظمأ مع من يعيش داخل نهر ونصف جذعه مغموس في الماء.

كان لسفينة الرحلات تلك قانون خاص عبّرت عنه الإعلانات التي نُشرت عنها بلغات متعدّدة، وكانت تحريفاً متقناً لعبارات مسروقة من رسائل بولس الرسول إلى أهل ملاطية:

"اخلعوا عنكم ثيابكم، أسماءكم، ألقابكم، واثبوني عراةً من كل شيء، اتركوا كل ما كنتموه خارج ملكوت اللذة".

تقف حنين ونسرين عند سلّم السفينة لتمارسا عملهما الجديد المتناقض مع الطبع الخجول لحنين، والذي غيرته مضاعفةُ أجرها اثنتي عشرة مرةً، والمتناسب مع الذكاء المحدود لنسرين الجميلة. كان عمل حنين يتطلّب منها أن ترتدي غطاء رأس الراهبة مع سروال داخلي وحمامة

صدر أسودين، وتحمل في يدها دفتر التراتيل لتقرأ صلاة السفينة بإحدى اللغات الست التي تناسب الدفعة التي انضمت للتو:

"الشهوات هنا ليست خطايا. هنا سننجو. ما ستفعله الآن لن يسجل في صحيفتك. هنا نرتكب من المعاصي ما لا تجرؤ الملائكة على تدوينه. الموكلون بتسجيل الأثام، سيخجلون مما ستعيشه وتراه. الملائكة لن يجرؤوا على إبلاغ الله بما نفعل. لن يجدوا كلمات مناسبة. سننجو، بمشيئة الرب سننجو. أهلا بكم في ملكوت اللذة!"

أثناء تلاوة حين تلك الكلمات بصوتها المتهدج، تكون نسرین بجانبها ترتدي عباءة عريية مطرزة بخيوط الذهب وترسم وشماً أزرق أسفل فمها، وتمسك بيدها سلسلة تنتهي بمبخرة نحاسية يتصاعد منها الدخان العطر، وتمررها حول رؤوس القادمين وهم يتلقون الصلوات المرحية.

أغلب الركاب كانوا يضحكون لهذه الصلاة الساخرة المحببة ولهذا الاستقبال الغريب، وكثير منهم يبدوون بخلع ثيابهم كي ينتموا إلى المكان، والكل كانوا يكملون دورة الرحلة كاملة ينغمسون فيها لسبعة أيام بكل أنواع المتع التي تخطر ببالهم أو لم تخطر من قبل، كان كل منهم يأتي محملاً برغبات خفية، وأسئلة كثيرة من جسده يريد اختبارها.

انتشرت أخبار رفقة ورحلتها الأسبوعية، ونجحت حملتها الترويجية عبر أفضل وسيلة تسويق في العالم: الهمس. وهي الوسيلة التي لم تستطع كل التقنيات ووسائل الإعلام والعروض أن تنافسها. فخلال أسابيع صار ينضم إلى رحلات رفقة نماذج أخرى مختلفة من الزبائن.

السيدة غالاريه، السياسية السبعينية العظيمة، الرصينة، الجادة، التي يراها الناس على التلفزيون كل يوم، وينتظرون تصريحاتها التي تصعد أو تهبط بأسعار الأسهم، تخفف القلق أو تزيده في مناطق الصراع في العالم، صارت تبرمج جدول لقاءاتها الرسمية لتتمكن مساء الجمعة من

الانضمام إلى رحلة رفقة من اليونان، وتغادرها صباح الاثنين من إسبانيا، وتقضي عطلتها الأسبوعية متنقلةً بين أحضان شَبان رياضيين في العشرين يمطرون شعرها الأبيض ونهديها المتهدلين بعبارات الغزل الصادقة التي يؤكّد صدقها شفقتهم وحماسهم، وعدد المرات التي تتجدّد فيها علامات إثارته، وكذلك جهلهم بمن هي وبأهميتها الدولية، فكانوا يعيدونها تلك الفتاة الشبقة التي كانتها قبل نصف قرن، والتي فقدتها وظلت تبحث عنها في أحلام يقظتها، ولم تعثر عليها بشكل آمن إلا على سفينة مايك الشرقي الذي شكرته بدفع المال أسبوعياً دون حساب، وبالاستجابة دون حساب أيضاً لطلباته الصغيرة مثل رغبته بالحصول على جنسية جديدة، لا يهمّ لأي دولة، المهم أن تكون أوروبية.

أحسنَ كعادته اختيار الوقت المناسب، ساعدته ملامح وجهها المنتشية والطريقة الرخوة في إمساك كأس النبيذ ليعرف أنها قضت أفضل وقت على الإطلاق، وأن هذه هي اللحظة. بالغت السيدة غالاربه في الاستجابة للطلب: "سأندخل لمنحك واحدة شرقية وواحدة غربية، الأوروبيون مجانيين ربما أعادوا بناء جدار برلين ذات يوم، ستكون لديك خيارات".

مارلن هيدسون، الرئيس التنفيذي لشركة السيارات الكبرى، صار ينضمّ إلى الرحلة كاملة كلما أُتيح له، بعد أن اختبر تجربة أراد تكرارها للأبد. كان مارلن يمتلك نوعاً خاصاً من الميول الجنسية، كانت توقعه في إشكالات بسبب صعوبة فهم رغباته، كان يحب التشبّه بالنساء لكنّه لم يكن يحبّ ممارسة الجنس مع الرجال، ليس مثلياً وفق التعريف العلمي لكلمة مثلي، وليس مستقيماً حسب التعريف العلمي لكلمة مستقيم.

عابرة ربيكا التقطوا هذه الحالة الخاصة، وأحسنوا التعامل معها، أدخلوا السيد هيدسون إلى غرفة المكياج، ألبسوه فستاناً اختاره بنفسه من بين فساتين كثيرة. رسموه بمكياج متقن، زوّده بنهدين إسفنجيين، أبرزوا شفّته، أضافوا الشعر الطويل، والأظافر الحادة المطلية في اليمين

والقدمين، ألبسوه حذاءً بكعب عالٍ، وغلّفوا ما يظهر من جلده برقاقات سيليكونية أعطت جسده ملمساً ومظهراً ناعمين. وأينما تحرّك داخل السفينة وضعوا في طريقه من يتغرّّل بجمال المرأة التي صارها، ويعرض عليها علاقة ترفضها. عاش يومين بهذا الشكل، لم يعدل فيه شيئاً سوى تجديد طبقات المكياج على الوجه لإخفاء جذور شعر الذقن.

مارس في العلن أمام مئات الناس، ما كان يمارسه وحيداً في غرفته الآمنة بين الفينة والأخرى. اكتملت متعته حين رآه الناس، وحين لم يشوِّش عليه أيّ اعتقاد خاطئ، حتى إنه حين بلغت إثارته ذروتها وأراد ممارسة الجنس، وجد امرأة أكملت له متعته وهو بهذا الشكل. لذلك لم يكن من الصعب على مايك أن يتحيّن اللحظة المناسبة، وهي لحظة مغادرة هيدسون للسفينة، ليدعوه باسم المالكين والإدارة لتكرارها، مع وعد بالاستعداد بشكل أفضل وتحسين التجهيزات. وأرفق دعوته بسؤال عن وكيل الشركة في الشرق الأوسط، وما إذا كان يهمهم أن تنتقل الوكالة إلى شركة مقرّها بيروت.

طويل العمر الذي يأتي من السعودية بحثاً عن المتحولين جنسياً. طويل العمر (الأطول عمراً) الذي يبحث عن الشبان مفتولي العضلات لينام في أحضانهم. "ملعونو الوالدين" الذين يبحثون عن فتيات من أعراق مختلفة ليجمعوهنّ على السرير. الزوجان اللذان يريدان تشارك الفراش مع أزواج آخرين أو مع رجال منفردين أو نساء منفردات. الرجل الضخم المهيب الذي يحتاج امرأة تربطه بسلسلة كلب وتجلده بالسياط على مؤخرته. الزوجان اللذان يريدان تبادل الأدوار بشكل متقن، ولن يعثروا على من يُحسن تأنيث الزوج وتذكير الزوجة سوى على هذه السفينة. المرأة التي تحبّ أن يغتصبها مجموعة من الأشقياء، فيما تدّعي بدموع غزيرة أنها أُجبرت على ما دفعت ثمنه مسبقاً. محبّو طالبات المدارس، محبّو التعري، الساديون، المازوخيون، وبالطبع أصحاب الميول الطبيعية للغاية،

أولئك الذين يأتون مع زوجاتهم المتحفظات وحتى المنقبات ليقبلوهن أمام الآخرين، أو ليستعيروا فتيات سمراوات أو شقراوات بدل زوجاتهم اللواتي بقين في البيت للعناية بالأطفال.

أيًا كانت الميول التي تخطر للمخيلة كانت تجد على ريبكا أسباب تحقّقها، وكانت كلّ نزوة أو رغبة سرّية لشخص ما تعني بالنسبة لمايك استثماراً من نوع ما.

نجاح ريبكا المذهل، لم يُعْفَها من قدر التوقف، والتحول في النهاية إلى جزيرة معدنية هائلة تحتوي فندقاً وصالات قمار. تقف ساكنة في نقطة محددة من البحر المتوسط، ويقصدها زبائن من مكان محدد لأداء وظيفة محدّدة، أشخاص من مكان يُمنع فيه لعب القمار، يخرجون بالقوارب من حيفا وتل أبيب ليمارسوا هوايتهم على أرض بريطانية عائمة، ولم تكن قد قامت بجولتها الأسبوعية سوى مئة مرة على مدى عامين.

لم يكن توقف ريبكا إلا بسبب عدم قدرتها على تلبية الطلب الكبير الذي خلقه نجاحها، ولم تعد قُمْرَاتُهَا المئتان قادرة على تلبية آلاف الحجوزات التي صارت تُوَجَّلُ لأشهر طويلة، وكان لا بد من خطة للتوسّع، وضعها السيد ساكس بشكل واقعي على مرحلتين، فبدأ ببناء السفينة العظيمة التي أراد لها أن تكون أكبر سفينة عرفتها البحار على الإطلاق، ولأنّ بناءها يحتاج إلى أربع سنوات من العمل، وتكلفتها تعادل ثمن برجين كاملين في دبي، فقد عثر لمايك على سفينة ترغب شركة صينية ببيعها، ويمكن إجراء تعديلات عليها خلال ثلاثة أشهر لتكون صالح للاستخدام ريثما تجهز السفينة الكبرى، سجّل السفينة في الولايات المتحدة وأطلق عليها اسم هاملتون، كانت تبلغ ثلاثة أضعاف طول ريبكا وتستوعب ستة أضعاف عدد المسافرين في الرحلة الواحدة، وتحتوي 18 طابقاً من الصالات والغرف.

والبحر من يخلق اليابسة

البحر لا يتقاسم الكوكب مع اليابسة، ولا يتناوب معها، بل يخلقها بنفسه، يفعل كما القادة العظماء حين يخلقون مستقبل أوطانهم: يصنعونه بالانسحاب.

حين فكّرت دبي ببناء جزرها الجديدة لم تكن تكتفي بكسر القاعدة، بل كانت تهشّمها تماماً، لأنها سبق أن وجّهت لها ضربة سابقة حين بنت مستقبلها، وها هي ذي تصنع اليابسة بالطريقة نفسها. استخدمت تقنية التشبيث، توغّلت بشكل مخطط وممنهج، ردمت بيئة رخوة ومحيطاً سائلاً، دقّت فيه أسافين التثبيت، ربطته ببعضه بالملاط، وتمدّدت، ثم أشادت المباني والمؤسسات والعلاقات والقوانين، والآن ها هي ذي تخطّط لردم البحر.

حين كشف طلعت لمايك ما يجري التخطيط له أصابه الذهول: هذا غير قابل للفهم، لماذا ينفقون 12 مليار دولار لعمليات ردم البحر ليحصلوا على ستين كيلومتراً جديدة، ولديهم 83 ألف كيلومتر من اليابسة؟

لم يكن طلعت مكترناً كثيراً بالسبب، لأنه يفكر بالنتيجة، يريد أن يكون لهم حصّة من هذه "الرؤية". إمّا أن يؤسسوا شركة المقاولات التي يريدونها، أو أن يحجزوا بوقت مبكر أكبر مساحة من الأرض على أحدث جزيرة في كوكب الأرض.

ظللّ مايك مصمّماً على رفضه للعمل في المقاولات: لا بأس بأعمال حقيقية وطبيعية، لكن بشرط ألا تكون طبيعية لهذه الدرجة، راقب ما سيجري، وترصد.

بيان جاء بخبر مثير وخاص، وأغناه من داخله بحكاية جديدة بالاستماع: جزيرة سكوربيوس التي شهدت أشهر زيجة في القرن العشرين معروضة للاستثمار، وإذا التزمنا بشرط صغير وأمرنا المهندسين بوضع مخططات تحافظ بطريقة لائقة على قبري أرسطو وابنه ألكسندر، نستطيع أن نأخذ الجزيرة بعقد استثمار لخمسين عاماً ونحولها إلى منتجع سياحي ضخم، والأسماء بحد ذاتها ستقوم بتسويقه. هنا تزوج أرسطو سقراط أوناسيس من جاكلين كينيدي، ولم يبقَ من ورثته سوى حفيدته أئينا التي تبلغ الثانية عشرة الآن.

أوناسيس، تزوج امرأة وأحبَّ أخرى، لكنَّه في النهاية ترك اللاتنتين من أجل جاكلين كينيدي. لم يكن ذلك حباً عظيماً كما تكثر مجلات الثرثرة منذ عام 1968، بل الأرجح أنه كان بالنسبة لجاكلين صفقة، وبالنسبة لأرسطو ثأراً.

ففي منتصف الخمسينيات وحين تُوجُّ أوناسيس سيداً على البحار دون منازع، كانت السعودية تؤسِّس وقتذاك واحدة من أكبر الشركات في العالم وهي الشركة السعودية الأمريكية للبترو، التي ستعرف لاحقاً باسمها المختصر «أرامكو»، نجح أوناسيس في إقناع الملك سعود أن يوقع معه عقد النقل الحصري للنفط السعودي، وهو ما أثار غضب الأمريكيين، فظلوا وراء الرجل حتى أدانوه بجرم الاحتيال وفرضوا عليه غرامة تعادل أرباحه من ذلك العقد. كان الرجل الذي قاد كل ذلك هو السيناتور الشاب عن ولاية ماساتشوستس: جون كينيدي.

في النهاية فعل أشهر أثرياء القرن العشرين مثلما يفعل رجال الصحراء: انتقم مما فعلته به الولايات المتحدة بأن تزوج أرملة الأمة.

ثم انتقم الأمريكيان (أو القدر بكلِّ براءة) من أوناسيس حين فقد ابنه ألكسندر في حادث طائرة غريب وهو ما يزال في الرابعة والعشرين، وتبعه أبوه بعد عامين، ودُفن الاثنان في الجزيرة المعروضة للاستثمار حالياً.

بين اقتراح طلعت واقتراح بيان، حارَ مايك بين الحكايتين لا بين الاستثمارين. سكوربيوس جزيرة ترتبط بحكاية لا تقاوم، حكاية جميلة ستسلي الصحف التي ستتطوع من تلقاء نفسها لترويج المشروع، وجزيرة النخلة فيها من الغرابة ما يؤكد أنها ستحتوي على حكاية أكثر إثارة، لكنها لم تتكشف بعد.

لم يرَ المنتج السياحي في جزيرة سكوربيوس النور. فبعد بدء سريان العقد بأسابيع، وبطلب من أحد المكاتب السياحية الفرنسية، نُظمت رحلة لمجموعة ترغب في قضاء وقت لذيد في أحضان الطبيعة، والتعرف على هذه الجزيرة الساحرية، ونُصبت خيامٌ مواجهة للبحر تحيط بعمود النار الذي يظهر بعضاً من الأجساد العارية التي ترقص حوله.

اقتصر استثمار سكوربيوس على رحلات وحفلات من هذا النوع، دون إهدار مبالغ كبيرة في بناء منشآت، وبقي هذا الاستثمار كمن يشتري أرضاً صخرية ويُلقى بمسؤوليتها على الزمن. ولأسباب تتعلق بالأولويات اليومية، والانشغال بشيء جديد كل مرة، والرضا الجزئي عن عائدات الرحلات البدائية الأسبوعية، حافظت هذه الجزيرة على ملامحها، باستثناء بناء بضع عشرات من الأكواخ الخشبية، وبضع عشرات من الخيم الأنيقة، وجلست تنتظر اللحظة المناسبة.

لكنَّ الوصول إلى شركة هيلمان هيرلي تشارفات بيكوك كان أفضل ما فعله طلعت طيلة سنوات عمله في دبي، فهي الشركة المعمارية الأمريكية التي ستدرس وتعدّ المخططات لنخلة جميرا، ثم لنخلة جبل علي ونخلة ديرة، وعبرها يمكن الحصول على المعلومات في وقت مبكر للغاية، ولا ربح دون معلومات.

في رحلة الأصدقاء التي نظّمها طلعت خلال العطلة السنوية على سطح سفينة المتعة هاملتون في البحر المتوسط، بدرجة حرارة 28 بدلاً

من 50 في دبي. كان بيل كبير مهندسي المشروع ضيف الشرف في سهرات الصخب والمجون واللعب. وساعد إحساسه بالأريحية والمتعة على تزويد مايك وطلعت بكنز من المعلومات عن شكل الجزيرة الأولى وأفضل الأماكن فيها والبرنامج الزمني للتخطيط والتنفيذ، والعيوب التي ستظهرها التيارات البحرية في بعض الاتجاهات. والأهم من كل ذلك، أنه منح مايك الحكاية التي يريد. صحيح أنها كانت التفسير الشخصي لبيل دون أن تكون بالضرورة هي السبب الحقيقي لهذه «الرؤية. المشروع»، لكنّها كانت حكاية كافية ليكرر مايك قراراً مشابهاً اتخذه قبل تسع سنوات «ليكن الخليج والمتوسط معاً».

الأرقام التي ذكرها بيل تحسّن من حكايته، وتجعلها مقنعة، بل لذيدة، فالمشروع يتضمن ثلاث جزر سيتم بناؤها في البحر على مدى خمسة عشر عاماً، والجزيرة الأولى التي ستندمج إلى عجائب الدنيا وتجعلها ثماني، ستكون مساحتها 60.32 كيلو متراً مربعاً.

«ألم يلفت نظركم أنها ثلاث؟ ألم تلفت نظركم مساحتها؟» بالطبع لم يكن لذلك أن يلفت نظر مايك وطلعت المشغولين بالمال والبحث عن مصادره، فأضاف بيل ما لم يساعد أبداً: «لدى الإمارات ثلاث جزر تحتلّها إيران منذ تأسست الدولة، تحديداً منذ الأول من كانون الأول 1971، أي في الساعات الفاصلة بين مغادرة القوات البريطانية في اليوم السابق، وإعلان استقلال الدولة في اليوم التالي، ربما يساعدكم على الفهم أن تعرفوا أن مساحة طنّب الصغرى 1.89 كيلومتر مربع وطنّب الكبرى 8.79 وأبو موسى 19.48».

لم يساعدهم ذلك بالطبع، لولا أن جمعها بيل بنفسه: «أنها 30.16 كيلومتراً مربعاً، أي نصف الجزيرة الجديدة تماماً».

تلك الجزيرة كانت التعويض النفسي لمن سيولدون فيما بعد ولا

يريدون أو لا يستطيعون أن يخوضوا حرباً، كانت النخلة بالنسبة للإمارات
جاكلين كينيدي بالنسبة لأوناسيس صاحب الثروة الجميلة والوجه الدميم.

**

فيما كان القرن الجديد يتقدّم دون أن ينتهي العالم، كان وصف أعمال
مايك يحتاج إلى باحث بمواصفات خاصة: يمتلك الجَد الكافي لينهي
قراءة رأس المال كلمة كلمة، وهو الجَد الذي لم يمتلكه ماركس نفسه.
يمتلك في الوقت ذاته القدرة التلغيفية لأولئك الذين يحصون كلمات
القرآن ليخرجوا من تقسيم عدد الكلمات المتناقضة على بعضها بإعجازات
علمية.

ثم يحصي كل المفردات التي قالها ماركس على أنها شتائم، يضعها
في جدول، سيحتوي على مفردات أصلية مثل: استغلال، تشييب، تسليع،
طفيلي، انسداد، حتمية، انقطاع تدفق، صحوة، جماهير.

ثم يضيف مفردات جديدة مثل: مايك الشرقي، لبنان، سورية، روسيا،
العراق، الإمارات، قبرص، اليونان، بلغاريا، رومانيا، أتيجوا، باربادوس،
دعارة، قمار، تهريب، تبييض أموال، آثار، كبتاغون، هيروثين، ابتزاز، نפט...

يقسمها على بعضها، يطرح مرّات ذكر يابسة من ذكر ماء، ومرّات ذكر
فرج من مرّات ذكر قضيب، وكذلك دولار ودينار وجنيه وليرة، يعدّ كلمة
باع، ويعدّ كلمة اشترى، يجمع كل ذلك بجملّة واحدة، ويغنيها عن كل
هذه الصفحات.

كان مايك يمرّ بتلك المرحلة التي يسمّيها ماركس النمو اللولبي
اللانهائي، وتسمّيها العمّات: سبحانه إذا أعطى أدهش وإذا أخذ فتش.

حتى ذلك الوقت لم يكن مايك يعتني بما يلبس، ولا يهتمّ بما إن
طالت ذقنه أو حُلقت، كان يقصّ شعره كلما وجد وقتاً لذلك. أصرت

رندة على ضرورة اعتماد نمط لباس خاص يناسب الوضع الجديد لمايك، والمرّة الأولى التي ظهر فيها ببذلة بيضاء ناصعة مع زهرة قرنفل في الجيب العلوي كانت خلال مشاركته في استقبال ثمانية رجال يمثلون ثلاثة وفود تريد وقف الحرب الطاحنة بينها، وتتقاسم بعدالة عائذات تهريب النفط من العراق، وتهريب السلع إليه بالمقابل، في الوفدين السوري والتركي حضر ممثل عن المهربيين وممثل عن التجار الذين يملكون شركات حقيقية وممثل عن السلطات، بينما تكوّن الوفد العراقي من شخصيتين رسميتين مخوّلتين بالتصرف كمهربيين أو كتجار أو كضباط حدود.

اشترط مايك ألا يشهد اليوم الأول أي حديث في العمل، وأن الجميع اليوم أسرى لديه، وقد أعدّ لهم برنامجاً منوعاً يريحهم من ضغوط العمل التي حملوها معهم، ويجعلهم جاهزين في الغد لبدء المفاوضات، وأن تبدأ المفاوضات بالجزء السهل منها، وهو البضائع المسموح بدخولها رسمياً إلى العراق حسب قرار مجلس الأمن، مقابل كوبونات تُصرف على حساب برنامج النفط مقابل الغذاء.

تلك المفاوضات، والنجاح الذي حققه مايك كوسيط نزيه، وحصته التي خرج بها في النهاية، جعلت فندق بنات يعقوب يتحول فعلاً إلى مقرّ مفاوضات، كما يليق به وكما أراد له الأستاذ رغيد، مُشبعاً بكل زيوت المتع التي تسلكّ التفاوض، وتخفي صريه.

جرت فيه لقاءات من تلك التي تفضي إلى صفقات تجارية، إلى تبادل معلومات، إلى تبادل مخطوفين، إلى بيع آثار، التقت شركات روسية يختبئ فيها رجال مافيا، مع رجال مافيا أوروبيين تختبئ فيهم شركات، التقى عراقيون عرضوا الصلح مع الكويتيين، التقى إماراتيون مع إيرانيين، ورجال بنوك مع مهربي عملة، أترك مع أكراد، تجار مخدرات مع ضباط جنائيين، كوريون شماليون من وزارة المعدّات مع سودانيين جنوبيين وسودانيين شماليين عبر وسطاء سوريين.

وضع مايك بنفسه قواعد لعبة التفاوض التي تجري في بنات يعقوب، وتولّى إدارة الهامّة منها، وأحسن استثمارها، وخرج من كل عملية تقريباً بحصة مرضية. كان يؤمن أن أكبر صفقة في العالم تحتاج إلى بضع دقائق لإنجازها، إذا ما أدرك أطرافها مواضع قوتهم وضعفهم، احتياجاتهم وامكانياتهم. لكن المتفاوضين عادة يحتاجون إلى وقت طويل قد يمتد لأشهر وسنوات، لأنهم يأتون المفاوضات محمّلين بأوهامهم وتصوراتهم الخاطئة عن الطبيعة وعن أنفسهم. يحتاجون أن يحوموا حول بعضهم كما الذئب، يناورون ويعوون، لكنهم يستمرون بذلك أطول بكثير من الدقائق التي تحتاجها الذئب.

الصفقات الناجحة تجري ببساطة في عالم الحيوانات. تحتاج إلى الوقت المثالي هناك، ينهض الذكر الشاب فيتحدّى الذكر الكهل يطلقان الأصوات المخيفة كلُّ منهما في وجه الآخر، قد يتصارعان بالقرون أو بالأنياب. سريعاً تتوضح المسألة، ينال كل ذكر عدد الإناث أو مساحة الأرض التي توازي قوته وينتهي الموضوع.

البشر لديهم عيب اسمه الأمل، يسمّونه الطموح، يسمونه الثوابت العليا، يسمونه الإيمان. الإيمان بالقضايا والعقائد والذات، أيّاً كان، لكن هذا الشيء يؤخر كثيراً تثبيت حدود القوة. لذلك تستمر المفاوضات التجارية أياماً، ولجان صياغة الدساتير سنوات، والزواج عشرات السنين، وترسيم الحدود بين الدول قرناً، لأن الدول جميعها ولأدّة، وتتجب دائماً أجيالاً محكومة بالأمل، ملوّثة بالاعتزاز.

نجح مايك في استقبال أعقد المفاوضات وإنجاحها، وهي كانت تحتاج إلى جولات مظلمة، كان يستخدم تقنيات بارعة، يمهّد للمفاوضات بشيء من المرح، كان اللقاء الأول بين المتفاوضين يجري بشروط مايك، حيث لا أعمال، فقط ليلة يعيش فيه الجميع متعمّهم وحرّبتهم المطلقة.

كان يرسم بدقة كيف ستدخل الفتاة الأولى قاعة الذكور المتنافسين، كانت تعرف كيف ستثير إعجابهم جميعاً، وكيف ستكون من نصيب الطرف الذي عليه أن يقدم أكبر قدر من التنازلات لتنجح الصفقة، كان يشعر بالانتصار والزهو لأنه انتزع الفتاة من خصمه، وحصل عليها. كان يشعر بالرضا وهي تغفو بسلام في سريرها، فيستيقظ في اليوم التالي مستعداً ليتنازل في الشؤون التافهة التي جاء ليفاوض عليها.

**

سفينة الرفقة والهاملتون أصبحتا ست. حُصَّ كلاً منها بوظيفةٍ وحيزٍ جغرافي، بعضها يصل إلى الخليج، وبعضها يجوب المتوسط دون كلل، وبعضها يعبر المحيط، وبعضها يقف في مكانه كالجزيرة المعدنية. كانت الأماكن الأكثر حربة في العالم، مصممة وفق خيال جامع وماجن، ولا تدخل المياه الإقليمية لأي دولة، وتخضع لقوانين أعالي البحار، وما يحدث عليها لا ينطبق عليه أي قانون جنائي. كانت تدار بشكل يحقق الحرية والأمان لأي شخص مهما كانت نزواته ومهما كان منصبه. وفي الطوابق السفلية لكل منها تختبئ منشأة ما صُممت لأجلها، مثل كازينوهات القمار، وصلات تصلح أحياناً لتتحول إلى استديوهات مؤجرة لتصوير أفلام البورنو، ومقرات لبرمجة وإدارة مواقع إلكترونية للقمار والجنس وغيرها، طواقمها كانت تضم جميع الأعراق والأشكال والأصناف، وكانت مستعدة لفعل أي شيء.

السفينة الأضخم على الإطلاق ارتفعت عن الحافة ثمانية عشر طابقاً ونزلت تسعة تحتها، كان طولها 444 متراً، وطاقتها يقارب ألفاً وخمسمئة شخص، وتستوعب في الرحلة الواحدة أكثر من عشرة آلاف سائح حقيقي، كانت بريطانية أيضاً لكنها حملت اسماً عربياً للغاية: «البوابة الشرقية».

على باب الصالة الرئيسية فيها نُقِشت بأحرف من ذهب مقاطع من الإصحاح السابع من نشيد الإنشاد، درّة ما بقي من التوراة:

«مَا أَجْمَلُ رِجْلَيْكَ بِالتَّعْلَيْنِ يَا بِنْتَ الكَرِيمِ!
دَوَائِرُ فَخْذَيْكَ مِثْلُ الحَلِيِّ صِنْعَةَ يَدَي صَنَاعِ،
سُرَّتْكَ كَأَسِّ مُدَوَّرَةٍ لَا يُعَوِّزُهَا سَرَابٌ مَمْرُوجٌ.

بَطْنُكَ صُبْرَةٌ حَنْطَةٌ، مُسَيِّجَةٌ بِالسَّوْسَنِ.

تُدْبَاكِ كَخِشْفَتَيْنِ تَوَامِي ظَبِيَّةِ.

عُنُقُكَ كَبُرْجٍ، مِنْ عَاجٍ.

عَيْنَاكِ كَالْبِرْكِ فِي حَشْبُونٍ عِنْدَ بَابِ بَثِّ رَيْمٍ.

أَنْفُكَ كَبُرْجٍ لُبْنَانَ النَّاطِرِ تَجَاهَ دِمَشْقٍ.

رَأْسُكَ عَلَيْكَ مِثْلُ الكَرْمَلِ وَشَعْرُ رَأْسِكَ كَأَرْجَوَانٍ.

مَلِكٌ قَدْ أُسِرَ بِالحُصْلِ.

مَا أَجْمَلُكَ وَمَا أَحْلَاكِ أَيُّهَا الحَبِيبَةُ بِاللَّذَاتِ.

قَامَتْكَ هَذِهِ شَبِيهَةٌ بِالنَّخْلَةِ وَتُدْبَاكِ بِالعِنَاقِيدِ.

قُلْتُ: أَنِي أَصْعَدُ إِلَى النَّخْلَةِ وَأَمْسِكُ بِعُدُوقِهَا.

وَتَكُونُ تُدْبَاكِ كَعِنَاقِيدِ الكَرِيمِ وَرَائِحَةُ أَنْفِكَ كَالثَّقَاحِ وَحَنَكُكَ كَأَجُودِ

الخَمْرِ.

لِحَبِيبِي السَّائِعَةُ المُرْقِرَةُ السَّائِحَةُ عَلَى شِفَاهِ النَّائِمِينَ»

وفوقها نقش بخط أكبر «المجد لك أيها الإله الشَّبِيق»، كانت هذه النقوش نموذجاً لروح «البوابة الشرقية» التي أراد لها مايك الشرقي أن

تذكر الناس بالتايتانيك، وتمنحهم كل صباح طمأنينة أنها لم تصطدم بجبل الجليد في الليلة الماضية، ولن تصطدم في الليلة التالية، فالبوابة الشرقية هي الباب الشرقي، مرّت بها جبال الثلج وجبال الشمس وجبال الديانات وجبال الغزاة، وبقيت في مكانها واسمها وهبتها، ولزيادة الحرص على عدم حدوث ذلك في العالم الواقعي كما الرمزي، لم تكن تغادر المياه الدافئة التي لا تستطيع جبال جليد أن تختبئ فيها.

واحدة من السفن الأصغر التي تمّ تخصيصها للانتقال بين البحر الأحمر والخليج العربي تسمّيت «الضحى». وعلّت صالته الرئيسية آية قرآنية وتحتها معادلة حسابية بسيطة: «وانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع» ثم « $9 = 4 + 3 + 2$ »، ومن قوانينها أنه لا يحق لزبون أن يضاجع أكثر من تسع نساء في الرحلة الواحدة لأن أكثر من ذلك محرّم، وفي ممرّاتها وصلاتها تتوزع صور بالحجم الحقيقي لنساء عاريات، وتحتها عبارات عربية ببلاغة مريكة، مثل صور المؤخرات السمراء التي كتبت تحتها: «سبحان من كوّرها ثم دحاها، وألهمها فجورها وتقواها».

ونحتسب الانغماسيين عند الله شهداء

بسبب توسّع العمل وتعقيده، لم يعد مايك قادراً سوى على الاطلاع على التقارير المالية النهائية، والتنقّل بين هذه السفينة وتلك، هذه الدولة وتلك، هذه المنشأة وتلك. للاستمتاع، للتفقد، لإيهام الموظفين أنه موجود ويراقب، لإضاعة الوقت، لحضور مناسبة أو مهمة ما يستمتع بأدائها بنفسه.

أثبتت الأيام نجاعة التصميم الهيكلي الذي أعدّه أستاذان جامعيان بارعان خلال الأيام التي قضاها في سجن التحقيق قبل عشر سنوات، والذي ما زال صالحاً رغم تضاعف حجم الأعمال وعدد الموظفين مئات المرات. وكان أحد الأفعال التي يقوم بها مايك بين الفينة والفينة هو القيام بجولات تفقدية مفاجئة على إحدى منشآته في واحدة من الدول العشر التي لديه استثمارات بها، ويحمل جنسيات معظمها.

في إحدى هذه الجولات، وكانت على مكانه الأثير القديم الحميم البسيط الطيب، فندق أبولو في منطقة الحمرا برأس بيروت، وأثناء عبوره صالة ستارز، رأى أربع فتيات جالسات على طاولة يتبادلن الحديث ويضحكن، وكلّ منهنّ تشرب من كأسها وتتصرف كالزبائن، لم تنطل عليه هذه الطريقة في تسويق العاهرات، فهو من اخترعها، نظر في وجوههن أثناء مروره السريع، وفجأة توقف. شدّته طريقة إحدى الفتيات في النظر إليه، ذبول عينيها الذي يبدو شبقاً صادقاً، تملّى وجهها، تملاه طويلاً، شعر أنه يعرفها، شعر أنها جزء من ذكرى قديمة، سألها عن اسمها، فأجابت بميوعة ودلع: ليلي.

بعد دقائق أنت هياما ورباب مسرعتين بعد أن أخبرتهما فتيات الاستقبال عن وصوله. جلسنا إلى طاولته، رجته هياما أن يقضي الليلة في أبولو: «من زمان ما عطيتنا من وقتك سهرة لليلة مثل قبل، كثير عنا إشيا جديدة!». ابتسم مايك وهز رأسه موافقاً، تهلّل وجهها، وصفقت بأصابعها وكأنها تعطي أمر تصوير أو إطلاق صاروخ، فانطلق العشرات إلى المطبخ وجناح الخواجة دريان والبار والمصاعد ولوحة التحكم بالإضاءة والصوت وبيوت عازفي الفرقة الموسيقية، استأذنته بترتيب السهرة على مزاجها، وبدأت بإجراء الاتصالات بالرفاق الأصليين مثل غصون وسعد وعبود وماغو ومنصور ورندة وفتيات المكتب.

كانت ليلة من هذا النوع في أيّ واحد من الأماكن التي يملكها تعني بالنسبة لمن يعملون فيه فرصة لا تتكرر كثيراً. فحين يكون المعلم بمزاج جيد يستجيب لكلّ الطلبات التي يقدمها موظفوه. يوافق على الترفيقات، تغيير نوع العمل، تغيير مكانه، يوزع الهبات والمكافآت والهدايا دون حساب. في ليالٍ مثل هذه حصل موظفوه الرئيسيون على بيوت وسيارات ورحلات إلى قارات أخرى، ترقّت فتيات اصطفتهنّ غصون من عاهرات يستلقين تحت أجساد الزبائن المتعرقّة بعينين مغمضتين على أسرة الياطر الضيقة، إلى سيدات محترمات يستلقين تحت أجساد الزبائن المستحمة في أبولو ويعطين آراءهن في المسلسلات والأحداث السياسية والظواهر الاجتماعية، ويتعاطفن مع ضحايا الحروب والزلزال، وكوفئت فتيات أخريات بتكليفهن بالعمل الممتع وعالي الأجر على إحدى المدن العائمة.

شعرت هياما أن هذه من المرات التي يمكنها فيها التعامل مع مايك كمعلم تقليدي. رأت طريقة نظره للفتيات، فتغامزت ورباب، فأسّرت الأخيرة لتحضير فتاة تشارك المعلم سريره في نهاية الليلة. وصلت تحريباتها السريعة بين العاملين في صالة ستارز أن المعلم توقف عند واحدة من الفتيات وسألها عن اسمها. افترضت أنها لفتت نظره وأعجبه فيها شيء ما. فبقي

فقط أن تأخذها إلى إحدى الغرف لتفحص جسدها والتأكد من خلوه من أي شيء يمكن أن ينقر المعلم. المعلم يكره الشامات على الثديين، ويحبها على الكتفين، يحب الجسد حريراً دون أي أثر للزغب في أي مكان من الأمام والخلف، يكره عظمتي الحوض حين تبرزان، ينفر من النقاط السوداء على باطن الفخذين ومن النقاط الحمراء على المؤخرة، يكره الحلمتين إذا كانتا أطول من أربعة ميلترات، وهالتيهما إذا كانتا بقطر أكبر من سنتمترين، السرّة إن لم تكن تكتن عميقة ومظلمة تماماً، إبهام القدم إذا كان أقصر من الإصبع المجاور، يحب تعرق النهدين، يكره تعرق الإيطين، يحب الشفاه المكتنزة في الأعلى والأسفل، والبشرة التي تتأثر بسرعة بآثار الأسنان والأظافر.

أخذت رباب الفتيات الأربع احتياطاً وأخضعتهنّ للفحص السريري، أفضل الشروط حققتها ليلى التي توقفت عندها المعلم ونظر في وجهها، أرسلتها مع اثنتين من مساعداتها الخبيرات للإشراف على استحمامها وتجديد مكياجها واختيار الملابس المناسبة، وإدخالها إلى جناح الطابق العاشر لتألفه وتعرف تفاصيله، ويدرّبنها على ما يحبه المعلم وكيفية التصرف معه.

في الثانية صباحاً أنهى مايك واحدة من جلسات السهر التي يحبها مع فريقه الحميم الأقرب إلى عائلة. وفور دخول جناحه تصرّفت مساعدتا رباب كوصيفات السلطانات العثمانيات وخرجتا برؤوس مطرقة، وتركن الفتاة المختارة جالسة على السرير تبتسم بخفر كالأميرات العذراوات.

بعد نحو ساعتين وفيما كان يتأرجح بين النوم والصحو، شعر أن الفتاة تتحرك على أصابع قدميها وتفتح أحد الأدراج، أبقى عينه ريع مفتوحة وراقبها. أخذت شيئاً ما من الدرج وذهبت باتجاه الحمام. ضغط زر الاستدعاء الخاص ونهض خلفها. سمع من خلف الباب المغلق الصوت الأثوي المميز لشركة الاتصالات السورية: «الرقم المطلوب مغلق أو خارج نطاق التغطية، أعد الطلب بعد قليل من فضلك».

كانت الفتاة تجري محاولات متكررة للاتصال برقم في سورية، حين دخل مرسال ومرافق آخر ولحقتها هياما بملابس النوم، خرجت ليلى من الحمام ووقفت كالمصعوقة وهي ترى أربعة أشخاص يقفون بانتظارها مقابل الباب، انتزع مرسال الموبايل من يدها، ودخل المرافق الآخر لتفتيش الحمام، كانت بالملابس الداخلية التي لا يمكن إخفاء شيء فيها.

بتفتيش بسيط في هاتفها تبين أن كل ما على ذاكرة سجله هو محاولات اتصال برقم سوري واحد، وثلاث رسائل نصية مرسلة إلى الرقم نفسه: «مشي الحال وقع»، «وينك ليش ما عم تردّي». «صورتو فيديو وصور». أثارت الرسالة الأخيرة الأنف البوليسي لمرسال، وبدأ بتفتيش دقيق للجناح دون استئذان صاحب الجناح.

داخل الحذاء الأحمر ذي الكعب العالي والموضوع بعناية في الرف السفلي للخزانة، عثر على كاميرا لا يزيد سمكها عن سنتيمتر واحد، وطول ضلعها الكبير عن ستة سنتيمترات. على ذاكرة الكاميرا المحدودة وجد مقطع فيديو مدته ثلاث دقائق يظهر فيها مايك وهو يضاجعها، التقطته من زاوية عند طرف السرير دون أن يشعر بيدها التي امتدت من تحت الوسادة، والتقطت كذلك عدة صور له وهو عار تماماً أثناء ذهابه للحمام واستلقائه على السرير في بداية نومه، وصورة يظهر فيها طرف وجهه مدفوناً في صدرها، وواحدة أخرى وهو يعصها من إلتها، ويبدو وجهها كاملاً في الصورتين.

أخذ الكاميرا والموبايل من يد مرسال، وأمره أن يأخذها إلى غرفة مجاورة ويضع عليها حراسة مشددة، طلب من هياما أن تحضر له هويته وجواز سفرها، وأن تتحفظ على رفيقاتها بمكان آمن كي لا تهرب أي منهن قبل التحقيق، معها.

قرأ بطاقة الهوية السورية مرات عديدة على الوجهين، الفتاة اسمها

رزان محي الدين النهرين، مواليد دمشق 13/3/1977، والدتها رساليا
رنكوس، رقم الخانة 166 أمانة السجل المدني في تلدو.

طلب إحضارها من جديد، سألتها بشكل صارم: ما اسمك؟ صممت
الفتاة خوفاً، صرخ فيها من جديد، ازداد خوف الفتاة وأجابت بصوت
متهدج: رزان.

. رزان ماذا؟

. رزان التنتنن.. التنتنن.. النهرين.

سألتها عن اسم أمها، عن رقم خانتها، كانت تهجئ معلوماتها بدقة،
أخطأت بتفصيل صغير وهو تاريخ منحها الهوية، فقد قالت إنها حصلت
عليها منذ أربع أو خمس سنوات، والتاريخ المدون عليها كان يعود لتسع
سنوات، سألتها عن عمل أبيها، وعن أصوله، عن أمها، عن المدرسة التي
درست فيها، سألتها لماذا صورتها، فأجابت إنها تريد التفاخر على زميلاتها
بأنها ضاجعت المعلم، ومن هو صاحب الرقم، أجابت إنها أمها.

.ولماذا تحاولين الاتصال بها؟

.لاطمئن عليها.

.ولماذا تخبرينها أنه وقع وأنتك صورته.

صممت الفتاة قليلاً وكأنها تفكر في إجابة، بقيت محافظة على
تماسكها، ثم أظهرت أنها ستعترف أخيراً: بصراحة أوصتني أمي حين أتيت
إلى بيروت أن أسعى لأغزي أحد المعلمين الكبار، وحين أنجح أن أخبرها
لتطمئن علي، وأنا لم أصدق نفسي حين وقع اختيار المعلم الكبير علي،
وقلت هي أيضاً لن تصدقني، لذلك تصرفت بهذه الطريقة الغبية، أنا
أسفة!

.ولماذا حملت معك هذه الكاميرا؟

. أنا أحملها دائماً، أحب أن أصور نفسي.

ما كان يخطر له في تلك اللحظات أنها مدسوسة من أحد أعدائه لتقتله أو لتؤذيه، ولم يصدّق كلمة واحدة مما قالته: ضعوها في غرفة منزوية، انزعوا أجهزة الهاتف، ولا تسمحوا لأحد برؤيتها أو الحديث معها، إلا من أكلفه بذلك، وإذا خرجت أو تكلمت مع أحد فسألني بكم في البحر، مرسال أنت مسؤول شخصياً عن حراستها.

ألغى رحلة كانت مقرّرة إلى بلغاريا في اليوم التالي، وأول ما فعله في الصباح كان إرسال صورة هويتها لصديقه ضابط المخابرات الذي تربطه به علاقات وصفقات متشعبّة منذ كان في عنجر، وطلب منه التحقق منها في دمشق، وجلب أي معلومات قد تكون مفيدة. وعند الظهيرة طلب أن يحضروا الفتاة إلى جناحه المجاور، وقفت أمامه خائفة صامته، تأملها دون كلمة واحدة لأكثر من نصف ساعة، ثم قرع جرساً وقال لهم: خذوها! في اليوم التالي فعل الشيء نفسه، والثالث والرابع، ثم في اليوم الخامس خاطبها بهدوء: ألن تخبريني من أنت؟

بصوتها الخائف أكّدت الفتاة ما قالته: رزان النهرين من الشام عمري

24 سنة.

.ولماذا كتب في هويتك أنك من تلدو؟

.أصل أبي من تلدو.

.لماذا هذه الصورة في الهوية لا تشبهك؟

.لأنني يوم حصلت عليها كنت محبّبة وصغيرة، وشكلي تغيّر.

.من أرسلك إلى هنا؟

.لا أحد. أنا أبحث عن عمل وأرشدوني إلى الفندق، قالوا إن العمل

هنا رائع والرواتب جيدة.

. ماذا كنت تعملين في دمشق؟

. كما جئت لأعمل هنا.

. ومن كان يشغلك في دمشق؟

. أمي.

. ما اسم أمك؟

. رساليا.

. ما معنى رساليا؟

. هي رسالة، لكن موظف النفوس أخطأ بكتابة اسمها.

. أمك ماذا تعمل؟

. كانت تعمل مثلي، والآن كبرت.

. هل تشبهك أمك؟

صمتت الفتاة، ثم حين كرّر السؤال أجابت بصوت منخفض: لا أعرف،
لا لا تشبهني.

طلب مايك إعادتها إلى الغرفة، وكرّر تحقيقه معها في اليومين التاليين
محاولاً التقاط أي معلومة أو إشارة توحى بمن تكون هذه الفتاة حقاً ومن
خلفها، ريثما تأتي نتائج تحريات صديقه.

سأل مرسال: من هو أجحش رجالك؟ أجاب مرسال بسرعة ودون تفكير:
حمدان.

حسناً هو المسؤول عن حراسة رزان حتى أعود، لا أريد أن تتحدث
لإنسان على الإطلاق، ولا أن يراها أحد أو ترى أحداً.

بعد أسبوعين وصلته المعلومات التي أكّدت صدق حدسه: توجد فتاة
بهذا الاسم في سورية، وهي معلّمة في ابتدائية المليحة الرسمية للبنات،

ولكنها فقدت هويتها منذ حوالي السنة، ونظمت ضبطاً رسمياً بالواقعة،
وحصلت على بدل ضائع.

استدعى الفتاة، واستدعى إبراهيم المفك، وأبقاه مع مرسال وحمدان
خلفها، خاطبهم قائلاً: هذه الفتاة كاذبة، سرقت هوية فتاة أخرى اسمها
رزان لتخفي شخصيتها الحقيقية، اتفقت مع المخابرات أنني سأسلمها
دون أصابع، إبراهيم سيقطع إصبعاً من أصابعها كل يوم.

بدأت الفتاة بالبكاء الحقيقي، لم يكثر لها، وتابع إرشاداته لإبراهيم:
إبراهيم لا تقطع أصابع يديها دفعة واحدة، بدل بين يديها وقدميها، يوم
من هذه ويوم من تلك، وبعد عشرة أيام اقطع إحدى حلمتيها ثم تابع
الأصابع، وإذا لم تعترف سنرى ما سنقطع.

جرّها الرجال الثلاثة خارجاً، ثم عاد إبراهيم وحيداً: «معلم، بلّشت
تحكي!».

أعادوها، وقفت أمامه وهي ترتجف.

. هل ستحكي كل شيء؟

. كل شيء.

. من أنت؟

. هديل.

. هديل من؟

. هديل محي الدين النهريين.

. ورزان من؟

. أختي من أبي، سرقت هويتها، وجئت بها لهننا بناء على طلب أمي.

. ومن هي أمك؟

. فضة الجاروش.

كّر الاسم وراءها كالصدي: فضة الجاروش.. نعم.. لا بد أن تكون.

هرّت رأسها باستسلام.

طلب من الرجال الخروج:

. وهي من أرسلك إلى هنا؟

هرّت رأسها بياس.

. هل كنت ستقتليني؟

هرّت رأسها بالنفي.

. وماذا كنت ستفعلين؟

. أخبرتني أن لنا قريباً غنياً يعيش في لبنان، وأنها ذاهبة لتزوره وتطلب منه ما سيغنيها عن العمل والتذلل للآخرين، وحين عادت أخبرتني أنك طردتها وأهنتها، وكنت ستقتلها لولا أنها هربت في اللحظة الأخيرة، وأن علينا الانتقام منك.

درّبتني على مدى أشهر كيف سأصرف، وأرسلتني إلى هنا، قالت إنني سأعمل في هذا الفندق، وأتحنّ الفرصة حتى ألتقي بالمدير مايك، وأن عليّ أن أثيره وأغريه، وقالت لي: حين ينام معك، اتصلي بي فوراً وأعطني إياه، سأقول له جملة واحدة ستعيد لنا حقنا.

صمت مايك طويلاً، غير قادر على استيعاب حجم الشر الذي وصل إليه عقل تلك المرأة، والعتبة الجديدة التي دفعته لاجتيازها، لم يصبه شعور الذنب المتوقع في حال كهذه. كان نجاح فضة في خطتها مزعجاً له أكثر من ممارسة سفاح القربى، ثم بعد دقائق طويلة: ألم تخبرك من يكون هذا القريب الغني؟

لا، لم تخبرني، قالت إن لنا عليه حقاً قديماً وهو ينكره، وعلينا استعادته.

رغم براعتها السابقة في الكذب، إلا أن مايك صدّقها هذه المرة: هل تعرفين من أنا؟

أعرف أنك المعلم مايك وأن اسمك القديم غريب، وأنتك تقرب لنا.

أنا اسمي غريب صحيح، وأبي اسمه نظير، هل تعرفين اسم أمي؟

أول ردة فعل قامت بها الفتاة حين سمعت الاسم، مدّت كلتا يديها وضغطت على موضع فرجها وكأنها تريد إغلاقه أو انتزاعه من مكانه. أغمضت عينيها حين أدركت ما أدركه أخوها غير الشقيق منذ الطفولة. فهم كلاهما ما خطّط له ذلك العقل الشيطاني. وضعت الفتاة في طريقه، ودرّبتها لإغوائه، وحين ضاجعها، أرادت أن تقول له بنفسها: لقد ضاجعت أختك.

كان هذا انتقامها من ابن نظير، فهكذا يتصرف أهل الباطل حين يتوهّمون أنهم أهل حق، وأهل الباطل يمتلكون ميزات نادرة: اعتقادهم أن حقهم عند الآخرين هو أي شيء يرغبون به، وحين لا يحصلون عليه يمنحون أنفسهم حقاً جديداً، وهو الانتقام بكلّ الوسائل التي تخطر ببالهم ممن سلبهم ذلك الذي كان حقهم. والميزة التي تثير الحسد حقاً، أنهم يفعلون ذلك دون أثر للذنب أو الندم.

**

أعاد الفتاة إلى سجنها المرقّه، منتظراً أن تأتي فضة الجاروش لتبحث عنها، كي يُحسن التصرّف ويتخلّص من هذا الكابوس إلى الأبد، ونهض من فورهِ إلى بكفياً، كي يحصل على بعض الطمأنينة. ويخفّف من حجم السواد الذي خيّم على قلبه بعد أن احتلته فضة الجاروش مرّة أخرى.

لم يكن قد زار عايدة منذ أكثر من سنة، حمل سيارتين بما تحبه عايدة: بخور وشموع للكنائس، ملابس لأطفال بأعمار مختلفة، ألعاب وطعام وحليب، زينة ميلاد لشجرة البلدية، أيقونات مصنعة في دمشق لتوزيعها على بيوت بكفياً.

لم يرفقة التي صار مزاجها متقلّباً مع دخولها سنّ المراهقة، لم تخرج لإلقاء التحية، رغم أن عايدة دخلت إلى غرفتها عدة مرّات لتقنعها بذلك، كانت الفتاة تتابع دراستها في مدرسة الراهبات، لكنّها لا تخلو من تمرّد كما أخبرته عايدة.

كلما كبرت هذه الطفلة أصبحت أكثر نفوراً منه، كان يرى الغضب في عينيها، كان يرى شتائم محبوسة بين شفثيها، كان يشعر مع الوقت أن ما ينمو في هذه الفتاة مع تقدّم السنين لم يكن جسدها أو وعيها بل كراهيتها له. لم يعرف السبب، لكنّه كان يلمس تغييرها نحو الأسوأ في كل مرّة. بالطبع عايدة لم تتغير أبداً، ظلّت كما عرفها أول مرّة، تلك الممرضة المحبّة اللطيفة التي ملأت قلبه بالسكينة في أسوأ تجربة مرّ بها. لم يغيّرهما عقد الزواج، كما لم يغيّرهما الانقطاع الطويل الأشبه بالهجران. سألته عن أخباره وأخبار عمله كأبي مريض محبّب. قبل مغادرته حاول أن يدخل غرفة رفقة ليلقي عليها التحية ويقدم لها بنفسه الهدايا التي أحضرها لها، لكنّها لم تفتح له الباب.

في المساء كان عليه أن يشاهد برنامجاً تلفزيونياً، اتصل إسماعيل خصيصاً من دمشق ليطلب تنسيق وقت المعلم لمشاهدته. جلس في المكتب ومعه بعض من مجلسه الاستشاري حين بدأ عرض البرنامج التلفزيوني، وهو تغطية خاصة لمؤتمر ضخّم للاستثمار في سورية، تحدّثت الكلمات ومقدمات المذيعة عن مسيرة «التطوير والتحديث»، عن «المستقبل المشرق»، عن جو الثقة والبيئة التي شجّعت المستثمرين من كل أنحاء العالم للقدوم إلى سورية، ضجر مايك من الإنشاء الذي

يسمعه، وكاد يغلق التلفزيون لولا أن انتقلت المذبةعة إلى بثّ لحلقة خاصة من قصر المؤتمرات تتضمن حواراً اقتصادياً في شؤون الاستثمار. الكاميرا ترصد من الأعلى مكان اللقاء في بهو فندق إيبلا المجاور لقصر المؤتمرات، ثم التقطت كاميرا أخرى أربعة مستثمرين ومذبةعة شقراء، اثنان من المستثمرين أصحاب الخبرة الاقتصادية هما سامر وشفيق موصلًا عاهرات الياطر إلى الزبائن.

فهم مايك ما الذي أرادَه إسماعيل من رسالته. أراد له أن يضحك. وبالفعل، كاد يغمى عليه من الضحك، والمذبةعة تسأل قواده الصغير: السيد سامر، بوصفك مغترباً سورياً حقق نجاحات كبيرة في الخارج ما الذي شجعك على العودة لتستثمر في بلدك الأم الذي يفتح صدره لكلّ أبناءه؟

استطرد سامر في شرح أبعاد مسيرة التطوير والتحديث، وتأثيرها على جذب الاستثمارات، وبرّر عودته إلى بلده بأن «المال اللي مو ببلدك لا إلك ولا لولدك».

شفيق موزّع الحشيش أثنى أيضاً على التعديلات القانونية التي تشهدها البلاد والتي سيكون لها دور في جعل سورية أكبر جاذب للاستثمارات في العالم، وشدّد على أن سيادة القانون ونظاماً متطوراً للتحكيم التجاري هما الضمانة الأهم للمستثمرين. واشترك كلا المستثمرين في الإعلان عن مشاريع ضخمة ستقلع قريباً، وأنهم الآن في طور التفاوض مع شركات عالمية، ستشغّل الكثير من اليد العاملة وتساهم في مكافحة البطالة ورفع الناتج القومي وتدعم الاقتصاد.

تلك ليلة من أكثر الليالي التي ضحك فيها مايك الشرقي في حياته، صبياً إسماعيل يلبسان بدلات من جورجيو آرمانى وينظران بالاستثمار ويطالبان بتعديلات في القوانين. الخبرة الاقتصادية للرجلين تأتي من

أنهما يقعان في الدرجة الثالثة مباشرة في سلسلة موظفي مايك الشرقي، ويعملان في المكان الذي يحبّه مايك أكثر من أي مكان آخر في العالم، والذي لم يجرؤ على زيارته منذ ثمانية عشر عاماً. كانا قد أسّسا، بإشراف المعلم إسماعيل، عدداً من المشاريع التي تغلّف أعمال مايك الحقيقية. صارت لدى شفيق شركة بولمانات وشحن، وشركة لتوزيع السكر والمواد الغذائية الرئيسية، وشركة لتعبئة المنتجات الزراعية وتغليفها وتصديرها. بينما صارت لدى سامر شركة لمواد البناء تستورد من إيطاليا وإسبانيا والصين، وشركة تعهّدات وأعمال عقارية تبني وتبيع وتدخل في شركات وتحصل على عقود BOT لأراضٍ ومبانٍ تملكها مؤسسات حكومية، تشتري الأراضي وتحفظ بها في المناطق "التي نريد"، وتبنيها وتعيد بيعها في المناطق التي "لا نريد".

على المستوى الحقيقي كانت هذه الشركات تمارس أعمالاً مربحة حقاً، تحوّل الأموال من الداخل إلى الخارج دون المرور بالمنظومات المصرفية، كانت أموال مايك الشرقي موزعة في بلدان عدّة في العالم، وكان بإمكانك أن تضع مليون دولار في أي من مكاتبه في العالم وأن تستلمها بعد دقائق في أي مكتب آخر، كانت شركة المنتجات الزراعية تشحن الخضار والفواكه إلى الخليج وتكتسح السوق بأسعارها المنافسة، لأن الطبقة السفلى من الصناديق كانت أحياناً تحتوي حبوب الكبتاغون، أو بعض أكف الحشيش أو أكياس الكوكايين. لذلك كان لقاء التلفزيون مع سامر وشفيق نكتة عظيمة لا يلتقط عبقريتها سوى مايك وإسماعيل وأركان العائلة القدامى.

فور انتهاء اللقاء اتصل مايك بإسماعيل، ضحكا معاً، اطمأن على الباب الشرقي، وعلى المئذنة البيضاء، سأله ما إن كان يمرّ بقربها كل يوم، طمأنه بأكثر مما يحتاج: "معلّم، معظم نهاري قاعد مقابلها"، سأله عن الأراضي التي صارت بحوزته شرقي الباب الشرقي، ولم يكن الرقم مرضياً حتى الآن. أوصاه أن يرسل مكافآت مجزية للمذبة ولطاقم البرنامج، وطلب أن يبدؤوا

بتمويل بعض وسائل الإعلام، او على الأقل رؤساء تحريرها: "سنحتاجهم كثيراً فيما بعد". ودعاهم يوم الخميس القادم: "سأكون في بيروت طيلة هذا الأسبوع، أحضر سامر وشفيق واختر من تريد من طاقم دمشق، أنا لا أعرف منهم أحداً حتى الآن، سنقضي يومين في الياطر وتذكر الأيام الخوالي".

مضت أربعة أشهر أخرى، ولم تظهر فضة الجاروش، لم تأت للبحث عن ابنتها أو عن انتقامها. كان تصرفها نموذجياً، فبالنسبة لها لم تكن ترسل ابنتها إلى ابنها، فليس في قلبها مكان لهذه الكلمات، كانت ترسل انغماسياً ليفجّر نفسه بين الأعداء، فإن عاد ترسله في مهمّة أخرى، وإن لم يعد تحتسبه عند الله شهيداً. برّد قلب مايك خلال تلك الأشهر، فطلب من حمدان إحضارها، وقفت أمامه وقد ذوى جسدها من الوحدة والندم: لم تأت فضة الجاروش لتسأل عنك، أرجو أن يعني ذلك شيئاً لك، سأتركك الآن، أذهبي حيث تشائين، واطردي من رأسك وهم أنني أخوك، الإخوة يشتركون بالدم، يشتركون بالحليب، نحن لم نرث من هذه المرأة سوى الجحيم. واللعنات لا تصنع قرابات، وما جرى بيننا على السرير لا ذنب لك فيه، إنه ذنبها هي، انسي ذلك!

أمر أن يعطوها بعض المال، وكلف حمدان الذي لم يغادر باب غرفتها لخمسة أشهر أن يرافقها إلى الحدود السورية إذا أرادت العودة من حيث أتت.

خُضُّ بِهَا وَدَعُ الْبَاقِي عَلَى الرِّجَالِ

في التاسع من نيسان 2003 رأى . مثله مثل باقي سكان الكوكب . دبابَة أمريكية تشدّ كبلأ معدنياً مربوطاً بتمثال صدام حسين، ليسقط وينكشف عن أنبوبين فارغين حملاه لربع قرن. تحسّر على الرجل الذي صنع جنونه النقلات الكبرى في حياته بشكل أو بآخر. حين رأى بغداد تسقط، كرّر تقريباً الجملة التي قالها قبل ثلاثة عشر عاماً في طائرة تعبر بادية الشام باتجاه البحر: "حسافة يا بو عدي، والله ما قصّرت!". تحسّر على كل أولئك الذي لم يقصّروا عبر عشرين عاماً، كل الذين فعلوا ما عليهم لينوا لمايك الشرقي هذه الحياة وهذه الثروة، ثم رحل كلُّ منهم بطريقة الخاصة. تذكّر رجلين بشكل خاص، وهما الشيخ قسّام وأبو الصقر. ساء أنهما لم يشهدا هذه اللحظة التي تشبه لحظة موت أبيه، فكّر أنهما كانا لبيكيان، أبو الصقر فرحاً والشيخ قسّام حزناً.

رَشَحَ إلى قلبه حزنٌ خفي، حزن على بغداد رغم أنه لا يعرفها، لكن عقله سرعان ما عاد إلى موضعه الطبيعي، وبدأ يفكر بالذي سيفعله الآن، وكيف لذلك أن يكون مريحاً؟

في الأشهر التالية ماجت المنطقة بكاملها بين الشماتة والقلق والاضطراب. رجال صدام الذين يعرفهم من مرحلتين انقسموا لنوعين. من يعرفهم من مرحلة سمراء البادية غالباً صاروا مطلوبين وطريدين الآن، ومن عرفهم من مرحلة النفط مقابل الغذاء لا بد أنهم حملوا ملايينهم ويحثون لها عن مكان آمن، كلا النوعين كان استثماراً، المطلوب المقلّس نبيعه، والمطلوب الثري نخبته، ثم نأخذ أمواله، ثم نبيعه.

كراقص على الجبال، عرف خلال أشهر من الذي عليه أن يختبئ في دمشق، ومن سيذهب إلى قبرص، ومن سيبقى في بيروت، من أيّ طريق سنمرّر الآثار؟ وأين سنخبئها؟ لكن بأيّ سفينة سننقلها إلى قبرص؟ كيف سندخلها من الموانئ لتصل إلى مشتريها الأوروبيين؟ من سنضعه في مخبأ أمين في لبنان أو قبرص ثم نرشد الأمريكان إليه؟ كم يملك هذا؟ وكم سيدفعون فيه؟ من سيساعدنا في سورية؟ وكم سيأخذ منا؟ من سنساعد في سورية؟ وكم سنأخذ منه؟

عبر السنوات قبضَ مايك الشرقي حروب صدام على شكل شيكات مصرفية. وهذه الحرب ليست استثناءً لمجرد أنها فُرضت عليه ولم يختَرها بنفسه. حوّل مايك بعض عائداته من هذه الحرب إلى سورية، التي بدأت في أواخر العام التالي لسقوط بغداد قفرتها الثانية باتجاه إعلان ندمها عن اشتراكيتها المديدة المضجرة.

من ضمن ارتدادات تلك الحرب، وبعد وقت كافٍ، مدّ القدر يده إلى خدّ مايك وهو في مكتبه بجلّ الديب، وأدار وجهه شرقاً، وكرّر عليه: "انظر هناك، انظر هناك!" كانت سيارات الزيل العسكرية الروسية الضخمة وعلى مدى خمسة أيام تنقل عشرين ألف جندي سوري ليعبروا قوس الحدود، تماماً حيث كان القدر يوجّه عيني مايك الشرقي، وقد أجبرهم اغتيال رفيق الحريري على إنهاء مهمّتهم التي قاموا بها بالنيابة عن "الأمة" بعد تسعة وعشرين عاماً وأربعة أشهر من تكليف الجامعة العربية لهم بوقف الحرب الأهلية اللبنانية.

بعد ساعتين من انفجار موكب الحريري في السان جورج، انقسم اللبنانيون مجدداً إلى فريقين، واحتاجوا إلى أربعة أسابيع ليقسموا العالم كلّهم معهم، وليلتقوا على ذلك أسماء. فبعد 24 يوماً نزل نصفهم إلى الساحات ليشكر تضحيات سورية، وكانوا واضحين لدرجة أنهم أهدوا بندقية المقاومة لرمز المخابرات في عنجر شخصياً، فصار اسمهم ببساطة

جماعة 8 آذار. وبعدهم بأسبوع نزل النصف الثاني ليحملوا السوريين دمّ الرئيس ويطالبوا بخروجهم، وصار اسمهم أيضاً على اسم يومهم: 14 آذار. حاول مايك أن ينتمي إلى جماعة الحادي عشر من آذار. كما تقتضي مصالحه المتشعبة. لكن تبين أن لا جماعة في هذا اليوم، وأن على الجميع أن ينتمي إلى ما قبل ثلاثة أيام أو ما بعد ثلاثة أيام. فاللبنانيون وقد امتلكوا اسمين حادّين واضحين، صار بإمكانهم أن يقسموا العالم بكلّ ما فيه وفق معيارهم هذا. فوضعوا في ضفة 14 آذار الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، ومئة وعشرين دولةً أخرى، وضعوا النيبيذ الأحمر والكوردون بلو وشماع البسّام وقناة العربية، وضعوا صوس البيستو وقمصان البولو والاستيقاظ في العاشرة وطابعات إيسون.

ووضعوا في 8 آذار روسيا والصين والهند، وضعوا المته وهريس القمح وقناة الجزيرة، فنزويلا وإيران والجزائر وأربعين دولةً أخرى، وضعوا صابون الغار وشماع البعلبكي وسيارات كيا. وهكذا قسموا الدول والقارات والشركات وفصول السنة وقصائد الشعر واستراحات شتورا وحقب التاريخ. سويسرا التي نجحت في تجنّب الاصطفا ف خلال الحروب العالمية كلها، سويسرا بذاتها لم تنجح هذه المرّة، فلم سينجح مايك الشرقي؟ اليوم الذي أراد أن ينتمي إليه، تبين أنه غير موجود في الواقع.

ساعده السعار الخطابي على الانزياح قليلاً، ليس لأحد اليومين الحاسمين، ولكن إلى 10 آذار أو 9 على الأكثر، أثارته تعابير السياسيين من تيار ال14 عن القروذ والشوايا والنواطير، وأصابته بظلال شعور انتماء لم يختبره يوماً اتجاه أي شيء أو مكان في العالم، ولسبب ما شعر أن هذه الشتائم تعنيه، وأن هذه الإهانات موجّهة له مع عشرين مليوناً آخرين.

فقد حلفاءه القدامى في الانتخابات التي جرت بعد 33 يوماً من خروج السوريين، وعلى رأسهم الأستاذ رغيد المتيني الذي أصابه الذعر

حين حصلت قائمة الحريري على تسعة عشر مقعداً من مقاعد بيروت العشرين، فوصل مهزوماً إلى جولة جبل لبنان بعد أسبوع من جولة بيروت، وخسر معه بعض النواب التاريخيين لعدم قدرتهم على فهم ما تغير.

ركبَ هذا الشعور على رزمة من الأسباب الموضوعية الأخرى، واتخذ قرار الانتقال خطوة للأمام في علاقته مع سورية، هو يعرف تماماً كمّ الاحتياجات السورية التي يلبّيها لبنان. وقد كان جزءاً من منظومة التلبية. والتي لا بد من خلق بدائل لها الآن، وهذه قد تكون فرصاً جديدة لباحث عن موطن قدم في بلدٍ يريد أن يبدأ انتقامه منه حيث أنهى إهاناته: من القدم.

كانت خطة مايك تقتضي في ذلك الوقت أن لا يفعل أيّ شيء بنفسه، وأن تكون الشركات هي الواجهات التي سيعمل باسمها، معتمداً على فريق عمل بدأ بمرافق ووقّادين اثنين، وتوسّع تدريجياً حتى أصبح يضم مئات الموظفين الذين تتوزع مهامهم على إدارة الحصص في الشركات والمشاريع، وبناء العلاقات مع الشركاء والمتعاونين.

كانت النتائج نجاحاً كبيراً لإسماعيل ورجاله في المهام الثانوية التي كلّفوا بها. الشبكات التي بناها، لم تكن تعويضاً كافياً لفشل المهمة الأصلية التي بُعث لأجلها، فبعد سنوات لم يكن قد اشترى سوى واحد بالمئة ألف من الأراضي التي أرادتها ثروة مايك الشرقي بالنيابة عن ذلّ غريب الحوصو. فصار بحوزته 3600 متر مربع من أراضٍ تمتد على 24 مليون متر مربع. وكان تقصير إسماعيل في تنفيذ المهمة مبرراً بأن معظم أراضي هذه المنطقة أملاك عامة، وبعضها أحياء مزدحمة وبيوت متلاصقة مبنية عشوائياً، لا يعني شراء أيّ عدد منها شيئاً، وفيها أوقاف لكنائس ولقبور أولياء وصحابة، وأصحاب حرف مهذّون بالطرد من أراضٍ لا يملكونها.

كان الطريق ما زال طويلاً، لذلك قرّر استخدام تقنيته المجرّبة والترصد

كأي أكل جيف، وكلف فريقه هناك أن يختاروا المشاريع الجديدة ويدخلوا في شراكات مع أصحابها: ضعوا لنا رفاً في كل دكان تستطيعون.

فعلوا ذلك، وأضافوا رفاً كذلك في كل شاحنة يرتقال تذهب إلى الخليج، حملوه بحشيشة البقاع، أو الويسكي المزور في أقبية شتورا ومحددة، أو بودرة أفغانستان القادمة عن طريق مرفأ طرابلس، حجزوا رفوفاً على شكل أسهم في بنوك كانت تفتح بمظاهر كرنفالية رغم أنها متأخرة لقرن ونصف عن زمنها الطبيعي. اشتروا بأموال جاءت من ملاهي الياطر أسهماً في بنوك إسلامية تسمى الفوائد مرايحة.

رتبوا لقاءات مع مسؤولين للمدير الإقليمي لشركة دالاس العالمية للإدارة الفندقية، وهي سيدة الأعمال اللبنانية هيما التي ترغب باستثمار فندق من وزارة السياحة في وسط دمشق، لقرب انتهاء عقد شركة فرنسية تديره منذ عقود، وترغب كذلك ببناء منتجع في شهر القصير بريف حمص الغربي، ومجمع سياحي على تل النبي عيسى شرق شهباء.

وحضرت دزينة وزراء افتتاح مؤتمر الاستثمار السياحي للشرق الأوسط الذي نظّمته في فندق شيراتون.

في الأماكن الأخرى كانت الأعمال تسير بثبات مضجر، زبائن متجددون يكرّرون أفعالاً متشابهة، ويدفعون المزيد من المال، وهو ما لم يعد كافياً لمايك الشرقي، وريث الشيخ قسام رجل المتع الحقيقية.

إحدى المهارات الفطرية لمايك جاءت معه من منبته الرث، ومن إحساسه العميق أنه لا يملك ذلك، أو على الأقل لا يستحقه، لذلك دفع الكثير، دفع للجميع، دفع المال وأجساد النساء لكثيرين، ودفع الولاء والطاعة للبعض. وموهبته الحقيقية كانت تمييز من يحتاج هذه ومن يحتاج تلك.

القدم الحافية انتعلت منجماً وسارت

في عام 2010 تصدّر المكسيكي كارلوس الحلو قائمة أثرياء العالم بثروة تقدّر بـ 53.5 مليار دولار، مُزحاً بيل غيتس إلى المركز الثاني بفارق نصف مليار دولار فقط، وظل المركز الثالث لائقاً بورن بافيت الذي تشبه ملامح وجهه نادي ويستهام يونايتد في الدوري الإنكليزي أو نادي الوثبة في الدوري السوري: أكبر إنجازاته هي المواسم التي لا يسقط في نهايتها للدرجة الثانية.

لم تذكر القائمة مايك الشرقي في تلك السنة ولا السنوات التالية وإلا كان ليلبلها، وربما يلقي برجل تسعيني مثل كارل ألبريشت إلى عدد ديسمبر، كانت ثروته في ذلك الوقت أكبر من هؤلاء النجوم العشرة بكثير، وربما تعادل ثروات أربعة أو خمسة منهم مجتمعين. لكن فوربس التي تضع القائمة تعتمد معايير مضحكة وسخيفة من قبيل الحسابات المصرفية وأسهم الشركات، وهي لا تستطيع أن تعرف كم طناً من الدولارات يوجد في الغرفة المصفحة في برمانا، وكم طناً من الذهب مخبأة في ليماسول، ولا عدد الأحجار الكريمة المخبأة هنا وهناك، لا يمكنها أن تقدّر قيمة النسخة الذهبية من الثور المجنح المسروقة من متحف بغداد والتي تزّين مكتباً بجل الديب، ولا تعرف كم شقّة مبيعة في دبي ورقياً وهي ليست مبيعة في الواقع، ولا القيمة الحقيقية للأراضي والمباني في لبنان وسورية، ولا قيمة الأموال التي تدخل الصندوق في هذه اللحظة من مقامرين يشترون المزيد من فيش اللعب البلاستيكية. فوربس أكثر براءة من أن تعرف حجم

الأموال التي توضع الآن في مكان وتُقبض من مكان آخر لقاء ستة بالألف من قيمتها، ولا تعرف أن هذه العملية تتكرر بالمبلغ نفسه كل ساعتين على مدار العام. فوريس تعتقد أن بنات يعقوب هو فندق صغير في جنوب قبرص يدفع نزلاؤه سبعين دولاراً في الليلة، ولا يمكنها أن تتخيل أن بنات يعقوب مرّت به ليالٍ نهض فيها النزلاء المتفاوضون عن طاولة العشاء، صافحوا بعضهم، وكان ثمن مصافحتهم أكبر من قيمة الفندق نفسه. ليس لدى هيئة تحريرها ومستشاريها أي فكرة عن أن التمثال الثلاثي لإيزيس وأوزوريس وحورس وأيديهم مشبوكة معاً موجود الآن في بيت بحزيرة يونانية خاصة. وهي تصدّق إماً مصر التي تنهم فرنسا بسرقة خلال حملة نابليون، أو فرنسا التي تقول إن النسخة الموجودة في اللوفر هي محاكاة للتمثال الحقيقي الذي لا تعرف عنه شيئاً.

في تلك الأيام، بدأ الضجر يتسلّل إلى مايك، ويُفقد القدرة على الاستمتاع بشيء. زاد تواتر زيارته لعابدة التي أتمّت السبعين وبدأ جسدها يصبح أكثر نحولاً، لكنّها ظلّت محافظة على عاداتها، بل ضاعفت الجولتين الصباحية والمسائية على مرضى مشفى بحنّس لتصبح أربع جولات، تعويضاً عن شعورها بالفراغ وانعدام المعنى بعد أن تمّمت واجباتها، وأوصلت رفقة إلى الشاطئ بأمان. تجوّلاً بشكل متكرّر في حديقة المشفى والغابة المجاورة كما كانا يفعلان في زمن مضى، كرّرت عابدة بعض حكاياتها القديمة عن شفيعتها وعن الخير الذي يعود على صاحبه، وذكّرت مايك بالعود الأخضر الذي يحتفظ به قلبه، ولم يسقّه كما أوصته منذ زمن لا تستطيع حسابه. أقسمت إنه لم يمّت، وما زال برعماً صالحاً، يحتاج إلى بعض العناية كي ينبت ويصبح شجرة باسقة..

رفقة التي فضّلت البقاء في ميريلاند لتعمل في تدريس المسؤولية الاجتماعية، وهو الاختصاص الذي تكاد تحصل على شهادة الماجستير فيه من جامعة الولاية نفسها، لم تمارس أبسط مسؤولياتها الاجتماعية، وهي

الرد على اتصالات الرجل الذي تحمل اسمه، أو على الأقل تعبّر بطريقة ما عن شكرها للأربعين ألف دولار التي تصل إلى حسابها المصرفي شهرياً منذ بلغت الثامنة عشرة.

لم يكثر لمحاولات عايدة جّه إلى عالمها البخوري، ولا لفظاظة رفقة، وكذلك لم يكثر لقائمة فوربس، لأنه في ذلك الوقت كان مشغولاً بالبحث عن لعبة جديدة، فألات تفريخ المال التي يملكها صارت تكثر أفعالها بشكل متشابه، تنجب المال فقط، وتكاد تخلو من أي إثارة أو متعة.

الكتل الكبيرة في ثروته ولدت كلها بشكل مباغت، ارتبطت بأحداث أحسنَ حدسه التقاطها، كل حدث أو تغيير شكّل فرصة له، لكنّها أيضاً كانت تضخّ الأدرينالين في دمه، وتمنحه تلك المتعة التي يعرفها العشاق ويتحدث عنها الشعراء ويسمونها: أول الحب.

في محاولة بحثه عن لعبة جديدة ذهب في جولة طويلة قضى الشهر الأول منها في الصين متنقلاً بين الصين تماماً، والصين تقريباً. أي بين بكين وشنغهاي وبين ماكاو وهونغ كونغ، فعقد اتفاقات استيراد وتصنيع في الأولى. وقضى بضعة أيام في كازينوهات الثانية. جال على بيوت اللهو في ماكاو، واختار أفضل الشركات التي تديرها واشترى ما استطاع من الأسهم في شركة زوما، وأسس شركتين في كل واحدة من الصّينيين.

أسرى إلى دبي، ثم عرّج إلى اسكتلندا، ومنها إلى اسبانيا تلبية لاقتراح مرتجل وصيباني من ساكس، الشاب الطائش الذي تجاوز الثمانين، لحضور حفلات العجر جنوب مدريد، واختاراً توقيت الوصول قبل يومين من رسو سفينة الهاملتون في رحلتها الأسبوعية، لأن مايك أراد أن ينهي جولته برحلة كاملة على السفينة التي لم يرها منذ أشهر طويلة. وفيما كانت السفينة تقترب من شواطئ اليونان أتاه اتصال عاجل من بيروت: عايدة متعبة للغاية، وطلبت رؤيتك.

عايدة تفقد 50 كغ على مرحلتين

لو أنها في حكاية لكان بإمكان عايدة أن تعيش إلى الأبد، لكن مشكلة الناس الذين نلتقيهم في الحياة الحقيقية أنهم يخضعون لقوانين الحياة الحقيقية، ومشكلة من يروون الحكايات للناس أنهم مضطرون لجعلها تشبه ما يعرفه الناس.

لهذين السبيين كان على عايدة أن تموت ببساطة كالآخرين. وصل مايك إلى مستشفى بحس بعد بضع ساعات من تلقيه الخبر. وبالطبع وجد عايدة تبسم وهي نائمة. وصل مستعيماً بطراد قدمه أصدقاء سريون جاؤوا على متنه إلى السفينة، واقترب أكثر مما يجب من خليج جونيه. نظر إليها طويلاً، كانت قد فقدت عشرين كيلوغراماً من الخمسين التي تركها حين رآها آخر مرة قبل ثلاثة أشهر، وتوزع بياض وجهها كله على المساحة المتبقية منه. عرف من الأطباء أنها أنهت بنجاح معركتها الأولى مع سرطان الرحم قبل عامين، ولم تشأ أن تخبر أحداً بذلك، وأنهم قبل أشهر اكتشفوا انتقالات واسعة ضربت الكبد والرئتين، وفي الأسابيع الأخيرة ظهرت بصورة المرنان كتل جديدة في الدماغ، وهي تدخل الآن في غيبوبة مؤقتة، ولكنهم مضطرون لإعطائها جرعات عالية من المسكنات لتخفيف ألمها، ويتوقعون في أي لحظة أن تصبح إحدى غيبوباتها نهائية. كانوا واضحين للغاية: بقي لها بضعة أيام.

انحنى قلب مايك حقاً، اضطربت حدقتاه، ارتجفت أصابعه. الرجل

الذي لم يحب شيئاً في حياته، ولم يكره شيئاً، لم يتعلق بشيء، ولم يأخذ شيئاً على محمل الجد، لم ينجح أيّ سهم في خدش قشرة قلبه الحجرية، يلين الآن، ينطوي على نفسه كمستسلم أمام سيلٍ بركاني أو أمام قرنٍ جديد أو أمام كذبٍ وقح. يشعر كطفل يتلقى اليتيم في غير وقته.

كانت على سرير أمسكت فوقه آلاف الأيدي عبر نصف قرن. لم يستطع أحد أن يقنعه بالذهاب ليرتاح قليلاً. تسعة أيام قضى معظمها ممسكاً بيد عايدة، يحكي لها الحكايات. يحكي لها عن الخير الذي يجلب الخير. حكى لها عن معجزات شفيعتها رقيقة، صلّى بصوت مسموع للقديسة رقيقة لتنقذها، تلا عليها بعض ما بقي عالقاً في ذاكرته من آيات قرآنية وأدعية إسلامية.

في الأوقات التي يكونان فيها وحيدين، حكى لها عن فضة الجاروش وعن أمانة الحصو، حكى عن خائن رفاقه في الحرب، الذي يحمل اسمه دون أن يتذكر ملامحه، حكى لها عن قلبه الميت، حكى عن كرهه لحياته ولنفسه، عن اللامعنى الذي يقود كل شيء. اعترف لها أنه منذ أعطاه الشيخ قسام ألفي دولار، وهو يسير كالمنوم، لا يعرف ما يفعل ولا لماذا يفعل، قال لها بكل وضوح: كل ما فعلته في حياتي كان محاولات للحفاظ على ألفي دولار.

حكى لها عن دمشق، حكى لها عن ضعفه أمام تلك المدينة: تافهة ولثيمة وعادية، لكنّها الوحيدة التي تعني لي شيئاً، أعرف أنك لا تسمعين، لكنّها تسمعن.

استيقظت عايدة خلال الأيام التسعة مرّتين، ابتسمت لمابك في الأولى ثم عادت إلى إغماضتها، وفي الثانية كانت رقيقة قد وصلت، شهقت لمأرتها، حاولت أن تحرك شيئاً ما فلم تستطع، قاومت لنصف دقيقة ثم عادت إلى النوم.

رفقة وصلت في اليوم الثالث لتودّع أمّها، بعد رحلة شاقة استهلكت يومين عبر عدّة مطارات. جلس كلاهما حول السرير ممسكاً بيدٍ من يدي عايدة، لم يتبادلا أي حديث مباشر، وتناوبا على محادثة عايدة الغائبة عن الوعي.

في الخامسة صباح الأحد 12 أيلول 2010 عاد التوازن بين الأبيض والأسود في هذا العالم، فرحلة عايدة انتهت، وخسر البياض نقطة تفوقه على سواد العالم. استسلم جسد عايدة أمام معركته الأخيرة سخيقة العدو.

خلت نعيّتها من أيّ ذكرٍ لزوج أو ابنة، وتم التعريف بها بلقب الأتسة البتول. لم يعن الأمر شيئاً لمايك، فهي لم تكن زوجة بأي معنى من المعاني. ومن بدوا أقاربها حسب ترتيب الأسماء في النعية لا مكان بينهم لمايك أو سواه، فقد كانوا: الدير ورعيّته والمستشفى وجميع عائلات منطقة بكاملها.

مراسم الدفن شارك فيها نصف أهل بكفياً وربيع أهالي المناطق الممتدة من النقّاش حتى زهور الشوير. عند باب الكنيسة حاول مايك أن يقترب من رفقة وبعانقتها، لكنّها كانت تبعد عنه في كل مرّة، وبعد انتهاء المراسم وخلوّ القاعة من المعرّين، نهض باتجاه رفقة الجالسة بعيداً ورأسها محنيّ للأسفل ووجهها مغطى بيديها، وقف أمامها قليلاً، ثم سحب كرسيّاً وجلس قبالتها وانتظر أن ترفع رأسها، وكان قد حضرّ كلاماً عاطفياً كثيراً يريد إخبارها إياه.

بعد دقائق طويلة، رفعت رأسها، أشارت إلى حيث كان التابوت ونظرت في عينيه بتحدٍّ: هناك كان آخر ما يمكن أن يربطني بك، إذا استطعت أن تنسى اسمي سيكون أفضل، وامسحه عن مواخيرك وعاهراتك، لن أكون أداة تستخدمها لتظن نفسك جيداً، والمال الذي ترسله في مكانه بالبنك، يمكنك استعادته أو سأحرقه، ولا أريد منك

شيئاً سوى أن تنسى اسمي، إكراماً لأمي لم أقل ذلك في وجهك، لقد رحلت الآن، وعليك أن تعرف أنني أكرهك. أنني أستحمُّ ستَّ مرَّات في اليوم لأتخلَّص من رائحتك. أنت سيِّئ. لولا تلك المرأة الطيبة لكنت أكلت نفسك منذ زمن طويل. الشيطان الذي بعته روحك التهمها كلَّها، لا أعرف لماذا كانت تراهن أنه أبقى منها قظمة، لا أعرف لماذا كانت ترى فيك شيئاً من المسيح؟

ظَلَّ مايك صامتاً، لكنَّ كلمات رفقَة كانت تحفر عميقاً في قلبه، أدارَ ظهره دون أن يحاول قول كلمة واحدة. عند الباب نادته مرة أخرى: ليكن بعلمك، لقد غيرت اسمي منذ سنتين، وأزلت اسمك منه. اطمئن لن أرث أموالك العفنة، وإذا شئت أرسل كلابك ليقتلوني، أعرف أنك تستطيع ذلك، وأعرف أي جزء من المسيح كانت ترى فيك. ضللتها لأنك تشبه المسيح الدجال. هل قلت إنني أكرهك؟ أنا أحتقرك!

**

بقي مايك الشرقي صامتاً لأيام طويلة، لم يغادر بيته في برمانا ولم يفعل شيئاً سوى النظر من النوافذ، كان يعيد ترتيب كل شيء في رأسه، الأسئلة التي طرَّدها ملايين المرات عبر ثلاثين عاماً، صارت لجوجة الآن. اتبته فجأة أنه الرجل الأكثر وحدة في العالم، اكتشف أن رفقَة وقد فقدتها إلى الأبد لم تكن تعويذته. كان يتذرَّع بذلك، كان يستخدمها للاختباء من مواجهة نفسه بسؤال: من لي؟

كل الأسئلة استيقظت الآن ومدَّت برؤوسها كفراخ جائعة: ما الذي أفعله؟ لأجل من؟ ما معنى كل ذلك؟ من سيمسك بيدي حين أدخل غيبوتي الأخيرة كعائدة؟ من سيُلبسني سروالي الداخلي لو متُّ عارياً كالشيخ قسَّام؟ عيد ميلاد من سأستخدمه رقماً سرياً لخزانتني؟ أي البلاد

بلادِي؟ هل أنا من دمشق؟ هل أنا من بيروت؟ هل أنا من هليلية الحموي؟
هل أنا من الحصو؟ هل أنا من طفولتي؟

الرجل الذي يحمل قانونياً أربعة أسماء مختلفة موزعة على عشرين جنسية، كادَ سؤاله لنفسه: ما اسمي؟ يودي به ويدفعه لاتخاذ قرار لا يناسب عقله البارد حدَّ التجمّد، لولا أن قطعت رنّدة خلوته الغربية ودخلت غرفة نومه ببرمانا حيث قضى أيامه الأخيرة. ودون استئذان فتحت الستائر المغلقة، وضغطت مفاتيح جميع الأضواء، وبدأت بتصعيد الضجيج، ثم طلبت منه الخروج إلى صالة الاستقبال: معي ضيوف.

ابتسم لها باستسلام، وهمّ بارتداء ملابسها، لكنّها أجبرته على الخروج بسرّوالة القصير وصدّره شبه العاري: كل الذين في الخارج يعرفون مؤخرتك.

في الصالة كان أكثر من ثلاثين شخصاً من قدامى موظفيه، قد شكّلوا تحالفاً بقيادة رنّدة، وقرّروا إخراج معلمهم من عزلته، واستعادة حضوره المؤثّر في حياتهم، جاء طلعت من دبي وإسماعيل من دمشق وبيان من قبرص، واتفقوا أن يقتحموا عليه خلوته دون مقدمات، ويبدؤوا حفلة من تلك التي فعلوها معاً مئات المرات.

تعمّدوا التصرف بصخب، وتجاهل أيّ حديث مباشر، قرب البار كان إبراهيم وسعد يسكبان كؤوساً، وماغو يأمر ميرنا لتسمع المعلم مقطّعاً من أغنيّتها الجديدة، نسرّين تعانق المعلم وتقبّل خدّه كل خمس دقائق. صخب ومرح كالعادة.

مدّت غصون يدها إلى صدر مايك: انظروا "العصر"، ما زال شعر صدره أسود، ثم كشفت عن صدرها المتهدّل: أما نحن، يا حسرة، فأصبحنا عجائز!

ابتسم لها: ما زلتِ كما رأيتكِ أول مرة صبية حلوة.

.أيّ صبية؟ ألا ترى وجهي مثل الكتّان على باب الغسالة؟

.لا كتّان ولا صوف، ستبقيين مثل الحرير لمئة سنة.

رفعت فستانها الواسع وامسكت بحافة لباسها التحتي: أنا أصبحت عجوزاً، وإذا لم تقنعك تجاعيد وجهي وصدري، فسأخلعه وأريك إلى أين وصلت التجاعيد.

قفزت هياماً لتمسك بها وتمنعها من خلع سروالها، وسط الضحك وصيحات الاعتراض. وصل الطعام بعد قليل من مطبخ أبولو، وعاد المزاج القديم إلى المجموعة وبدأ بالتسلل شيئاً فشيئاً لمايك، ووجد نفسه بعد قليل يسأل عن العمل، ويدقق في التفاصيل مع كل واحدٍ على حدة.

بيان همس له بخبر شخصي مفاجئ: أعيش أول الحب، إنه حب مستعاد، سنتحدث فيما بعد. إسماعيل أعطاه ورقة فيها قائمة بأسماء نافذين في الدولة يحتاج إلى مساعدته لاختراقهم عبر علاقاته القديمة. طلعت قال إنه سيقى في بيروت ليوم أو يومين إضافيين إذا ما أراد أن يعقدا اجتماعاً لتقييم الوضع هناك.

حين انتهت الحفلة، طلبت رنده أن يقضي ليلته في أبولو، ليكون قريباً من جل الديب في الصباح: لديّ جدول بخمسين موعداً لا يحتمل التأجيل، وممّتي مذكرة تحتاج إلى اتخاذ قرار، يجب أن نبدأ بالتخلص منها.

**

لن يعود الرجل الذي كانه بالتأكيد. لكنّه التزم بما طلبته رنده، وبدأ صباحه بمراجعة الملفات العالقة وترحيلها إلى حلولها، أو إلى التجميد، واختار الغداء موعداً مع طلعت، تدارس معه تباطؤ العمل، والخطط البديلة، واتفقا على

التروي وانتظار عودة الظروف للتحسن. كان العمل في دبي في تلك الفترة مجرد تبادل بين العقارات الصغيرة (بيع هذه وشراء تلك) وبعض الشحنات التجارية من جبل علي، لم يكن قد بدأ أي مشروع جديد هناك منذ أكثر من ثلاث سنوات، أي منذ لوحث أول أزمة اقتصادية تضرب الإمارة في 2008، وقالت: «لا شيء يستمر في النمو للأبد»، وهي الأزمة التي غمرت لملتقطي الإشارات وأخبرتهم: «سأعود ثانية في وقت ما».

بدا واضحاً لرجل بذكاء طلعت أن مايك يخفي شيئاً ما. البرود الذي يتعامل به مع الخطط البديلة لا تكفيه أزمة مضى عليها ثلاث سنوات.

على العشاء اجتمع مع الراضي، وبعد بضع جمل عرض عليه أن يبيعه حصته من شركة الجنوب للسيارات، آخر ما بقي من أعمال مشتركة بينهما، أو أن يبيعاها معاً. اختار الراضي أن يشتري، واتفقا على تقييم موجوداتها وتقدير ثمنها، ووافق أن يكون فريد مع البيعة.

ترك بيان حتى نهاية اليوم لأنه أراد جلسة مختلفة معه، كان يثق بعقل الرجل، ويعرف تماماً أن ما يميّزه عن العالمين أنه يكيّل الأشياء بموازين متعدّدة، ومعياره الأول لتقييم أيّ أمر ليس المال.

كان يريد استشارته بتوسيع الأعمال وتركيزها في سورية، وبفكرة استقراره شخصياً هناك. كان رأي بيان مشجعاً للغاية وإن تخلّته بعض التعابير والمفاهيم من ذاكرته الماركسية التي لا تموت: بقرار كهذا لا أستطيع أن أكون موضوعياً، لأن الشعور الذي يغلبني هو الحسد، أنا أحسد كل من يمتلك هذا الترف، ولا أرى سبباً يمنع أي إنسان في العالم من العيش في دمشق سوى أن يكون مطلوباً للمخابرات هناك.

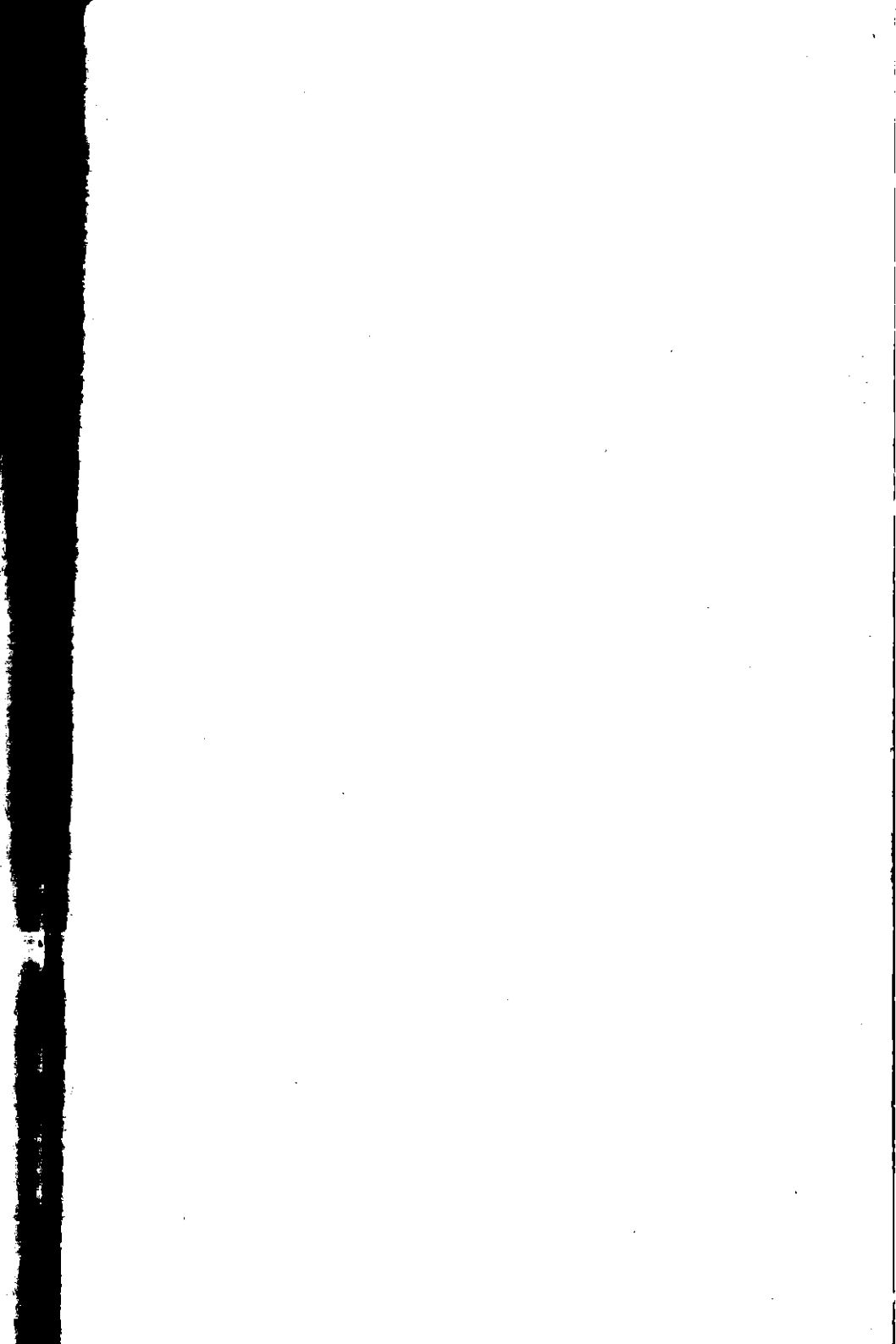
بشكل جدّي، أشجّعك على هذا القرار. واضح جداً أن الأمور تميل للتحسن، وهناك عدة دول في المنطقة تشهد نمواً اقتصادياً، منها سورية

وتونس ومصر، لقد بدأت هذه البلدان تتصالح مع قدرها السياسي وتعوض
بالاقتصاد، كما تلاحظ فإن تخلي الأنظمة عن احتكار وسائل الانتاج لا يقل
أهمية، وربما يفوق على المدى الطويل أثر تخليها عن احتكار السياسة.
والاقتصاد لعبتك، لا تتردداً وحين ينسون ما فعلت سألحق بك.

لم تصمد تحليلات بيان كثيراً، فبعد أقل من خمسة أشهر على تلك
النبوءة كان مايك في مكتبه حين دخلت رندة ودون قول كلمة، شغلت
التلفزيون لي شاهد تصويراً رديئاً لشبان يهتفون هتافاً جيداً: «واحد، واحد،
واحد.. الشعب السوري واحدا».

القسم الثاني الدّجال

هذا كوكبٌ قبيح، يمكن فيه لقدمِ شاركتك السيرَ حافيةً
من مهبطِ حُدُدٍ في المسكية إلى مهبط المسيح في الباب
الشرقي أن ترفسك.



... أعدت لي كرامتي أعدت لي هويتي

لا تتور الشعوب حين يصل صبرها إلى الحد الأقصى، فصير الشعوب بلا حدّ. الشعوب مثل غريب الحصو: حين تتذوّق برأس لسانها شيئاً من حلاوة الدنيا، تريدها كلّها، تريدها الآن.

الشيخ القسامون درّبوا حيواناتهم الأليفة على الرقص والكلام، وعلموها التبول في المكان الصحيح، وأعطوها حصّتها من مواخير الأوطان كأب يعطي أبناءه البررة. لكنها كمّنت جميعاً تترصد طريدتها لزمن طويل. تریصت مصر لخمسة آلاف عام. وتبّلت ليبيا نفظها بالنيذ ولبن الماعز والغار والقرنفل وسلقته وقلّته وقدمته لعقيدها الشهواني كي ينتشي. انتقت تونس بائع خضار بسيطاً وجميلاً مثل نسرين ودستته تحت حكّامها، وتركت لهم أن يعتلوها فيموتوا. أصغت سورية بإنصات الضبع المترصد لكلّ الشعارات الزائفة التي سمعتها لنصف قرن، وهي تتحين الفرصة لتفتت الشعارات وأصحابها.

في نهاية العام 2010 أتت واحدة من تلك اللحظات المباغته، التي يومض فيه الضرس بالألم، يبدأ الماء بالغلجان، ترعد غيمتان، تهتر شجرة بكامل أوراقها، ينفجر مجتمع.

ولا واحدة من هذه تأتي من العدم. لكنها اللحظات المباغته التي يمكننا أن نقول عنها فيما بعد: وكما كان متوقّعا، جاء الأمر مفاجئاً.

التاريخ ماكر. يعرف ما يريد، ويحصل عليه دائماً. لكنّه لا يستعجل ذلك. يفعل ما يشاء حين يشاء، يجلس مسترخياً على الشاطئ ماداً ساقيه

في الشمس، يمزج كأساً من المارغريتا، وفيما يثبت على أطرافها شرائح الليمون، يكون قد رتبّ حضور غيمة سوداء هائلة تهطل فوق المصطافين الذين ظنّوا طمأنينتهم أبدية. يشتمّ المصطافون حظّهم، تتحسّر كأس المارغريتا على نفسها، تكتتب الليمونة التي تحولت إلى شرائح دون أن تؤدّي وظيفة.

كان الناس قد رأوا التاريخ بأمّ أعينهم وهو يرتدي ملابس السباحة ويرشّ مزيج الملح والسكر البنيّ بعناية على حواف الكأس، فيتصرّفون على هذا الأساس. لا يكثر التاريخ بتوقعاتهم، لا يهتمّ إن فاجأهم، فهو لا يخبر أحداً بما سيفعل، لا يشعر أبداً أنه مضطرّ لذلك، لأنه في الحقيقة أعطاهم الكثير من المؤشرات، وأخفى عنهم فقط متى سيفعلها. فالتاريخ مكوّن من عنصرين: غياب البشر، وذكاء الزمن.

منطقه شديد الوضوح، صريح، لكن برنامجه الزمني هو الغائم، هو السرّ الأكبر، يجيبك فقط عن سؤال واحد: ماذا؟ لكنه يترك لنفسه الإجابات عن: «متى؟ وأين؟ وكيف؟ ولماذا؟ ومن؟».

في هذه البقعة من العالم يمكنك أن تقول لنفسك: «لم يتوقف تعاقب الحضارات على هذه الأرض لعشرة آلاف عام، فلماذا توقف على حظي؟» أنت تعرف أنها لن تتوقف، لكنك مللت الانتظار فحسب، لأنك لا تؤمن بالتاريخ كما يجب، فلو كنت كذلك لما كنت لجوجاً، ولا ملولاً، لكنك عرفت أنّ كلمة تاريخ هي اسم آخر للقدر، للربّ.

الربّ الذي يستطيع أن يفعل ما أراد متى ما أراد، ومع ذلك: (لَمَّا جَاءَ مِائَةَ الرَّمَانِ، أَرْسَلَ اللَّهُ ابْنَهُ مَوْلُودًا مِنْ امْرَأَةٍ) كما أخبرنا الرسل الأربعة بالنبأ عنه. ربّ كلي القدرة يريد أن يرسل ابنه، من الذي سيقول له: ليس الآن؟ لو أنك انتظرت قليلاً؟ ما هذا الضجيج؟ لقد أيقظتنا، ما الذي خطر لك؟ ألم تجد وسيلة أفضل من امرأة؟

لا أحد.

ومع ذلك فقد انتظر امتلاء الزمان، واكتمال عناصره وأسبابه وذرائعه، وهو ما كان على مايك الشرقي أن يفعله أيضاً، كي يجتاز تلك العتبة.

حين انفجرت البلاد، كان مايك قد اجتاز نصف رحلته في تهيئة الأرضية التي سيعود ليقف عليها. كانت الخطة تسير بشكل جيد. شراكات معقدة، إصبع في كل طبخة تقريباً، مفاتيح مهمة تستطيع حل كل شيء بالمال، شبكة من المهريين والتجار وأصحاب النفوذ. ثروة بأشكال مختلفة تم نقلها بالتدريج لتتحول إلى أراضٍ ومبانٍ وشركات ومستودعات بعضها يخزن بضائع، وأحدها يخزن المال.

كان يحضر كل شيء ليعود إلى مئذنته البيضاء. لا ليتفياً في ظلها، بل لينشر ظلها عليها. كان بحاجة إلى سنتين أو ثلاث ليكمل حياكة سجادته الحمراء التي سيطؤها حين يعود إلى البلاد التي غادرها حافياً.

بغته صارت اللحظة موأتية. المدينة التي رفته بكامل قوتها، ترفس نفسها الآن. ومن الممتع مشاهدتها وهي تلکم عينها اليسرى بيدها اليمنى، وتضرب قصبه ساقها اليمنى باطن قدمها اليسرى.

المدينة التي تهشم أطراف نفسها (من خلاف) تعيش الآن مشهداً يستحق الشماتة، يستحق سبعاً وعشرين سنة من الانتظار.

جاشت الريح في صدره. نهض كمن بلغ سدره المنتهى: امتلاً الزمان يا دمشق!

**

تردد كثيراً في اختيار توقيت تلك الزيارة. كان قلبه ينبض حقاً، ما زالت للمدينة هيبتها، ما زالت قادرة على إحداث الارتجاج في تلك الصخرة التي تسكن صدره. تردد في اختيار الاسم الذي سيدخل به البلاد،

وتردّد في اختيار جواز السفر الذي سيقدمه لموظف الجوازات في جديدة يابوس، تردّد في اختيار الصفة التي سيقدم نفسه بها، تردّد في أن يلتقي بمسؤولين أو بشركاء. وفي النهاية جمع كل ذلك وتردّد في شأن الزيارة نفسها، لم يمتلك الشجاعة الكافية ليعبر تلك المسافة القصيرة من بيروت إلى المصنع، لأنها تطابق المسافة الهائلة من المعلّم الكبير إلى غريب الحصوص. واحتاج أن يخلق أعمالاً هامة لا تحتمل التأجيل، ويقوم برحلات قصيرة إلى ستة بلدان، كي يمرّر بعض الوقت، ويؤكد لنفسه أنه لن يرتجف كفتى سوري حافٍ خلج عن نفسه مايك الشرقي فجأة.

بقي الجناح الذي حجزه إسماعيل في فندق الفورسيزتس وسط دمشق فارغاً. جدّد تسديد ثمنه كل يوم سبت لتسع عشرة مرّة، بانتظار نزله الذي سيأتي في أقرب وقت.

أخيراً فقام مايك دمّل الرهبة، واختار جمعة «الصبر والثبات»، لا لشيء إلا لأنها صادفت يوماً يعني له شيئاً ما، ووضع ذكرى مغادرته السابعة والعشرين كحدّ رمزي كي يجبر نفسه على تجرّع شجاعة العودة. على الحدود كانت بضع سيارات سورية ضخمة تنتظر موكبه القادم بسيارات لبنانية. انتقل إسماعيل من إحداها إلى سيارة المعلم. وصل جواز سفره الماليزي إلى كوة الإجراءات قبل وصوله بقليل، وخرج الضابط المناوب بنفسه ليرحب بالضيف الكبير عند شبّاك السيارة.

طلب أن يسير الموكب ببطء، ليتأمل انحناءات الطريق التي لم يكن فيها ما يلفت النظر، سوى إعلانات شركات الهاتف والسوق الحرة وشركات المفروشات والألبسة التركية. حين وصل الموكب إلى يعفور، نظر يميناً إلى مباني البوابة الثامنة وسأل إسماعيل: ماذا نملك هنا؟

حين التفت السيارة ثلاثة أرباع الدائرة لتنتقل من الأوتستراد الدولي إلى أوتستراد المرة الذي يصل إلى قلب المدينة، عادت الرهبة لمايك، ولم

ينجح الموكب المهيب وعشرات الرجال الذين يحيطون به في المحافظة على شعور الثقة الذي حققه في دمه طيلة أربعة أشهر، منذ لمعت في ذهنه فكرة زيارة دمشق.

وصل الموكب إلى ساحة الأمويين الخالية والخائفة، وتابع ليلتفّ تحت جسر الملكة فيكتوريا. كان الطريق بكامله يكاد يخلو من السيارات والمارة سوى بعض السيارات الأمنية التي تسير ببطء ليراقب عناصرها المسلحون الشوارع. كانت البلاد تشهد مظاهرات يومية مسائية تتكثف وتتوسع في يوم الجمعة، وكان المصطلح الذي يعبر عن ذلك: «كل صلاة تراويح هي يوم جمعة بالنسبة لنا». حين عبر مايك الشرقي قلب المدينة كان قد بقي أقل من نصف ساعة لتوقيت صلاة الجمعة، والقلق والترقب ينشر هواءه الأزرق في المكان. كانت ينابيع الدم قد بدأت بالتفجر هنا وهناك، لكنها لم تكن قد تحولت إلى سيل بعد.

أشاح مايك بوجهه عن تفاصيل المدينة، والتفت إلى إسماعيل يسأله عن تفاصيل العمل. كانت كلها تفاصيل. ولا سواء. أوصلته السيارة إلى مدخل الفندق الذي عبره مسرعاً وهو يخشى أن يرى أحداً يعرفه في مدينة لم يعد يعرف فيها أحداً.

أخبره إسماعيل أن سامر وشفيق ومعهما بعض المديرين هنا ويرغبون باللقاء التحية، وإن كان يرغب برؤيتهم الآن أو فيما بعد.

هرأسه موافقاً، وخلال دقيقتين افتتح سامر عهداً جديداً في حياة مايك الشرقي ونقله إلى حيث لم يحلم. رجل الأعمال البارز على المستوى الوطني حالياً، ومُستدرج الفتيات إلى بيوت الدعارة سابقاً، والذي لم يكن قد رأى مايك منذ أكثر من سنة، عبر عن شوقه وولائه بأن تقدّم زملاءه الستة الآخرين، وبحركة خاطفة صعقت الجميع نزل على ركبتيه وقبّل يد معلّمه ووضعها على جبينه ثلاث مرّات قبل أن يتخلّص مايك من ارتبائه

ويرفعه من كتفه. من ارتبك أكثر من مايك كان شفيق الذي لم يعرف ما عليه فعله، فتلكاً قليلاً وتقدّم الخمسة الآخرون وكثروا حركة سامر دون تفكير، فيما تجمّد موظفو الفندق متسائلين عمّن يكون هذا الزعيم الروحي المجهول.

شفيق الذي رأى المعلم بين الأرداف بأوضاع لا تليق بحركة كهذه، اضطرّ لارتجال تعديل على التقليد المرتجل أساساً، فوضع يده في يد المعلم ثم قبّل جبينه قائلاً بصوت خطابي: «الله يرفع راسك ويعليّ مقامك أكثر وأكثر!».

جلس مع المجموعة قليلاً، أعطاهم توجيهات عمومية عن ضرورة التحرك بحذر وإبقاء كل الخطوط مفتوحة مع كل الأطراف. وضع في ذهنه شكل استثمار الخمسة الذين تعرّف عليهم للتو.

نصيحة عدم مغادرة الفندق في يوم جمعة، جعلته لبقية اليوم يعيش شعوراً قلماً اختبره: الانشغال باللاشيء.

جولة صباحية في مدينة يقترب غروبها

حين نزل صَبْرُ نموم في ساحة العباسيين، تلقتُ حوله ليجد وجهاً مناسباً يستطيع سؤاله عن الطريق. لا يعرف أين تقع كلية الفنون الجميلة، لكنّه يعرف كيف يختار الوجه، ويعرف أنه سيصبح خلال سنوات قليلة رسّاماً عظيماً بشهرة بيكاسو، مع أنّه جاء إلى دمشق ليصبح رامبرانت، فمن خلال اليوم موجود في مكتبة المركز الثقافي في سلمية، تصفّحه صبر حين كان في السادسة عشرة، نهته بورترهات رامبرانت العبقريّة إلى عشقه للوجه البشري. فهو، ككلّ طفل يولد لأُم ذات وجهٍ دائم الابتسام، يجد أمانه في الوجه.

باستثناء اختبارات المدرّسين وضرورات الامتحانات، لم يرسم صبر شيئاً في حياته سوى الوجه، ولم يعتقد يوماً أن شيئاً سواها يستحق الرسم أو البكاء. وباستثناء معرض التخرّج لدفعة عام 1978، لم يعرض لوحاته في صالة، وفور تخرّجه حصل على عمل مؤقت بتدريس مادة الرسم لطلاب إعدادية كفرسوسة للبنين الذين ينقسمون لنصفيين. نصف يعتقد أن الرسم شأنٌ تافه وحصّته الدراسية فائضة عن الحاجة، ونصف يعتقد أنه كفرٌ صريح ويحضرون حصّته على سبيل التقيّة.

يئس سريعاً من قدرته على التأثير في هؤلاء الفتية الطائشين. ويئس من تحقيق أي اختراق لمنظومة الفن التي كانت في الثمانينيات نوعاً من أنواع قناة السويس المؤممة، أو المؤسسة الإنتاجية العسكرية. وانتهت محاولاته لحجز صالة لبضعة أيام لعرض بورترهاته بطريقتين مختلفتين تماماً. ففي الأولى أخبره المستشار المشرف في صالة الشعب، وهو أستاذه في الكلية أيضاً أن موهبته واضحة، وخصوصاً قدرته على التقاط الروح القابعة خلف

الوجوه التي يرسمها، لكنّه لا يحسن اختيار الوجوه. ففي بلد يضم قادة من أعظم ما أنجب التاريخ ليس مفهوماً من رسام جيد أن يضيّع وقته برسم أشخاص مجهولين ليست لهم أيّ صفة رسمية، وأعطاه فرصةً يرسم خلالها لوحات جديدة لوجوه تستحقّ الاهتمام.

وفي الثانية قالت السيدة الأنيقة مديرة الصالة الخاصة إن لوحاته جميلة، ولكنها غير «بيّاعة» وأنّ اسمه غليظ وثقيل ولا يليق بفنان تشكيلي، واقترحت عليه أن يغيّر اسمه أو يختار اسماً فنياً من كلمة واحدة، كما فعل عمر حمدي وعلي أحمد اسبر، ثم يعود.

في طريق عودته من الصالة وفيما يفكّر بجدوى تغيير اسمه إلى بلعاس أو رجم، توقف قرب القنطرة التي تصل سور القلعة الشمالي بصفة ما بقي من نهر بردى. ولسبب غير مفهوم كانت الحرارة في هذين المترين أقل من باقي المدينة بعدة درجات، شعر بعدوية المكان رغم رائحة النهر الآسنة. أطال الوقوف وهو يتأمل تفاصيل القلعة والبيوت المتكئة على النهر، ويتنقّل، كعادته، بين وجوه من يعبرون المكان وليس بينهم أي قائد تاريخي. ولأجل كل ذلك قرّر أن يقضي بقية حياته هنا.

في اليوم التالي حمل بضع لوحات كرتونية خام، وبعض أقلام الفحم وكرسياً قابلاً للطي، وحبلًا من القنب علق عليه، كدعاية لعمله، لوحات بالفحم لرجل عجوز، وفتاة محجّبة، وغيفارا، وقتي يرتدي قبعة قش، وفيروز، وغوار الطوشة. وجلس في المكان ليرسم السياح الذي يمرّون من هذا الدرب العجيب لقاء خمس ليرات، رفعها بالتدريج على مدى ثلاثين عاماً، حتى وصلت إلى ثلاثمئة ليرة في يوم السبت السابع والعشرين من آب 2011 حين وقف مايك الشرقي في الظل الرطب ليلتقط أنفاسه.

**

يومذاك، استيقظ مايك باكراً ليقوم بما جاء لأجله: تفقّد المدينة، وشم رائحتها، ومحاولة تلمّس وجهها. طلب من مرسال والمرافقين البقاء

في الفندق، ومشى من الباب الخلفي باتجاه شارع 29 أيار. شعر بالألفة، تعامل مع بعض الأماكن كأصدقاء قدامى، ابتسم لمدرسة التجهيز، وللأشجار التي تحيط بها، ولمقهى الكمال، ولسينما الكندي ولمقهى الهافانا، لم تتغير الأشياء كثيراً. توقف فجأة وقد عادت إلى ذاكرته رائحة كانت تثير شهيته في الصباح، تذكر الرائحة والمكان لكنه لم يتذكر اسم المحل، توقف حيث أمرته الذاكرة. حار بين ثلاثة محلات للأبسة، فسأل أحد العابرين: أي واحد من هذه كان فيما مضى بائع كنافه؟ أجاب الرجل المستعجل ببساطة: «هون ما كان محل كنافه، إذا قصدك سلورة بدك ترجع لبعدها هافانا بأربع محلات، بس نصيحة إذا بدك الكنافه ناعمة كمل لعند أباطة بأول الصالحيه، عم يجيب جنبته من عند حجازي!».

أغنت الإجابة النموذجية حاجة ذاكرته، واكتفى بحشوية الرجل وانغماسه بالتفاصيل بديلاً لصحن الكنافه الساخنة الذي اشتهاه. تابع طريقه إلى جسر فكتوريا ومن هناك انعطف باتجاه ساحة المرجة، ثم دخل من طرف القلعة الشمالي. اجتاز القنطرة وأنعشه الظل الرطب عند مقام أبي الدرداء تماماً، وقف ليرتاح لوضع دقائق، حاول دخول الضريح لكن الباب الحديدي كان مغلقاً، كما تركه. تأمل حجارة السور، ولفت نظره رسام الشوارع الجالس على إحدى الحجارة المتساقطة، والذي ينقل عينيه بسرعة بين وجه مايك والورقة أمامه، ويحرك قلم الفحم كالمكوك، كان الدرب شبه خاو في هذه الساعة المبكرة، وفي هذه الأيام العصيبة التي طرد قلقها الزوار المحتملين. حين همّ باستئناف رحلته، خاطبه صبر نموم دون مقدمات: أستاذ، أرجوك ابقْ دقيقتين فقط!

ابتسم مايك له، والتفت حوله، رأى بعض الرجال الواقفين بعيداً، عرف أن إسماعيل أرسلهم لحمايته، دون إفساد رغبته بالتجول وحيداً في المدينة القديمة. شعر بالاطمئنان، واقترب من الرسام ليري ما يفعل، نظر في اللوحة التي حصلت على خطوطها الأخيرة في اللحظة ذاتها، رأى الوجه المرسوم بدقائق:

. هذا الرجل لا يشبهني.

. بل يشبهك أكثر مما تخبرك المرأة.

. أنا لا أرى أنه يشبهني.

. ربما لم تر نفسك حتى الآن كما رأيته.

. إذا لم أعطك ثمن اللوحة، ماذا ستفعل بها؟

. سأحتفظ بها.

سأله عن اسمه وعن عمله وعن عمر علاقته بالمكان وبالمهنة، ثم سأله ما إن كان يعرفه.

أجاب صبر بجملة من تلك الدوامات اللغوية التي بلا معنى تقريباً، والتي يقولها أهل مدينته عادةً بعد نصف ليدر من العرق: «أعرفك؟ ترى ما بعرفك. لكن إذا قصدك إنِّي أعرفك؟ فترى بعرفك كثير منيح!».

ضحك مايك وأخرج من جيبه مئة دولار، أعطهاها لصبر: هذا ثمن اللوحة، احتفظ بها، سأخذها فيما بعد!

تابع طريقه بتؤدة المتأمل «لا خيباً ولا مدقاً»، وتحسّس تفاصيل الدرب «لا زلفى ولا ملقاً». عند نهاية سور القلعة، اختار الانعطاف من داخل سوق العسرونية، ثم حارَ بين أن يتابع إلى مقام السيدة رقية بنت الحسين، أو ينعطف إلى مسجد بني أمية الكبير، الذي ما زال يحمل اسم أبناء أمية بن عبد شمس ويحتفظ من تاريخه القديم بنقوش إله الشمس. اختار الانعطاف يميناً لا لموقف من الخلاف الناشب بين أبناء العمومة منذ قرون، بل لأنه يريد إكمال الطريق من خلف الجامع، وتكرار خطواته الأخيرة في هذه المدينة.

خمسة محاريب لعبادة إله واحد

دخل من الباب المهيب للجامع. تأمل التحسينات التي طرأت عليه منذ حاول قضاء ليلته الاخيرة فيه. انتبه أن الذاهبين شمالاً أكثر بكثير من الداخلين جنوباً إلى حرم المسجد. سار مع الأكثرية. وعند الزاوية الشمالية الغربية تركهم يتابعون طريقهم شرقاً إلى ضريح رأس الحسين في أقصى المسجد من جهة باب جيرون، كان أغلبهم من النساء الملتحفات بالسواد. دخل الموضأ فغسل يديه ووجهه، نظر إلى فتى صغير بقربه يؤدي طقوس الوضوء بدقّة وإيمان، ويتمم بالأدعية المستحسنة فيما يغسل مرفقيه وقدميه. حاول تذكّر ما يقال فلم ينجح، حاول تقليد حركات الصبي فكان أسرع منه، ولم يعد متأكداً ما إن كانت مضمضة الفم والأنف تتم قبل غسل الوجه أم بعده، ونسي متى يتم مسح الرأس. عاد باتجاه المسجد، بعد أن أقنع نفسه أن وضوءه الأخير في هذا المكان قبل سبعة وعشرين عاماً ويوم ما زال صالحاً، ولم يفسده شيء. فهو في تلك المرّة لم ينو الصلاة، بل أراد المبيت في المسجد، واليوم كذلك لم ينو الصلاة، بل جاء ليضع عينه في عين المسجد ليعاتبه عن صمته حين طردوه منه حافياً. يمكنه إذاً أن يستخدم الوضوء ذاته. ولن يضير الله في شيء أن تُؤدّى صلاتان فاسدتان دون إيمان بوضوءين فاسدين دون نيّة.

تجوّل في حرم المسجد الذي كان أشبه بحديقة نزهات، بضعة رجال، كثير من النساء، أطفال يركضون، أو يبكون، أو يأكلون، نساء يُحطن بضريح

يوحنا المعمدان، ويُخاطبته باسمه الآخر: النبي يحيى. ويتمتمن بأدعية غير مفهومة، نظر إلى داخل الضريح الذي تحيط به الأموال السورية والعراقية والإيرانية والكويتية، ابتسم لكمية المال، وخطر له أن ما من راقصة في حياته المهنية كلَّها حظيت بهذه الكمية من المال حول جسدها.

اجتاز اثنين من المحاريب الخمسة للمسجد، ثم جلس وشدَّ ركبته بكلتا يديه ليلصقهما بصدرة بين محراب الحنابلة ومحراب الحنفية، تماماً حيث جلس شاباً وحيداً وذاهلاً، فنهَرَ شيخُ وطرده من بيت الله امتثالاً لأمر المخابرات. نقل نظره بين الجدران وزخارف السقف والنوافذ الملونة، شعر أن هذا المكان أكثر براءة من أن تغضب منه، وأجمل من أن تحتفظ بغضبك لسنوات طويلة.

هذا مكان مسكين، لطالما فعل ما يُطلب منه فعله. كان موظفاً عند من مروا بهذه المدينة يحملون أسلحة، فظلَّ لـ 1260 سنة معبداً لحدِّدُ لمجرد أن المؤمنين به كانت سيوفهم ثقيلة، ثم 328 سنة معبداً لجوبيتير (أحد آلهة الانتداب الروماني)، ثم كاتدرائية يُعبد فيها ابن الله وتحمل اسم يوحنا ابن خالته أليصابات، ارتفعت فيها الصلوات بالأرامية لـ 243 سنة. ثم صار مسجداً وُرفِع فيه الأذان بالعربية المترنحة على سبعة مقامات موسيقية لـ 1377 سنة لكنه تنقل بين المذاهب والولاءات، فترك كلَّ مذهبٍ محرابه على الجدار الجنوبي، وترك كل ولاءٍ عازه على السقف والجدران الأربعة. فدُعِيَ من على منابره لـ 13 أموياً و37 عباسياً، و36 عثمانياً، ولملك واحدٍ من نسل الهاشميين، ولـ 23 رئيساً من الخمسة والعشرين الذين تعاقبوا عليه بعد فيصل.

دعا أئمته لمئات الولاة والقائمي مقام. صلُّوا للمطر، برّروا الغلاء، حاربوا المثلية، التمسوا من التجار تخفيض الأسعار ومن الحكام الرأفة، انتقدوا

بعض برامج التلفزيون، حذروا من مضار التدخين، شجّعوا على الالتحاق بالخدمة الإلزامية، هاجموا «الفيزون» بشراسة، شتموا الطوائف الأخرى حين أتيح ذلك، آخوا بينها حين أتهمت بإشارات معاكسة، جمعوا التبرعات، عثروا على آيات تحضّ على التأميم، وأخرى تمجّد السفر، انتقدوا هجرة الأدمغة، حيّوا على الجهاد، أحلّوا إيداع الأموال في البنوك إذا كانت على شكل شهادات فئة ج، تغنّوا بالهلال الذي يجمع العرب والترك، لعنوا صناعة المفروشات التي تفرّق العرب والترك، طردوا المصلّين حين أتهموا وأمر بذلك.

غريب الحصو الجالس الآن على هيئة مايك الشرقي، كان واحداً من المطرودين بموجب أوامر من السلطات تقضي بإخراج المصلّين بعد عشر دقائق من انتهاء الصلاة.

يعتقد العوام والمصلّون أن السلطة تخشى فقط أن يمارسوا في هذا المكان هوايتهم بتحقيق هويتهم، والتي لا علاقة لها بالإيمان بل بالاجتماع. تخشى أن يطول مكوثهم معاً، فيعزّزوا من روابط الجماعة، ويخرجوا معاً ليفعلوا شيئاً ما، أو يخططوا لشيء ما.

ليس لدى هؤلاء تقيّة، لكن لديهم ما هو أهم، لديهم رابطة الجماعة وهي مصدر خطرهم، لأنها تحتمّ أن يصون الفرد أسرار الجماعة. لذلك وعبر تاريخ طويل، كانت المدن تتسامح مع متعاطي الحشيش، ومدمن الكحول ولاعب القمار والغشّاش واللص والزاني إذا ما تاب، لكنّها لا تتسامح أبداً مع «العواني».

فمنذ حكمها العثمانيون وحتى هذه الأيام التي يتأكل فيها البعثيون، ما زالت كلمة «العواني» تستخدم كشتيمة لأردأ أنواع البشر.

ما لا يعرفه هؤلاء المصلّون وربما الأئمة الذين ينقذون التعليمات، أن

السلطات لا تخلي المساجد خوفاً من الجماعات، بل لأنها تخشى أن يُتبع أولئك المؤمنون صلاتهم بالدعاء، ويحرضوا الله عليها، كانت تلك السلطة تعرف أنهم يفعلون ذلك في سرهم، لكنها أصدرت تعليماتها لتقطع الاتصال بين المؤمن وربّه، قبل أن يصبح فعّالاً وصافياً.

المؤمن حين يُنشئ اتصالاً مع الله، يكون اتصاله آمناً، ومشفّراً، لكنّه يكون اتصالاً من طرف واحد، تتحسن الشبكة شيئاً فشيئاً مع إصرار الطرف المتكلم وثقته بأن الطرف الآخر يستمع إليه، ثم في لحظة ما، ينجح فعلاً، وربما يتلقى بعض الإشارات على نجاح الاتصال، حدّدت موعد إغلاق المساجد بعشر دقائق بعد الصلاة، لأن دراسات فرع الاتصالات تقول إن الطرف العلي من الاتصال قد يبدأ بالاستجابة في الدقيقة الحادية عشرة.

في كل أنحاء العالم حين تتكلم مع الله تكون مؤمناً، وحين يردّ عليك تكون مجنوناً، إلا هنا حين تتكلم مع الله فأنت مريب، وحين يردّ عليك تكون مخرباً وإرهابياً ومستقوياً بالخارج.

أربعون دقيقة من الجلوس في بيت الله دون حراك، لا قيمة لها فيما يخصّ العلاقة مع صاحب البيت، وبلا معنى حتى مع تقسيم ساعة المغفرة على المعاصي. لكنها كانت أكثر من كافية ليغفر مايك للمسجد إهانتّه، ويخرج مكرراً طريقه القديم تقريباً، حتى وصل إلى الباب الشرقي، تلمّس الحجارة وخرج ليجلس معاكساً لموقف الباص على حافة محوّل الكهرباء مقابل الباب. رأى التآكل في المئذنة البيضاء، رأى في شحوبها سأم الانتظار الطويل، أشفق عليها وهي في مكانها تحت الشمس والمطر لا تفعل شيئاً منذ مئات السنين سوى انتظار شيء قد لا يأتي أبداً، أو ربما أتى في مكان آخر، لأننا فهمنا معاني الكلمات وأسماء الأشياء بطريقة خاطئة.

فكّر فيما إن كان الرسول محمّد قصد هذا المكان حين حدّد نزول

عيسى بن مريم على الباب شرق دمشق. هل هذه دمشق التي أراد؟ أما من دمشق أخرى اندثرت عبر القرون؟ إذا كانت هي فهل هذا باب شرقها؟ أما من شرق آخر شرقها؟ ألا يمكن أن يكون هذا الباب ستاراً لبابٍ خفيٍّ آخر؟ إذا كانت النبوءة بهذا الوضوح وبهذه العلنية، ألن يدمر بأجوج ومأجوج المثذنة والباب ليتوه المسيح عند نزوله، وليُلبِلوا العلامة؟ ألا يمكن أن تكون المثذنة البيضاء هذه تضليلاً ليأجوج ومأجوج وللمسيح الدجال، وليست منارة للمسيح؟

آلاف الأسئلة خطرت في باله، وأراد الحصول على إجابات لها، حين شاهد ثلاث سيارات تتوقف قرب سور المدينة، وإسماعيل يترجل من واحدة منها ويتقدّم منه: «معلّم، بعرف أنك مشتاق للشام، بس لازم نروح ع الأوتيل، صحابنا خبرونا أنو ممكن يصير إطلاق نار بالمنطقة».

انصاع مايك لتحذيرات إسماعيل وصعد معه في إحدى السيارات، وكطفل يرى المدينة للمرّة الأولى لم يبعد خدّه عن زجاج السيارة طوال الطريق وهو يردّد بصوت مسموع أسماء الأماكن التي تعبرها السيارة: باب شرقي، دوّار البيطرة، حارة اليهود، حي الأمين، باب مصلى، خالد بن الوليد، محطة الحجاز، جسر فكتوريا، المعرض، صحّح له إسماعيل الذي لا يعرف الفارق بين الذاكرة والخارطة: لم يعد المعرض هنا.

في بهو الفندق سأله إسماعيل عمّن يريد رؤيته أولاً من الشركاء ومن الموظفين، وعمّن يريد زيارته من المسؤولين، وعمّا يريد تفقّده.

لن أبقى هنا، سأغادر بعد قليل، ولكن أريد أن أكلفكم بمهمّة خاصة، وأريد أن تختار الشخص المناسب لتنفيذها، وهو الوحيد الذي أريد أن أراه. شرح لإسماعيل المهمة، فأجاب بأن المناسب لها ليس شخصاً واحداً.

بل اجتماع عدة أشخاص: من بين من يعملون معنا فإن من نسّمهم المثقفين هيام ورائد وعمّار، سأرسل بطلبهم فوراً.

وريشما يصلون شرح بعض ما يعرفه عن هيام حمود التي تدرّس في الجامعة، وتعمل معهم باختيار وتنسيق العلاقة مع أساتذة الجامعات «حين نحتاج إلى دراسات لمشاريع جديدة»، وتحرّر بنفسها الصيغ النهائية من دراسات الجدوى ودراسات السوق، ورائد عروس رئيس تحرير صحيفة اقتصادية يقدّم. لقاء تمويل الصحيفة. بعض الخدمات مثل «تزيدينا بمعلومات عن قرارات حكومية وعن منافسين، ونشر تهديدات وفضائح للخصوم»، وعمّار دبّان الذي يعدّ الدراسات الاجتماعية المرتبطة بالأعمال، ويستعينون به لكتابة المراسلات الهامّة والمذكرات الموجهة للجهات الرسمية.

بعد ساعة ونصف اجتمع مايك مع نموذج غير مألوف من موظفيه في مطعم اليمّق المجاور للفندق، استمع لهم باهتمام فيما يعرفون بأنفسهم وبما يفعلون. سألهم رأيهم بما يجري، كان رائد يعتقد أن «الخيرة فيما يختاره الله»، وعلى يمينه كانت هيام غاضبة من كل ما يجري، فبعد أن بدأت حياتها بالاستقرار، وتسير بشكل جيد في وظيفتها الحكومية الآمنة، وبشكل ممتاز في عملها الخاص الإضافي «في شركاتكم الرائعة»، واشترت سيارة حمراء بالتقسيط، ومنقل شواء مع ذراع للتحكّم بقوة النار، يأتي هؤلاء المراهقون ليخربوا كل شيء. عمار الجالس على يسار رائد، حرفياً، عبّر بشجاعة عن قناعته بأن الحتمية التاريخية تقول إن ما حدث كان لا بد أن يحدث، وأنّ الحراك لا بد أن يصل إلى هدفه طال الزمن أو قصر.

ارتاح لتباين تحليلاتهم، والمدى الواسع الذي يغطّونه من خارطة المواقف التي لم تكن في تلك الأيام قد وصلت إلى حدّ القطيعة بين أصحاب الأفكار المتباينة والهويّات المتحاربة.

لن أطيل عليكم كثيراً، أرغب بنقل أموالي إلى هذه البلاد، وتأسيس أعمال فيها، وأرى أن الوقت قد حان. تنقضي بعض المعلومات، وأريد استكمالها، أريد أن أفهم ما يجري بشكل أفضل، أريد أن أفهم هذه البلاد بشكل أعمق، ستنشأ قوى جديدة وسيظهر أشخاص جدد، وستحتاج إلى أعمال جديدة، وأريد أن نسبق الآخرين بخطوة، وما أريده منكم أن تساعدوني بذلك.

شعر الثلاثة بالزهو. كتبت هيام على دفترها الصغير بعض الجمل، وكأنها تبدأ بشرح هذه البلاد المعقدة لنفسها. وعبر رائد عن شكره لثقة المعلم، وتمنى أن يكونوا أهلاً لهذه الثقة، فقاطعه عمّار: لا أظن المعلم يقصد ذلك، وإذا أردنا أن نكون واقعيين، ما يطلبه يفوق قدرتنا ومعرفتنا. أعاد مايك شرح ما يريد: الأمر بسيط، أنا مغترب ومستثمر، أرى البلاد مقدمة على تغيير كبير، وأريد أن أساهم في مستقبلها، وأحتاج إلى من يرشدني كيف أفعل ذلك.

أحرق روما لـ «تدوزن» قيثارتك!

في التاسعة من مساء اليوم نفسه كان مايك في بيروت. وفي التاسعة من مساء اليوم التالي في دبي لإعادة تقييم كل شيء، والاطلاع ميدانياً على موقف الشركة، ونتائج الجرد الكلي الذي أنجزه طلعت. اختصر حصيلة التقييم بجملته واحدة: انتهت رحلتي في هذه الرمال، كثف البيع، أوقف الشراء!

غادر مساء الثلاثاء إلى ماكاو، وبمفاوضات قصيرة وسريعة رفع حصته من سلسلة زوما للملاهي والكاзиноهات من تسعة إلى ثلاثين بالمئة. والجمعة كان في اليونان يخوض مفاوضات لبيع استثماره في جزيرة سكورييوس. وصل إلى تسوية مع الحفيدة الشابة والوريثة الوحيدة لأوناسيس، أسطورة المال في القرن العشرين، وبدأ معاً مفاوضات لبيع الجزيرة التي تملكها مع عقد الإيجار الطويل الذي يملكه لوريثة أخرى، وهي شابة روسية في الرابعة والعشرين ورثت عن أبيها مليارات الدولارات وأرادت إهدار بعض منها لتعزز تشبهها بأسطورة الأنوثة جاكلين، وإن ادّعت أنها تريد استثمارها سياحياً كما ادعى مايك قبل أعوام ليخفي افتتاحه بالحكاية.

خلال ثلاثة أشهر انتهت المفاوضات وعاد مايك إلى أثينا ليوّقع على نصيبه منها، وليحصل على نصف ثمن الجزيرة لقاء تخلّيه عمّا تبقى من عقد استثمارها، وضمّه إلى حقيبة العودة التي باتت شغله الشاغل طيلة الوقت.

وصل عصراً إلى ليماسول، أراد أن يسترخي يوماً على الشاطئ الذي يحبه، ثم يقضي يومين آخرين في بنات يعقوب، أراد وقتاً مديداً مع بيان، ليساعد نفسه على اتخاذ القرارات.

مشى وحيداً على الشاطئ الذي ركضت فيه رفقة قبل عشرين عاماً لتسبقه إلى بائع البالونات، شتمها بصوت هامس: قليلة الأصل، حاول طردها من ذاكرته واعتبارها لم تكن، لكنه لم ينجح هذه المرة. لقد كانت في قلبه أعمق مما كان يعتقد، أرادها أن تكون ابنته فعلاً، وكان خطؤه الوحيد أنه ظن الأبوة ككل الأشياء الأخرى في حياته، يمكن الحصول عليها بضربات حظ متلاحقة. تذكر ذلك اليوم بتفاصيله، وتنهّد بأسى. لقد ضلّ نفسه طيلة عقدين مستخدماً تلك الطفلة، ألهى أيامه بها عن فعل ما تأمر به الغرائز، وما يفرضه التكرار.

أهدر تريليوناتٍ من النطاف في واقيات مطاوية وفي طيّات لحمية غير مضيافة. ووضع على مدخل البربخ خلف خصيتيه لافتة بلغة تفهمها الحيوانات المنوية: أنتم أحرار، اذهبوا أني شئتم، لا أريدكم أن تصبحوا شيئاً. لدي واحد.

مع بداية تفتّحها أرسلت رفقة مئات الإشارات إلى تلك اللافتة، لتزيلها. لكنّ صاحب اللافتة كان مشغولاً بشؤون الدنيا فلم يفهم الإشارات. فجاءت بنفسها الآن ورفست اللافتة بقدمها بعد أن فات الأوان. تمالك نفسه باستعادة مشاعره الحقيقية من تلك الشعائر البدائية السخيفة مثل الأبوة والعائلة والأقارب. قضى بقية المساء على الشاطئ مغالباً شعوره بالمرارة، من قدرة فتاة تافهة كرفقة على إحداث هذا الأثر فيه.

لم يقض ليلته في فندق الشاطئ كما خطّط، بسبب حاجته ليكون مع أحد وبسبب برد كانون الأول الذي فاقم شعوره بالوحدة، وذهب إلى بنات يعقوب، مغامراً بتعرّضه لسهرة عمل ليس مستعداً لها، لكنّ بيان

الذي كان بانتظاره في البهو استخدم حساسيته العالية ليُحسِن استقباله:
كنت أعرف أنك لن تنام هناك، وأعرف أن مزاجك يحتاج ترتيباً خاصاً.
احتياطاً حضّرت لك ثلاثة خيارات: الجناح الرئيسي جاهز إذا أردت أن تنام
باكراً أو تكون وحيداً، وجهّزت لك سهرة في بيتي في المدينة، وإذا كان
مزاجك مناسباً أريد أن أعرفك على المرأة التي نويتُ الزواج بها. وحجزت
لك كوخاً في الجبل، يبعد عنّا نصف ساعة بالسيارة، لتقضي بعض الوقت
وحيداً في مكان هادئ.

بعد أربعين دقيقة كان مايك يفتح زجاجة نبيذ في كوخ بأعالي جبال
ترودوس تمتزج فيه الحجارة بالخشب، فيما يشعل بيان النار في الموقد
الجداري بعد أن طلب منه مايك مرافقته وقضاء الليلة في مناقشة
القضايا الاستراتيجية. بعد عشرين دقيقة أخرى كانا أمام الموقد يتناقشان
بمستقبل المنطقة، أمسك مايك بأحد أكواز الصنوبر التي تزيّن الحافة
الرخامية للموقد وألقى بها إلى النار، التقطت أطراف حراشفها المفتوحة
النار واشتعلت مرّة واحدة مشكّلة شمعداناً دائرياً بعدّة شموع. أعجبه
منظر اشتعالها فألقى بالأكواز المتبقية، ثم بنسخ الكتيبات السياحية،
أوراق الأشجار الصينية الملوّنة عن طاولة المنتصف، منافض السجائر
الخشبية، ثم الملكين الأبيض والأسود من رقعة الشطرنج، ثم البيادق والفيلة
والأحصنة، ثم الرقعة نفسها والوزيرين.

كان الحماس الثوري لبيان قد استعاد طرّاجته وبراءته. بدا متأكداً أن
القصة لن تطول في سورية، وأن النتائج ستكون مثل مصر وتونس وستنتهي
قريباً، وسيحصل تغيير سياسي، والبلاد مقدمة على مرحلة ازدهار، ومن
الحكمة اتخاذ قرار العودة:

ستكون جزءاً من سورية الجديدة، ويمكنك بهذه الحال أن تصنع هوية
جديدة ومهنأ جديدة.

ولأنه يظن أن النظام في أيامه الأخيرة، وسقوطه سيُطوى ملفّه الأمني والقضائي تلقائياً، فقد أضاف: سأحرق بك بعد أسابيع.

حتى لو لم يسقط النظام كما تعتقد، سأجد حلاً لمملّك، ليكون بإمكانك أن تزور سورية حين تشاء، لكنني لا أستطيع الاستغناء عنك في ليماسول. سنحتاج إلى بنات يعقوب أكثر من أي وقت مضى، المنطقة كلها ستحتاجه، ستكون لدينا سنوات من التفاوض.

حين طلع الفجر كان الاثنان قد أجهزا على زجاجة النبيذ السادسة، وكانت معظم هواجس مايك وأسلته الوجودية المتأخّرة قد انتقلت إلى بيان وانقسمت على اثنين، وكان معظم أثاث الكوخ الفاخر ولوحاته وتحفه قد صارت رماداً في الموقد الذي ظل طوال الليل يلتهم التماثيل الخشبية للأقنعة الإفريقية وللنساء الفرعونيات، ثم أرجل الطاولات الصغيرة والكبيرة، فالطاولات نفسها، فالأسرة والكراسي وأبواب خزائن المطبخ، وكل ما يمكن تكسيره أو فكّه. ومن الجذوع المتداخلة مع الحجارة في الجدران، أحرقا فقط التي استطاعا انتزاعها.

أصوات أجيح الاحتراق وطقطقة الخشب المتكسّر طيلة الليل شكّلت موسيقا خلفية مناسبة جداً لحديث رجلين يحاولان التنبؤ بما يمكن أن يجري في جنوب البحر المتوسط وهما يحرقان بيتاً في منتصفه، وحرّرت مايك من أغلب الكتل الصمّاء التي كانت تضغط صدره، شعر بارتياح يشبه ارتياحه بعد أن شارك في مشاجرة عمّال مدينة الملاهي في أول يوم له في بيروت.

ضحكا كثيراً في الصباح وهما يريان كوخ العطلات الفخم وقد صار خراباً:

أرسل لهم ثمن الكوخ، ولا تناقشهم مهما طلبوا، ستكون أمتع سلعة دفعت ثمنها في حياتي.

**

نام بعمق حتى المساء، وحين استيقظ كان بيان ينتظره لاصطحابه إلى البيت. في الطريق حدّثه قليلاً عن المرأة التي قرّر الزواج بها. أخبره أنهما يعيشان معاً منذ بضعة أشهر، وأنها كاتبة فلسطينية يعرفها منذ زمن بعيد، منذ كان يلتقيها في مكتب الإعلام الفلسطيني في نيقوسيا، تزوجت من سياسي يعمل في مكتب منظمة التحرير في ليبيا، وأنجبت ولداً واحداً يعيش ويدرس الآن في إيطاليا، وعادت العام الماضي إلى قبرص بعد أن طلقها زوجها وتزوج شابةً بعمر ابنهما. اعترف أنه أحبها منذ كانا شابين، لكنّه لم يجرؤ على إخبارها بذلك، فقد كانت نموذجاً للفتاة المضيئة الصاخبة الواثقة بنفسها، ذات الخقين القماشيين التي استيقظ الجميع ذات صباح على خبر زواجها من أزعز المكتب الذي لا يصلح سوى لتوجيه ضربات السكاكين، والرفس بالأحذية العسكرية المقوّاة بالحديد.

عادت بعد ربع قرن لتمنح بيان بعضاً من عمره المهدور، ولتعطيه نوعاً من السعادة التي فوجئ أن أوائها لم يفت بعد، تحدّث مع مايك كصديقين شابين يتبادلان اعترافاتهما الغرامية. وصلا إلى البيت، فوجدا سلمى وقد استعدّت لاستقبال الضيف الخاص بأفضل ما يمكن أن يخطر لامرأة فيها من الذكورة ما يكفي لتستعرض كل ما لديها من مهارات وأفكار ومفاتيح. وفيها من الأنوثة ما يكفي لترتدي ثوباً تلمحياً مطرزاً بخطوط طولية بنيّة تحت الخصر، وبمربعات حمراء ووردية فوق الخصر، وتفصل بينهما بحزام من الفضة يُظهر فشل السنين في الإساءة لخصرها، ويتعمّد نفي محاولتها المعاكسة حين تركت بعض الخصل البيضاء في شعرها.

بدت كأميرة كنعانية بقامتها المديدة ورأسها المرفوع وملامحها الحادّة وبشرتها التي بلون الدراق. كان البيت أشبه بغرفة تستعد للقاء عاشقين، روائح الأعشاب المنتقاة بعناية تطغى على الهواء، شموع مضاءة في جميع الأركان، طاولة طعام عليها مقدّمات من صحن العشاء المزينة بإتقان، زجاجات من جميع المشروبات المفضّلة لمايك: ويسكي ديلمور الداكن

وكونياك ديلايمين الشاحب وفودكا أمبيريار القاسية، وبعض زجاجات النبيذ
الجنوب إفريقي لماناكفة غرور الفرنسيين.

صافحت سلمى مايك وهزّت يده لوقت طويل، وهي تخبره عن
الانطباعات التي تركها كلام بيان عنه في نفسها:

أنا متشوّقة للتعرف بك، أريد أن أكتشف هذه الندرة. ثم كزوجة محبة
شابة طبعت قبلة على خدّ بيان ونادته حبيبي.

جلس بيان وسلمى متشابكي الأيدي معظم الوقت، بدوا كأسرة عادية
تستقبل صديقاً حميماً، ضحكوا وشربوا وأكلوا ووشى مايك لسلمى بعض
أسرار بيان، وردّ بيان بوشايات أقذع، وسلمى تضحك على وشايات الاثنين.
سألت سلمى الكثير من الأسئلة التي لم يتعرّض لها مايك في حياته،
وكانت تستمع باهتمام. سألته عن طفولته، عن الحب، عن الأشخاص
الذين عبروا حياته، عن الأماكن، عن الألوان، عمّا تعني له الأشياء، وكان
لأجوبة مايك بالنسبة لها وظيفة واحدة: توليد أسئلة جديدة.

اهتمّت حقاً بما لم يهتم به أحدٌ من قبل: رجلٌ من لحم ودم اسمه
مايك الشرقي، أو أياً يكن اسمه.

لم تكثرث للأرقام كما يفعل كل البشر، لم تبحث عن صفات خجولة
مختبئة تشبهها كما نفعل جميعاً حين نهتمّ بأحد، لم تنكش برعم خير
لتسقيه وتعتني به لتجعله يشبهها أكثر كما فعلت عابدة، كانت تبحث
عن مايك، مايك كما هو.

كانت سلمى واحدة من أولئك النادرين الذين يحبّون البشر أو يكرهونهم
لما هم عليه حقاً، وليس لما في رأسها من سوابق، كانت تقيس الناس
بمساطرهم وليس بمسطرّتها، كانت امرأة بروح واسعة، واسعة لدرجة أنها
لا تستخدم مسطرّتها أبداً، حتى لتكاد تبدو وكأنها لا تمتلك واحدة.

تحدّثت عن نفسها، اعترفت أنها في شبابها كانت معجبة ببيان وكانت تنتظر أن يفاتحها بحبّه، وأنها تزوجت نكايّة به، وحين انتهى زواجها لم تفكر كثيراً باختيار العودة لقبرص، ولم يخطر لها أحدٌ سوى بيان لتبحث عنه. اعترفت أنها نامت لربع قرن في سرير واحد مع رجل لا تحبّه، اعترفت أنها مارست الجنس مع رجلين آخرين ولا تعتبر ذلك خيانة، فالخيانة «تخصّ من نحبّ، وليس من نسجّل على ذمّته»، اعترفت أنها لم تبلغ نشوتها إلا باستخدام أصابعها ومخيلتها، اعترفت أنها لم تمارس الحب سوى قبل خمسة أشهر.

اعترض بيان ضاحكاً: «نحن معاً منذ ثمانية أشهر» فأجابته ببساطة: «أجل، تلقّيت الحب لمئة يوم، قبل أن أستوعبه وأصدّق أنه حقيقي، وأصبح قادراً على مشاركته».

تحدّثت عن اهتماماتها في الحياة، تحدّثت عن شغفها بالتراث الفلسطيني، والكتاب الذي تؤلّفه عنه. علّق مايك بأن هذا إذاً سبب اختيارها لملابسها، وأبدى إعجابها بفستانها وبكل الأزياء التراثية الفلسطينية، وسأل عن الحزام الفضي: عشت فترة من حياتي في مخيم الوافدين وفي ذاكرتي أن النساء الفلسطينيات يلبسن هذا الثوب فضفاضاً، لكن أنتنّ النساء ذوات الخصر الضيّق تفعلن أي شيء لتتباهين بمنحنياته وبانزلاقه كموجة باتجاه أوراكنن، وإلا فلماذا ترتدي النساء الحزام فوق كل أنواع الملابس، من الجينز وحتى ثوب ملكات بيت لحم؟

لم تغيرّ سلمى ملامحها، ولم تشعر في السؤال شيئاً يستهدفها، بل أجابت عنه بهدوء الباحثة: السؤال خاطئ. النساء لم يرتدين الحزام فوق الملابس. القصة معاكسة، النساء ارتدين الملابس تحته. بالأصل كان الحزام، هو أول شيء ارتداه البشر على الإطلاق. كان حمل المرأة وولادتها هو المعجزة التي تستحق التقديس، وكان ما يحيط برحمها هو المقدّس الوحيد الذي يجب حمايته. الإزار كان حبلًا لتعليق الأحزاز والتمايم، أنياب

الضباغ ونثرات خشب البطم وجماجم السلاحف. الملابس أتت فيما بعد، أتت حين أصبح الحمل مألوفاً وشائعاً ومتاحاً وناجحاً لدرجة أنه صار مجرد حلبة تنافس بين الذكور.

لسبع ساعات، قدّمت سلمى لعقله نشوة لم يختبرها يوماً، وكانت اللذة تصعد إلى رأسه، ويستقرّ بعضها على طرفي عنقه إلى الأبد.

كان في بيت بيان المواجه للبحر غرفة علوية اسمها غرفة مايك، لم تستخدم ولا مرة منذ اشترى البيت قبل ثلاثة عشر عاماً، ووعده مايك، دون أن يفِي، بأن يكون ضيفه كلما زار قبرص، كانت سلمى قد وضعت على السرير ملابس نوم قطنية من تلك التي يرتديها الآباء العائدون من وظائفهم الرتيبة، ووضعت له قرب السرير نسختها من كتاب «الأمير الصغير» في حال أحب أن يقرأ قبل أن ينام.

لم يفهم قصد سلمى من اختيار كتاب أطفال، ومع ذلك فقد فتح الكتاب، وتنقل بين صفحاته عشوائياً لبضع دقائق، قرأ مقطعاً صغيراً يتحدث عن حبّ الكبار للأرقام: «إذا ما أخبرتهم عن صديقك الجديد لن يسألوك عن صوته ولا مهارته في تلك اللعبة، ولا إذا ما كان يحب جمع الفراشات، سيسألونك عن عمره ووزنه، وعدد إخوته وكم يملك أبوه، وسيظنون أنهم بذلك عرفوه»، وهو ما دفعه ليكمل تصفح مقاطع أخرى دون ترتيب، وحين قرأ «الزهرة ضعيفة وساذجة، تحاول طمأنة نفسها بأقصى ما تستطيع، فإذا تسلّحت بالأشواك حسبت أنها صارت قادرة على بث الرعب في القلوب» قرّر أن يطلب الكتاب من سلمى في الصباح، كان يريد هذه النسخة بالذات، لأن العبارات التي وضعت تحتها خطوط بقلم رصاص، جميعها تستحق التوقف والقراءة مرتين.

كانت تلك الليلة آخر طليقة يحتاجها مايك في جسده المثخن الأسئلة والمراجعات. شعر بلذّة الحياة العادية، مسّه شعور العائلة، دغدغه طيف

المرأة المحببة، استمتع بطعام البيوت، ارتاح للنوم في سرير بيت أسرة. نبهته سلمى أن في هذا العالم بشراً من نوع آخر، بشراً بوضوح الماء وسكينة الصفصاف، خطر له أن بيان وسلمى الآن في الفراش معاً، ابتسم لفكرة أنهما أول رجل وامرأة يمارسان الجنس في غرفة مجاورة دون أن يأخذ المال من أحدهما.

توضّح لديه شعور غريب. لقد خلّق في نفسه شعور بالتحريم تجاه هذه المرأة المثيرة للإعجاب، شعر نحوها كما يشعر رجل معافى اتجاه زوجة أخيه. تذكر هديل النهرين، وتذكر أن ما أزعجه لم يكن وخز التحريم، بل استياؤه من نجاح فضة الجاروش في تنفيذ خطتها بسهولة، لم يؤلمه أبداً أنها أخته، فهو لا يعرف هذا النوع من المشاعر، لدرجة أنه ما زال يتذكر تفاصيل جسدها لأنها أعجبتة لا لغرابية التجربة، لم يصبه حتى ذلك الشعور القبيح المؤقت الذي يصيبك بعد أن تدسّ يدك في كيس مغلق وتخرجها فتجدها مليئة بالزبدة الذائبة.

لكن، ربما بسبب فقد عايذة ورفقة، ربما بسبب الطبيعة الخاصة لسلمى، والمزيج المتقن الذي يشكّلها، وعلاقة الصداقة الخاصة التي نشأت بينه وبين بيان، أو ربما لسبب آخر. لكنّه تسلّل في النوم فيما يتخيّل نفسه شخصاً آخر:

تخيّل سلمى أخته الكبرى وبيان صهره الساتر. غفا وكأنما هو رجلٌ مطليٌّ بالرضا يصلُّ أرحامه.

منظار على جبل غسيل أسود

أول شيء فعله بعد وصوله إلى بيروت، أنه اتصل بإسماعيل وطلب منه إرسال هيام وعمار ورائد لأنه يريد الاجتماع بهم غداً. فاجأه إسماعيل أنهم لا يستطيعون السفر بهذه السهولة، فهم موظفون في الدولة ويحتاجون إلى عدة أيام للحصول على موافقات سفر، كان يريدهم بأسرع وقت، لذلك كلّف إسماعيل أن يجد حلاً فورياً ولو اضطر الأمر لتدخّل رئيس الوزراء.

حلّ إسماعيل الأمر بطريقة أبسط وأسهل بكثير، ودفع ثلاثة آلاف دولار لتعبر السيارة التي تنقلهم قوس الحدود دون أختام، ولتبدأ صدمتهم فور وصولهم إلى الفندق، ثم انتقلهم إلى مكتب جل الديب. بعض المشاهد التي رأوها في المكانين، أحاديثهم الفضولية القصيرة مع مرافقيهم، جعلتهم يبدوون باكتشاف حجم المعلم الذي يعملون معه، ويعرفون أن الأستاذ إسماعيل، رجل الأعمال الكبير، مجرد موظف في هذه المكنة الضخمة، كان مايك بانتظارهم في مكتبه، قضى معهم بعضاً من فترة بعد الظهر، وكلّف العلاقات العامة أن يعدّوا لهم برنامجاً سياحياً ليومين علّهم ينسون أشهر القلق التي عاشوها في دمشق.

اصطحبهم المرافقون في اليوم الثالث إلى فاريا، حيث لحق بهم مايك إلى المنتجع الذي يحيط به الثلج معظم أشهر السنة، كانت طاولة الاجتماعات مواجهة تماماً لجدار زجاجي يشكّل زاوية قائمة ويمتد على عشرة أمتار من كلّ جهة، وضعهم وسط ثمانين متراً مربعاً من البياض، دون أن يعرفوا ما إن كان يريد إبهارهم، أو الترفيه عنهم، أو الاحتفاء بهم.

أخبرهم أنه يرغب بقضاء نصف اليوم معهم في هذا المكان الهادئ، وبدأ حديثه من حيث توقف قبل أربعة أشهر: إذاً كما كنت أقول، أريد أن أكون جزءاً من مستقبل البلد وأحتاج إلى من يخبرني كيف، وأتوقع أنكم خلال هذا الوقت قد درستُم الفكرة وأصبح لديكم اقتراحات.

بدأ رائد بإخباره بما فعل وما فكّر، ومن استشار، فقاطعه مايك: إذاً عمل كل منكم منفرداً؟ ولم تستطيعوا أن تتناقشوا وتعملوا كفريق، ولا حتى أن تتبادلوا الأفكار؟ على كل هذا مؤشّر جيد بالنسبة لي.

شعروا بالخجل، فسألته هيام: ما الجيد فيه؟ فقال: هذا مؤشّر أنكم سوريون حقيقيون، وهذا سيكون مفيداً للمهمة التي أريدها منكم، إنها تحتاج إلى هذه الدرجة من الانتماء المخلص.

صمت الثلاثة وأنقذهم وصول فتيات الخدمة يحملن معدّات المشروبات الساخنة، بدأ عمّار بالكلام موضحاً للمعلم أنهم حاولوا اللقاء مرتين لينجزوا المهمة بشكل جماعي، لكنهم وجدوا كلاً منهم وبحكم الاختصاص والاهتمام قادراً على تغطية جانب معين، وسيقدمون له نتائجهم وهو سيقرّر الأفضل.

ابتسم مايك: هذه هي تماماً، يحاول كل منا أن يهمس للأمين العام أو لقائد الفوج ويقنعه بما يريد، ثم تنتظرون قراراً من القيادة لتنفذه. لا يهمّ، المهم إلى ماذا توصلتم؟

فردّت هيام أوراقها الملونة والمنسّقة، وبدأت بمونولوج شاعري عن الهوية الوطنية والتماسك الاجتماعي ومنظومة القيم وألوية التعليم، وضرورة الاستثمار في بناء الانسان المثقف الواعي، ثم ضربت بعض الأمثلة عن خطر الإرهابيين الذين ظهروا بسبب «قلّة التربية» و«بظّ الكثير من الأولاد» و«جهل المجتمع».

لم يقاطعها ضجرٌ مايك، وتركها تنهي عرضها المكتوب كمحاضرة

جامعية، تتضمن اقتراحات لتأسيس مدارس وجامعات، ومراكز لإعادة تأهيل المجتمع وعيادات نفسية وإنتاج أفلام تثقيفية، وهو البند الذي استفاضت فيه كثيراً وحضرت اقتراحاً مبدئياً بتسعة وعشرين موضوعاً ضرورياً مثل تحديد النسل ومحاربة التحرش وزواج القاصرات والمباعدة بين الحمل، وهذا النوع من الموضوعات التي ينشرها صندوق الأمم المتحدة للسكان على منسدة «مَنَح - grant» في موقعه الإلكتروني.

لم يعلق مايك بكلمة واحدة على عرض هيام الذي استمر لنصف ساعة، واكتفى بنقل نظره إلى رائد الذي كان قد حضر هو الآخر قائمة بمجموعة من المشاريع الصناعية والزراعية والسياحية الضرورية، وأرفق بكل مشروع عدد فرص العمل التي يؤمنها، وموقعه ضمن "الخارطة الاستثمارية جغرافياً وقطاعياً"، والأسباب التي ترفع قدرته التنافسية، دعم بعض اقتراحاته بأرقام مُفجِمة، مثل معدل إنتاج الحمضيات في الساحل الذي تجاوز الكذا طن في العام كذا، منها كذا ألف طن من البرتقال العصري، وارتفاع تلّ النبي صالح عن سطح البحر، وعدد تنكات الزيت التي تنتجها قرية مَعْرَناصيف، ووسطي إنتاج الهكتار من القطن طويل التيلة، ونسبة الحلاوة في الشوندر الأبيض في سهل الغاب، وفارق استهلاك المياه بين العروتين الصيفية والشتوية من البطاطا، وأشياء من هذا القبيل.

خلال مداخلة رائد المكتوبة بقلم بايلوت أزرق على ورق أسمر بطريقة فوضوية، كانت الفتيات قد بدأت بتقديم صحون متواليه من المقبلات البحرية الغريبة على ثلاثة قادمين من سورية لم يهنؤوا بطعام أو بشيء منذ تسعة أشهر، لذا لم يشعر مايك بضرورة التعليق، وبدأ عمّار مداخلته دون ورق بعد سؤال بسيط: انتهيت زميل رائد؟ ثم بدأ بعرض رؤيته للمهمّة برمتها، وقال إن ما فهمه من اجتماع دمشق، أن المطلوب أعمق بكثير من تقديم اقتراحات لمشاريع واستثمارات، وأن الأمر ليس "رجل يملك مالاً ويطلب منّا أن نخبره كيف ينفقه"، أبدى احترامه لاقتراحات "الزملاء" لكنّ

ما جاء به مبدئياً بعض الأسماء التي يقترحها لتكون نواة فريق استشاري، تحدّث قليلاً عن تلك البلاد المهملة التي لم يساعدها أحد، أو هي من لم يسمح لأحد أن يساعدها على مواجهة نفسها وتشريح أمراضها التي أوصلت الكتل الورمية فيها إلى القلب.

تحدّث عن المستقبل المختلف، وعن أهمية ما طلبه "المعلم" ليس لعمله ومشاريعه فقط، بل لكلّ شيء، واقترح، إضافةً إلى مجموعة المستشارين، متابعة المنظّمات الدولية لأنها بالتأكيد: ستبدأ بإعداد الكثير من الدراسات عن كل تفصيل في البلاد المضطربة، ولا بأس من دعمها مالياً مقابل الحصول على نتائج عملها غير المخصصة للعموم.

بعد أن استمع مايك بشكل كافٍ، عرف أن هذه المجموعة وكما توقع لا تصلح بنفسها لما يريد، لكنّها تستطيع تماماً وبدقّة شديدة اختيار المجموعة الأكبر التي تصلح لذلك، تكلم بنبرة هادئة مخاطباً كل واحد على حدة: هيام، سبيني جامعات ومدارس بالتأكيد، عندما تكون استثمارات جيدة، لكننا لسنا الحكومة لنثقّف المجتمع.

رائد، بعض المشاريع التي اقترحتها جيدة، ولكن ليس من اختصاصنا أن ننقذ مزارعي الحمضيات، ونريد أن نعلم ما إذا كان الوقت مناسباً لها الآن، نريد أن نتوقع ما سيجري بالمستقبل، تعلّمت بالتجربة أن الفشل يحصل لثلاثة أسباب فقط: فكرة لم يحن وقتها، ومعلومات ناقصة، وخيانة من موثوق.

عمّار اقترحك عن الفريق الاستشاري هو ما سنبدأ به أولاً، وأريد أن أستمع منكم لاقتراحات بالأشخاص المناسبين ليكونوا في هذا الفريق.

بدأ الثلاثة بطرح أسماء عشوائية لم يسمّعها في حياته. توقّف عند أحد الأسماء وسأل: من هو الشيخ البقيعي؟

أجاب عمّار صاحب الاقتراح باستفاضة: الشيخ الدكتور محمد محمد

عبد الأحد عبد الواحد البقيعي، أستاذ في كلية الشريعة ومدير مركز حراء للدراسات والبحوث الإسلامية، ومؤلف أكثر من عشرين كتاباً، وأهم دعاة إخاء الأديان. علامة في الفقه والحديث والقراءات، ولكنه غير متعصب، يمكنني اختصاره بجملة واحدة «رجل مجتهد يعرف كل شيء عن الماضي، لكنه يسكن في المستقبل».

شعر مايك أنه اقترب كثيراً مما يريد: هذا النوع الذي نحتاج، أريد مثل الشيخ البقيعي، أريد بقيقاً للاقتصاد، وبيقياً للإعلام، وبيقياً للسياسة، وبقائع للاجتماع، وأريد ببيعة مسيحية.

تدخلت هيام وقد بدأت تفهم: أظن عميدتنا الدكتور عبله ستكون مناسبة.

زّم مايك عينيه، ونظر إلى هيام مستفسراً: دكتورة عبله؟ هل تقصدين عبله نور الدين؟

سرت هيام وصححت الاسم: نعم، نعم، عبله نار الدين هل تعرفها؟

دارت ذاكرة مايك لثلاثين عاماً، حين كان طالباً في السنة الأولى في جامعة دمشق، كانت عبله تلك الفتاة الصاخبة الواثقة، كل ما يتذكره عنها ضحكتها المجلجلة التي تكاد تكون هيسيرية، وعلاماتها العالية في جميع الامتحانات النظرية والعملية، والحذاء الرياضي الأبيض بخط أحمر على الطرف، لم يتذكر جيداً ما إن كانت فتاة جميلة أم لا، فكل الفتيات بالنسبة لشاب في العشرين كنّ جميلات، صحيح أنه لم يتبادل معها جملة واحدة، ولم يقترب منها لأقل من خمسة أمتار، لكن ثقة عبله بنفسها وخبثها القماشيين وتفوقها الأكاديمي الواضح، كانت علامات تبقيها عالقة بالذاكرة للأبد كفتاة لا تنسى.

أعرفها قليلاً، من تقترحون أيضاً؟

ذكر رائد بضعة أسماء من خبراء الاقتصاد، ألصق كل اسم بصفة تقلل من شأنها فيما هو يظنها عظيمة «مدير عام سابق للمصرف الزراعي، وكيل إداري لكلية الاقتصاد، معاون وزير، عضو مجلس إدارة في المؤسسة العامة للصناعات النسيجية، مستشار هيئة دعم المشروعات الصغيرة والمتوسطة..».

اعترض ترشيحات رائد بطريقة غير مباشرة: أريد أن ترشحوا لي أذكي عشرة أشخاص تعرفونهم، أريد أن تختاروا من ستختارهم هذه البلاد فيما لو رغبت يوماً أن تفهم نفسها.

سألته هيام: «ألا يجب ان نستشيرهم قبل أن نطرح أسماءهم؟ فربما لم يقبلوا العمل معنا».

ابتسم مايك وقال لها: تعلّمت من الحياة أن أغلب الناس يمكن أن يفعلوا أي شيء إذا ما دفعت لهم المال الكافي، الأذكىء من المثقفين قد يكونون استثناءً، لكنّه استثناء يجعل التعامل معهم أسهل، هناك شيء يغري هؤلاء أكثر من المال. وإن كان لا بأس بالبعض منه. أن تسألهم: ما رأيك؟

كان مايك دقيقاً في تكثيف ما علّمته إياه التجارب، فعادةً ما يخفي الممثلون معرفةً في دواخلهم بعضاً من شاعر، وأياً كان نوع معرفتهم، سواءً كانت في الميكانيك أو السياسة أو الدين أو الرياضيات أو الفلسفة أو التنمية، فلا بد أن يكون فيهم شيء ما من الشعر. والشاعر لا يعدّ نفسه مسؤولاً عن أهل بلده ولا عن النوع البشري، بل عن الحيوانات والنباتات والمناخ والزمن كذلك. وحين يسألهم تلميذ أو طاغية أو قواد عن رأيهم بأي شيء، فسينتصب حسّ المسؤولية ذاك، ويدفعهم بحماس للانخراط في ممارسة مهمتهم بجعل العالم مكاناً أفضل.

**

عند الغداء صارت لديهم قائمة من خمسين أو ستين اسماً، تحتاج إلى

غريلة وحذف، وكانوا قد بدؤوا بشتت ترشيحات بعضهم، أعطاهم مايك وقتاً حتى اليوم التالي: لقد برمجت الفتيات لكم جولة لتلعبوا بالثلج في فترة بعد الظهر، سأرى أين رتبوا لكم العشاء وربما أنضم إليكم، وبكل الأحوال يمكنكم في الصباح أن تجتمعوا معاً، يوجد قاعة عمل مخصصة لكم في أبولو، تشاجروا بقدر ما تشاؤون، أريد بعد الظهر أن يكون لدي قائمة أسماء توافقون أتم الثلاثة عليها، هذا معياري الوحيد: أقنعوا بعضكم!

طلب منهم أن يمرحوا ويستمتعوا بوقتهم، وغادر إلى مكتب جلّ الديب حيث كان عليه مقابلة المحامي منصور الذي يريده لشأن عاجل.

صحب منصور اثنان من المحامين المسؤولين عن العقود الخارجية والمحامية الشابة المسؤولة عن العمل مع أوروبا الشرقية، أول الأخبار السيئة قالها منصور بنفسه: «يبدو أنّ هناك تحقيقاً سرياً يجري الآن حول أعمالنا في الاتحاد الأوربي» وهناك بعض المؤشرات التي بدأت بالظهور، ستخبرك الأستاذة روي بما جرى اليوم.

أخبرته روي أن السلطات البلغارية قامت بإغلاق كازينو القمار الذي يملكونه في صوفيا، وصلات خاسكوي وبورغاس ووضعت عليها حراسة مشددة، وجمّدت الحسابات المصرفية للشركة هناك.

أضاف أحد المحامين الآخرين: كل ما استطعنا معرفته أن القرار مزدوج، من لجنة التهرّب الضريبي، ومن هيئة غسيل الأموال، والحجز تم لصالح اللجنة الوطنية لألعاب القمار، والنص يقول «حتى اكمال التحقيقات».

استفسر مايك عما جعلهم يعتقدون أن التحقيق في الاتحاد الأوربي كله، أجابه المحامي الآخر بأن لجنة تفتيش مالي زارت اليوم فندق بنات يعقوب في ليماسول، لم تفعل ولم تطلب شيئاً سوى أنها تفقدت المكان. شركة المحاسبة التي تعاقبنا معها في اسكتلندا جاءهم اتصال من وزارة الخزانة وطلبوا موعداً لزيارتهم مطلع الأسبوع.

أضاف منصور: أجرينا عدة اتصالات، والتأكيد جاءنا من مدير بنك
بزيورخ، قال: «يبدو أن هناك شيئاً ما حول شركاتكم، ولا أستطيع أن أقول
أكثر من ذلك».

ماذا تقترحون؟

. صباحاً سيذهب اثنان منّا إلى بلغاريا وواحد إلى زيورخ وواحد إلى
قبرص، واطلب من جماعتك أن يتصلوا بكلّ مكتب أو شريك لنا في
أوربا ويستفسروا منهم عن أي شيء غريب لاحظوه، يجب أن تتبّع كلّ
الخيوط مبكراً.

لم يبدُ أيّ قلقٍ على مايك، وكأنه كان يريد هذه اللحظة: إذا اضطررنا
لعملية نقل سريعة للأموال، أو ما نستطيع منها، إلى أين تقترح في مثل
هذه الظروف؟

. الصين طبعاً، أو الصين وتركيا معاً، ورأيي أن تبدأ مباشرة، بقيت ثلاث
ساعات عمل في سويسرا وساعتين في رومانيا، يمكن فيها إنجاز الكثير.
في بلغاريا تمّ التحقُّظ على الحسابات لا نستطيع أن نفعل شيئاً الآن، في
قبرص لا نعرف بعد ما إن تمّ اتخاذ إجراء حجز.

. في قبرص لا توجد مشكلة تجميد حسابات، معظم الأموال نحتفظ
بها نقداً في الفندق، سأطلب من بيان نقلها إلى بيته.

. لا. بيت بيان خطر فهو المدير هناك، وقد يتعرض لتفتيش، اطلب
أن ينقلها إلى مكان آخر!

انشغل مايك فترة بعد الظهر في إجراء اتصالات وتوزيع المهام على
فريق العمل، لنقل ما يمكن إنقاذه من أموال موجودة في خمس دول أوروبية.
وفي المساء كان عليه أن يهتمّ بشأن تافه قليلاً، لكن لا أحد من موظفيه
استطاع أن يأخذ قراراً بما سمع، فاضطروا للجوء إليه مباشرة: رائد فتح

باب غرفة هيام في الفندق وهي تستحم، ويبدو أنه حاول التحرش بها.

ضحك مايك طويلاً، وطلب من ماغو أن يدعو رائد وحيداً إلى إكمال السهرة في الباطر ودقق مجموعة من الفتيات المثيرات في حضنه ليختار منهن من يريد، وطلب من رنده أن تصطحب هيام في رحلة تسوق نسائية إلى ABC فرع ضبيّة وتشتري لها جبلاً من الملابس والحقائب والأحذية كهدية من المعلم.

* *

ظهيرة اليوم التالي كان قد اطمأن قليلاً بعد أن بدأت عملية النقل من الحسابات الأوربية، ونقل الأموال والسبائك الذهبية الموجودة في قبرص إلى بيته في اليونان بقارب لخفر السواحل اليوناني. أخبره المحامون أن الإجراءات لم تبلغ حداً خطراً بعد، وأن أفضل ما حصل هو تسرع السلطات البلغارية بتنفيذ الحجز وغالباً سيتم حصر الخسائر في بلغاريا.

ذهب إلى جونه لتناول الغداء مع مستشاريه المتشاجرين وكأن شيئاً لم يكن، كان التوتر بينهم أقل من المتوقع، فقد أثمرت الهديتان لرائد وهيام بأن اعتذر الأول في الصباح وبرّر بأنه تعرض لفهم خاطئ، وقبلت الثانية الاعتذار وادّعت أنها تصدّق حسن النية.

كاد الثلاثة ينجزون مهمتهم، وقد ساعدهم طيش رائد في الانتهاء بسرعة والتقليل من الأخذ والرد، وضعوا قائمة بأربعة عشر اسماً وبجانب كل اسم وضعوا تعريفاً مكثفاً به. الشيخ البقيعي، والدكتورة عبلة كانا في رأس القائمة، لأنهما حظيا بموافقة المعلم مسبقاً. ومعهما خالد الجلاد المقيم بين الأردن والعراق مديراً لمشاريع الأمم المتحدة، وسام طرابلسي مدير الاستشراف في هيئة تخطيط الدولة، وفهد كبيسي أستاذ تخطيط المدن في كلية العمارة، جورج الدهنة مدير النمذجة في المكتب الإقليمي للبنك الدولي، والمحامية جلنار الجزائري ليس بصفقتها المهنية

بل بصفقتها الجينية كحفيدة للأمير عبد القادر، وهشام الحلبي القارئ في هيئة الكتاب، والروائي فايز عاج الشام، والدكتور هادي أميني مدرّس الهندسة الاجتماعية المُعار إلى جامعة السلطان قابوس، روشا أباطة مديرة مشاريع الاتحاد الأوربي في سورية، والأب مروان يازجي أستاذ مادة الفلسفة في مركز التنشئة اللاهوتية، والدكتور جمعة خليفان عميد كلية الإدارة، وبدر حمد الصحفي الأزعر.

كانت الأسماء حصيلة إجماع الثلاثة، وأكبر من العدد المطلوب لأنهم أرادوا أن يتركوا القرار للمعلم، الذي أعجبه تعريف المرشحين جميعاً، وأيضاً «ليكون لنا بدائل في حال لم يحضر البعض» كما قالت هيام، واقترح عمّار تفادي هذا الاحتمال باللجوء إلى مظلة ما تغطي الاجتماع الأول، مثل جامعة أو منظمة دولية أو مركز دراسات، وأن يكون الاجتماع الأول في بيروت. وافق مايك على الاقتراح: سيتولى فريقنا هنا تأسيس أو شراء مركز أبحاث وستشارك مع منظمة مناسبة، ابدؤوا بتحضير الجزء المتعلق بكم. وطلب من رندا أن تنضمّ إلى الاجتماع، لتعرف ما عليها أن تفعل لأنها من سيشرف على فريق التنظيم.

خلال أيام كانت مؤسسة «together. معاً» غير الربحية والمختصة بالحوارات المجتمعية في حوض البحر الأبيض المتوسط، وبالتعاون مع لجنة الأمم المتحدة لتنمية المجتمعات الهشة، وبدعم وتمويل من شركة الشرق الجديد للاستثمار، توجّه دعوات أولية لتسع عشرة شخصية سورية من اختصاصات متعددة لحضور ورشة عمل وجلسة عصف ذهني بعنوان: "محاولة لاستشراف مستقبل سورية وسبل إيقاف النزاع".

وتضمّنت الدعوة بعض المعلومات اللوجستية والإجرائية من قبيل: "هذه الورشة غير علنية ولن يصدر عنها أي بيان ولن يسمح للإعلام بتغطيتها، ونأمل منكم المحافظة على خصوصية أسماء المشاركين وما

يدلون به من آراء ومعلومات" أو مثل: "ستغطي المؤسسة تكاليف إقامتكم في الفندق ببيروت، لكنّها لن تكون مسؤولة عن تكاليف الانتقال من وإلى الورشة وخلال أيامها والاتصالات والمصاريف النثرية، وتسدد بدلاً عن ذلك مبلغ 1250 دولار أمريكي للمشاركين عن كل يوم من أيام الورشة".

وتضمنت كذلك ملاحظة أخيرة: "إذا رغب المشاركون بتحضير ورقة عمل وتقديمها إلى الاجتماع، فيجب إبلاغ اللجنة التنظيمية بالعنوان المقترح لها قبل ثلاثة أسابيع من موعد الورشة، وإرسالها في ملف وورد قبل 48 ساعة على الأقل، وفي حال الموافقة على العنوان تصرف المؤسسة للمشارك الأجر المعتمد لديها لقاء إعداد ورقة خلفية".

وافق المدعوون التسعة عشر على حضور الاجتماع المقرر في العشرين من شباط، وأرسل أربعة عشر منهم عناوين أوراق خلفية يرغبون بإعدادها مسبقاً ضمن اختصاصاتهم. الخمسة الذين لن يرسلوا أبحاثاً هم رائد وهيام وعمّار المدعوون بصفة تنظيمية، والباحث السوري القادم من قبرص بيان ملحم، ورجل الأعمال مايك الشرقي.

أيها الممثلون معرفة ما رأيكم؟

خلال تلك الأسابيع الستة تسابق مايك مع الزمن لنقل أكثر ما يستطيع من أعماله وأمواله من أماكن خطيرة إلى أماكن أقل خطورة، وتصفية ما ليس قابلاً للنقل. نجح خلال هذه الفترة بتحويل أكثر من نصف الأموال الموجودة في البنوك، ونجح في التخلص من بضعة عقارات مخصصة لكازينوهات وصالات قمار في ثلاث دول، وإلغاء عقود إيجار لعقارين من الكازينوهات المحجوزة احتياطياً في بلغاريا.

الأمر الجيد أن ثروة مايك الحقيقية، أو الكتلة الوازنة منها ليست موجودة ضمن النظام المصرفي، ولا تستطيع ذلك أساساً، والأمر السيئ أن التحقيق بدأ يأخذ شكل تعاون دولي، وقد وصل إلى الإمارات على ما يبدو، وشرطة دبي طلبت طلعت للتحقيق، وسألته بعض الأسئلة عن أعمال ومشاريع الشركات التي يديرها، وطلبوا منه عدم مغادرة الدولة.

الخبراء وصلوا إلى بيروت في التاسع عشر من شباط محمولين على شعورهم العالي بالمسؤولية الوطنية، أتوا ليضعوا حصيلة علمهم وخبرتهم في طريق «إنقاذ بلدهم» من الانزلاق إلى مصير مرعب يمكن سماع صوت خطواته الهادرة بمجرد إلصاق الأذن بالأرض. كانوا سعيدين بأن في هذا العالم من يقدر قيمة العقل في زمن يتصاعد فيه صوت الجنون، أتوا مزوّدين بتفاؤل وإيمان لم يعد يملكهما أحد، ولا يملك أي منهما سبباً موضوعياً للوجود.

براعة ودقة التنظيم عزّرتا لديهم كل أسباب الحماس والتفاؤل والرضا.

الفتيات العشرون المكلفات بمرافقة المشاركين كل الوقت، والاستجابة لاحتياجاتهم، ارتدين ملابس شبه موحدة من جاكيتات بحواف مدوّرة وتنانير قصيرة بلون البنفسج الجاف، وقمصان بيضاء وكعوب عالية وشعر أسود منسدل على الكتفين وابتسامة دائمة، يتحركن كالنحلات، يتفقّدن أدق التفاصيل، يقدمن عروضاً على مدار الوقت للضيوف: قهوة؟ نبيذ؟ شاحن؟ أطبع لك شيئاً؟ هل تفضّل خط ألفا أم خط تاتش؟

الحماس والتحضير الجيد الذي جاء به الخبراء جعلهم يبدؤون أعمال مؤتمهم فور اجتماع أيّ ثلاثة منهم في بهو الفندق، رغم أن جدول أعمال اليوم كان يتضمن بنداً واحداً: عشاء تعارف في مطعم بالجبل، المغادرة بحافلة جماعية في تمام الثامنة.

بدأ الحديث على طاولة العشاء ببعض التعابير المفتونة بعدوبة الهواء وجمال المكان، واستئذان الشيخ البقيعي برغبة البعض في تناول كأس من النبيذ، لم يعلّق الشيخ واكتفى بظّل ابتسامة وهرة كتف تحذف تلك المجالسة من سجلّ سيئاته. ثم انخرط الجميع بتحليلات معمّقة ومتناقضة لجذور الصراع، وصلت إلى حدّ مناقشة الأثر البيئي، والانحباس المطري، وموجات الهجرة الداخلية.

الدكتور هادي أميني صاحب نظرية الأثر البيئي، قطع مداخلته فيما يتحدّث عن تأثير الجفاف في حوض الخابور، ليطلب من فتاة الخدمة أن تزيل قطع الثلج من الكأس الذي تسكبه له، وشرح للبقية أن هذا الويسكي يصنع منذ 280 سنة بمياه نبع آلت ماولن، ويذكر الجميع بمشهد من فيلم «قلب شجاع» حين يغسل ميل جيبسون الدماء بمياه هذا النبع. لذلك لا تجوز الإساءة إليه بمياه من مكان آخر ولو أخذت شكل مكعبات صلبة. ثم تابع حديثه عن العطش وعن هجرة عشرات آلاف العائلات إلى ريف دمشق بحثاً عن المياه وعن فرص العمل، وضرب بعض الأمثلة عن نوعية الجرائم التي تحدث في مخيم أوتايا قرب دوما، وخصوصاً السرقات

الصغيرة والتحرّش والاعتصاب، وفوق كل ذلك بدا وهو يعبّ من كأس
الويسكي السنغل مالت متعاطفاً مع أولئك العطاش.

شجار الخبراء بقي مهذباً، اختلفوا على بعض المفردات والمفاهيم،
لكنهم لم يتجاوزوا حدود اللياقة بسبب الجو الأنيق الذي فرض إيقاعه
عليهم، اختلفوا قليلاً على استخدام كلمات (ثورة، أزمة، حراك، مؤامرة،
حرب..) وأكثر قليلاً على كلمات (نظام، دولة، سورية). أعلى كل منهم
من شأن أحد الأسباب التي يرون أنها أدّت إلى النزاع، تأرجحت نظرياتهم
بين جمر الطائفية المختبئ تحت الرماد، والمؤشرات الاقتصادية، ومروا
بنوعية التعليم، الخدمات الصحية، أجهزة المخابرات، تهميش الأطراف،
توريث الحكم الجمهوري، العلاقات الاقتصادية مع تركيا، مسلسلات البيئة
الشامية، ارتفاع معدلات البطالة.

تناولوا عشاءً غريباً يمتزج فيه المطبخان الحلبي والمكسيكي مع
لمسة فرنسية في نهايته، وأنجزوا خلاله نصف ما جاؤوا لأجله. فاتفقوا
على المصطلحات. وحضّروا الكلمات للاستخدام غداً بأن عقّدوا على
معانيها. وبدؤوا في الصباح بعرض تنبؤاتهم للمسار المتوقع للأحداث،
اختلفوا على الحجم الحقيقي للتنظيمات الإسلامية. ومن دفع الآخر لحمل
السلاح أولاً، ومن أطلق أول رصاصة، وإذا ما كان هناك شيء حقيقي اسمه
جبهة النصر، أم أنها كذبة استخباراتية إعلامية، اختلفوا حول ما إن كان من
قتلوا في ساحة الساعة الجديدة بحمص شخصان أو ثلاثة آلاف شخص،
قلّوا من خطر تأثير الحدث على الاقتصاد، منتبهين إلى أن الليرة حافظت
على قيمتها تقريباً رغم مرور عام تقريباً.

حين جاء موعد استراحة الغداء، كان الحوار قد بدأ يصبح منظماً أكثر
بإدارة ذكية من كريم جبيلي، المدير اللبناني لمؤسسة «together»،
وتدخلات طفيفة من هيام مدوّنة الجلسة ومقرّرها عمار ورائد.

في جلسة بعد الظهر حول كيفية تحسين المجتمع السوري من التشطّي، تحدّث بيان مطولاً عن ضرورة المصالحة التاريخية والتي تحتاج إلى مكاشفة ومصارحة ونكء الدامل المتقيّحة، وتحدّث بدر حمد حول تحييد أجهزة المخابرات عن المجتمع كإجراء وحيد يكفي لحل معظم المشاكل، واستشهد بجملة لتوماس جيفرسون نسبها لخليل منصور الذي يبدو أنه صديقه الذي كتبها على الفيسبوك: "المخابرات أذن الأمة المتعافية، وذراع الأمة المريضة، وجسد الأمة المحتضرة".

وفي نهاية مداخلة روشا أباطة عن الاقتصاد كقاطرة وحيدة يمكن أن تجر وراءها باقي بُنى المجتمع نحو الاستقرار، ختم مُيسّر الجلسة أعمال اليوم الأول بتحديد جدول اليوم الثاني: الاقتصاد. هذا سيكون موضوعنا الوحيد طيلة يوم الغد، يمكنكم أن تترأحوا قليلاً الآن، سنغادر في الثامنة لتناول العشاء بدعوة من رئيس مجلس إدارة الشركة الداعمة، شكراً لوقتكم وأفكاركم.

حين همّ الخبراء بالنهوض وجمع أوراقهم، خاطبتهم رنده الواقفة عند الباب: أرجو أن ترتدوا ثياباً مريحة، المكان الذي نذهب إليه يتطلب المشي لبضع دقائق فوق الصخور، واحتياطاً أحضرنا لكم أحذية رياضية موجودة في غرفكم الآن، ننصحكم باتتعاليها، ونعتذر لأننا تجسّسنا على مقاسات أقدامكم.

المغارة الواقعة في عمق الجبل لا يزيد عرض الشقّ المؤدّي إليها عن متر ونصف، وترتفع الصخور عن جانبيه لعشرات الأمتار، أخذها مايك قبل سنوات من تاجر مخدّرات كان يخبئ فيها بضاعته، استخدمها للغاية نفسها لبضعة أشهر، ثم قرّر تحويلها لملجأ خاص يزوره أحياناً للاسترخاء والابتعاد عن ضجيج العالم، في مكان لا يبعد عن بيروت أكثر من ثلاثين دقيقة بالسيارة، ويستقبل فيه الضيوف الخاصين.

بعد آخر نقطة تستطيع أن تصل إليها السيارات، يجب السير داخل الأودية الصخري الوعر لسبعمئة متر تقريباً، حتى الوصول إلى باب المغارة الخشبي الذي ينتهي بنصف دائرة من الأعلى وينفرج عن بهو متعرج مساحته مئتا متر مربع، ينبثق من جهته اليمنى سرداب يؤدي إلى مغارة أخرى أصغر قليلاً. كانت المغارة مؤتنة على نمط قصور النبلاء الروس، ومزخرفة بالخشب المذهب من أرضها الحجرية وحتى سقفها المرتفع جداً.

يسمح عرض الأودية بالسير اثنين اثنين، وكانت حصة مايك الدكتور عيلة التي تمشي متقافرة بالخف القماشي الأبيض ذي الخط الأحمر من طرفيه، أرادت إخبار أحدٍ عنه، لذلك لم تتمالك نفسها من إخبار مايك الذي لا تعرفه، وتعرف عنه أنه رئيس مجلس إدارة لأكبر شركة استثمار في المنطقة: حصل معي شيء غريب اليوم، اختارت لي الفتيات هذا الحذاء المريح، وقد أعادني سنين طويلة للوراء. في أواخر الثمانينات كنت طالبة في السنة الأولى في الجامعة اشتريت حذاءً مطابقاً له تماماً، وله خط أحمر أيضاً، وتعلقت به، وكنت أتعلله طوال الوقت، واليوم أعدن لي ذكريات أجمل سنين العمر. كدت أبكي لهذه المصادفة.

ابتسم مايك وعلق تعليقاً تكرهه النساء: حتى أنت يا دكتور عيلة؟

. حتى أنا ماذا؟ أفرح بالحذاء الجديد؟

. لا، حتى أنت تهتمين لإخفاء عمرك؟ ذلك الحذاء اشتريته في سنة 1981 وليس أواخر الثمانينات.

أسكتتها الصدمة، وبدأ عقلها يحاول أن يجد تفسيراً، حين وصلوا إلى المغارة لتتشارك ذهولها مع بقية الضيوف الذين لم يجدوا كلمات يعبرون بها عن جمال المكان وغرابته.

لم يتعب أحدٌ نفسه باستئذان الشيخ مرةً أخرى بشرب الكحول، جوابه أمس ما زال صالحاً، وطريقة توزيع الأثاث تتيح أن يتوزع الضيوف على

أشكال مختلفة من أماكن الجلوس، وتشكيلة المشروبات في البار المجاور لباب السرداب لا يمكن مقاومتها.

كان العشاء ببلوغرافيا لأنواع الطيور القابلة للأكل: البط مع شرائح البرتقال، الأوز المطبوخ مع الهليون وأوراق البصل الهندي، شرائح لحم النعام مع لبّ الخيزران، عصافير مقلية بالزبدة، سُمْن مقلي بالزيت، حباري مشوية على الحطب، حجل مشوي داخل قالب ملح، حمام مطبوخ بالفخار..

وفيما انشغل الجميع بمعرفة أنواع الطيور التي يأكلونها ومحاولة تحديد طريقة صنعها، وتركيبية السلطات الغريبة والمقبلات الشبيهة بما تأكله الطيور من خلطات حبوب وأعشاب برية نادرة، كانت عبلة مشغولة كل الوقت بمعرفة شيء ما عن هذا الرجل الغامض الذي عرف عنها تفصيلاً لا يمكن لأمرها أن تتذكره.

تبادل مايك الأحاديث الثانوية مع معظم الموجودين، محاولاً اكتشاف ما سيأخذه من كل منهم فيما بعد، أطال الجلوس مع الشيخ محمد البقعي. سأله عن حديث المئذنة البيضاء، وشاركه أسئلته وشكوكه عنها، اكتشف أن لدهما شغفاً مشتركاً بهذه المئذنة، لكن الشيخ محمد كان متحفظاً، ويجب كما لو كان يجيب سائحة هولندية، فلا السائل يوحى أنه جادٌ في سؤاله، ولا اسمه والصورة التي بدت من حياته تدلُّ أنه يمكن أن يكثر أدنى اكتشافاتٍ بأميرٍ عظيم كهذا، ولا المكان الذي يجلسان فيه يناسب هذا النوع من الحديث. فقال باختصار إن الحديث صحيح، وتحققه من العلامات الكبرى للساعة، سأله مايك عن التباس فيما قرأه وسمعه، فهل المئذنة البيضاء التي سينزل عليها عيسى عليه السلام هي المئذنة التي فوق الباب الشرقي، أم المئذنة الشرقية للجامع الأموي؟

. في صحيح الأحاديث هي المئذنة البيضاء الشرقية وليست مئذنة عيسى التي في الأموي، لأنك إن خرجت من الباب ويمّمت وجهك شرقاً

سينفتح بصرك على غوطة دمشق، وغوطة دمشق هي أرض الملحمة الكبرى وهي المحشر الصغير، لكن ما شأنك والمثذنة، لماذا تسأل هذه الأسئلة؟

. أسئلة كثيرة تشغلني منذ زمن بعيد، ولم أعر لها على إجابات، أشعر أن هذا أهمّ شأنٍ في العالم، ولكن لا أعرف لماذا، ولا أعرف عنه الكثير، ولم أعر في الكتب على ما يشفي غليلي.

ازداد اهتمام الشيخ محمّد قليلاً وبدأ يأخذ أسئلة مايك بجديّة: ولماذا تريد أن تعرف ذلك؟ هل لتروي فضولك؟
. بل لأنني مندورٌ كي أعجل في حدوثه.

رَبّت الشيخ على كتف مايك ورسم مسحة رضا على وجهه بعد ثوانٍ من الدهول: نحتاج إلى مكان غير هذا المكان، ووقت غير هذا الوقت. اهتمّ بضيوفك الآن، يوماً ما سنتحدث في ذلك كثيراً.

انتقل مايك إلى ركن آخر تجلس فيه مجموعة أخرى، رحّبوا به وتابعوا حديثهم، فقد كان خالد جلاّد يقلّل من أهمية العامل الطائفي فيما يحصل، مستشهداً بمعرفته بالمجتمع العراقي الذي تصاعدت فيه حدّة الصراع بين الطوائف وانخفضت بحسب ما كان يجري في كواليس الصراعات السياسية، واعتبر أن المشاعر الطائفية تابعة للأحداث وليست محرّكة لها. هشام الحلبي كان يدعم فكرته المعاكسة باستشهادات من تاريخ أوروبا ومن الجمل البهية لتوفلر وهربرت سبنسر وابن خلدون وإدوارد سعيد، ويلخص فرضيته بجملة واحدة: نحن لا نتحدث هنا عن إيمان، نتحدث عن الهوية الوحيدة المتاحة وسط أكوام الهويات غير المتحقّقة، ومن هنا تأتي أهميتها الجذرية.

جورج الدهنة كان موافقاً على رأي هشام، لكنّه ساقه إلى أمثلة تطبيقية راهنة وآنية: نحن غساسنة، ونحن سكان حوران منذ آلاف السنين. ودون

أن يحصل شيء يستحق الذكر، فنصف سكان قرانا هناك هجّوا منها الآن، وبعض القرى خلت بالكامل، لم يجرؤ المسيحيون على البقاء وسط بيئة إسلامية، رغم أنهم يعيشون معاً منذ مئات السنين، لكن هذه لحظة حقيقية، تنكشف فيها المشاعر العميقة، تعايشهم كان سطحياً، وذاكرتهم القريبة جعلتهم يخافون من هجّة جديدة.

الكثير من الآباء أطلقوا اسم هجيجة على بناتهم اللواتي ولدن بين عامي 1925 و1927، ففي تلك السنوات هجّ المسيحيون من جبل العرب باتجاه درعا ودمشق لأن مسيحيّتهم كانت تجعلهم مريبين، وخونة محتملين قد يتحالفون مع الفرنسيين. عمّتي كان اسمها هجيجة، أسماها جدي كذلك لأنها كما يقول ولدت في سنة الهجّة الكبرى. نعم هكذا يسميها أهلي، الثورة الكبرى كانت بالنسبة لهم هجّة كبرى، لقد ماتت عمّتي منذ زمن طويل، ماتت في الدويلعة لأنهم لم يعودوا إلى «جيبب» أبداً، أظنها ماتت في السبعينيات، ودفنت في دمشق. حتى لو لم تحصل مذبحة الآن، لكن الخوف القديم يستيقظ من تلقاء نفسه حين يسمع ضجيج السلاح، وربما سيعودون الآن لإطلاق اسم هجيجة على بناتهم.

أعادت القصة إلى ذهن مايك ذكرى صغيرة غائمة تعود إلى الليلة التي غادر فيها دمشق قبل ثمانية وعشرين عاماً، فقد قرأ في ذلك اليوم النعيات المعلّقة على عمود الباب الشرقي، ولفت نظره اسم غريب لم يفهم معناه، وقد أعاد حديث الدكتور إليه الاسم الذي مرّ لأقل من دقيقة أمام عينيه في زمن ما. فزاد من ارتباك عبلة بتعقيب صغير على رواية جورج: عمّتك ماتت في آب 1984 وليس في السبعينيات.

لتطرد ارتباكها، وكي لا تسمح لفكرة غيبية بالسيطرة عليها، رفعت عبلة صوتها مقاطعة الجميع: نريد أن يحكي لنا السيد مايك عن هذا الكهف العجيب، أظن الفضول يتتابكم جميعاً لمعرفة حكايته.

همهم الجميع بالموافقة، ولم يجد مايك ما يقول سوى أنه ما من

حكاية، وأن المغارة كانت فيما مضى إسطبلاً للخيل، وهي من أكثر الأماكن في لبنان هدوءاً وسكينة، وحتى الاتصالات لا تعمل فيها، هي لمن يحبون العزلة التامة.

علّقت روشا بأن هذا النوع من المَغر منتشر بكثرة في أبخازيا، وأغلبها أماكن روحية، تعطى مجاناً لمن يريد الانقطاع للتعبّد. وأضاف الأب مروان أن أغلب الكنائس القديمة تحتوي على مغارة مشابهة وعادةً ما تكون أصغر، لأن الإيمان المسيحي في الأزمنة الغابرة كان يمارس سرّاً، فيختار المؤمنون مغارة قصية ليختبئوا فيها، ومع الزمن كانت تبني الكنائس فوق تلك المغارة وتحافظ عليها.

صاحت عبلة ضاحكة: هذا مكان عبادة السيد مايك، وبعد جيل أو جيلين سيزيلون البار ومظاهر الترف ويبنون معبداً باسمك، ولن يعرف أحد ما كنت تفعل هنا ذات يوم.

علّق الشيخ محمّد جاداً: لا أحد سوى الله تعالى يعرف ما في السرائر، ولاكم وضع من الإيمان في قلب كلّ واحد منّا.

**

تأخرت جلسة اليوم الثاني ساعةً عن مواعدها، بسبب امتداد سهرة اليوم السابق أكثر مما كان مقرراً، ولكنها أنجزت أكثر مما كان متوقعاً. فبحكم اختصاص القسم الأكبر من الخبراء، كان لديهم من المعطيات والمؤشرات والبيانات الدقيقة، ما جعلهم حين تناقشوا في الاستثمارات الممكنة يتفقون على خارطة احتياجات واقعية خلال زمن قياسي.

كانوا جادين في التعامل مع هذا الشأن، وكانوا عقلاء لدرجة أن الرد جاء جماعياً على سؤال فايز عاج الشام المستنكر: «استثمار في الحرب؟» فردّ كل من جاؤوا من خلفية اقتصادية: «لا استثمار دون حرب».

عقب البعض على نقاشات اليوم بلفت النظر إلى المعايير الأخرى

وليس التركيز على المعيار الاقتصادي، وضرورة أخذ الجوانب الاجتماعية والثقافية والروحية والأخلاقية بعين الاعتبار عند التخطيط لأي مشروع.

في اليوم الثالث تحدّث مايك لأول مرّة بعد أن قضى اليومين السابقين مستمعاً باهتمام لكل كلمة قيلت في تلك القاعة:

معظمكم لا يعرفني، لذلك سأعرفكم بنفسي أولاً، أنا رجل أعمال لدي مشاريع وشركات ومنشآت في جميع أنحاء العالم، وأنا أعمل منذ عشرات السنين في مجالات وقطاعات متعدّدة، ولقد أسّست مؤخراً شركة اسمها الشرق الجديد سأجمع فيها الكثير من الأعمال والشركات، ولدي شركاء دوليون مهمون، والشركة متعددة الاختصاصات، واسمها يلخص سياستها، نحن نريد أن نساهم بصناعة الشرق الجديد، وعزّ الشرق أوّلّه ...

أجابت عدة أصوات خافتة على ثواني الصمت التي تركها مستجدياً:
دمشق.

أنا أحتاج عقولاً مثل عقولكم لأني لا أريد لشركة الشرق الجديد أن تدوس في الهواء، وتكون مجرد شركة استثمارات بلا قلب، حين أتاها إيميل من مؤسسة «together» يطلب أن نساهم بدعم هذا المؤتمر، تناقشنا في شركة الشرق الجديد، ووجدنا أن هذا النوع من العمل واجب علينا، وجزء من مسؤوليتنا اتجاه مجتمعنا، فقررنا دعمها بالكامل، وتشرفّت بمشاركتكم هذه الجلسات، وأشكر الأستاذ كريم لدعوتي للحضور بين هذه القامات الفكرية، وأريد أن أقول لكم إنني خلال اليومين الماضيين استفدت من كل كلمة قالها كل منكم، وأعترف أنها غيرت رؤيتي وتصوري لكثير من الأشياء، ومنها فهمي لبلد كسورية، وفهمي لشركة كشرية الشرق الجديد، لذلك وبكل وضوح أنا أحتاجكم، أحتاج كل واحد منكم، أريد أن تعينوني لأفعل الأشياء بطريقة صحيحة ومفيدة، وأريد لشركة الشرق الجديد أن تكون مساهماً بسيطاً في خدمة هذه البلاد التي نحبها جميعاً ونريد لها ولأهلها الخير، وأتمنى أن تخصصوا هذه الجلسة لتخبروني كيف يمكنكم

ذلك، بالنسبة لنا نقدم لكم الآن عرضاً مفتوحاً مهنيًا وماليًا، ولكم اختيار الصيغ التي ترونها مناسبة، وكى لا أتسبب بأي إحراج بوجودي، سأغادركم وسنلتقي على العشاء لتخبروني بالشكل الذي ترون أنه الأنسب لكم ولنا، أنا فخور جداً بأني التقيت واستمعت لأشخاص مثلكم.

ترك كلام مايك أثراً عاطفياً ساعد كريم وبيان ورائد وهيام وعمّار على رسم صيغة العلاقة بين مايك الشرقي بوصفه شركة استثمارية مرتبطة باتفاقية تعاون استراتيجي مع مركز أبحاث مرخص كمؤسسة غير ربحية، وبين مجموعة من الخبراء السوريين الذين يعيش أكثر من نصفهم داخل سورية. في المساء أخبروه بموافقة الجميع على التعاقد مع مركز الأبحاث بصفة خبير استشاري لقاء أجر شهري، ومكافأة إضافية لقاء كل بحث يعدونه أو ورقة يكتبونها، وأن يعمل كلٌّ منهم ضمن اختصاصه، ويعقدوا اجتماعاً عاماً كل ثلاثة أشهر.

كانوا جميعاً مسرورين بهذه النتيجة، فهم سيتقاضون أجوراً عالية تشعرهم بالأمان المالي، وسيسهمون في الوقت نفسه في تحقيق ما نُذروا لأجله: إنقاذ البلاد.

لم يكونوا يعرفون بالطبع، أن تلك البلاد لا تحتاجهم ولا تحتاج أحداً لينقذها. فلطالما كانت تنقذ نفسها، ولقد فعلتها مرّات عديدة من قبل، وربما ستكون طريقتها هذه المرّة في إنقاذ نفسها هي التخلص منهم ومن كل من يظن نفسه منقذها، ومن كل ما يقال فيها وعنّها، والأرجح أنها لن تبدأ بفعل ذلك هذه المرّة حتى يتخلّص المنقذون من أوهامهم، ويستقرّوا ناضجين على شاطئ اليأس.

ولم يكونوا يعرفون كذلك، ولن يعرفوا أبداً، أن جوهر مهمّتهم سيكون في النهاية تصميم مخبأ آمن لثروة جمّعت من التحايل على نصف قوانين الكرة الأرضية، ولرجلٍ ستطلبه عمّا قريب مئات الأجهزة الأمنية وعشرات المحاكم.

خيانة وغصون وبعض الخسائر الأخرى

لم يرُ مايك دمشق طيلة الأشهر التالية. أخذه الانشغال بمتابعة فريقَي المحامين والمصرفيين الذين كانوا يفكِّكون المملكة وينقلون قلاعها وقصورها وبيوت مالها إلى حيث لا أتربول ولا هيئات مكافحة غسيل الأموال، ولا قضاة يصدِّقون القوائد التي يتضمَّنها القانون، ولا رافضي رشوات، ولا أصحاب سبابات ترتفع في المفاوضات تمسِّكاً بالخطوط الحمراء.

باع ما يمكن بيعه، حوَّل العقارات إلى دولارات، والشركات إلى سبائك ذهبية، والشركاء إلى أعداء، والموظفين المخلصين إلى خسائر جانبية، وما في منطقة اليورو إلى مناطق البريكس، المخابى الأمانة إلى مواقع قلقة، مستودع مخدَّرات إلى برَّاد ألبان، شبكة تبييض أموال إلى شركة حوالات برؤية بصرية موحَّدة في مكاتبها.

باع بعض الأشياء بربع ثمنها أو أقل. حافظ على بعض الأشياء كما هي تماماً دون تعديل، وهي التي كانت مغلَّفة أصلاً بغلاف شرعي مثل فنادق هنا وهناك، وجزر عائمة تستقبل رحلات سياحية تجوب البحار. خسر كل شيء في ثلاث دول فقط: بلغاريا واسكتلندا وسويسرا، وخسر نصف الملكية العقارية المتبقية في دبي لقاء إنقاذ النصف الآخر. وبخسارة شركة الأعمال البحرية المسجَّلة في اسكتلندا، والتي لم تكن تملك فعلياً سوى نفسها وأثاث مكتب مستأجر مساحته 60 متراً مربعاً، اضطرَّ لنقل بعض السفن إلى بنما، وخسر بذلك إمكانية رفع العلم البريطاني عليها،

وهذا جعل حتى خفر السواحل المصري أو التونسي يتجرأ عليها ويفتشها متى شاء بحثاً عن مخالفات.

الناظر من الخارج إلى ما جرى خلال الأشهر السابقة سيسمّي ذلك: النهاية. ولو نظر إليه ماركس لقال: بهذه الحتمية ستتهار الرأسمالية. ولو نظرت العمّات لقلن: ألم نخبركم من قبل أنه سبحانه إذا أعطى أدهش، وإذا أخذ فتش؟

كان الله يومئذ يفتش خلف مايك الشرقي. خسر نصف أعماله العلنية، اختفى سعد مديره المالي بعد اثنين وعشرين عاماً من الثقة والإطلاع على معظم التفاصيل. لم يستطع حصر ما سرقه سعد قبل اختفائه. والمؤشرات التي وصلت إلى المحامي منصور، أن القصة كلّها بدأت بوشاية من الداخل، وهناك خيانة من بعض العاملين في مكاتب أوروبا، بالتعاون مع شخص من داخل المكتب الرئيسي. واختفاء سعد مع كنز الأسرار الذي يحمله قد يأتي بمزيد من المفاجآت. لكنّ الخسارتين الأكبر في تلك الأيام العvisية كانتا: اضطرب مايك وفقد الثقة بذكائه واهترت قدرة عقله على ابتداع الحلول. ثم فقد غصون.

صحيح أنها تملك وتدير أول جسد أنثى عرفه في حياته، لكن غصون لم تكن امرأة أحبها مايك. لم تكن ذكية، لم تكن أهلاً لمهام كبيرة، لم تكن مستعدة للتضحية من أجله، لم يكن متعلقاً بها، ولم تكن تملك أي سبب يدفع الآخرين للتعلق بها. كان ينساها أحياناً، لكنه حين يراها في مناسبة ما يشعر بالارتياح. كان هذا سرّها الوحيد، كانت تملك حضوراً محبباً، وبدقة أكثر: لم يكن في حضورها أي شيء مزعج. لا طريقة تنفّسها، ولا نظراتها، لا تقول كلمات مستفزة ولا عبارات تحتاج إلى تفكير. لم تكن من أولئك الذين تتعثر بهم حين تريد العبور بين الطاولات، ويصادف دائماً أن تكون في الطرف العريض من الممرّ حين تنوي العبور أمامها، ويكون كرسيها ملتصقاً بالطاولة حين تنوي العبور خلفها، لا تستعير ولّاعة من

أحد، وولاعتها تكون أقرب إليك منها إذا ما أردت استعارتها. حين تزور أحداً فهي تتجه تلقائياً إلى الكرسي الذي لم يعتد أحد الجلوس عليه. ولا تكون أبداً في الداخل حين تريد استخدام الحمام، كان يصادف دائماً أن تقضي حاجتها في الوقت الذي لا يحتاج فيه أحد إلى دخول الحمام. فتاة بلا عائلة، خرجت من دار الأيتام في الرابعة عشرة، فوجدت نفسها في الشارع، وسرعان ما عثر عليها قسّام وضمّمها إلى شبكته، وحافظ عليها حتى بعد أن أصبح الشيخ قسّام، وأورثها لمالك الشرقي الذي أنقذها من المصير الطبيعي لمن كنّ في مثل وضعها: التقاعد بحكم الضرورة في منتصف الأربعينات، العمل مصقّفة شعر فاشلة، أو بائعة في محلات ملابس تبدّل باستمرار، أو متشرّدة في الشوارع تموت باكراً بالتسمّم الكحولي أو بجرعة مخدرات زائدة أو بقطع وريد المعصم.

أمّن لها حياة كريمة حتى آخر يوم، كان يخترع مهامّ سخيفة باستمرار، ليمنحها شعوراً أنها مفيدة وموجودة وتتقاضى المال حلالاً. في السنوات العشرين الأخيرة، وحين لم تعد تصلح فيزيائياً لممارسة أي نوع من أنواع الجنس، كانت تقضي وقتها متنقّلة بين بيوت الدعارة الكثيرة التابعة للشبكة، لتراقب أداء الفتيات والقوادين والمحاسبين كما كلّفها المعلم. وكذلك لتمارس متعة شخصية بمراقبة أداء الفتيات في السرير، ثم إعطائهن دروساً في أسرار أجساد الرجال.

في الساعة الأولى من سنة 1985 حين أخذها مايك الشرقي إلى غرفة في فندق مازا بأمر من الشيخ قسّام كانت على أبواب التقاعد، وكانت تكبره بواحد وعشرين عاماً، أشفقت على الفتى المرتبك الذي ينظر في أرض المصعد محاولاً إخفاء انتصابه بضمّ كلتا يديه أمام بطنه، ولم يُنح لها أن تستخدم أي واحدة من المهارات التي قرّرت أن تمنحها للصبى البكر، فقد عزف ربع علامة فقط، انتهى عند منتصف طعنته الأولى، كانت كلمة الشيخ قسّام المباشرة والفجّة ورائحة العطر الأثوي الذي ملأ المصعد

كافيتين لينتهي، ومع ذلك فقد صمد وقاوم وسيطر على نفسه حتى رفعت فستانها واستلقت على السرير، في السنتمتر الثالث أو الرابع من جسدها فقد مايك براءته وحصل على لقب الشرقي الذي سيلتصق به كل حياته، وسيشغل الناس لعقود.

سرعة القذف طبيعية في تجربة أولى لشاب بمثل هذه الظروف، وربطها بالشرقي طبيعي إذا ما خرج من امرأة بسيطة لا تحسن اختيار التعابير المناسبة، وغالباً لا تعرف ما تقول. لكن سرعة القذف لمرة واحدة وفي تجربة أولى ليست بالتأكيد سبباً كافياً لاجتراح اسم بهذه الخصوصية، ولا لتحميله كل تلك الدلالات التي سيجملها فيما بعد. لكن هكذا هو العقل البشري، وهذه طريقته في صنع الرموز والدلالات.

ينظر رجل في الصحراء إلى النجوم في الليل ليعرف الاتجاه الذي سيأخذ إليه أغنامه في الصباح، ويضع رجل آخر خطوطاً على صخرة ليعرف الأيام التي تشتد فيها حرارة الشمس أو يهطل فيها المطر، كي يعرف متى عليه أن ينثر البذور في الأرض. يمر الزمن ويظهر علمٌ جديد، ويصبح له اسم، وينشغل الأنثروبولوجيون الذين ينتمون إليه بتقسيم أمم الأرض إلى شعوب شمسية وشعوب قمرية، ويفسرون آلاف الصراعات عبر آلاف السنين بهذا التباين الأزلي بين هؤلاء وأولئك. يفصلون في عادات الغذاء والإيقاعات الموسيقية، حجم الحوض لدى الإناث، سُمك الخبز، متوسط العمر، متوسط الذكاء، متوسط ضغط الدم، معدّل الخصوبة، الميل للعنف، شجرة اللغات.

يفرد المتعمّقون من هؤلاء فروعاً جديدة من العلم يسمونها السيمياء أو اللسانيات، ينشغلون بجذر كلمة، بأصل تسمية، ولأن الأشياء المهمة ذات الدلالات الحقيقية قد انتهت منذ جيل أساتذتهم، يختارون أشياء جديدة، يتبحرون بها وينبشون وينبشون، ويضطرون أخيراً لتحميل الأشياء ما لا تحتل كي لا يعترفوا لأنفسهم أن عملهم كان سخيفاً منذ البدء، فذلك

النقش على الجدار دلالة لكنز مخفيّ في بطنها، وليس أثر قطعة حديد أو بازلت تسليّ بها شاب على الصخرة أمامه فيما يبول. وتطابق اللقب بين رجل مؤثّر وواحد من أعظم الأبواب في العالم ليس مصادفة لغوية.

بسبب حرارة جسد غصون ورائحته، حصل مايك الشرقي على اللقب الذي يؤهّله ليصبح حكاية محمّلة بالأسرار، وفي النهاية حصلت غصون على حياة مستورة وعلى جنازة لائقة، حضرها مايك بنفسه، وحضرها المئات من موظفيه ومعارفه وأصحاب المصالح المتشابكة معه. وأنفق مايك عن روحها مئة وعشرين ألف دولار توزعت على ستّ دور أيتام في لبنان وستّ في سورية مرفقة برسالة مختصرة تنوعت قليلاً باختلاف إيمان من يشرفون عليها: «هذا التبرع عن روح السيدة الفاضلة غصون إبراهيم نرجو أن تقرؤوا الفاتحة عن روحها/ تصلّوا لراحة نفسها، ونطلب من الله/ الرب، القبول.»

بلادٌ تحتاج حكاية

في نهاية ذلك الصيف لم تعد لأيام الجمعة أسماء في سورية. انتهت البلاغة دون أن ينتهي الموضوع، ونهر الدم الذي تفتّقت يناعه على مدى الأشهر السابقة بدأ بحفر سرير واختيار ضفاف، لكنّ ذلك لم يمنع مايك من متابعة حفر مجراه الخاص باتجاه مصبّه الحتمي. كان يأخذ وقع خطواته من الذاكرة، معتمداً بشكل أكبر على المستشارين. كان ذلك الحدس العبقري النادر معطلاً بسبب حجم المفاجآت التي تصفعه كل يوم، وساعده أن مجموعة الخبراء الذين تعاقد معهم مؤخراً يعملون بجدية ومسؤولية عاليتين، كتب كل منهم ثلاثة بحوث أو أربعة على الأقل خلال الأشهر السبعة التي فصلت اجتماعهم الأول عن اجتماعهم الفيزيائي الثاني، وهو اجتماعهم الثالث إذا ما اعتبرنا جلسة الفيديو الجماعية التي استمرت لثلاث ساعات اجتماعاً للجنة.

صار بين يدي مايك تصورات وأفكار ومشاريع ومعلومات ومعطيات معظمها مهتمّ بسورية أكثر مما هو مهتم بمايك الشرقي. ففي زاوية ما من عقل كل من هؤلاء الخبراء كان هناك فكرة رغبوية لم يستطيعوا الفكّك منها، وهي أن مايك نوع من أنواع البنك الدولي، يملك الكثير من المال، ويريد إنفاقه، وواجبنا أن نوجّه أمواله ومشاريعه لما فيه خير البلاد والعباد.

الجيد في هذا الخطأ المنهجي أنه دفعهم ليقدموا أفضل ما لديهم، ويجتهدوا للحصول على أحدث المعلومات، ويجتروا أفضل الأفكار،

ويقدموا أفضل التصورات، فالهدف النبيل الذي اعتقدوه عن مهمتهم، والاحترام والكرم الذي قابلتهم به المؤسسة وشركتها الراحية، أدى فيما أدى إلى أن تصبح أمام مايك خارطة واسعة يستطيع أن ينتقي منها ما يشاء.

بدأ كل بحث بملخص تنفيذي يكتبه الباحث، ومع ذلك كان مايك يطّلع على الملخصات التي يعدها له عمّار كي لا يضيّع وقتاً طويلاً في قراءة عشرات البحوث التي لا يقل الواحد منها عن ثلاثين أو أربعين صفحة، ويقيّمها بيان الذي يفهم عقل مايك تماماً، ويضع خطوطاً بقلم رصاص تحت ما يعتقد أنه يهّمه.

بالنتيجة قرأ جملة واحدة أو نصف صفحة من بحوث يتضمّن كلّ منها 20 ألف كلمة. توقف عند جملة هنا وجملة هناك، طلب قراءة المزيد عنها. حوّل بعض الأفكار الاستثمارية إلى المختصين ليكملوا دراستها وتحويلها إلى مشاريع، أقرّ بعضها ارتجالاً وطلب فقط تقدير ميزانية أولية لها، حوّل بعض مقترحات فهد كبيسي، أستاذ تخطيط المدن، إلى المكتب الهندسي لدراسة إمكانية تحقّقها.

ثلاثة من البحوث الخمسين التي اطّلع عليها خلال تلك الفترة، لم يرسلها لأحد، فقد عنّته شخصياً، وطلب لها نوعاً آخر من الاستزادة.

بنى الشيخ محمد البقيعي بحثاً كاملاً على سؤال مايك عن المئذنة البيضاء والباب الشرقي. شرح الحكاية بلغته المبسّطة والمتقنة. عدّد العلامات الكبرى للساعة، فرز ما يختصّ منها بدمشق، روى كيف سينزل عيسى ابن مريم من السماء، وصف اللون الأصفر الذي يرتديه، والملاكين اللذين سيتكّئ عليهما أثناء نزوله، ووقت وصوله قبيل صلاة الصبح. حدّد أماكن وقوف يأجوج ومأجوج والدجال داخل الباب. وضع أحاديث الرسول وتفسيرات العلماء كهوامش كي لا يثقل على قارئه. أورد جرداً بقبور الصحابة والأولياء المدفونين في دمشق. بيّن قيمة دمشق للمؤمن الحقيقي المتفقه

العارف. ثم ربط كل ذلك ليصل إلى اقتراح عملي، وضع بيان حوله إطاراً بقلم رصاص:

«القيمة الروحية لمدينة دمشق، يمكن أن تكون مخرجاً للبلاد من مأزقها، وركيزة بنى عليها المستقبل، وإذا ما وجدنا الطريقة لتحويل المئذنة البيضاء إلى منارة تعيد الناس إلى جادة الصواب، لاستطعنا أن نجذب العالم إلى دمشق كما يجذب الضوء الفراشات».

للروائي فايز عاج الشام، كان يرى بلاده كواحدٍ من كتبه المفضلة، كتب ورقة عمل واحدة ضمّنها كل ما يريد وما يستطيع قوله، وتركها عمار كما هي، لأنه شعر باستحالة تلخيصها، واختار منها بيان جملة واحدة وضع تحتها ثلاثة خطوط كل منها مكرّر مرتين: «هذي البلاد ستنقذها حكاية». الدكتوراة عبلة كتبت بحثاً يلخص معارفها، واختار منه بيان جملة وضعها ضمن مستطيل سميك:

«تاريخ البشرية هو تاريخ الرموز التي يقدّمها لها الأذكىاء».

كانت من المريدين القلائل الذين لم يخذلوا الفلسفة تماماً، فأتوا من منطقتها، ونجحوا في الوصول إلى حيث أرسلتهم. وبلغوا مشارف الحياة الحقيقية كما كانت الفلسفة تريد منهم أصلاً، ولم يراوحوها في دوائر المجرّدات طيلة حياتهم. صحيح أنها داست خطوتين إضافيتين في تفاهات الحياة دون أن تعرف أنها تفاهات، وصحيح أنها حملت معها بعض التعالي على من وجدتهم قبلها هناك. لكنّها كانت منتمية إلى العالمين بمقادير أفضل كثيراً من كل زملائها.

لذلك أجهز مايك على بحثها كما يجهز على أول كأس من أحد أنواعه المفضلة. عبّه جرعة واحدة، ثم سكب بحث الشيخ البقيعي في جوفه، ثم تلمّظ بورقة فايز عاج الشام نهاية الليل، ولم يطلع الصباح إلا وكان منتشياً تماماً. ليس بما قرأ فقط، بل لأن عقله عاد للعمل بطريقته المعتادة. ووجد

«بكرة» الربط بين هذه العقول الثلاثة، ونجح بتحويلها من ثلاثة عيدان في حكاية جدّ حكيم إلى حزمة متينة في موعظة قفلتها. ربط الحزمة بما ينجزه الاقتصاديون والمعماريون الآن، وصنع «بكرة» أخرى ترفع عملهم جميعاً إلى الأعلى.

توافق اقتراح الشيخ مع شغف شخصي عميق لا يعرف منتهاه، ومع حلم دائم ظل يراوده كلما زار مدينة عصرية. أوحى له الاقتراح أيضاً بموضوع الحكاية التي يريدّها فايز منقداً للبلاد، وأعطاه الإزار الذي سيحيط برحم المدينة ويعلّق عليه الرموز التي تريدها عبلة لتصنع منها تاريخاً.

الأبراج الشاهقة التي حلم بها الشرقيُّ شرقيّ الباب الشرقي، ستصبح لها حكاية، وستحيط بها الرموز، ستكون استثماراً تاماً. «جرّة من الريح الصافي»، وستكون محمّية بالأولياء.

بدأت الصورة ترسم في مخيلته. وبدلاً من دبي والدوحة وشيكاغو تخيل أبراج أحلامه أشبه بأبراج مكّة التي تختال بأقصى درجات الفخامة، لكنّها تطلّ على القداسة.

طلب من رنده أن تنسّق له ثلاثة أيام، يقضيها مع الشيخ محمّد البقيعي ومع فايز عاج الشام ومع عبلة نار الدين، وأن ينسقوا لاجتماع عام لكلّ الفريق الاستشاري بعد ذلك بأسبوعين أو ثلاثة.

سورة الكهف: مكية بالكاد، آياتها 110

لم يبقَ في دم الشيخ محمّد محمّد عبد الأحد عبد الواحد الكثير من تراب يثرب، لكنّه ظلّ يحتفظ بلقب البقيعي الذي ينسبه إليها رغم مرور 756 سنة على انتقال أجداده إلى دمشق، بُعيد نكبات الغضب التي أصابت المدينة. كان يحبُّ أن يصوّب لقب البقيعي غير المألوف في الشام: «لسنا من بقيع الغردق حيث مقابر الصحابة، بل من بقيع الزبير في جنوب شرق المدينة».

يوم احترق مسجد الرسول في أول ليلة من رمضان عام 654 هجرية، ثم تبعه زلزال ضرب المدينة المنورة بعد أيام، وفجّر بركاناً ظلّ يلقي بالنار إلى حرّة رهط لثلاثة أشهر، هرب جدّه من غضب الله الذي حلّ بالمدينة، والتمس أرضاً مباركة لا يمكن أن تحلّ بها اللعنات، مباركة أكثر من المدينة التي نُورِت بحياة الرسول وموته فيها. فكانت دمشق بالطبع.

حين وصلت دماء الزبير بن العوام إلى الشيخ الدكتور محمد، وجدت نفسها وقد مُدِّدَت بالأمهات الدمشقيات وبمخالطة الشوام لثلاثين جيلاً، توارثوا الإيمان بقداسة الشام التي لا تحترق مساجدها، ولا تُزلزل الأرض تحتها، ولا تجرؤ البراكين على إلقاء حممها عليها. ولم يبق من تلك الدماء ما يجعله بقيعياً سوى الاسم. فقد صار واقعياً ووسطياً وشامياً لدرجة أن كليات الشريعة في السعودية والسودان ومصر أنتجت أربع رسائل ماجستير ورسالتي دكتوراه تفنّد كُتبه وتبيّن مواضع عبثه واستهتاره بالمسلمات الشرعية، ونشرت المواقع الإيمانية على الإنترنت مئات المقالات من تلك

التي تملك عناوين جذابة مثل «التميع المربع في ضلال المنتسب زوراً إلى البقيع»، أو تنتهي بحزمة من الأسئلة المحققة والمثيرة من قبيل: «هل هو جاهل ضعيف العقيدة كما يحاول بعض الإخوة أن يسوقوا عنه، أم فعلاً اختارته الماسونية العالمية للتلاعب بالأحكام الشرعية، وزعزعة إيمان المسلمين، وهتك شرف نسائهم؟».

قضى ليلة سفره إلى بيروت في البيت القديم عند زوجته الأولى، ورأى فيما يرى النائم أنه على الصراط وقد انبسط أمامه كالمرح الأخضر، وسمع في الرؤيا صوتاً يقول: هذا عبد الله وابن عبده وأمه قد غفر الله له وأثابه ثواب أهل الحق، خاض في أرض الكفر فعاد بالضالين إلى روضة الهدى..

قص رؤياه على زوجته في الصباح فاغرورقت عيناها بالدموع، وهي تجهز له حقيبة السفر. دعت له بقلب صادق: «لعل الله وضع هذا النصراني في طريقك ليجعل هدايته على يدك، اللهم اجعل دريك خيراً، وأنزل كلماتك في قلبه نوراً، وتقبل رحلة الهداية منك حجاجاً». رت على رأسها وقبله، وتلوا معاً دعاء السفر، واتجه إلى بيروت بسيارة اهتم إسماعيل شخصياً بسائقها ومرافقها ومواعيدها، فور عبور الحدود ورد اتصال على هاتف السيارة، رفع السائق السماعة وأعطاهها مباشرة للشيخ محمد: الاتصال لك.

رحت به رندة من الطرف الآخر، ونقلت له رسالة من السيد مايك الذي يتشرف بدعوته لفضاء اليوم في بيته ببرمانا، أو في الفندق أو المكتب، أو يمكنه أن يختار مكان اللقاء إذا لم يناسبه أي خيار.

وكانه كان يبيت الإجابة مسبقاً، أخبرها أن تنقل تحياته للسيد مايك، وإذا كان له الخيار فهو يرغب أن يكون اللقاء في المغارة المنعزلة، وإذا سمح له بطلب شخصي، فيتمنى أن تزال خزنة الخمور منها.

بعد خمس دقائق عادت رندة باتصال آخر، أبلغت السائق مباشرة أن يتجه إلى المغارة، وأن يبلغ الشيخ بأن طلبه يُنفذ الآن.

حين وصل الشيخ وجد مايك ينتظره عند طرف الشق الصخري، وسارا معاً فيما يمسك مايك اليد اليمنى للشيخ بيده اليسرى ويرتت عليها باليمنى بحنو واحترام، كانت الشمس تسطع على الباب المفتوح، وتنعكس إلى الداخل لتضيء ربع مساحة المغارة بأشعة الصباح البهية. ومع الدخول بقدمه اليمنى تلا الشيخ بصوت خفيض الآية 17 من سورة الكهف. التقط مايك بضع كلمات منها، فطلب من الشيخ أن يعيدها بصوت واضح، فقرأ دون ترتيل: «وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوُرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا».

. أتقصدني باختيارك هذه الآية يا شيخ؟

بلطفه المدرب، ودفق كلماته النهري، وبراعته اللفظية المربكة، وطريقته الرقيقة في دمج كلمات الله بكلماته، أزال الشيخ البقيعي الحاجز المعقد الذي يفصله عن روح مايك الشرقي، ومسّ قعر قلبه، ردّ له حركة الاستقبال اللطيفة بحرفيتها، وأمسك يمناه بكلتا يديه ونظر في عينيه:

. أتفعل الشرّ؟

. كل وقت.

. أتشعر بالسوء بعد أن تفعل؟

. لا، أبداً.

. أتفعل الخير؟

. أحياناً.

. أئسّر به؟

. نعم... نعم نعم نعم، كرّرها وكأنه نحت الكلمة للتو، ولم ينتبه لجمال الشعور فقط.

لم يتكامل فيك موتُ القلبِ إذاً.

بقي ممسكاً بيده ومشيئاً معاً إلى صدر المغارة التي خضعت لتغييرات سريعة أخفت منها كل ما يمكن أن يستفرَّ سكينه الشيخ. كان هناك شابان وفتاتان حاولتا الاحتشام بلباسهما قدر الإمكان، اكتفى الشيخ بالنظر إليهم ملياً، ففهم مايك ما يريد.

طلب أن يجهزوا لهما كل ما يحتاجان حتى المساء ويغادروا، وأن يبقى المرافقون والحرس بعيداً عند السيارات: اتركوا لنا ما يكفيننا، وسأخدم ضيفي بنفسي.

لم يستخدم الشيخ الكثير من الإنشاء، وسأل مايك مباشرة:

أخبرني، ولا تُخفِ شيئاً، ما لك وللمئذنة البيضاء؟ ما تعرف عنها؟
ماذا بينك وبينها؟

استفاض مايك الشرقي وباح بكثير مما في قلبه. حكى عمن هو حقاً، عن غريب الحصو وعن آمنة وعن نظير، عن بيع الكبريت وعصير الليمون المغشوش وبطاقات اليانصيب عند الباب الشرقي، عن مسجد بني أمية الكبير، عن المآذن البيضاء التي تمتد على 1800 متر من الشارع المستقيم، عن إيمانه بالمئذنة. اعترف للشيخ بأنه يقف منذ خمسين عاماً داخل الباب مع بأجوج ومأجوج، قال إنه يعرف ذلك، ولكنه يؤمن أن المسيح سينزل في هذا الجيل، وأنه سينتقل من داخل الباب إلى خارجه بمجرد نزوله من السماء، قال «كاذباً» إن الدنيا لم تأخذه كما يبدو، ولكنه أسرف في المعاصي وفي نشر المعاصي، لعله يسرَّع في ظهور الدجال، فهو يعرف منذ شبابه، أن المسيح يحتاج دجالاً كي يعود، والدجال يحتاج أن تمتلئ الأرض فجوراً كي يُعلن عن نفسه:

حين أخبرتك أنني أريد أن أعجل بحدوث ذلك، لم أكن أقول لغواً.

. من شروط تحقّق ظهور الدّجال أن يتبعه كثير من الناس.

. ولماذا سيتبع الناس دجالاً؟

. سيعطيه الله قدرات تجعله يفتن الناس.

. هل يعطيه الثروة والقوة والسلطة؟

. بل أكثر.

. ويرافقه الحظ طيلة حياته؟

. ويعطيه بعضاً من المعجزات.

. لولا معرفتي أن الدّجال يجب أن يكون بعين واحدة، لقلت إنني أعرف

عمّن تتحدث.

. الدجال أعور، والأعور من تنقصه عين، وليس من يملك واحدة.

. هو بعين واحدة إذاً في الحاليين.

. من عميت عين قلبه فهو أعور، ولو كان في وجهه عينان.

. صحيح، وإلا ستكشفه العلامة الواضحة وتُفشل فتنته.

ابتسم الشيخ: الإنسان لا ينيب لحقّ، ولا ينزجر لموعظة. وعقّب بالآية

54 من سورة الكهف نفسها: «وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ

مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا».

استفسر مايك مجادلاً: لعله أراد أن الإنسان هو الأكثر إثارة للجدل،

وليس الأكثر جدلاً؟

. فعلت كما يفعل المتأولة.

. تقصد المتأولة؟ الشيعة يفسرون الآية هكذا؟

. هم لا يقولون ذلك، يتأولون، وأنت تقول أيّ تأويل يخطر لك.

أنا قلتُ تلميذاً مستفسراً ولم أقل متيقناً، ولا أريد أن تظنني أقرب إلى هؤلاء من هؤلاء، أنا حقاً لا أعرف إلى من أميل.

مِلْ حيثُ شئت، سأقول لك الحكاية من أولها إلى آخرها «ولد لعبد مناف توءم كانت جبهتهما ملتصقتين، فأخذ بالسيف وفرَّق بين جبهتيهما، أسماهما هاشم وعبد شمس، وسيكون السيف بين أولادهما إلى الأبد».

هذه قصة رمزية ألَّفها من يريد أن يقول للناس إن الهاشميين والأمويين توءم ملتصق.

هذه الحكاية ليست من كتب الدين، بل من كتب التاريخ.

حكاية جميلة، لكن لا يمكنني تصديقها.

انظر يا أخي مايك، أو غريب، أناديك كما تحب، قرأت عليك آيتين من سورة الكهف، لا لأننا نجلس في كهف كما قد يخيل إليك، ولكن لأن لهذه السورة فضلاً ذكره الرسول الكريم في ثلاثة مواضع من صحيح حديثه، ففيها العصمة من فتنة الدجال، وقد قال النبي: «فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ»، و«مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَالِ».

حدَّثني عن نزول المسيح!

تقصد عيسى ابن مريم؟

وهل من مسيح سواه؟

تبسّم الشيخ: عيسى ابن مريم نبياً، ونحن لا نمسح أنبياءنا لا بالزيت ولا بالماء ولا بالطيب.

لم يفهم مايك الفارق تماماً، ولم يعرف وجه الاعتراض، لذلك لم يُحسِن بناء سؤاله: إذا كنت تقصد أن خلافتنا معهم على تعميد المسيح، فلماذا تحتفظون بجزن المعمدان في المسجد الأموي؟

. ليس الجرن وحده، في الجامع الأموي خمسة وثلاثون شأناً يجب إزالتها، ويجب أن نبدأ بإزالة أربعة من المحارِب الخمسة، لأن توحيد إله واحد يتم من على محراب واحد.

. وماذا غير الجرن والمحارِب؟

. لا عليك، هذي شؤون مؤجلة، بعضها قبور وبعضها زخارف وبعضها اختلاط، وقد غَضُّ أجدادنا الطرفَ عنها، لأن الفتنة نائمة. حدثني الآن ماذا تريد؟

. من الدنيا أم من الآخرة؟

. بل مني؟ لماذا تدفع لي هذه الأموال؟ أنا شيخ دين، ولكنني تربيت في أسواق الشام، أعرف من نظرة واحدة إلى مسامير الخشب ما إن كان هذا صندوق مسجدٍ أو صندوق دكان. ما أراه ليس صندوق زكاة، اصدقني، وإن فعلتَ سأكذب لأجلك!

أكمل مايك رواية بعضٍ مما في عقله وقلبه، قال إنه يريد العودة إلى دمشق، وإنه يريد أن يؤسس مشروعاً هناك، قال إن المشاريع الناجحة تحتاج إلى عوامل كثيرة: لدي المال والحفارات والمهندسون، وأعرف أن شرقي الباب الشرقي هو الموطئ المثالي لنزول الأقدام من السماء. أريد منك الأسباب، أريد منك المعرفة، أريد أن تصنع لي ما يجعل الوقت ملائماً.

كّرر الشيخ بعضاً من الحكاية التي كتبها في بحثٍ تقاضى عنه تسعة آلاف دولار من مركز الأبحاث، اختصر العلامات الكبرى ليوم القيامة بتعدادها كمحرر نشرة إخبارية يبدأ بالموجز: ظهور الدجال، ونزول عيسى ابن مريم، وظهور يأجوج ومأجوج، فطلوع الشمس من مغربها، وظهور الدابة التي تكلم الناس، فامتلاء الدنيا بالدخان، فالخسوفات الثلاثة، فخرج النار التي تدفع الناس إلى محشرها. «ستخرج النار من حصرموت

قبل يوم القيامة تحشر الناس، قالوا: يا رسول الله فما تأمرنا؟ قال:
عليكم بالشام!».»

ضاع مايك الشرقي في غبش ما يسمع، وما خالف اعتياده، فنهض
ليعدّ صحن طعام للشيخ ويتابع استدرار معرفته: تخرج النار لتدفع الناس
إلى الشام، فأين من الشام؟

إلى حيث سيحشر الناس في يوم القيامة الأصغر.

أين؟

شرقي الباب الشرقي.

ساد صمّت طويل يليق بالتقاء عالمين. رجلٌ يشبه هاملتون وسوروس
يؤمن أنّ ما من حقيقة في العالم سوى المال، ويعتقد الآن أن المال سيأتي
من شرقي الباب. ورجل آخر يؤمن أن الحقائق كلها في كتاب، وذاك الكتاب
قال: اعتصموا بشرقي الباب.

بين العاشرة صباحاً والعاشرة مساءً كان الرجلان قد وصلا إلى ما يشبه
اتفاق جنتلمان بالأحرف الأولى: أنفق مالك شرقي الباب الشرقي. امنحه
الهالة التي يستحقّ، وسأصنع لك الحكاية التي تريد، وسأضمن أن تصدح
المنابر بذكرك.

رجل الحكايات الضئيلة، لكن المتلاحقة

ما من ميرة في فايز عاج الشام سوى أنه رجلٌ ولد في حيٍّ داخل سور دمشق، لكنّه لم يرغب أن يفتح دكاناً. كبر وهو يدفع نحو الأدب بجينات التحسُّس التي وُلِدَ يحملها في دمه، تحسُّس اتجاه السوق، تحسُّس اتجاه الريح، تحسُّس متى علينا أن نغيّر مجدداً، الواقعية والقدرة على تمييز ما يهمّ عن ما لا يهم، وتمييز متى يفقد الشيء أهميته.

لم تمنعه أخلاقه يوماً عن فعل ما هو صحيح، ولم يمنعه إيمانه عن فعل ما هو مفيد، واعتزازه بالعالم الكامل مترامي الأطراف الذي تجمعه دمشق داخل سورها لم يمنعه من مدّ عينيه إلى أقاصي الأرض، وقراءة ما يكتبه اليابانيون والبيروفيون والأستراليون.

ملاً رواياته الأربع الأولى بشتلات الياسمين وشجيرات الكباد والنارنج. نافس نزار قبّاني على مديح النساء «المتغندرات» ليلة الخميس، وعلى التغرّل بالطرخون. انتقد من يكتبون عن الشام وهم لا يعرفون عنها شيئاً لأنهم قادمون من نواح قصية مثل الميدان والصالحية، أو من قرى مثل المرة وكفرسوسة وبرزة. ترقّع عن ذكر القادمين من أماكن أبعد أو قراءتهم، فعقله لم يحتمل أن يكتب عن بردي شخصٌ ولد في مصيف أو الدرباسية. في العشر سنوات الأولى من مسيرته الأدبية اعتبرهم غير موجودين، أنكرهم تماماً. وحتى حين كانت موهبة ما تبرق في سماء الثقافة الوطنية، وبثني عليها أصدقاؤه الثقة، ويلحّون عليه لقراءتها، كان يسأل: «من وين؟!»، ثم يردف بذلك السبب الشامي المفحم: «ما إلي مصلحة!». في العشر

سنوات التالية أصبحت «له مصلحة» وبالغ في الاهتمام بهم، كما بالغ الحاج رشدي النحاس في عرض كؤوس المتة الفخارية و«المصاصات» الملائمة لها على واجهة محله في نهاية سوق البزورية، وإن تسببت بإخفاء بعض الأجران النحاسية والصفائح الفضية المنقوشة بأية الكرسي.

نضجت تجربته شيئاً فشيئاً مع الزمن، فحين وصلته السخريرات الصغيرة من ازدحام قصائد العراق بالنخيل، عرف أن عليه أن يزيل الياسمين والكباد من روايته التالية. وحين ملأ الكتاب اللاتينيون العالم بالجدات والخالات، فتح باب الدار قليلاً وكشف بعضاً من ستر العائلة وكتب رواية بطلتها امرأة. وحين التقط مثقفو المقاهي من المقالات المترجمة أن الحكواتي لم يعد يصلح ليكون روائياً، لأن على الراوي أن يكون باحثاً معرفياً أو عالم اجتماع على الأقل، التقط تغير السوق، وبدأ يجالس الغرباء ويستمع إليهم ويقرأ كتبهم ويقرؤهم. والغرباء هم كل من ولد بين باب الصغير والقطب الجنوبي، بين الباب الشرقي والصين.

لم تكن هذه التحولات نقيصة في الرجل، بل كانت سبب غناه، وسبب أحكامه الصائبة، وسبب احتياج مايك الشرقي إليه، وقد التقاه ممتلئاً بفيض محفوظات الشيخ البقاعي، مبلبلأ من هول المسافة التي اجتازها عقله خلال اليوم السابق.

طلب فايز مكاناً في الطبيعة حين استشارته رنده، فاختر مايك الجبل المطل على وادي إهمج: أوصلوه إلى عنأيا سنقضي يومنا في الجبل، ونزور مار شريل. أحتاج بعضاً من إيمان الكافرين، أرهقني البقاعي بكفر المؤمنين.

بعد زيارة الدير والتعرف على معجزات القديس، أشعلا شمعتين، وأخذنا زجاجة صغيرة من الزيت وطابة من القطن، وغادرا إلى المطعم الملحق بالنزل، والذي يمكنك أن ترى منه ربع لبنان.

خلال الطريق كان فايز يعطي رأيه بالدير والقديس: هذا المكان يشبه مسجد شمسي باشا في منتصف سوق الحميدية، ومسجد عيسى باشا قبالة مدخله. هناك يصلون كالنوابض. تشعر أنّهم يريدون الانتهاء بسرعة وإلقاء هذا العبء عنهم، كي يعودوا إلى أعمالهم. وهنا تشعر أن كل الناس جاؤوا مثلنا لقضاء وقت في الجبل، أو ليؤدوا واجباً، رأيت مبالغة في التبجيل ولم ألمح الإيمان على أي وجه. وحين يغيب الإيمان نحتاج إلى الطقوس.

بدأ مايك باستدراج عقل فايز من الجملة التي أثار اهتمامه: أي حكاية تحتاج هذه البلاد؟

لا يهيمّ، كل الحكايات صالحة، المهم كيف ومتى ترويها، كي يصدّقها الناس. كلاهما يحتاج إلى ذلك بشدة: الحكاية تحتاج من يصدّقها، والناس تحتاج أجوبة لأسئلتها الساذجة، ولا شيء يروي الفضول إلا الحكايات. كل الحكايات القديمة لم تعد صالحة. من سيصدّق الآن أن العرب كانوا أمة قويّة واحدة ذات يوم، وعليهم أن يعودوا كذلك؟ من سيصدّق تلك السيدة التي تقسم أنها عاشت في مشروع دمّر مع جارتها عشرين عاماً ولم تعرف أنها علوية أو درزية، إلا حين رافقتها إلى جنازة أبيها وشاهدت طقوس العزاء؟ وأنا جميعاً لا نسأل الناس عن دينهم ولم نكن نهتمّ لذلك؟ من سيصدق حكايات المستقبل المشرق؟ من سيصدق تلك الحكايات الطفولية عن الإرث الحضاري الممتد لآلاف السنين الذي سيحصن البلاد، فيما نرى بأنّ أعيننا دماغاً مطروشاً على جداره، وأعقاب البنادق تهرس الوجوه؟

روى مايك بعض ما حفظه من فم الشيخ البقيعي يوم أمس عن فضل الشام، ونبوءات آخر الزمان لها: هل تصلح حكاية الشيخ لتصبح حكايتنا؟ بالنسبة لفايز كل تفصيل في الشام يصلح ليكون حكاية. يتحدّث عن

الشام كمن يصف جلده. مدينة تغلّفه تماماً، ولا يبدو منه سواها. لكنّه لم يلتقط بعد روح ما عليه فعله، كان يتعامل حتى اللحظة مع مايك وكأنه يريد أن يبنّي أبراجاً عالية ويريد منه حكاية تساعد في تسويقها. كان مستعداً لفعل ذلك، وراضياً عن الثمن الذي يأخذه لقاء ذلك.

قال إن حكاية الشيخ تصلح إذا كان المشروع شرقي الباب الشرقي: حكايات الماضي تنفع في المناطق التي تشبه الماضي، ولكن إذا كان المشروع في مكان آخر مثل طريق بيروت أو درعا فربما احتجنا إلى حكاية من المستقبل.

لم يُحسن مايك التعبير عن تلك الرغبة الغامضة التي تنمو منذ الأزل، والتي بدأت رغبةً بالالتجاء تحت قوس الباب، ثم امتلاك مكان يتيح رؤيته طيلة الوقت، ثم امتلاك الأراضي المقابلة له، ثم امتلاك الباب. والآن وبوحي من ثلاثة حكائين بارعين بلغت الرغبة ذروتها، وصارت رغبة عظيمة بامتلاك الحكاية نفسها. فمن يمتلك الحكاية، يمتلك الباب وما يحيط بالباب ومن يمرّ تحت قوس الباب.

ما قاله لفايز لم يقترب من الفكرة حتّى، قال شيئاً آخر: لا أريد مجرد مشروع في أي مكان، لقد بنيت مثل هذه المشاريع في أماكن كثيرة، أريد شيئاً أكبر، أوسع، إن لم يكن أبدياً فعلى الأقل ليكن أكثر ديمومة، أريده أن يكون عالمياً ومهماً، ولا أعرف كيف.

في عقل حكّاء كفايز عاج الشام، كان يمكن لهذا الشيء الآخر الذي قاله مايك أن يتفاعل ويتفاعل، حتى يأخذ شكلاً يقوّبه كثيراً مما يجب:

الحكاية الجديدة تحتاج إلى تحطيم الحكايات القديمة، فالحكايات المقدّسة غير قابلة للتجاوز، يجب أن تحلّ واحدة مكان أخرى. ولتحطم الحكاية المسيحية مثلاً عليك أن تحطم شخصية المسيح، وهذا صعب جداً لأن هناك مليار إنسان يؤمنون بها بدرجة أو بأخرى.

الطريقة الواقعية أن تحطم شخصية يهوذا، دافع عنه، أثبت براءته، قلل من شأنه، أثبت أنه لم يكن يقصد أن يفعل ما فعل، أو أنه لم يفعل أصلاً، اختلق شخصاً آخر وقل إنه من وشى بالمسيح وكانت خطته اتهام يهوذا. اعتمد على تسليم الناس بأن المرء يُعرف بأصدقائه، نبههم إلى أن يهوذا كان محاطاً بأفضل الأصدقاء في العالم، فلا بد أن يكون مثلهم. اختلق مصدراً، اعثر على مخطوط في مغارة انحسرت عنها مياه بحيرة طبريا حديثاً. ارو حكاية. إذا أردت أن تلغي علياً، انف ابن ملجمه. اقتل جساساً ليختفي الزير تماماً. وأخيراً إذا أردت أن تصل بلعبتك إلى أصل الحكايات كلها، إلى حكاية الأرض الأولى، انف إبليس، حاول تفهم موقفه، أوجد له الأعذار!

كلما كانت الحكاية كاذبة أكثر كانت قابلة للتصديق أكثر، الحكايات المقدسة تحتاج إلى قدر هائل من الشطط. هل تعرف لماذا يصبح أمثالنا روائيين ولا يصبحون أنبياء؟ لأن مخيلتنا محدودة، وثقتنا بشخصيات كتبنا مهزوزة.

سأكون عملياً للغاية معك، كي تصنع حكاية نحتاج أن نحطم الحكاية القديمة. نحتاج إلى التخلص من حكاية الشيخ، هي حكاية كل الشيوخ عبر الزمان، يجب أن نشكك بها، نطعنها في القلب.

. لكن حكاية الشيخ ليست لأحد، رواها الكثيرون عبر الزمان، لكن لم يفكر أحد بأنها له، لم يمتلكها أحد. وأنا أريدها.

صمت فايز عاج الشام طويلاً، تأمل الفكرة البسيطة. ساءه أنه لم ينتبه لذلك سابقاً: يكفي أن تقول أريدها لتصبح لك.

نهبهما الصمت الطويل لضرورة القيام بحركة ما. اقترح مايك تغيير المكان، وطلب فايز أن يمشياً قليلاً بين الأشجار ثم يقرراً المكان الذين

سيبتقلان إليه، وهذا ما أجلاه لساعات، بسبب جوّ تشرين الأول الأسير،
ومشيهما البطيء وحديثهما المتشعب والمحرض.

تحدّث فايز عن القدر الذي وضعنا فوق هذه الجغرافيا الهشّة
المتأرجحة، والتي تفرض علينا أن نبحث عن مواطن قوة أخرى. في الاقتصاد
أو الدين، في طريقة صياغة المجتمع، تنبأ بأن هذه الحرب ستطول، ستصبح
حرباً حقيقية مديدة، لأنها تلبّي حاجات عديدة. ستكون فرصة وحيدة
ونادرة، وربما لن تتكرّر لقرون، ليتحرّر هذا المجتمع من كل طاقة العنف
والكراهية المخزّنة فيه، ستبني ثروات وستشيع شهوات القتل. ستحرّر
الخائفين من خوفهم بإجبارهم على مواجهته. ستحرّر حاملي الحقد من
غلمهم برؤية الأماكن كلّها مصبوغة بالدماء، ستبدّل المواقع بين الظالمين
والمظلومين مراراً، ستمنح الجميع مظلوميات كافية ليرضعوا منها الرضا
ويصمتوا كحليمين. ستكون الفرصة المثالية لتخرج كل الأهواء وتعبّر عن
نفسها بحرية. سيعلن كل الجنون عن نفسه دون خجل. سيصرخ التحفّظ
في الشوارع. سيخلع المتكروون أرديتهم، ويظهرون بوجوههم، سيتصرف
الأساتذة كما هم حقاً، لصوص ومهربون ومحصلو أتاوات. في النهاية
سنُشفى. سندفع ثمناً كبيراً، لكننا سنشفى. لن يلومنا أحفادنا لما فعلناه،
لأنهم سيدركون يوماً كمّ الحزن الذي امتصّته قلوبنا من هواء هذه البلاد،
وإذا امتدت هذه الحرب بما يكفي، فقد نستطيع أن نجفّفه تماماً، ونترك
لهم هواءً لا حزن فيه.

استمع مايك طويلاً لصوت فايز عاج الشام المختلط مع صوت ارتجاف
الأشجار الحمراء والصفراء. كان طلقاً وحرّاً، كان قادماً من دمشق، حيث
كان صامتاً لزمّن طويل طويل، وفكّ عقدة لسانه في هذا الخريف البرّي.
عند المساء وفيما استقرّاً في جيبيل لتناول العشاء بمطعم الميناء
القديم، كان فايز قد صاغ اقتراحه النهائي، وقدّمه لمايك كعرض:

جمع الثروة يحتاج إلى قدر كبير من الوضاعة، وإنفاق الثروة في المكان الصحيح يحتاج إلى قدر كبير من النبيل، ولأنه قلما اجتمع قدر كبير من الوضاعة مع قدر كبير من النبيل في شخص واحد، فإن تقدّم البشرية ما زال يسير ببطء مغيظ.

الحكاية التي سنصوغها هي أنت. حكاية الباب ومئذنته البيضاء صارت ملكك، ستتحول تلقائياً إلى مشاريع ولن ينازعك عليها أحد، ما نحتاجه حكاية مالك الحكاية.

في الطريق إلى الفندق سأله مايك سؤالاً من تلك التي توجّه لقارئ الطالع: كم تعتقد أن هذه الحرب ستطول؟

. من معرفتي بحجم الغضب المختزن في هذه البلاد، أظننا نحتاج إلى عشرين عاماً إذا استمر إيقاع الحرب كما هو الآن، ويمكننا أن نختصر منها خمس أو ست سنوات إذا صارت أكثر قسوة، وإن انتهت قبل ذلك فستعود ثانية لنكمل تطهّرنا، وإن استمرت أكثر، فلن نتوقف أبداً، لا أعرف كم ستطول، ولكن أعرف أننا نحتاج إلى الكثير منها.

لم يُتحّ لمايك أن يعترض أو يعلّق. وخيراً فعل. فقد سمع الجملة عند باب الفندق، حين لمح الدكتورة عبلة تشرب فنجان قهوة في البهو، وقد وصلت باكراً من أجل موعدهما في الغد، وكان لتعليقه أن يجعلها تدلي بدلوها.

كيف لحمقاء أن تكون بهذا الذكاء؟

مع نضجها وتقدمها بالسن، اللذين تزامنا بالصادفة، لم يبقَ في عبلة نار الدين من معظم سمات العقل الفطّر الذي تملكه سوى رغبتها الدائمة بأن تكون على حقّ.

وبحكم اشتغالها في علمٍ ظلّ حكرًا على الرجال لألفين وخمسمئة سنة، فقد تشبّثت بها بعضٌ من صفات مُحدّثي النعمة: متعطّسة دون ثقة، لا تميّز جيداً بين الغباء والذكاء، بين الذكاء والتذاكّي، شرسة في الدفاع عمّا هي نادمة عليه.

زاجت بين ثلاثة مفاصل من حياتها الأكاديمية ومفصل رابع أقرب إلى الهوس الشخصي، لتكتب بحثها الأول الذي قدّمته لمؤسسة: "together"، والذي التقط منه بيان فهمها للعبة الرموز.

احتفظت من سنتها الجامعية الأولى بشيئين: التعلّق بالأحذية القماشية البيضاء، والافتتان بالفلسفة اليونانية لأنها تراها المنتج الفكري البشري الوحيد الذي خلق من ذاته ولذاته، ثم تحليقها في الهواء لثلاث سنوات ونصف قضتها في هزّ رأسها طرباً لأبيات الحلاج والسهورودي والسهورودي الثاني والسهورودي الثالث وبشر الحافي وابن عربي والنقري والجنيد، حين كانت تحضّر لرسالة ماجستير في أثر التصوف على الفلسفة العربية. ثم نزلها إلى الأرض مجدداً لأربع سنوات لإنجاز رسالة الدكتوراه في مفهوم الدولة بين الفارابي وابن ميمون. أضافت لتذّذها الشخصي بالغيبيات إلى كومة الفكر التي تقف عليها، وكادت تقول لشركة الشرق الجديد: يمكنني أن أعلمكم كيف تخدعون العوام.

ترغب أن تسميهم الرعاع، لكنّها تستدعي أقصى درجات التهذيب والتواضع، فتطلق عليهم أحياناً اللقب المؤدّب: العامّة.

جاءت قبل غروب اليوم السابق لموعدها، لتكسب وقتاً إضافياً تريد فيه العثور على إجابات لأسئلة تشغلها ولا تتعلق مباشرة بما جاءت لأجله، يقتلها الفضول بالطبع لتفهم من أين جاء مايك بمعرفة حداثها القديم؟ ومن أين جاء بثروته؟ أيضاً تريد أن تعرف برجه وطالعه واسم أمه، وانتماءه إلى شجرات الطاقة، ما يخطط له في البلاد، وهل هو موالاة أم معارضة؟ من هي زوجته؟ كم عنده من الأبناء؟ إلى أي طريقة روحانية يمكن أن ينتمي؟

أفضل معركتين خاضتهما عبلة في حياتها، ربحت الأولى منهما ضد غريزة الأمومة، وانتصرت على نزوع المرأة الفطري للارتباط بذكر بوصفه الوسيلة المتاحة الوحيدة لجعلها أمّاً. وأهمية انتصارها أنها بدأت بخوض تلك المعركة قبل استنساخ النعجة دوللي. وربحت الثانية بسبب جيناتها السورية المدرّبة، وبسبب الجزء المستهتر والواهم من شخصيتها. فانتصرت على ضربات اليأس التي وجهتها هذه البلاد للجميع، فحافظت على طبيعتها الطلق وضحكتها شبه الدائمة، وإن غلبها العالم الواقعي أحياناً وجعل تلك الضحكة هستيرية بعض الشيء، تخفي في داخل قهقهاتها حجم الأكم الذي يفتت روحها.

شاركها فنجان قهوتها المسائية، وقبل أن ينسحب فايز إلى غرفته عرضت عليه أن تقرأ له فنجانه، ضحك من الفكرة:

.لم يبقَ فيّ ما يستحقّ التنبؤ.

سألها مايك أين تحبّ أن يقضيا يومهما غداً، فتحدّقت بالفكرة وبصياغتها وبالحرركات المصاحبة لها. فَرَدَّت يديها إلى الأعلى كسليين ديون حين تغني للغيوم أو للملائكة وقالت: أريد مكاناً مفعماً بالفلسفة.

لم يرسم مايك على وجهه أو كتفيه أيّ ملامح، لم يقدم لها الدهشة أو

الإعجاب أو على الأقل العجز الذي كانت تريد، ولا ابتساماً الاستخفاف التي تستحق. هز رأسه بحركة بسيطة، فجاءت إحدى الفتيات تركض، نزلت القرفصاء لتصبح أذنفا قريبة من المعلم: من المسؤول عن الاهتمام بالسيدة؟

. أنا وتساعدني خولة وبيداء، والمرافقون حامد وسري.

. خذي جواز سفرها وأصلوه قبل منتصف الليل للآنسة نيفيلي، وحضروا لنا كل شيء، سنغادر في الصباح فور عودة الجواز.

لم تفهم عبلة تماماً ما الذي سيحدث، رغم أنها سمعت معظم الحوار. حاولت الاستفسار منه عما يخطط له، لكنه اقتضب في الإجابات: أعتذر منك الآن، بقي لدي بعض الأعمال، وأنت بالتأكيد متعبة من السفر، يجب أن ترتاحي، نلتقي في الصباح، لدينا عمل كثير في الغد.

احتاج مايك إلى ساعتين في المكتب لمتابعة بعض شؤونه الاعتيادية التي بدت غريبة له بعد يومين مُثقلين بخلاصة رجلين عارفين تلقياً السؤال السحري: «ما رأيك؟» ممن يظنونه قادراً على منح رأيهم طولاً وعرضاً وارتفاعاً وملمساً ولوناً ورائحة.

اطلع على ما وصلت إليه التحقيقات، التي كانت تمتد شيئاً فشيئاً عبر الجغرافيا، أجرى بعض الاتصالات لإخلاء سبيل اثنين من رجاله ألقى القبض عليهما في الأردن في شاحنة تحمل ثلاثين طنّاً من الليمون وبعض المخدرات. استمع من إسماعيل عبر الهاتف لما وصلته التحضيرات لـ «تطهير» شرقي الباب الشرقي. راجع بعض الجداول المالية مع معن مدير الحسابات الجديد. وقفت رندة خلفه فيما يفعل كل ذلك ومسدت كتفيه المتعبين بنفسها، أثناء مغادرة معن للغرفة انزلت يدها على ظهره بطريقة لطيفة للغاية، التفت إليها: رندة ذكرني، أنا لم أضاجعك ولا مرة أليس كذلك!؟

ضحكت رندة من كل قلبها: لا، كنا مشغولين كل الوقت!

23 عاماً وأنت في وجهي ليل نهار، غريب أليس كذلك؟

. بالحقيقة كادت تحصل مرة، يوم زواجي الثاني، أثناء خروجنا من الكنيسة باتجاه صالة الاحتفال، همست لي أن أتذرع بتغيير ملابسني وألاقيك في جناحك، لكن طراً شيء، أذاك اتصال مهم أو شيء ما وغادرت.

زواجك الثاني كان جان الأهبل أليس كذلك؟

. جان الأهبل كان الثالث، الثاني كان جلال الحقيير.

ما زال في رومية؟

. بقيت له سبع سنوات، لولا العفو الأخير لكان سيبقى 12 سنة أخرى، وكل يوم أشكرك لأجل ذلك.

. من يضرب فتاتي المفضلة يستحق الموت وليس السجن فقط، هل ربتيم كل شيء من أجل رحلة الغد؟

. كل شيء جاهز هنا وهناك، وما تحتاج قراءته مطبوعاً موجود مع مرسال في السيارة، نحن نحتاج فقط خمس دقائق بعد فتح باب السفارة في الصباح.

**

حين رأت عبلة من نافذة السيارة لافتة كتب فوق أسهمها الثلاثة «بير حسن، الأوزاعي، مطار رفيق الحريري الدولي» خطر لها أنها حصلت على موافقة رئيس الجامعة للسفر إلى لبنان، وإذا سافرت منه إلى بلد آخر، فقد تتعرض لعقوبة مسلكية. حاولت أن تنقل التخوف لمايك، لكنّها تراجعت، وقرّرت أن تمنح نفسها لليوم الاستثنائي ليأخذها حيث يشاء، وتترك عقلها للجموح أني وصل، ولتتخذ جامعة دمشق الإجراء الذي تراه مناسباً.

دخلت السيارة من بوابة صغيرة قبل الوصول إلى مدخل المطار الرئيسي. وقفت عند سلّم طائرة أصغر من الطائرات الاعتيادية. قبل أن يدعوهوا مايك للصعود رفعت يدها مقلّدة تحية هتلر للمعتدّين بأرْتتهم: ألا يحقّ لي أن أسأل إلى أين أنا ذاهبة؟

. طبعاً. أنت ذاهبة إلى حيث طلبت. ثم دعاها للصعود قبله، كانت إحدى فتيات الطاقم في استقبالها بباقة ورد جورى خمري اللون.

. هذه طائرتك الخاصة؟

. ليست لديّ واحدة.

. لماذا نحن وحدنا إذا؟

. هذه رحلة خاصة وليست طائرة خاصة.

بمجرد جلوسهما على المقعدين المتقابلين في القمرة الفاخرة، وضعت الفتيات إفطاراً بسيطاً من جبن الماعز والخضار الطازجة والعسل والقشدة، وبدأت الطائرة بالتحرك. باحّ وجه عبلة بكمّ الأسئلة الذي يكاد يخنقها: لا أريد أن أعرف أين نحن ذاهبان، مقابل أن تخبرني قصة الحذاء، لم تكن مصادفة، كيف عرفت؟

. ليست هناك قصّة. كنت زميلك في الدفعة نفسها، وأذكر ذلك الحذاء جيداً، كان علامة تميّزك.

. زميلي في الدفعة؟ أنت؟ لا أظن، كنت تذكرتك بالتأكيد.

. أنا شخص لا أعلق في الذاكرة، لا أتحدث بين الجموع، ولا أتحدّث بأي ميرة، ولم أكن أخالط الطلاب كثيراً.

. مستحيل، أنا ذاكرتي جيدة جداً خصوصاً في الوجوه والأسماء، لم أر وجهك في حياتي. أنا في كلية الآداب منذ اثنين وثلاثين عاماً، لم يمرّ معي أي طالب اسمه مايك لا حين كنت طالبة ولا حين أصبحت مدرّسة.

لدي اسمٌ آخر. في الجامعة كان اسمي غريب.

لا مايك ولا غريب. أنا متأكدة مئة بالمئة. وأضافت إلى حيرتها سؤالاً آخر وجهته لنفسها: ما الذي يخفيه هذا الرجل الغامض؟ لماذا يكذب كذبة بهذه السذاجة؟

خلال الساعة وعشرين دقيقة التي احتاجتها الرحلة، غيرت عبلة تقنيّتها، وقررت استنتاج ما تريد معرفته من خلال أسئلة تتوعت بين المرح والتافه والمباغت. أُخِبت لأن مايك ليس لديه برج، ولا يعرف عن مولده سوى أنه كان في الشتاء، وليس لديه زوجة ولا أبناء، وثروته بناها، كما يقولون جميعاً، من الاستثمار في السياحة والإنتاج الفني والعقارات والاستيراد والتصدير. وعبرت عن عجزها في استنتاج موقف مايك السياسي، بأن برزت لنفسها بأنه قد يكون فعلاً أول شخص تقابله لا يشبه الموالات ولا المعارضة. ولا أولئك الذين جمدوا في البرزخ، وفغروا أفواههم كحيوانٍ مشدوه أمام ضوء سيارة. مثل الخائفين على دكاكينهم، أو مثل واشمي الأممية على جلودهم الرقيقة التي تخفي تحتها طبقات من الهويات الطائفية والعشائرية والقومية، والذين لم يكونوا في ذلك الوقت من نهايات عام 2012 قد سلخوا جلودهم بعد، ولا حوروا في حروف الوشوم، أو أولوها، أو أخفوها تحت البركات المموّهة أو الجلابيب.

تحول إجاباتها قلقاً واهتزاز ثقة حين عرفت أن ليست لديه خطة واضحة لما سيفعل في البلاد، وأنه طلب اللقاء الطويل معها كي تمنحه خطة.

حين حطت الطائرة وشاهدت عبلة الحروف الغريبة على الواجهات صرخت كمشجع كرة قدم: اليو.. نا.. نا..؟!

أثينا.

قفزت بفرح طفل وعانقت مايك: يا الله، هذه أجمل هدية تلقيتها في

حياتي، حين قلت لك أريد مكاناً مفعماً بالفلسفة، لم يخطر لي أن يكون المكان هو الفلسفة ذاتها.

السيارة تنتظرهما عند السلم. وكما حصل في بيروت، ذهبت جوازات السفر وحدها لتنتهي إجراءاتها ريثما وصلوا إلى بوابة المطار. لم يتبادل مع السائق سوى تحية الصباح، فخارطة الحركة قد وصلته من جلّ الديب قبل الفجر بقليل.

قفزت عبلة من السيارة كخيول المتنبي اللواتي «ما لهنّ قوائم»، ثم حين وطئت الحجارة القديمة في ميدان «آغورا» تحولت واحدة من نساء الأعشى ميمون الغرّاوات الفرعاوات اللواتي يمررن كالسحاب ويمشين الهوينى «لا ريث ولا عجل».

حين كنّا في السنة الأولى حضرنا محاضرة مشتركة لأنطون مقدسي وطيب تيزيني في المدرّج الثالث، كانت هناك مناسبة ما، أظن اسمها أسبوع العلم أو شيئاً من هذا القبيل. بنهاية المحاضرة وقفت في منتصف المدرّج، وصرخت متأثرة بحكاية رواها الأستاذان عن بدايات الفلسفة: «أنا رايحة على السوق لأسأل الناس الأسئلة مثل سقراط، وإذا حكموني بشرب السم رح اشربو، المهم علم الناس ووعيهم، ووصلهم للحكمة!».

زمت عينيها ورسمت ابتسامة خجولة، واستعادت ملامح غائمة من تلك الذكرى المراهقة، ثم أطلقت ضحكتها الهستيرية: أجل في التاسعة عشرة كنت أظن نفسي أذكي مخلوق على وجه الأرض. غصت بضحكتها مجدداً واستدركت: أظنني كنت محقّة آنذاك، كما دائماً. ورغم ذلك هذه القصة لن تقنعني أنك كنت زميلنا في الدفعة، وسأعرف يوماً من أين أتيت بها.

لم تترك ردودها وضحكاتها المستمرة أي أثر في وجه مايك الجامد:

هذه الأعورا. هنا كان السوق الذي يقف فيه سقراط ليسأل الناس الأسئلة، وبيّن لهم أن إجاباتهم ليست كافية، وهنا تجرّع السم كي يعلمهم احترام القانون. أنت تقفين في المكان ذاته، اذهبي واسألي الناس ما تشائين، علميهم ما تريدن، أيقظي وعيهم. سأنتظر على هذه الصخرة، لديك ساعة، سنزور بعدها رواق أتالوس، ثم نذهب لتلة بنيكس ونزور أكاديمية أفلاطون وثانوية أرسطو.

ارتجف جسدها من هول ما يفعل الرجل، لمعت في رأسها فكرة استحضرتها من أفلام الأبيض والأسود. ارتضتها لنفسها فسرتّها، وللرجل فأضاءته، ولما يجري فسّرتّه: لا يمكن لأحد أن يفعل شيئاً كهذا دون أن يكون دافعه الحب.

لن أسأل أحداً سواك، من أنت؟ ماذا يجري؟ وماذا تريد مني؟

أنا مايك الشرقي، غريب الحصوص. كما تشائين. أريد أن ترشديني لما سأفعل، وتعلميني كيف أصنع الرموز، ولديّ عرض عمل لك.

هبط إيقاع ملامحها حين شعرت بجديته وصدقه، وعدّلت الجملة لنفسها: من المؤسف أن يفعل أحد شيئاً كهذا دون أن يكون دافعه الحب.

معلوماتي أنه لم تبقى أي آثار من أكاديمية أفلاطون ولا أرسطو.

كانت تحت الأرض منذ زلزال القرن الرابع، اكتشفوها مؤخراً.

خلال النهار جالاً على متاحف الأكروبوليس، وسارا على الدروب الحجرية في التلة العالية. وطئت الأرض بحذر من يطاءً جفوناً، فلربما داس هذا الحجر زينون أو أفلاطون أو طاليس. تناولا سندويتشات سريعة أثناء تجوالهما في المدينة. التقطت لنفسها عشرات الصور، وطلبت من

مايك أن يلتقط لها أخرى. تجوّلًا كذلك بين موضوعات الكلام، تنقلًا بين وصف ما يشاهدان وأحاديث الأصدقاء العشوائية، وأحاديث العمل.

شرح لها مايك بعض ما وصل إليه منذ اجتماعهم الأول، وما قاله الشيخ البقيعي، وما قاله فايز عاج الشام، وحصيلة البحوث التي كتبها الخبراء الآخرون، تحلّى بالعملية والمباشرة التي تليق به: أريد أن تكلمي ما بدؤوه، وتتشارك صياغة المشروع أو المشاريع التي سنؤسسها. ومبدئيًا لديّ عرض عمل محدّد لك، أريد ان أفتتح جامعة، وأريدك أن تصمّمها وترأسها.

قبولها لعرض العمل صاغته بأسوأ طريقة يمكن أن تخطر في البال. ربما لأن كل ما كان يجول في رأسها بتلك اللحظة هو القدرة العجائبية للمال على اجتراح المعجزات:

كم سيكون راتبتي؟

. عشرة أضعاف ما ستطلبين وعشرين ضعف ما تتوقعين.

. ولماذا تعتقد أن ما سأطلبه ليس ما أتوقعه؟

. لنقل ليست المرة الأولى لي، لقد سبق أن أنجزت هذا النوع من

الصفقات قبلك مع 30 ألف شخص في أربعين بلدًا.

استمرت بقول ما يخطر لها حين يخطر لها: يقال إن المال لا يجلب السعادة. هكذا يقولون منذ اخترعوه. نحن جميعاً نحب أن نجرب ذلك بأنفسنا، وأعلبنا لا يستطيع، أنت ممن جرّبوا، هل تجيبني عن هذا السؤال؟

. بكلّ ثقة أستطيع أن أقول إن المال. مثله مثل أي شيء آخر. لا يجلب

السعادة، فالشيء الوحيد الذي يجلب السعادة هو الوهم. وأهمية المال أنه يساعدنا على خلق المزيد من الأوهام، وشراء الكثير من أوهام الآخرين.

هذا ما تفعله معنا جميعاً الآن؟ تشتري أوهامنا لتصنع منها وهماً يمنحك السعادة.

لم أتبه سابقاً، ولم أقصد ذلك، لكن ربما أنت محقّة. سأجمع أوهامكم في وهم كبير، وأصنع منه سعادتِي الأخيرة.
لا أعرف بشأن الآخرين، ما لديّ أنا على الأقل ليس أوهاماً، إنها الحقيقة المطلقة.

أخفى ابتسامة السخرية التي يستحقها هذا الوهم (المرفوع إلى الأسّ وَهْم): عظيم، أخبريني إذا كيف سنعيد حقائقك المطلقة وهماً، لنتمكّن من بيعها.

تعال نتفق أولاً أن نكون واضحين، أخبرني بما تريد حقاً، لأخبرك بما عليك فعله. اعتبرني طبيبك، لا يمكنني أن أصف لك الدواء الصحيح ما لم تخبرني تماماً بمواضع ألمك.

التزمَ بثلاث القسَم الذي تطلبه المحاكم، فأخبرها الحقيقة، لكن ليس كل الحقيقة، وزينها بإضافات ليست من الحقيقة.

فَهَمَّت عبلة ما أراد لها مايك أن تفهمه، وصدّقت ما أراد لها طموحها أن تصدّقه. استكانت إلى رواية أرضتها: مايك الشرقي رجل أعمال عالمي، ثري لدرجة لا يمكن لعقلها أن يستوعبه، أصله من البلاد المهشّمة، والدم لا يمكن أن يحال ماءً. دمه الأول يحنّ إلى ترابه، وسيدفع الدّم بالمال إلى حيث يجب. وهو يحتاجها كي يرتقي بشخصه وشركاته ومشاريعه، وينهل من المعرفة التي تحملها، وعليها أن تبذل أقصى ما تستطيع لتجعله يضع أكبر كمية من هذا المال في موضعها الصحيح ضمن منظومة القيم التي تعرفها:
فور عودتي سأبدأ بصياغة كل ما حلمت به في حياتي لشكل الجامعة

الذي يجب أن يكون، وكل تصوراتي للمؤسسة الأكاديمية الكبرى التي تحتاجها بلادنا، أنا مفتونة بالتجربتين الهندية والفنلندية بالتعليم، ولكن ما هي حدودي؟

. لا حدود. صلاحياتك مطلقة.

. أقصد حدود الإمكانيات المرصودة للمشروع، المساحة، العدد، الحجم..

. لا حدود، أريد جامعة عظيمة، ولا يهمني أي شيء آخر.

. هل أستطيع أن أخطط لخمسين كلية، ومركز بحث علمي، ودار نشر أكاديمية، ومركز أنشطة ومسارح وملعب؟

. هذا ما أريد تماماً، خططني كما تشائين، وسأنفذ كل ما يلزم!

. يا للرب! مصنع لإنتاج المعرفة، ومن الشرق كما كان دائماً؟! وكما عليه

أن يكون، هذا يجمع كل ما حلمت به في حياتي، ولكن هذا قد يكلف مئات الملايين من الدولارات!

ابتسم مايك وهز رأسه موافقاً: تحديد التكلفة له مختصون، مهمتك أن تخبرنا ما الذي تحتاجه جامعة لتكون عظيمة، ثم لا تضيعي وقتنا بشؤون مؤجلة، قرأت بحثك وأعجبتني اهتمامك بالزموز، نحن معاً اليوم كي تعلميني كيف ألتقطها وكيف أصنعها.

. لا يمكن للأباطرة تعلم الهندسة، لأن ما من طريق ملكي إلى الرياضيات.

. لم أفهم.

. أكرّر ما قاله إقليدس لملك مصر بطليموس الأول حين طلب منه

أن يعلمه الهندسة بدروس قليلة تناسب وقته وانشغاله بشؤون الحكم.

تقصدین أني لا أصلح لفهم لعبة الرموز.

أنت مفطور عليها، لكنني لا أستطيع أن ألخص لك سنوات من الفضول
بعبارات قليلة، خصوصاً أن قدمي تورمتا من المشي.

لنسترح قليلاً، لست مستعجلاً على التعلّم، ولن أكتفي بفطرتي.
لنبدأ بالأسهل، أخبريني كيف سنطبّق نظرياتك على الشام؟

في الشام لا تحتاج أن تصنع رموزاً، يكفي أن تلتقطها، حتى إنك لست
بحاجة إلى أن تختارها، أمسك بأول واحدة تصادفك وأخبر الناس عنها،
ما رويته لي عن لسان الشيخ محمّد يكفي سبع أمم، وما رويته عن الباب
الشرقي يكفي لأجيال. أهمّ شيء في صناعة الرموز أن تأخذها من مألوف
الناس، يجب أن تكون قريبة وشائعة، غلّفها ببعض الغموض ثم نبههم إليها،
واشغل ما تبقى من حياتهم بتفكيك هذا الغموض، قد يصل بعضهم بعد
زمن طويل إلى ما كان لديهم أصلاً، وقد لا يصلون أبداً. لا يهمّ، فالإيمان
رحلة وليس محطة وصول.

كيف يمكنني أن أغلّف بالغموض ما هو شديد الوضوح؟

الأمر سهل، افعل كما فعلت الأديان جميعاً، اصنع للناس ما يطابق
عاداتهم، الجزء المريح في صناعة الأديان أن الناس مستعدّون لتغيير آلهتهم
وليسوا مستعدّين لتغيير عاداتهم، أرسل عاداتهم إلى السماء ثم أنزلها منها
وكأنها كانت تختبئ هناك منذ الأزل. قدّس بعضها، أوصهم أن يفعلوا ما
يفعلونه أصلاً، حرّم ما يكرهونه، تخفّف ممّا لا يناسب مزاجهم وغرائرهم،
سيتبعونك، سيموتون في سبيلك، سيموتون مبتسمين.

كيف سنفعل ذلك في الشام؟ كيف سنفعل شرقي الباب؟

كل الرموز تحتاج إلى حكايا، وفي موضع اهتمامك لا نحتاج إلى كبير

جهد، فحكايتهما جاهرة، لولا حكاية الخيانة لما استطاع الصليب أن يكون رمزاً. هنا لدينا ألف حكاية، ولدينا ثلاثة أقواس ومنازة و1612 حجراً، لدينا كل ما يلزم لنصنع الرموز التي نريد.

.أريكني يا دكتورة!

.حاولت أن أقدم الفكرة بطريقة غير معقدة.

.لم تربيكي الفكرة، أنت من فعلت، كيف لمن يفهم التاريخ البشري بهذه الطريقة، أن يشغل نصف يومي بمحاولة معرفة برجي؟
.الأبراج رموز، أحبها لأنها كذلك.

ليهرب من ارتبأكه أمام هذا العقل الغريب الذي يجمع المتناقضات، نظر مايك في ساعة يده، كادت تصل إلى الثامنة، جدّد عروضه السخية: إذا أردت العودة إلى بيروت نستطيع أن نعود الآن، وإذا أردت يمكننا البقاء هنا حتى الغد أو بقدر ما تشائين. لكنني أدعوك لتكمل ليلتنا في قبرص، لديّ أصدقاء أحبهم هناك. أنت تعرفين بيان، التقيتما في الاجتماع الأول، يعيش مع سلمى سيسرك التعرّف عليها، وستشارك حوارنا معهم.

أعجبتها الفكرة الأخيرة، ووافقت عليها بحماس، دون أن تجهد نفسها بالأسئلة التي خطرت لها عن التأشيرات والإجراءات، عن الصفة التي ستذهب بها، فقد وصلت إلى استسلام أنها بين أيدي قادرة وأمينة.

**

بدت الاستعدادات في بيت بيان وسلمى لاستقبال مايك ومعه صديقة من دمشق وكأنها تجري منذ أسبوع، رغم أن الوقت الفاصل بين إبلاغهما ووصول الضيوف لم يتعدّ الثلاث ساعات. فلسبب ما خطر لسلمى أنها ستستقبل «سلفتها» الجديدة، ولم يكن هذا خطأها الوحيد في تلك الليلة.

ما تعرفه سلمى عن عبلة، جعلها تُنزل ثقتها بنفسها درجتين. فالجمل الثاقبة التي نقلها لها بيان عن المرأة بعد عودته من بيروت، وأثناء قراءته لبحثها، جمّدتها في وضعية التلميذ المترقّب للقاء عقلٍ فدّ، وسيرتها الذاتية واختصاصها بالفلسفة العربية ووصولها إلى مرتبة عميد كلية في جامعة دمشق، حدّدا لهذا التلميذ نوعية الأسئلة التي ستوجّهها، وموضوعاتها، والحوارات التي ستجرؤ على المشاركة فيها.

الحب والتقدير اللذين استقبلت بهما سلمى ضيفتها كانا نابعين من هذا الاستعداد، ومن طبعها الأصيل، ومن حبّها لمايك، ومن رغبتها الخفية أن تكون «الكنّة» المحبوبة في هذه العائلة. عانقتها كصديقتين قديمتين، قدّمت لها كل ما تحتاجه امرأة من امرأة: دعيتها لتأخذ حماماً ساخناً، تركت لها على الرف ملابس داخلية بخيارات متعددة تمتد من قطن الطالبات، حتى دانتيل فتيات الاستعراض، لتختار ما يناسب صورتها لمستقبل ليلتها، وضعت لها في خزانة غرفتها خيارات أخرى من ملابس الخروج المريحة والملابس البيئية وملابس النوم، قرّبت بنفسها حذاء المنزل القماشي من قدميها.

حين انضمت المرأتان إلى حلقة الأرائك المحيطة بطاولة المنتصف المليئة بالمقبّلات المتوسطة اللطيفة وصحون التشكيلات الشمالية الباردة، قطع مايك حديثه مع بيان ليخبر سلمى: عبلة خبيرة من طراز خطير بالأبراج والطاقة وقراءة الطالع، إذا كان لديك اهتمام بمعرفة مستقبلك! ضحكت سلمى بسخرية معتقدة أن مايك يمزح. بدا أن عبلة شعرت بالاستفزاز، وأنقذها من الانجرار لتعليق غاضب أن سلمى اتجهت إلى طاولة المشروبات وبدأت تعدد الخيارات لها لتختار ما ستشرب.

ارتشفت مما اختارت دون معرفة وهدأت قليلاً، لكنّها لم تستطع أن تمرّر ضحكة سلمى التي أشعرتها بالإهانة: ألا تؤمنين بالأبراج؟

الأبراج؟ القوس والجدي لا يؤمنون بها.

أنا أهتمّ بالأبراج بوصفها رموزاً.

كيف للأبراج أن تكون رموزاً؟

هكذا، ككل الرموز الأخرى، منذ قسموا أيام السنة على أبراج الفلك، أصبح اليوم الذي يولد فيه الإنسان رمزاً يربطه بمجموعة نجوم، وأصبح الرمز يختصر صفات ومصائر، فصارت للرمز رموز.

بهذه الطريقة يمكن لأي شيء أن يكون رمزاً.

وهو كذلك فعلاً، أي شيء يخطر في بالك يمكن أن يكون رمزاً لشيء،

أو يكون شيء آخر رمزاً له، اختاري أي شيء يخطر في بالك واجعليه رمزاً.

ربما تكون الأبراج مسئّلية وفيها متعة من نوع ما، لكنني لا أستطيع

التعامل معها بجدّية.

يمكنك أن تشكّكي بها قدر ما تشائين، فليست كل العقول قادرة على

معرفة المستوى العميق من الأشياء. بالنسبة لي الأبراج حقائق مطلقة،

وأنا أعرف الجانب العلمي منها، إنها فوق مستوى التشكيك، اسمعي

نصيحتي، لا تستمرّي بلعب هذا الدور، الشكّ متعب!

بهذا السياق أنا أحب جملة فولتير: «صحيح أن الشك يخلق وضعاً

غير مريح، لكن اليقين سخيف».

تعرفين فولتير أيضاً؟ كنت أقول من أين تأتيين بهذه المماحكات.

أراد مايك أن لا يخسر اللقاء مسحة الانسجام التي وسمت بدايته:

أنتم تضيعون حديث الأبراج، كي لا نخبرنا الدكتوراة بأسراركم.

قاطعته عبلة التي أصبحت مستفزة تماماً: انظروا من يتحدّث عن

الأسرار، الرجل الأكثر غموضاً في العالم.

اعترضت سلمى: مايك الرجل الأكثر غموضاً؟ إنه أوضح رجل قابلته في حياتي.

تدخّل مايك موجّهاً كلامه لسلمى: لقد بنت كل نظريتها على أنني أعرف عنها بعض الذكريات القديمة، وسألّنتي كيف أعرفها، وأجبتها ببساطة إنني كنت زميلها في الجامعة، وهي مصرّة أنني لم أكن كذلك، ماذا يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك.

حاولت عبلة شرح موقفها وتحدّثت بعد كأسين بكلّ أريحية: أنا أثق بذاكرتي ثقة مطلقة، ولم يكن معي لا في الجامعة ولا في غيرها، وحتى لو افترضنا أنه زميلي وهو طبعاً لم يكن كذلك، فهذا يزيد الأمر غموضاً. كيف يمكن لشخص واحد أن يكون طالب فلسفة في دمشق، ثم يصبح رجل أعمال في لبنان، ثم رجل أعمال عالمياً، ثم يريد أن ينفذ مشروعاً تقوم به الحكومات أو المنظمات الدولية، وينشغل تماماً باهتمامات روحانية وفكرية ويريد تكييف مشروعه معها، هذه التناقضات تجعلني أكثر ريبية.

تابعت سلمى دورها بالدفاع عن مايك بطريقتها الهادئة: ما نفعه في هذا العالم هو دور نلعبه في مسرحية الحياة، ألا تعرفين ممثلين أدوا دوراً في مسرحية أو فيلم ما، وتعلّقوا به لدرجة أنهم ظلوا يكرّرونه طيلة حياتهم؟ ماذا نسّمى هؤلاء؟ ممثلين فاشلين؟ أجل فاشلين. الممثل الناجح من ينتقل من دور إلى دور، وكلما اتسعت الموهبة اتسع التناقض بين الدورين. لأجل ذلك تضعين هذه الدوائر المضحكة في أذنك؟ لتوسعي دوائر أدوارك في مسرحية الحياة؟

مدّت سلمى يدها وتلمّست قرطبيها الكبيرين، مصعوقة من فظاظة عبلة، وطريقتها الطفولية في الاستفزاز، ونهضت باتجاه المطبخ لتشرف على تجهيز الأطباق الرئيسية للعشاء المتأخر.

حين عادت كانت عبلة تتابع لعب دورها كأستاذة وكأن شيئاً لم يحدث، وتشرح لبيان ومايك عن تطور لعبة الرموز عبر التاريخ البشري، وسلسلت أفكارها كأنها في مدرّج جامعة، والتقطت سلمى الجملة الفارقة الأخيرة: حتى جاء العقل الإلحادي وعصر العلم وخرّب كل شيء.

ولم تتمالك نفسها من الرد بلهجة ساخرة مقامرة بأن تبدو نبرتها رداً على إهانة القرط وليس انتصاراً للعلم: جاء عصر العلم وخرّب كل شيء؟ الله الله يا دكتورة، هذا ما يتعلّمه طلاب الجامعات هذه الأيام!؟

حاول بيان التّدخل ليعيد الحوار إلى سياقه الموضوعي: ما تقصده الدكتورة له علاقة بتطور الرموز عبر التاريخ، وإيقاف عصر العلم لهذا التطور، وليس كما فهمت.

ظلت سلمى مصرّة: أياً يكن المنشأ، لا يجوز أن يقال عن العلم إنه خرّب كل شيء؟ حتى لو كان هذا الشيء لعبة رموز سخيفة.

رفعت عبلة يديها وقد قاطعت كفيها براوية قائمة: لعبة الرموز ليست سخيفة، إنها التاريخ البشري. أجل عصر العلم خرّب كل شيء وليس فقط الرموز. نحن بحاجة الآن إلى موجة خامسة تعيد بعض التوازن للعقل البشري وتعيده قليلاً إلى الروح، وتخفّف من غروره الفارغ الذي منحته إياه العلوم التطبيقية. الأجوبة مخيفة وكثيية ومدمّرة، وإذا استمر العلم بتقديم الإجابات بهذه الطريقة فسيدمر كل شيء، الحياة لن تستمر إن لم نُعد إليها بعض الغموض.

حاول بيان التّدخل لكنّ صوت سلمى كان أعلى ونبرتها أكثر حسماً: لنترفع درجة، أن الوقت لنؤمن بالعقل فهو الإله الجدير بالتقديس، فلم نعد بالسذاجة التي كنا عليها قبل ألفين وخمسمئة سنة.

أطلقت عبلة ضحكة هازئة: هذا كلام مراهقين سمعوا كلمة وأعجبهم

دون أن يعرفوا عنها شيئاً، ثم أدارت وجهها نحو مايك وتابعت كلامها: لا تعينني ذات الأذنين المشدودتين، أنا أعمل معك ووافققت أن أصبح جزءاً من مشروعك لأنك ستفعل ذلك، لأنك ستستخدم الوسائل القديمة ذاتها، والرموز ذاتها، أنا معك لأننا سنعيد الناس إلى مرحلة السؤال والغموض.

امتصّ بيان التوتر الذي ساد الجو بأن نهض ودعا الجميع لإكمال الحوار حول طاولة الطعام التي أصبحت جاهرة.

طيلة حياته عرف مايك كيف يحكم على الأشياء وكيف يقيّمها، لكنه غالباً لا يعرف كيف يقول ذلك. هذه المرة كانت من الاستثناءات القليلة، فحين همست له سلمى غاضبة مع ذهاب عبلّة لتغسل يديها قبل الطعام: كيف تسلّم مشروعاً بهذه الأهمية لهذه الرعونة؟ ما الذي يعجبك في هذه المرأة؟

. لا يمكن لفكرة كبيرة أن تنال تقبّل العامّة ما لم تكن مغلفة ببعض التفاهة، وممزوجة بشيء من الغباء.

لا صوت يعلو فوق صوت المعركة

لتسبر الدروب على التوازي. لن تحتاج بالضرورة أن تتقاطع أو تطلّ على بعضها أو حتى تعرف عن بعضها، فالطيّون الذين يريدون أن يطعموا البلاد نقائق، ليس عليهم أن يشاهدوا كيف تمّت عملية إفراغ الأمعاء. ومن يفرغونها لا يهمهم أن يعرفوا قوام حشوتها وخلطة بهاراتها ومن سيأكل منها.

ففيما انغمس الطهاة المستشارون بتحضير المقادير لرسم رؤية «من خارج الصندوق»، سهر مفرغو الأمعاء: إسماعيل ورجاله، متمردون ومسؤولون وعسكريون ومسّاحون، ليكملوا خطّهم لتمهيد الأرض اللازمة، وتركيب الرؤية عليها.

الأراضي الشاسعة المقابلة للباب الشرقي كانت الحصّة التي يريد مايك الشرقي امتلاكها من الكوكب الأزرق. حاول أن يقضمها بالتدريج وبالطرق القياسية عبر سنوات، استعداداً للحظة المناسبة، لكنّه لم ينجح، فالمنطقة معقّدة وتداخل فيها الملكيات بين أراضٍ خاصة، وملكيات وقفية لطوائف مختلفة، كنائس ومساجد ومقامات، أملاك دولة، أراضٍ مستولى عليها، أراضٍ مستملكة، ورش للدباغة وصناعة الفخّار والزجاج وإعادة تدوير زيت المحركات أقيمت منذ عشرات السنين على أراضٍ تملكها المحافظة. بيوت متفرّقة مبنية على أراضٍ تملكها وزارة الزراعة، أحياء مكتنزة مبنية عشوائياً على أراضٍ لوزارة الإدارة المحلية تسري عليها قوانين وضع اليد.

الظروف تغيّرت الآن، وصارت تستدعي خطّاً بديلة، ظروف المكان

تغيّرت، وأحلام مايك تغيرت. فيما مضى حلم مايك الشرقي كل يوم بأن يحول هذه الأراضي إلى نوع من أنواع المارينا أو جميرة، ويجلس في آخر طابق من أعلى برج فيها لي شاهد طيلة الوقت كل الأماكن التي يحبها أو يكرهها في تلك المدينة.

صارت تحتاج الآن إلى التعامل معها كأرضٍ جرداء، ومايك لم يعد يكتفي بأن يكون أبولو دور الدمشقي، بات يريد أن يكون شاؤول الطرسوسي أو خالد بن الوليد، بل أحد المسيحيين إن استطاع.

سارت الدروب الثلاثة في وقت واحد: سامر يعمل جاهداً داخل المجالس الست التي تتقاسم ملكية هذه الأراضي المتداخلة، لضمان تصويتها على بيع حصتها من هذا المستطيل، أو تأجيرها لتسع وتسعين عاماً. لديه ستون شخصاً، لكل منهم ثمن أو مفتاح أو طريقة إقناع أو طرق إزاحة.

سهرات ودعوات وهدايا من مستوى بيوت في مشروع دمر وسيارات ألمانية وحقائب من الأموال السائلة، تسجيلات ابتزاز، خطف أبناء، تقرير كيدي، ملف فساد فضائحي.

الفريق الاستشاري الموسّع يدرس وظائف ومشاريع ويقدم اقتراحات. الفريق المصعّر يرسم أحلاماً ورؤى، ويجلب الحكايات والمفاهيم من كتب التاريخ والفلسفة ومن المخيلة.

إسماعيل وشفيق المكلفان بتمهيد الأرض و«تطهيرها» من رجس الحياة الواقعية التي تراكمت عبر القرون، أنهما مهمتهما أولاً، مستفيدين من الظروف الميدانية الطارئة التي سادت في تلك الأشهر من عام 2013.

لم يكن صعباً على شفيق أن يجمع ثلاثين رجلاً ولبسهم بزات عسكرية ويضعهم خلف طاولة جلوساً ووقوفاً، ويحملهم بنادق كلاشينكوف وقاذفات آر بي جي، ويرزّن طاولتهم ببعض القنابل اليدوية الهجومية، ليعلن أكبرهم

سناً عن تشكيل كتيبة الأحد عشرية. وبعد الترحّم على الشهداء وطلب الشفاء للجرحي والحرية للمعتقلين، حدّد برنامج عمل الكتيبة بهدف واحد وهو إسقاط النظام وبدء عملية التحرير من قلب دمشق.

كان هذا المشهد مألوفاً ومتوقّعاً ومكرراً كثيراً في تلك الأيام، ففي كل أسبوع تعلن عشرة جيوش جديدة عن نفسها، فهذه كتيبة وذاك لواء أو فوج وهؤلاء فرقة وأولئك فيلق. ولن تزيد كتيبة الأحد عشرية أو تنقص من الـ 1648 تشكيلاً عسكرياً أعلنت عن نفسها بطريقة أو بأخرى، ولم تكن تحتاج إلا إلى بضع بنادق وكاميرا وموبايل واتصال إنترنت لبضع دقائق لتحميل الفيديو على موقع يوتيوب.

حظيت كتيبة الأحد عشرية باهتمام إضافي، فخلال الأيام الثلاثة التي تلت إعلان تشكيلها، صارت لها صفحة نشطة على تويتر وأخرى على فيسبوك وقناة على يوتيوب تؤثّق عملياتها البطولية بالصوت والصورة، وصارت لعملياتها موسيقاً تصويرية خاصة تملأ الرؤوس بالحماس. في الأيام الثلاثة التالية هاجمت عناصرها (أو ربما عناصر جهة أخرى من يدري؟) حاجزين للجيش وسيارة عسكرية تقل جنوداً، ونجحت في قطع الطريق المؤدي إلى المليحة، وألقت بقذيفتين على مقسم الهاتف وواحدة أخرى على معمل الألبان، ووضعت عبوة ناسفة قرب المتحلق الجنوبي تحت مفرق عين ترما.

مساء اليوم السابع كان سيد مرسي، العقيد المتقاعد من سلاح المدرعات في الجيش المصري الثاني على شاشة قناة إخبارية كبرى يقدم من داخل الاستديو تحليلاً عسكرياً بلهجته المصرية المتخففة، ضمّنه شرحاً ميدانياً واستراتيجياً يُثبت الأهمية القصوى لهذه الكتيبة، بوصفها أهم حلقة في حلقات سقوط النظام:

«الثوار بقوا دلوقت حوالين مسجد سيدنا ضرار بن الأزور، ربّنا يلهمهم

شجاعته وإقدامه، يعني حرّروا الزبلطاني وجوبر والطريق الابنودة التي يقطع العاصمة واللي بيسموه المتحلق، وهماّ النهار ده الصبح في الإدعشيرة، ودي بتبعد عن القصر الجمهوري كالأمام؟؟؟؟ ما عرفتوش؟ انا حقولكو كام. دي بتبعد خمسة ونص كيلو متر، إحنا دلوقت بقينا بنتكلم عن آخر خمسة ونص كيلو متر. يعني بالعلم العسكري القوات تقدر تتقدم داخل المدن بظل النوع ده من المقاومة نص كيلو متر يومياً علشان بتحتاج لوقت للتطهير وتفتيش المباني، وإعطاء وقت لتقهقر العدو، وعلى كدة يبقى فاضل إحد عشر يوم على ما يسقط النظام. والمفارقة المذهلة سبحان الله إن المنطقة الي بيتقدم فيها الثوار اليومين دوله اسمها الاحدعشيرة، وانا دلوقت من خبرتي العسكرية والميدانية بزف للشعب السوري بشري إن المسألة بقت أيام وحنحتفل جميعاً في ساحة الأمويين بالنصر القريب بإذن الله!.

كزّرت المذبحة المتحمّسة العبارة الأخيرة: إذاً فحسب المعطيات العسكرية بقي في عمر النظام أحد عشر يوماً. ثم دوت الموسيقى الحماسية، وانتقلت المذبحة لتغطية ما يجري بين النهدين في جبال اليمن.

طيلة اليوم التالي انهالت مئات القذائف المدفعية على المساحة الممتدة من الباب الشرقي حتى جوبر، ومن أطراف الدويلعة حتى الزبلطاني، قبل الغروب بقليل شاركت طائرات حربية لحوالي 40 دقيقة بدك «معاقل الإرهابيين»، وحماية العاصمة من خطرهم.

وبعد يومين كانت وحدات المشاة والوحدات الميكانيكية تتقدم لتطهّر المنطقة من «مخلفات الإرهاب»، بعد أن تقوم وحدات الهندسة بتفكيك العبوات وإزالة الألغام التي زرعوها في المنطقة «لترويع المواطنين الآمنين». خلال عشرة أيام عوّض مايك عشر سنوات من الجهد غير المثمر، وتمّت عملية «تنظيف» تلك المساحة الواسعة، وأزيلت البيوت والورش

الواطئة التي لا يمكن بناؤها من جديد، وُخِّلت تماماً من الناس، ولم تستهلك العملية الكثير من المال: أربعون ألف دولار تكلفة تشكيل الكتيبة وإعلانها، بما فيها أجور الكومبارس وصنّاع المحتوى، وكلفت العمليات التي نُسبت لها خمسين، والحقيبة التي وصلت للضابط المسؤول عن تقدير الموقف كانت تحتوي أونصات ذهبية مجموع وزنها كيلوين، مقابل تقديراته المبالغ بها لحجم القوة العسكرية المعادية، والتوصية باستخدام القوّة المفرطة للقضاء عليها.

ثم بعض الهدايا الأخرى لقائد العملية وجنوده، وقد تم تقديم الجزء العلني البريء منها في احتفال كبير تضمنته بعض الصلوات المشتركة في صالة إحدى الكنائس عند مدخل الدويلعة، حضرها بطريك واحد وعدة مطارنة ينتمون لثلاث طوائف لا تلتقي في العادة أبداً، وشارك فيها مفتي المدينة وممثلون عن مجلس إفتاء الجمهورية وأعضاء من لجنة مقامات أهل البيت. وردّد الجميع معاً وهم يمسكون بأيدي بعضهم «أبانا الذي في السماوات» وقرؤوا الفاتحة والنشيد الوطني كذلك، وكادوا يقرؤون نشيد البعث لو أن كورس الكنيسة يحفظه، والتقطت كاميرات المصورين صوراً تغني عن ألف كتاب، التقت فيها العمامات السوداء والبيضاء، والأردية المزينة بالصلبان الذهبية والياقات البيضاء والحمراء والبزات العسكرية المموّهة التي توزعت بإتقان بين هؤلاء الآباء والأسياذ لتكمل المشهد الوطني، وتقدّم للعالم «صورة التعايش التي قلّ نظيرها في العالم».

كاميرا وكالة (سانا) حصلت على لقطات متتالية للحظة نادرة كان فيها الأب يوسف منحياً يهمس بشيء ما لممثل وزارة الأوقاف، بينما تدلّت السلسلة الذهبية التي يعلّقها في صدره، وتأرجحت فارتطم الصليب بلحية فضيلة الشيخ ثم ناس إلى الجهة الأخرى فلامس كتف الرجل الجالس بجواره، تحديداً على النسر الذهبي الذي تبدأ به رتبته العسكرية. ونجح التقني في الوكالة بتحويل الصور العشرين إلى ما يبدو أنه فيديو قصير

ومعبرّ بالإيقاع البطيء باستخدام نسخة مقرصنة من برنامج فلاش أدوبي.
فرح الجميع بإبعاد الخطر عن قلب العاصمة، وزوال ما يهدّد الكنائس
الكثيرة في المنطقة، ونشرت صحيفة لبنانية عريقة وباهتة الصورة على
صفحتها الأولى ووضعت لها مانشيت: «أم وأب المعارك: حماية الوجود
المسيحي في الشرق».

محضر اجتماع شبه تنفيذي

ملاحظة 1: «خضع هذا الفصل لقانون تشاتام هاوس، حيث جاز لنا أن ننقل الأفكار التي دارت فيه، مع الالتزام بعدم الإشارة إلى قائلها».

ملاحظة 2: «حسب محضر الجلسة المدوّن. غالباً حرّره عمّار أو هيام. فقد حضر هذا الاجتماع ثمانية من المستشارين الأربعة عشر، واثنان من المنظمين ورئيس الشركة، وتمكّنا من معرفتهم لتغيّب بدر بسبب توقيفه أثناء مغادرته الحدود وسوقه إلى الخدمة العسكرية، ومعرفتنا مسبقاً بالاستغناء عن جلّنا ورائد وجمعة لعدم فاعليتهم، وعدم دعوة هشام وجورج وبسام لأن اختصاصاتهم غير مفيدة لموضوع الاجتماع».

**

لا صِحّة مطلقاً للاعتقاد بأنه كلما اجتمع أحد عشر شخصاً خلف باب مغلق فسيلقون بيوسفٍ ما في الجبّ. فهؤلاء الأحد عشر جاؤوا ليتناقشوا بشأن بلدٍ تنهشه الذئاب حقاً، وليس له يعقوب ييكيه أو يُكذّب عليه، ولا نوح ييني سفينةً للأخيار فيه.

وبدأ النقاش بالسؤال الأصلي اللائق: ما العمل؟

الأجوبة عن هذا السؤال يفترض أنها محضّرة مسبقاً، فكلُّ من المشاركين كان لديه الوقت الكافي لإنجاز المهمة التفصيلية التي ارتضاها لنفسه.

وهدف هذا الاجتماع خلط نتائج تلك المهام وصهرها وسكبها في رؤية نهائية ستخبر التنفيذيين بما عليهم فعله.

صاحب المهمة الأولى، اختصر محصلة جهده بعبارة مُحبطة للغاية:

كان عليّ خلال الأشهر السابقة أن أجمع وأفهم كل ما يتعلق بالباب الشرقي معمارياً وتاريخياً وجغرافياً ودينياً واجتماعياً، وأن أقدم لكم إحاطة كاملة عنه.

يوسفني أن أخبركم ما توصلت إليه نتيجة بحثي. وجدت أننا كي نفهم الباب الشرقي بشكل جيد نحن بحاجة إلى ما يعادل 2800 - 3200 كتاب من القطع المتوسط، وهذا يحتاج إلى جهود آلاف الأشخاص لعشرات السنين.

مدير الجلسة علّق بإيجابية على إعلان العجز: هذا دليل صريح أننا في الطريق الصحيح، وأنا نجحنا في اختيار القوس المناسب لنعبر من تحته إلى المستقبل.

ثم توالى التعليقات:

كلّ تغيير مهمّ حصل في العالم عبّر أولاً من تحت هذا القوس، فمنه عبر شاؤول الطرسوسي ليقتل المسيحيين الأوائل، ثم هبطت عليه الرؤيا هناك فتحوّل إلى بولس الرسول ونشر المسيحية في العالم، ولولا تلك الرؤيا لتخلّصنا من المسيحية في مهدها. ومنه عبّر خالد بن الوليد ليمهد تركين دولة للإسلام، ولولا ذلك لتخلّصنا أيضاً من الإسلام في مهده. ومنه دخل عبد الله بن علي ليقوِّض دولة الأمويين، ولولا ذلك لما وصلنا إلى غيمة هارون الرشيد «المشرقة والمغربّة تحمل خراجها أنّى شاءت»، وهي الجملة التي لوّثت أجيالاً تلو أجيال بذلك الاعتداد الرائف.

منه دخل نور الدين الزنكي ليحكم دمشق ويتسمّى لأجلها بالشهيد،

دخل الإغريق والرومان، سبتيموس وكركلًا، منه دخل كليب ليشتري ثياب عرس الجلييلة، ومنه دخل الفتى محمد مع قافلة أعمامه، ليملاً رأسه بتلك الصور المبهرة للشام وغوطتها، والتي لم يستطع الفكاك منها وهو يبشّر المؤمنين بمكافآتهم ويصف لهم الجنّة.

. إذاً كان ينفع في كل مرّة، فلم لا ينفع الآن؟

. فيه كلّ الخصائص التي تتطلّبها الرموز الخالدة.

. سينفع دائماً، وسيبقى نافعاً إلى أن تقوم الساعة.

. هذا بديهي، ستقوم الساعة أمامه، ولكن نقاشنا ليس في هذا.

. في الباب ما هو أعلى شأنًا من النفع والضرر، فيه أن الله سبحانه وتعالى يسّر لنا أن نجتمع معاً، واصطفانا من بين عباده لنحقّق مشيئته، هذه إرادة الله، وسأدعو الله ألا يحبط هممكم ولا يزغزغ نواياكم، وأن يقدرنا على الأخذ بيد أختنا مايك لنعينه على هذا العمل العظيم.

. ولكن العمل العظيم يحتاج إلى عناصر ومتطلبات، ونحن هنا اليوم لنناقشها، مثل نوع المشاريع التي ستقام في هذه المنطقة، وأول شيء سنناقشه مساحة الأراضي التي يمكن استثمارها، وكيفية الحصول عليها.

. الأراضي ستكون متاحة قريباً بشكل أو بآخر، وأمامنا خياران: أن نشترى حق الشراء ضمن البنية القائمة الآن، أو ننتظر انهيار الدولة بالكامل، ويمكننا أن نساهم في تسريع هذا أو تأجيل ذلك.

. مصلحتنا ألا تصل الدولة إلى مرحلة الانهيار، ومهما ساءت وتردّت يجب الحفاظ على الهياكل.

. حتى لو فرغت تماماً؟

. لتفرغ بقدر ما تريد، المهم أن يبقى الهيكل، من يمتلك حكاية وهيكلًا يمكنه الاستمرار باستعادتهما إلى الأبد، الناس تحب هذين الشئيين.

.أتشبهون ما نفعل بهيكل سليمان؟

.لسنا من فعل، جماعتك من فعلوا ذلك، ويستمرّون بفعله منذ قرون.

.لكننا نفدّ مشيئة الله.

.أستغفر الله، من الذي يمكن له أن يفعل ما يخالف المشيئة؟

.لا تشتتوا هدفنا، من الذي سيقوم بمهمة الحصول على الأرض؟

.رجال الشركة في دمشق.

.إذا كانوا هم من نعرفهم، فهم جيدون وينسقون سفرنا وقبض رواتبنا بشكل دقيق، لكنّ هذه المهمة تحتاج إلى رجال بمواصفات أخرى، أظن المهمة أكبر منهم.

.هذي بلاد تُختصر، ودائماً ما تنجح القامات الضئيلة في رسم ظلال عملاقة في وقت الغروب.

.لكن مع ازدياد الفوضى ستختلط الأوراق ويكثر اللاعبون، وسيصبح المشهد أكثر تعقيداً مع الوقت، وستصبح المهمة أكثر صعوبة.

.نحن نحب الألعاب الجماعية، ونحب الحبال المتشابكة، والمال يستطيع أن يشتري كل شيء.

.عذراً، ليس كل شيء.

.بل كلّ شيء، يختلف الرقم فقط، أنت لا تقول لن أبيع صديقي، بل تقول لا أبيع بمليون أو بمليار، فلنبدأ التفاوض من المليار ومئة.

.لا أتفق معك، فالناس معادن.

.أجل، لكن المال مغناطيس.

.الأمر ليس هكذا.

.بل هكذا، وإلا ماذا نفعل في هذه القاعة إذا؟

لنكن عمليين وعقلاء، لدينا مهام نجزها، ما مساحة الأراضي التي نتحدث عنها؟

. نحن نتحدث عن 24 كيلومتراً مربعاً.

. مساحة يمكن أن تبني دولة صغيرة، إذا ما امتلكت ما يكفي من المال والرموز.

. يبدو أنها تمتلك ما يكفي من كليهما.

. ما الذي سنضعه في هذه الدولة الصغيرة؟

. جامعة، أول شيء ستحتوي جامعة عظيمة، هذا موضوع اتفقت عليه مع السيد مايك.

. أبراج سكنية وتجارية، يجب أن تصبح أبهى مناطق العالم.

. والكنائس المحيطة بالباب؟ هل ستزيلونها؟

. بل سنبنى معها كنيسة جديدة، وستكون أكبر كنيسة في العالم.

. ضمنت الكنائس، لكن في المنطقة قبوراً لصحابة وأولياء كثير، هل ستبقى على حالها؟

. سنحفظها بالتأكيد، إلا إذا كان لديكم اقتراح أفضل.

. أنا أقترح أن نجتمع ما نستطيع منها في مكان واحد، سيكون المكان الأكثر أهمية على الإطلاق.

. لدي اقتراح معماري للمكان إذا اتفقتم عليه.

. اعتبر أننا اتفقنا، ما اقتراحك؟

. نصمم حديقة فيها كل الأشجار التي ورد ذكرها في القرآن، نجعلها على وصف الجنة، يمكننا أن نجلب كل النباتات والطيور التي وردت في الكتب

السماوية وشروحات الفقهاء، ونصنع الأنهار التي ستكون في الجنة. يمكن بقنوات صناعية مصممة كدارة مغلقة أن نصنع نهر خمر ونهر لبن ونهر غسل. لن تحتاج أن تجلب شيئاً، فليس في وصف الجنة شيء إلا وتجده في غوطة دمشق أساساً.

أقترح أن نسميها روضة الصحابة.

بارك الله بكم! وإذا فعلنا ذلك، علينا أن نضع خطة لنقل قبور الصحابة من مدن أخرى. مقبرة الكثيب الأحمر في حمص، فيها أربعمئة صحابي جاؤوا مع جيش الفتح، وهي اليوم منطقة معارك لأنها تقع على رأس مثلث بين ثلاث طوائف، وأخشى أن يدمروها، وأيضاً دفن في الرقة أكبر عدد من الصحابة بعد البقيع.

في الرقة أكثر من دمشق وحمص؟

كلّ شهداء صفين دُفنوا في الرقة.

كل من ماتوا في صفين شهداء؟

ياذن الله!

وكل شهداء صفين صحابة؟

فمن سيكونون إذا؟ بلاك ووتر!

لو سمحتم، لنبق نقاشنا ضمن سياق، ماذا سنضع أيضاً غير الجامعة

وروضة الصحابة والكنيسة؟

متحف لتاريخ الإسلام.

ومتحف للتاريخ المسيحي.

ومرصد فلكي.

. المرصد يجب أن يكون جزءاً من الجامعة.

. لا، الأفضل أن يكون المرصد مستقلاً، وتستفيد الجامعة منه، يجب أن يكون مفتوحاً للعموم، وفيه مكان لطلاب العلم.

. وليكن معه مرصد زلازل ومرصد للمناخ.

. ولماذا سنحتاج ذلك؟ ما فائدته للمشروع؟

. بعد بدء العمل في المشروع سنتعاون مع مشروع «هارب» لنقيم أنجح صلاة استسقاء في العالم. من الذي سينظم هذا التعاون؟ ومن الذي سيتعاون مثلاً مع المرصد البريطاني الذي سيدرس الخطوط الكهرومغناطيسية للأرض ويكتشف أن الباب الشرقي هو مركز الكوكب؟

. أي مركز بريطاني؟

. أي مركز بريطاني.

. وهل الباب الشرقي مركز الكوكب فعلاً؟

. ربما، وإلا لماذا سيعود المسيح هنا بالذات؟

. لكنهم يقولون إن مكة مركز الكوكب.

. وهي كذلك فعلاً، ألم تدرس مبادئ الهندسة في الإعدادية، نحن نتحدث عن كرة، يمكن لملاعب في تشيلي أو مطعم في لاتفيا أن يكون مركز الكوكب كذلك.

. ولكن هنا لا بد أن نعثر على معجزة علمية، فالرسول لا ينطق عن الهوى.

. لا أعرف ما تقصد، لكنّه لم ينطق عن الهوى أبداً.

. مهلاً، سؤال أساسي لم نطرحه على أنفسنا بعد، ألن يكون لمشروعنا

أعداء؟

.بالتأكيد، لا عمل عظيماً بلا أعداء.

فلندرسهم ولنضع خطة مواجهتهم، هل ستكون السلطة الحالية معنا
أو ضدنا؟

.كما نشاء.

.السلطة الحالية تعنيها أشياء محدّدة من أي موضوع، سنقدم لها ما
تريد، وستكون في صقنا، أو على الأقل ستغض الطرف عنا.
.هناك المثقفون والمؤمنون، لا بد أن يكون هناك من سيفتد روايتنا
لأنها تمس إيمانه أو قناعاته.

.أنا أرى أن هذه الفترة مناسبة جداً لبناء الروايات الجديدة، الجميع
مصطفون، ولا يعينهم من الرواية ما ستفعله بالله، سيعينهم منها فقط
هل تخدم رواية النظام أو رواية المعارضة. هؤلاء قلقون الآن من أي كلمة
تخالف مفرداتهم، متحفزون ليصبوا جام غضبهم عليها، وهذه الفرصة
المثلى لتشغلهم عن المعنى، قل الفكرة التي تريد ولن يخالفك أحد،
فقط أحسن اختيار المفردات المناسبة.

.لا أظن الأمر بهذه البساطة، هل يكفي اختيار الكلمات لتجنّب تيار
بهذه القوة؟

.هذه حرب كلمات، الكلمة هنا تعني دماً بشرياً حقيقياً.

.قد يصحّ هذا على عوام الناس، على الرعاغ، ولكن المثقفين؟ لا أظن.
بالعكس، المثقفون في هذه الفترة لديهم أغبى ما يمكن أن يمتلكه
المرء: لديهم بوصلة.

.كنتَ تناقشنا بأن المال قادر على شراء الجميع، تذكّرت الآن قوة
حقيقية لها تأثير كبير في المجتمع، مجموعة من السيدات الداعيات

صاحبات النفوذ، لا يمكن شراءهنّ بالمال، لأنهنّ يملكن الكثير منه، والكثير من مصادره الثابتة، لو وقفن ضدنا ماذا سنفعل بهنّ؟

هؤلاء لن يغريهن سوى أن يشعرن أن المستقبل الذي نصنعه سيكون فيه متسع لهنّ.

إذا كان لا يمكن شراءهنّ بالمال يمكن أن نفعّل العكس، نوهمهنّ أنهنّ من اشترانا، نقبل منهنّ تبرعاً، ونشكرهنّ على الملاء.

لكن من حيث المبدأ هل تحتاج دمشق إلى مساجد إضافية؟ أليس فيها الكثير منها؟

ليس الكثير، فقط 2800 مسجد، ومعظمها صغير.

حسب ما فهمت، أنكم لا تخطّطون لبناء مسجد كبير حديث، بل أبنية حول أضرحة الأولياء، وهذا شيء مختلف.

يوجد في الأرض نفسها حالياً مساجد من هذا النوع مبنية فوق الأضرحة، هذه يجب الحفاظ عليها، مثل أبي بن كعب والشيخ أرسلان وقبة خالد بن الوليد، وقبر ضرار بن الأزور شرقي الباب الشرقي تماماً. الأفضل معمارياً أن تمتد روضة الصحابة بين هذه القبور الموجودة، ثم تُنقل باقي القبور إليها بالتدرّج.

وهل سيصدق الناس أننا قمنا بنقل القبور فعلاً؟ ويمنحونها القداسة التي نحتاج؟

القداسة لا علاقة لها بمن يرقد في الضريح، القداسة من شأن الحكاية التي يرويها خادم الضريح.

لو كان بإمكانكم نقل الشيخ مُحيي الدين بن عربي، فسأحفر القبر الجديد بنفسه، حان الوقت لتحتفي دمشق بإمام العاشقين كما يستحق، ولتحاول التصالح مع دمه!

.لست بحاجة أن تحفر قبراً، فالشيخ الأكبر ليس في قبره الذي تعرفون.

فأين إذاً؟

.على التلّة المجاورة لمقام الشيخ رسلان، بين الباب الشرقي وباب توما.

.وهل قبره معروف؟

.يمكن العثور عليه، يوجد مخطوط في قونية يصف ليلة نقله ويحدّد

ما جرى فيها بدقة شديدة.

.كيف ستقنع الناس بذلك، وهم يعرفون المقام والمسجد والحي

باسم الشيخ مُحَيّ الدين.

.بأن نخبرهم الحقيقة.

.أي حقيقة؟ كل ما سمعته منذ الصباح يثبت أن كل الحقائق كذب،

وكل الأكاذيب حقائق.

.وهذا الكلام أيضاً عين الحقيقة.

.اعذروني، أنا لم أفهم حتى الآن ماذا تريدون من كل هذا التعقيد؟

اقتصادياً أنا أرى أن الاستثمار هو مبانٍ وأبراج، وفي الدنيا كلها يكفي أن

تصمّم حدائق جيدة وشوارع نظيفة وخدمات عصرية لتسوّق استثمارك،

ما الحاجة إلى كلّ هذه الأساطير والغيبيات؟

.هذه ليست أساطير، لتلك البلاد روح، وهي روح غنية، يحاول كل

من حكموها أن يسلبوها خصوصيتها، ويطبّعوها بطابعهم، والقصة اليوم

أصبحت أكبر من استثمار ومبانٍ.

.أنا مع هذا الرأي، أنا أؤمن أن هناك أرضاً مباركة وأرضاً ملعونة.

.لا توجد أرض مباركة، يوجد بشر يعملون بجدّ وبذكاء.

.لماذا إذاً لم يظهر أيّ نبي في شرق آسيا وأوروبا وأميركا، وكل الأنبياء

ظهروا في هذه المنطقة؟

. لأنها لا تصلح لشيء آخر.

. وهل تعتبر ظهور الأنبياء نقيصة فيها؟

. ربما لا يحتاج من يملكون عقلاً إلى أنبياء.

. هذا النقاش لن يقودنا إلى أيّ مكان، أقترح أن نعود لمناقشة التنفيذ.

. لن نصل إلى أيّ مكان ما لم نحسم هذا النقاش. ما لم نؤمن جميعاً

بحقيقة السرّ الإلهي الموجود في الباب الشرقي، فلن نتقدم خطوة واحدة

لمعرفة ما علينا فعله. نحن نتحدث عن عقيدة يؤمن بها مليارات البشر،

والدكتور يريد نسفها بجملتين. هل مليارات المؤمنين في العالم هم من

الأغبياء، والملحدون فقط أذكيا؟

. لا يا سيدي. أنت تقولني ما لم أقل، أنا أعرف تماماً أن الإيمان أن نفهم

الطبيعة، ولكن الإلحاد هو أفضل الوسائل لفعل ذلك.

. الإلحاد طريق الإيمان؟ سبحان الله، هذا أغرب شيء سمعته في

حياتي.

. الدكتور يقصد أن الشك طريق الوصول إلى المعرفة.

. مع احترامي لكما ولك أيضاً، لنعد إلى ما قاله الدكتور عن الحقائق

والخدمات، ربما تكون مفيدة لو كان المشروع في مكان آخر، لكن هنا

المشروع له وظائف أخرى، وهدف مختلف.

. لديّ معلومات عما تتم دراسته في الحكومة، يبدو أن هناك مشاريع

أخرى من هذا النوع في مناطق أخرى.

. من هذا النوع؟ لا يمكن أن يصحّ في أيّ مكان بالعالم.

. أقصد مشاريع عقارية ضخمة، هناك عدّة مناطق مثل المرّة ونهر

عيشة والمخيم والقابون ستقام فيها مشاريع كبرى.

. لن تقام. ولو أقيمت فلن تكتمل. وإن اكتملت فلن تكتب لها الحياة.

. هل تظنون أن ظروف الحرب ستسمح بمشروع بهذا الحجم؟

. لن نبني أثناء الحرب، سنجهز كل شيء، سنمتلك الأرض، ونرسم المخططات، وننتظر.

. وإذا استمرت الحرب عشر سنوات؟

. قد تستمر أكثر، لا يهم، نحن نخطط للمستقبل.

. لا بأس، هذا حديث مبكر، سأعود قليلاً للتفاصيل، ذكرت متحفاً للتاريخ المسيحي وآخر للتاريخ الإسلامي، ما الذي ستحتويه هذه المتاحف لتتمكّن من جذب الناس؟

. بالأصل، لا أظن السيد مايك يبحث عن زوار يدفعون ثمن تذكرة، فهتمت أن الهدف صنع مكان له قيمة روحية ومعنى ما.

. لو أردنا أن نبسط الأمر، المسيح سينزل في هذا المكان، وكل مؤمن في العالم يمكن له أن يأتي لينتظره هنا، وفيما ينتظره سيصلي في مسجد أو كنيسة، ويزور متحفاً، ويتجول في حديقة، ويأكل سندويتش شاورما ويتبارك بمقام.

. ويدرس في جامعة، ويقيم في فندق، ويكتشف عظمة خالق الكون عبر النظر في تلسكوب إلى الكون.

. فلماذا الأبراج إذاً؟

. كي لا يسأل الغافلون: ماذا تفعلون؟

. اعدروني للمقاطعة، أشعر أن هناك نقطة تحتاج إلى توضيح، رواية عودة المسيح في آخر الزمان على الباب الشرقي، يؤمن بها المسلمون فقط.

.واليهود أيضاً.

.لكن المسيحيين لا يؤمنون بها، إنها لا تعنيهم.

.إنهم لا يعرفون أنها لا تعنيهم.

.بل يعرفون.

.ربما أساتذة اللاهوت يعرفون، من تبقى يكفي أن ترتب لهم تلك الكلمات بطريقة مناسبة كي يستسلموا لها: مسيح، عودة، إنهاء ظلم، إقامة عدل، ينزل من السماء، ينجيننا من الشرير. ماذا يريدون أفضل من ذلك؟ نحن نؤمن بالمجيء الثاني ليسوع، لكن ليس بهذه الطريقة ولا بعد تلك العلامات، «إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء، سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقاً إلى السماء».

.آمين، دعوا الأمر لنا، سنجلس أنا والدكتور في استراحة الغداء ونربط الحكايتين.

.ربما بعض الإخوة لا يعرفون أن هذا المكان هو أرض الملحمة الكبرى، وهنا سيتجمع الناس من كل أصقاع الأرض في آخر الزمان، وحين تقوم الساعة ستلفظ الأرض حممها على الناس، ولن ينجو إلا من التجأ للشام.

.تريدون أن نبني مشاريع منذ الآن لنستثمرها يوم القيامة؟؟

.ومتى يوم القيامة؟

.لا أعلم.

.ولا أحد يعلم سوى الله، وعلى الناس أن يتجهزوا لها كأنها تقوم غداً.

.لحظة. هل أفهم من كل ما قيل أن السيد مايك يتاجر بيوم القيامة؟

.بل بحكاية يوم القيامة.

.يوم القيامة ليس حكاية، إن لها ساعة آتية لا ريب فيها.
.أعتذر للمقاطعة، لكن أي استثمار هذا إذا كانت لحظة حاجة الناس
له هي اللحظة التي لا يعود الناس فيها بحاجة إلى شيء؟
.سيحتاجون إلى موطئ قدم في أرض نملكها.
.وماذا سيفعل بالمال الذي سيبيعهم فيه موطئ القدم هذا؟
.لن يبيعه لهم بالمال.
.بماذا إذاً؟
.بالدعاء.

تحويل الآخرة إلى دنيا بسعر صرف 1.1

لا يمكن لعقل أن يفهم كيف يعمل ذلك العقل. لكن المرجح أن فيه مادة كيميائية ما أو بقعة ضبابية غريبة تستطيع التفاعل مع الأفكار التي تدخل إليه وتغيّر في خواصها وتحيلها إلى شيء أكثر فائدة وريحية، تعكسها أحياناً، تحرفها أحياناً أخرى، تخلق بينها وبين جاراتها روابط غريبة، والأرجح أيضاً أن تلك المادة النادرة وصلت إلى لحظة مخيفة حدّرت منها مقالات وأفلام الخيال العلمي بشأن الروبوتات، فقد صارت واعية لذاتها، وتدرك ما تفعل، وتطلب الأفكار الجديدة بالحاح، وتلتهمها بشراهة، وتتصرف من تلقاء نفسها.

تغذّت تلك اللعنة جيداً، تجاوزت حد العودة، فتحول مايك الشرقي إلى موظف عند النقطة الملونة التي في دماغه. صار فهمه أكثر استعصاءً. ومعرفة صدقه من كذبه باتت أقرب للإعجاز.

أعاد الاستماع لتسجيلات أربع وعشرين ساعة من النقاش المفتوح، وقرأ التفرغ المكتوب لأهم ما في تلك الساعات من أفكار، ثم احتاج للاستزادة من العشرة أشخاص الذين شاركوه تلك الأيام الثلاثة من النقاش، فيطلب من روثا تفصيل فكرة عابرة بشكل نص مكتوب، أو يتحدث على الهاتف مع فايز لأربع ساعات، أو يطلب من الأب مروان موافاته إلى شتورا.

ثم وجد نفسه وقد صار يستيقظ في الرابعة صباحاً لأن فيروساً ما في رأسه أمره أن يذهب لمناقشة فكرة ما مع بيان وسلمي، فيغادر في

السادسة إلى قبرص لينفذ الأمر، ثم ينهض عن طاولة الغداء لأنه يريد أن يكون في بيروت دون تأجيل.

كانت الصورة تتكامل في رأسه المضطرب، والمدن العائمة التي يمتلكها لم تعد تكفيه. أراد سفينة ترسو على اليابسة، وأي يابسة؟ تلك التي للمسيح. وقد سار كلاهما على الماء، فليطفوا معاً الآن على الحجارة ذاتها.

ابتسمت سلمى عبر طاولة الفطور وهي تستمع لبوح مايك الصباحي: لقد انتهيت من النصف الأسفل من الجسد، شبعت منه. أريد الآن أن أبدأ بالنصف العلوي.

. هناك من قال إن الأخلاق انطفاء الفضول. أنا لا أظنه انطفاء، بل انتقال إلى شأنٍ آخر.

. باستثمار أمر سخيّف كالنوازع الجنسية استطعت امتلاك نصف الدنيا، ما الذي أستطيع فعله لو استثمرت أمراً عظيماً كالإيمان؟
. أخشى أن الإيمان شأن لا يحتمل التورية. إن كان نفاقاً فسيخسر، وإن كان اعتقاداً فهو من يستثمرك.

. الشيخ قسّام بحد ذاته لم يستثمرني، فهل سينجح الله؟

ضحك بيان المستيقظ للتو للجملة الوحيدة التي سمعها من حديث مديره الصديق وزوجته: صباح الخير، هل تهدّدك بالله؟
عانقه مايك رغم أنه لم يغسل وجهه بعد: سلمى لا يمكن أن تهدّدني بشيء، حتى لو تشاجرت مع الله ستكون في صقي.

تابع بيان طريقه باتجاه الحمام: لو تشاجرت؟ وماذا تسمي حياتك كلّها؟
إنها أطول مشاجرة سمعت عنها في حياتي.

ضحكت سلمى وسألت مايك بجديفة: هل بقي خيط في قلبك يربطك
بالله؟

. لم أفكر به مطلقاً منذ كنت في الرابعة عشرة، لكن في الأشهر الأخيرة
يحاول بعض من حولي أن يقنعوني أن في قلبي وداً قديماً له، ويريدون
أن يصلحوا بيننا.
هل تريد ذلك؟

. لا أعرف. لكن أعرف أنني لو كنت مكانه لما قبلت أي وساطة،
ولرفضت الاستماع للفكرة.

. اهتمامك بحكاية القيامة لعبة جديدة تلعبها، أو أن في قلبك شريان
إيمان تجهله حقاً كما يخبرك المحيطون بك؟ وأنا منهم بالمناسبة، وأظن
هذا الشريان سيغلب قلبك في النهاية، لكنني لم أقل لك ذلك سابقاً.
. تعال بيان، تعال واسمع زوجتك، إنها تتكلم مثل الشيخ البقيعي،
تظنني سأنتهي مؤمناً.

ضحك بيان فيما يسكب فنجان قهوته الثقيلة: امرأة تظن أنني أصلح
للزواج وورطتني به، يمكنك أن تتوقع منها أي شيء.

حافظت سلمى على ابتسامتها الهادئة: ما الذي خطر لك لتأتي إلينا
في هذا الوقت المبكر ودون تخطيط؟

. اشتقت لكما أولاً، واحتجت أن أناقش معكما كم الأفكار الجديدة
التي ملأت رأسي، لأنني أثق ببيان، وصرت أثق بك أكثر.

. بل لأنك تريد أن تسمع هذا الكلام، تريد أن تكون مع من يثقون بك،
ويحبونك دون شروط، ويحبون العود الأخضر في قلبك، ممكن أن أكون
وقحة وأسألك: لماذا لم تأمر بقتل أحد في حياتك؟ أكيد مرّ الكثير ممن
يستحقون، وكنت قادراً على فعلها دون تبعات.

كيف تعرفين أنني لم أفعل؟

وماذا تظنُّ أننا نفعل أنا وبيان حين نكون في السرير؟

سؤد الله وجهك، هذا ما تفعله في السرير؟ تحدّثها عني؟

لا تهرب من الإجابة بالافتراء على فحولتي، أجبها!

فكّر مايك طويلاً، لم يكن قد سأل هذا السؤال لنفسه من قبل: ربما لأنني أخاف الدم.

الخوف من الدم يردع من سيقتلون بيدهم، أنت لم تكن لتقتل بيدك أو بوجودك.

أخاف من ذكر اسمه، كلمة دم مرعبة، أجل أنا.. أنا جبان.

الخوف من الدم أعلى درجات الشجاعة، ولماذا لا تتعاطى المخدرات رغم أنك عملت بها.

نظر إلى بيان معاتباً: يبدو أنك تتحدث أكثر مما يجب. أنا مثل حارس المقبرة. أقرب شخص إلى طقوس الموت، لكن، لا يجوز له أن يموت. يجب أن يبقى حياً كي يحفر للجميع قبورهم، ويؤمّن كفايتهم من الموت.

أراد بيان حَرْفَ الحوار لأنه شعر بالذنب فعلاً لذكر تجارة المخدرات لسلمي: هات أخبرنا عن نتائج اجتماعك التشاوري، ماذا ستفعل؟

أراضي شرق الباب الشرقي تكاد تصبح لنا كلها، وناقشت مع المستشارين كيفية استثمارها.

وماذا قرّرتم؟

الصورة لم تتوضح بدقّة بعد، كلّفت المهندسين برسم خرائط ووضع تصورات أولية، لكن الأرجح، أن الضلعين الشرقي والجنوبي أي من جهة

جوبر والعباسيين، سيكونان أبراجاً سكنية وتجارية، ستتوزع كليات الجامعة من العباسيين إلى باب توما، ستكون روضة الصحابة مقابل الباب الشرقي تماماً، وتمتد من الشيخ رسلان وحتى مقام أبي بن كعب الأنصاري، وخلفها ستكون المراصد الفلكية والزلزالية والمناخية، ومتحف الإسلام، والمركز الإسلامي للبحث والإفتاء، قرب نهايتها سيقام متحف المسيحية ومركز الدراسات المرتبط به، وكنيسة الانتظار ستكون مقابل مغارة الرؤيا، حيث هبطت الرؤيا على بولس الرسول أي مكان الدويلعة حالياً.

امتلاً وجه سلمى بالأسئلة: أنا لا أعرف دمشق، ما هي كنيسة الانتظار؟
هي الكنيسة التي يجب أن تكون قبلة المؤمنين من كل أنحاء العالم، وليس بيت لحم ولا القدس، فهنا عليهم أن ينتظروا المسيح، وعليهم أن ينتظروا هبوط الرؤيا عليهم حيث هبطت من قبل.

تدخل بيان ساخراً: البرق وانقلاب السيارات من يضرب في المكان نفسه وليس الرؤى الإلهية.

قل ذلك للمؤمنين وسيقطعونكم بأسنانهم.

بدت سلمى مستاءة من استخفاف بيان، وطلبت من مايك أن يحدّثها أكثر عما سيجري، فشرح لها عن الطالب الذي يدرس في الجامعة فيما ينتظر المسيح، وعن الحاج أو الزائر أو الباحث أو السائح الذي سيأتي من كل أنحاء العالم ليقف أمام المئذنة البيضاء ويترقب قيامة المسيح أو قيامة الأموات، سيتجول في حديقة الصحابة ويتبارك بمقامات الأولياء إذا كان مسلماً، وبالقدسيين وبالأحزمة والقبعات المباركة إذا كان مسيحياً.

بدأ بيان يأخذ الأمر بشيء من الجدية: لماذا لا تنقل كنيس جوبر أيضاً وتخصص جزءاً للديانة اليهودية؟

لعدة أسباب، أولها أنني لست شيخاً مصريةً أو سورياً يقبض جعالتة

من أبو ظبي أو المجلس النرويجي للاجئين، ولا شيء يضطرنني لأبحث عن
تأخي الأديان. أساساً لا يهمني تأخي أحد مع أحد، هل أبدو لك شخصاً
تعنيه الأخوة؟ لقد غرزت أسناني ثم رمحي في مؤخرة فتاة جميلة ذات يوم،
وفيما بعد عرفت أنها على الأرجح أختي.

أشارت سلمى بسبابتها إلى مايك ونظرت باتجاه بيان: هل يتكلم جاداً؟
. لا تردّي عليه، إنه يفعل أي شيء، أفلا يقول أي شيء؟ لقد أعجبته
الجملة لا أكثر، لا تضيّعي علينا ما يفكر به.. إذا فأنت لا يعينك التأخي،
وثانياً؟

. ثانيها أن وجود اليهودية في هذه البقعة سيكون تلفيقاً حسب رأي
الدكتورة عبلة والشيخ محمد، وثالثها أنني أعطيت وعداً بأن لا أقرب من
اليهودية، ورابعها...

. لمن أعطيت وعداً؟

. لأحد أصدقائي، وعدت ألا ألعب باليهودية، وأن تتساعد معاً لتسرّع
بظهور الدجال.

. وما السبب الرابع؟

. كنيس جوبر لن يبقى مكانه، وسيأخذ طريقه إلى من دفعوا ثمنه.

وقف بيان غاضباً: لا تقل إن كنيس جوبر صار في إسرائيل.

. في طريقه إلى هناك.

. أرجوك أرجوك لا تقل إنك شاركت في ذلك من قريب أو بعيد.

. فقط غضضت النظر، أعرف المهربّ الذي ينقله عبر تركيا، ليس من
رجالي أقسم لك، لكنني لم أفعل شيئاً لأردعه.

. وصديقك الذي أعطيته وعداً هل هو الدكتور أوري؟

. نعم، إن له فضلاً عليّ، أعطاني طراداً عسكرياً لأعود به إلى بيروت
يوم ماتت عايده.

صمت بيان وبدا كمن تلقى طعنةً من صديق، وأدار وجهه إلى الجهة
الأخرى، فتابعت سلمى سلسلة استفساراتها: ستنقل كل أعمالك إلى
هذا المكان؟

. لا طبعاً، أعمال لبنان الرئيسية كلها ستبقى كما هي، وهنا في قبرص
سأنقل ملكية الفندق لاسم بيان، وفي الصين توسّعت كثيراً بالعمل في
الفترة الأخيرة، سأصقّي أعمال أوروبا والخليج فقط، وسأوزع حصيلتها على
دمشق وروسيا وتركيا والصين.

. مايك، أرجوك أخلص لهذا الشيء الذي تفعله، إنه يستحق، ولا تمنع
نهرأ جديداً من التشكل.

. لن أفعل، ولكن كيف يمكنني ذلك أساساً؟

. بأن تحفظ الودّ للنهر القديم.

**

فور وصوله إلى بيروت كان إبراهيم بانتظاره لأمر عاجل: سعد أصبح
عندي في المستودع، عثرنا عليه في شقة بمرسين التركية، ساعدنا
الأصدقاء هناك بالقبض عليه، وضعناه مُخدراً في تابوت ونقلناه بالطائرة.
بدأ يستيقظ، ولم نبدأ التحقيق معه بانتظار أوامرك، ما نعرفه حتى الآن أن
الأموال التي سرقها ما زالت في لبنان، لأننا وصلنا إليه عن طريق مهرب
كان يفاوضه لينقلها له.

. يجب أن نعرف ماذا سرّب من أسرارنا؟ ولمن؟ ومن هم شركاؤه في
الخيانة؟ ثم يجب أن نعرف مكان المال ونستعيده.

أريد إذنك، سأعذّبه بقسوة، أنت تعرف طباعه لن يعترف بسهولة.

افعل ما تشاء وخذ من الرجال من تحتاج.

هل أخبر الأستاذ منصور؟

بل اطلب منه أن يكون موجوداً حين يبدأ بالاعتراف، كي يعرف ما

عليه أن يستدرك.

أنا ذاهب الآن، وسأطلعك على النتائج أولاً بأول.

عند وصوله إلى الباب ناداه مايك: إذا مات بين أيديكم، لا تخبروني!

بعد خروج إبراهيم لبني طلب طلعت لمعاودة الاتصال، عرف أن المشاكل بدأت تصغر واقتصر الحجز على برجي الديرة وجميرة وإلغاء تراخيص المنطقة الحرّة: احتفظت بيتك في المارينا، وبيتي في النهدة، ومكتب القوز، وربما تغيرت الظروف وعدنا، بعث كل ما تبقى، وبدأ أبناء المرحوم يسار حمدي بنقل الأموال بالدولار إلى دمشق كما طلبت، وأنا قررت أن أكون معك هناك، والأرجح سأسبقك. لقد أرسلت مروى والأولاد قبل افتتاح المدارس.

نسرین هي الضيفة التالية التي تحتاج إلى خمس دقائق خاصّة، أخبرت مايك فيها أنها بلغت الأربعين، وتريد أن تنجب ولداً قبل أن تكبر: العريس ضابط متقاعد من قريتنا، مطلق وأكبر مني بعشر سنوات، يحبني منذ كنت صغيرة وبحث عني كثيراً، لكن لا أستطيع أن أقدم على أي خطوة إن لم تمنحني موافقتك ورضاك.

ابتسم مايك ونظر إليها طويلاً وكرّ شريط ذاكرته: مبروك يا نسرین، الآن صرت أفهم مدى حاجتك لإنجاب ولد، سأكلفهم أن يسجلوا شقّة الجميزة التي تقيمين فيها باسمك، رغم أنني أحب هذه الشقّة كثيراً، ولي

فيها ذكريات جميلة، وقد استأجرتها لأربع سنوات قبل أن أشتريها، لكنها ستكون هديتي لك، وسأزورك فيها قبل زواجك، يحقّ لنا ليلة مع بعضنا أليس كذلك؟

ضمّمت يديها ووضعتهما أمام صدرها: كان يجب أن تقول هذه الكلمة قبل 23 عاماً، ومنذ ذلك الوقت وأنا أنتظرها، سألغي فكرة الزواج إذا شئت.

. لا تلغ شيئاً، اليوم مساء انتظرنيني!

. اليوم لا، أحتاج إلى يومين في مركز التجميل، صيانة كاملة، ضيفي المعلم الكبير.

. الأربعاء إذاً.

. سأكون بانتظارك، رغم معرفتي أنك ستنسى أو تنشغل.

مع خروجها دخلت رندة ببعض التقارير التي تحتاج إلى قرار، وقفت قربه ووضعت الأوراق على الطاولة وانحنت قليلاً لتقبلها وتطلعه عليها، أرجع رأسه للوراء ونظر إلى مؤخرتها، ثم صفعها عليها، ضحكت رندة وقرّبت وجهها من وجهه ونظرت في عينيه: «بدّك ياها!؟».

شدّها من يدها وأجلسها في حضنه ودسّ وجهه في شعرها، ثم همس في أذنها بصوت يشبه فحيح المنتشي: أمسكنا بسعد الكلب!

شركة الصين المتّجهة غرباً للاستثمارات الدولية المساهمة المغفلة

أعدت أعمال مايك تنظيم نفسها بشكل تلقائي. تصرّفت كالتائر الحر وتخلّت دون مقاومة عما لا يمكن تفادي خسارته، وتسلسل ما تبقى عبر مسام الصخور لأحواض أكثر اتساعاً. صدرت بحقّه مذكرات استدعاء للمثول أمام المحاكم في أربع دول، وظلت ملقّات تحقيق مفتوحة في تسع دول أخرى، اقتصرته قدرته على الحركة على أماكن محدّدة، ولم يعد بإمكانه السفر إلى أي دولة أوربية باستثناء رومانيا واليونان وقبرص، وصار من الخطر السفر إلى الإمارات ومعها احترازياً السعودية والبحرين والكويت.

أصبحت الصين البلد الأكثر ترحاباً بمايك الشرقي واستثماراته، وحافظ وجوده في لبنان على ثباته وثقته وأمانه، وفتحت أوكرانيا وتركيا وأرمينيا أيادها وفرشت له السجّاد الأحمر لتشجيعه على توسيع استثماراته لديها، استجاب لكلّ ذلك، ووزع بعض أمواله هنا وهناك على شكل شركات في قطاعات متعددة، وأرباع وأثمان وأثلاث في مزارع للأبقار، مصانع للنسيج والورق والحبيبات البلاستيكية، فنادق وكازينوهات، لكن الأموال الحقيقية تذهب سرّاً لتختبئ في الصين وروسيا وفي أخطر مكان على الكوكب.

قبل سفره إلى الصين بيومين كلف إسماعيل ببعض المهام: اشترى لي بيتاً في دمشق، أريده بين طالع الفضة والباب الشرقي، جهّزوا فيه غرفاً مصفّحة، سأعود يوم السبت، أريد فايز والشيخ محمد والدكتورة عبلة والأب مروان وروشا في بيروت فور عودتي، أرسلوا عشرة ملايين ليرة لكلّ من له صوت في نقل ملكية الأراضي أو استثمارها، وخمسة وعشرين

مليون للمديرين، ومليوناً للموظفين الصغار، أخبروهم أنها بلا سبب وأنها هدية العيد، سنتقدم بالعرض قريباً استعداداً لذلك، واختاروا لي إحدى الكتائب القوية في الجيش الحر بالعوطة لنموّ لها، وأرسلوا تبرعاً باسمي لأُسْر شهداء الجيش، اشتروا بناءً أو اثنين في المرّة، أريد عشرين شقّة واسعة لمن سيعملون معنا، سلّموا أول واحدة للدكتورة عبلة، والثانية لأسرة طلعت، زوجته وأولاده في بيت مستأجر بمشروع دمر. تابع مع صاحبك إغلاق ملف بيان وإصدار كَفّ البحث عنه، إذا انتهى المسّاحون من توثيق نتائج العملية العسكرية أرسلوا لي الخرائط، نريد أن نعرف ماذا سنفعل بالمباني المتبقية في الجهتين الغربية والجنوبية، ولا تنسى أن ترسل بضعة شبان كل يوم ليرسمهم ذلك الرسام خلف القلعة.

أجاب إسماعيل بتكرار كلمة «أمرك!»، باستثناء الطلب التالي الذي أشعره بالغرابة، فاضطر لمناقشة المعلم والاعتراض على أوامره على غير عادته: ولكن يا معلم، هذا كثيراً!

افعل كما أقول لك، اختاروا أيّ تشكيل قوي في البداية حتى لو كان القاعدة وادفعوا لهم ما يشاؤون، أريد أن تختفي هليلية الحموي والحصو عن وجه الأرض.

ولكن هكذا سيذهب قتلى كثيرون، أرجوك!

صمت مايك قليلاً، تردد ثم حسم قراره: كرمي لك فقط، حدّروا أهل القريتين قبل بضع ساعات، وساعدوهم على الهروب، يكفيني أن يتشردوا ويهيموا على وجوههم، وتهدم بيوتهم وتبش مقابرهم.

في طريقه إلى ماكاو أمضى أربع ساعات في الدوحة دون أن يجرؤ على مغادرة المطار، وبترتيب من نائب لبناني سابق استقبل في جناحه بفندق المطار ثلاثة سياسيين سوريين منشقين، فتح معهم قناة تنسيق تحسباً لتقلبات الزمن ومزاج القدر. تعهّد لهم بتقديم عشرة ملايين دولار لدعم

جهودهم السياسية والإنسانية، وأبدى استعدادة لشراء أملاك وشركات رجال الأعمال الذين غادروا البلد، وطلب منهم إيصال هذا العرض للمهتمين به، وأنه يقبل بالشراء حتى ممن صدرت بحقهم إجراءات حجز أو مصادرة.

وصل إلى ماكاو في منتصف الليل، وكان قد كلف المحامين مسبقاً بتحضير أوراق تأسيس الشركة الجديدة، حُدّد رأسمال الشركة بخمسين مليار دولار، وهو الرقم الذي لا تُلزم أي شركة في العالم نفسها بخمسة بالمئة منه، ورغم عدم ضرورة ذلك فقد تم إيداع 20% من رأسمال المال في حساب الشركة بنك الشعب بعد ساعتين من صدور الموافقة على الترخيص، حدد النظام الداخلي اختصاصات الشركة بتأسيس استثمارات صناعية وزراعية وسياحية واستخراجية وتجارية وعلمية وبحثية في غرب آسيا وشمال إفريقيا، وتأسيس مراكز لتسويق المنتجات الصينية، وتصديرها وإعادة تصديرها، تقاسم الشركاء المؤسسون أسهم الشركة بشكل متساوٍ تقريباً. وباستثناء رئيس مجلس الإدارة المفوض بالتوقيع السيد غريب الحصوص، الذي امتلك 9% من الأسهم. امتلك كل من الشركاء الآخرين 6.5% من الأسهم، وهم أربع عشرة شركة ثلاث منها إماراتية واثنان لبنانيتان، وواحدة سورية وروسية وتركية وقبرصية ورومانية وعمانية وثلاث شركات صينية.

كانت الشركات الأربع عشرة أمام القانون شخصيات اعتبارية تجعل الشركة متعدّدة الجنسيات، دون أي أهمية قانونية للقاسم المشترك بينها جميعاً، وهو أن شخصاً واحداً يملك 99% من أسهمها أو أسهم الشركات الفرعية التي تملكها.

انتهت الإجراءات خلال يوم واحد، وغادر مايك بالطائرة إلى بكين، يحمل الوثائق القانونية التي ستدعم وساطة صديقه وشريكه غير المعلن، والذي قدّمه للمسؤولين الحكوميين كأكبر مستثمر أجنبي في الصين،

وصاحب رؤية ومشاريع تلتقي مع الرؤى الصينية للمستقبل والعلاقة مع منطقة الشرق الأوسط، ولخصّ تركيته بعبارة تلامس أوتار الطموح الصيني: سيكون السيد مايك على طريق الحرير الجديد بأهمية حلب على طريق الحرير القديم.

رحّب المسؤولون بمايك كضيف كبير، وتجاهلوا تماماً معرفتهم بالسبب الحقيقي لضخامة رأس المال الاسمي وضخامة النسبة المودعة منه نقداً، كانوا يعرفون أنّها أموال هاربة من التحقيقات في دول عدوّ، وتبحث عن ملاذ، ولم يكن لديهم مانع في ذلك، لذلك لم يضطّروه لإبراز وثائق الشركة وبيان إيداع رأس المال، فقد كان كل شيء قد وصلهم بعد تنفيذه بدقائق، واستمعوا منه لعرض موجز لنوعية المشاريع التي ينوي القيام بها في السنوات الثلاث القادمة، وباركوا قراره بالإقلاع في المشاريع من سورية تحديداً، واعتبروا القرار تحديداً اقتصادياً للهيمنة الأميركية، وينسجم مع التحدي السياسي الصيني، ويستحق كل الدعم والمساندة، فأعطوه وعداً بأن يقوم وفد حكومي رفيع المستوى بحضور افتتاح أول مشروع في سورية.

حمل مايك معه ذلك الوعد الثمين وحمل رسالة توصية للحكومة السورية تتضمن الدعم الحكومي المطلق لشركة الصين المتجهة غرباً للاستثمارات الدولية، وتمنّت على الحكومة السورية تقديم كل التسهيلات لها لما فيه خير البلدين الصديقين ومصالحه الاقتصاديين، وأشارت إلى إمكانية حضور وزراء من الحكومة الصينية عند انطلاق مشاريع هذه الشركة.

فيما كان مايك في الطائرة عائداً إلى بيروت، امتلكت شركة الصين المتّجهة غرباً شعاراً وموقعاً إلكترونياً وتصاميم لورق المراسلات وبطاقات التعريف، واختيرت لها مقرّات في بيروت ودمشق والقاهرة وعمّان وبغداد، وبدأ تصنيع اللافتات لهذه المقرّات.

فور وصوله وقّع في مكانين من كل صفحة على عقد شراكة أشبه

بالاندماج بين شركتي الصين المتّجهة غرباً والشرق الجديد، وأرسل وثائق الشركة الجديدة لتسجيلها في سورية كشركة أجنبية والحصول على موافقة لافتتاح فرع لها هناك. فيما يكاد المختصون يفرغون من إعداد المذكرات والمخططات والعروض المترابطة التي ستقدم للحكومة السورية كحزمة واحدة خلال أيام، والتي ستتضمن تأسيس مركز للشركات الصينية في المنطقة الحرة بعدرا، وشراء مئة مقسم في المدن الصناعية بعدرا وحسياء والشيخ نجار لتأسيس صناعات مختلفة بامتياز من الشركات الصينية، وإقامة منشآت لتربية الأبقار في مسكنة شرق، ومجمّع لإنتاج الدواجن على طريق حمص تدمر، ومزارع لتربية الأغنام شرق حماة. ومشروع الشرق الجديد، وهو المشروع المتكامل الذي يتضمن جامعة كبرى ومراكز للبحث العلمي والمشاريع الثقافية والروحية ومشاريع تطوير عقاري في المقاسم الواقعة شرقي العاصمة وفق المخططات المقدمة لمنطقة الأحد عشرية والأراضي المحيطة بها، والتي انتقلت حيازتها من شركة الشرق الجديد إلى شركة الصين المتجهة غرباً.

البيان الذي نشرته وكالة الأنباء الرسمية لنتائج اجتماع مجلس الوزراء الذي عقد في أول يوم أربعماء تلا تقديم الشركة الصينية لملفها إلى هيئة الاستثمار عبر بدقّة عن جواب الحكومة على هذه العروض، فقد بدأ البيان: (استكمالاً وتويجاً لانتصارات جنودنا البواسل في ساحات الوغى، جمهورية الصين الشعبية توجّه صفعة لأركان المؤامرة، وتنزل بكامل ثقلها الاقتصادي لدعم الشعب السوري ومساعدته لإعادة إعمار ما دمّر الإرهاب، فقد قرّر مجلس الوزراء في جلسته المنعقدة اليوم.....).

الحكايات صارت أرقاماً

كتب فايز عاج الشام حكايات عن نقل قبر مُحيي الدين بن عربي، وعن وصول زنّار السيدة العذراء من حمص إلى دمشق، وعن القبور وجرن العماد الموجودة في المسجد الأموي، وغضب المسلمين من أندونيسيا إلى الدانمارك حين يعلمون بهذه البدعة.

كل من هذه الحكايات ستقرّب مشروع الشرق الجديد من التحقق، وسيكون نشرها سبباً مباشراً لنقل شيء ما إلى مكانه المرسوم في روضة الصحابة أو كنيسة الانتظار. وفي الوقت نفسه رسم المهندسون مخططات، ووضع الاقتصاديون ميزانيات، واختار الشيخ سوراً وآيات وأحاديث وفتاوى، وضعت عجلة عينها على الجامعات الدولية التي ستعاون الكليات معها، وتستعين بمناهجها وأساتذتها. استشارت زملاءها بمتطلبات البحوث البيولوجية والكيميائية والفيزيائية، واسترسلت في وصف قسم البحوث في العلوم الاجتماعية. رشّحت أسماء ليكونوا مساعدين لها، وأرقت صوراً لفاعات تريد مثلها. حملت معها قائمة معايير تصنيف الجامعات، ووضعت خطط تحقيقها بأسرع وقت. وعلى هامش كل ذلك بقي لديها بعض الوقت لتقترح مجموعة من الرموز التي ستكون مفيدة لبقية المشاريع، قدّمتها لهم كصديقة ليست معنية تماماً بأي شيء سوى الجامعة التي تمفصلت فيها، وبدأت باستخدام ضمائر الفصل: في جامعتي وفي مشروعكم.

لذلك كانت مشاركتها في الاجتماع الحاسم ودودة للغاية ومفيدة

ومنتجة. تملكحت حصتها، فتخدرت تنافسيّتها، ورضيت عما لها، فارتضت لهم ما تبقى، وألقت لهم بفتات الرموز لينشغلوا بها عن جامعتهما.

واقترحت عام 2024 موعداً لبدء تنفيذ المخططات كلّها، لأن الرقم يطابق عدد الخطوات من الجامع الأموي إلى الباب الشرقي، وحين ستنقل أهم رموز المشروع إلى مكانها سينتبه الناس للمعجزة التي يحملها تطابق الرقمين، وسيهلّون ويكبّرون، ويتلقّون باستسلام كل ما سيأتي لاحقاً.

تأخر الشيخ بضع دقائق عن باقي المجموعة وهم يخرجون من المكتب لاستراحة الغداء، أخذ رندة جانباً وسألها بحياء: هل هناك امرأة كانت زوجة للأخ مايك، أو بمثابة الزوجة؟

لم تفهم رندة ما يريد الشيخ تماماً، وأخبرته أن مايك تزوج مرّة لكنه لم يكن زواجاً فعلياً. أعاد سؤاله بطرق وعبارات مختلفة لم تسمعها رندة في حياتها. طلبت منه أن يخبرها بما يريد تماماً لتعرف بماذا تجيب، فأخبرها أنه يبحث عن علامات جسدية معينة، بسبب رؤيا رآها، وبسبب أشياء وردت في كتب الأقدمين، يريد امرأة تعرف المناطق المخفية من جسد مايك.

ضحكت رندة بصوت عالٍ: «الله عليك يا شيخ ما ألك! يعني بدك امرأة نام معها مايك؟ المعلم بيقعد بالزلط كثير أحيان، ممكن أي وحدة تعرف تجاوبك ومو شرط يكون نام معها، من هون للطابق الأرضي أي وحدة بتشوفها فيك تسألها، إذا مو أول وحدة جاوبتك، الثانية أكيد!».

استغفر الشيخ ربّه مراراً، وطلب من رندة أن تقوم بهذه المهمة بالنيابة عنه، قال إنه يبحث عن شامة سوداء كبيرة أعلى ويسار الصدر، ويريد أن يعرف ما إذا كان الشعر بين النحر والسرّة ينزل خطأ كثيفاً أم يتوزع على البطن بالتساوي، والأهم هل يوجد علامة حمراء على المنكب؟

لم تستطع رندة أن تتوقف عن الضحك: «المنكب أسمر وما في ولا

علامة»، من تعابير وجهه استنتجت أن جوابها خاطئ، «المنكب قصدك الشوئسمو مو هيك؟»، شكرها الشيخ وأسرع لينضم إلى المجموعة.

بعد الغداء أطلع مايك والمستشارون على عرض قدّمه مدير المكتب الهندسي للمخطط العام للموقع، بشكله الأولي. رأوا على الشاشة مجسّمات ثلاثية الأبعاد لشكل المنطقة، واستمعوا لشرح مباشر من الخبير الذي أدار فريقاً من ثلاثين مهندساً. عملوا طيلة عام ونصف على التقاط كل عبارة قالها المستشارون خلال اجتماعاتهم أو كتبوها في بحوثهم، وتحويلها إلى مخططات وتصاميم لها حصّة في هذا المستطيل الاستثنائي.

على بعد أربعة كيلومترات إلى الشرق من الباب الشرقي يبدأ النسق الأول من كتلة الأبنية البرجية بارتفاع تسعة وتسعين طابقاً. ثم بعد 300 متر إلى الغرب يبدأ النسق الثاني بارتفاع 88 طابقاً، ثم 77 طابقاً، وهكذا حتى النسق السابع الذي يبعد عن الباب الشرقي 1800 متر ويرتفع ثلاثة وثلاثين طابقاً.

يمتد كل نسق على طول أربعة كيلومترات فيها ستة أبراج، ليكون مجموع الضلع الشرقي 42 برجاً، ويكرّر الضلع الشمالي من جهة حرسنا طريقة ترتيب الأنساق، لكن عدد الأبراج في كل نسق ثلاثة أبراج ليكون مجموع أبراج الضلع الشمالي 21 برجاً.

شرح المهندس أنه تم تصميم الكتل البرجية لتبدأ من جهة الغوطة بعدد طوابق يساوي أسماء الله الحسنى، وينتهي من جهة الباب الشرقي بعدد طوابق يساوي سنوات المسيح، ومجموع الأبراج على الضلعين 63 برجاً أي عدد السنوات التي عاشها الرسول محمد:

بإجمالي الأبراج لدينا 462 طابقاً بمجموع مساحة كل طابق على امتداد المشروع 4158 وبمساحة كل طابق 2000 متر مربع، وقد قمنا بالتقسيم الداخلي بمساحات تتراوح بين 50 متراً للمكاتب الصغيرة والعيادات

الطبية و400 متر مربع للشقق السكنية الواسعة، وبوسطي مساحة لكل مقسم 133 متراً مربعاً، فيكون عدد المقاسم 6236 أي عدد آيات القرآن.

سيكون هناك 77437 نافذة مقسّمة بين الشقق والأدراج والممرات كلّها تطلّ على الباب الشرقي وهي بعدد كلمات القرآن. سينبعث من المكان إضاءة يمكن مشاهدتها من محطة الفضاء الدولية، وستتجمّع من 55 نقطة إضاءة لكلّ شقّة وسيكون عددها الإجمالي 340740 أي بعدد حروف القرآن.

وشرح الميزات الهندسية في التصميم وتناقص عدد الطوابق والتناوب بين الكتل والفراغ الذي يتيح لكلّ الموجودين في أيّ واحد من الأبراج أو الطوابق أن يرى الباب الشرقي والمئذنة البيضاء كلّ الوقت.

أمام الأبراج من أقصى الضلعين الشمالي والشرقي تمتدّ مباني الجامعة الـ 12 على نسقين أيضاً، النسق الأول بارتفاع سبعة طوابق لكلّ بناء، والثاني بارتفاع 3 طوابق.

على الشاشة ظهر مستطيل أبيض لا يوجد فيه أي شيء، شرح المهندس أن هذه هي روضة الصحابة، ومخططاتها لم تنته بعد، وأن فريقه بحاجة إلى بضعة أيام مع الشيخ محمد ليجيبهم عن كثير من الأسئلة ويزودهم بالمراجع اللازمة، لأن الروضة ستصمّم وفق وصف الجنة كما ورد في المصادر الدينية والتراثية.

اطلعوا أيضاً على الجزء الجنوبي من المخططات، الذي لم يكن نهائياً لأن أجزاء من المساحة المطلوبة ما زالت فيها بيوت ومبانٍ، ولم يحسم القرار بشأنها بعد، لكنّه عرض مجسمات لبعض الكتل ضمنها مثل كنيسة الانتظار، المرصد الفلكي، متحف التاريخ المسيحي، الشكل الجديد لمسجد الشيخ رسلان ومقامه ومقبرته.

انتبه الشيخ البقيعي إلى خطأ في أحد المخططات: أرجو أن تعود إلى

الصورة السابقة. أجل هذه، هنا يظهر عندك فراغ، ولكن في الواقع هناك مسجد ضرار بن الأزور وفيه مجمّع تعليمي.

نظر المهندس إلى مايك مستنجداً به، فأجاب بكلّ وضوح: هذا المسجد لن يبقى مكانه، يوجد مشاكل فنية في أساساته، وسيعرض للانهار.

أعرفه جيداً، أدرّس فيه منذ سنوات، إنه مبنى حديث ولا يوجد أي مشكلة هندسية فيه، أخبرني ما القصة!

. بصراحة، لا يجوز أن يكون هناك مئذنة بهذا الارتفاع قرب الباب الشرقي، إن مئذنته مرتفعة جداً، وهي أعلى بكثير من المئذنة البيضاء، سنحافظ على ضريح ضرار ليكون جزءاً من الروضة، لكن المسجد لا نريده. ولكنك قلت إنه سينهار، هل سيحصل هذا فعلاً؟ هل فيه مشكلة فنية؟

. بدأت مشكلته الآن، لقد تم حقن مواد في محيطه تعمل على تفتيت الأساسات. لكن اطمئن لن يحصل ذلك بسرعة. المواد تعمل ببطء، ولن تنجز مهمتها قبل سنوات.

بيت واسع في حارة الزيتون

صحيح أن أي شيء يحدث يحتاج إلى سبب، وصحيح كذلك أن سبباً واحداً لا يكفي لحدوث شيء، لكن ليس بالضرورة أن يكون الترتيب بينهما بالبساطة التي تخطر بالبال. مثل أن يموت الخواجة دريان في فراشه آمناً، ويبدو سبب موته أشياء جرت مثل تقدّمه بالسن. في الحقيقة يمكن لأسباب موته الفعلية ألا تكون قد جرت بل ستجري بعد ستة وأربعين عاماً في دمشق. أو أن يأمر أبو جعفر المنصور مثلاً بحبس عنان بن داود، حاخام يهود العراق، ويبدو السبب وشاية عن صلة له بالأمويين، بينما تحصل أسبابه الحقيقية بعد أربعين عاماً وبعد سبعمئة وبعد ألف وألفين. فهل القدر أحق وساذج كي يوحي هكذا، وبالمصادفة البحتة، لأمر سجن بغداد أن يختار زوزانة أبي حنيفة النعمان دوناً عن كل زنازين الأرض ليضع فيها ابن داود؟ ويترك الرجلين كل الوقت وحيدين يتباحثان ويتناقشان؟ دون أن يخطر له أو لسيدة ما ستفعله تلك الليالي الغنية بثلاثة أديان بعد 1240 عاماً.

خرج عنان بن داود من سجنه متأثراً بالإمام المتكلم صاحب الحجّة والمُعلي من شأن العقل. فاختطّ مذهباً جديداً في اليهودية، يكرهه باقي اليهود. لكن الحيّ الذي يصل الباب الشرقي بباب كيسان أحبّه لدرجة أنه تسمّى باسمه لسبعمئة عام: حارة القرائين.

ما زال أتباعه على قلة عددهم منبوذين من باقي اليهود، ومصنّفين في خانة معادي السامية، لأنهم أخذوا بمصدرين للتشريع وهما التوراة

والعقل، ورفضوا الاعتراف بالتلمود وبكل التعاليم الشفوية والتفسيرات التي يقرها المؤولون الربانيون.

تنقل القراؤون بين القوة والضعف، بين الكثرة والقلّة، بين أنطاكية ودمشق، الإسكندرية ودمشق، القدس ودمشق، امتلكوا معظم بيوت الحي وبنوا كنيساً باسمهم في زاويته الجنوبية الشرقية، ظل مركزاً للطائفة منذ القرن الحادي عشر حتى التاسع عشر، وامتلكوا مقابل الباب الشرقي تماماً بستاناً واسعاً خصّصه كوقف للإنفاق على صعاليك الطائفة وكنيسها، وفيه طاحون أطلقوا عليها اسماً توراتياً: الأحد عشرية.

أحاط القراؤون بالباب الشرقي فتملّكوا خارجه وداخله، وجلسوا فوق الرقاق الضيق الذي خرجت منه سلّة القش التي يختبئ بداخلها رجل، هو ذاته الذي دخل من الباب الشرقي قائداً يهودياً اسمه شأوول، وخرج من باب كيسان رسولاً مبشراً بالمسيحية يحمل اسم بولس. سكن اليهود حيث يستطيعون منع هروب مارق يهودي آخر باتجاه المسيحية.

لكنّ كثيرين منهم ذهبوا خطوة أخرى للأمام، وفرّوا باتجاه الإسلام مباشرة. وبسبب التائه الأبدي فيهم هجر الباقون دمشق تبعاً باتجاه الجنوب، فاستقرّ بعضهم في القدس وبعضهم في مصر، وتركوا كنيسهم وبستانه يصبحان خراباً. لذلك حين جاء العام 1832 ونجح البطريرك مكسيموس المظلوم في الحصول على اعتراف السلطان محمود الثاني بالروم الملكيين الكاثوليك كإحدى الطوائف المسيحية في السلطنة، ثم موافقة حاكم سورية الجديد إبراهيم باشا على بناء كاتدرائية، لم يتردد القراؤون أبداً في إرسال رافاييل من القدس إلى دمشق ممثلاً عنهم ومفوضاً ببيع الكنيس والوقف للروم الكاثوليك ليبنوا كنيسة سيده النياحة مكانه. في رحلته ذاتها ودون أن يشعر به أحد باع البيوت الخمسة التي اشتراها أبوه ورحل قبل أن يكمل خطة تحويلها إلى قصر.

فحسب سجلات القاضي محمود أفندي الحنفي، الحنفي بالطبع، «اشترى ياسف بن رافائيل من الحرمة روح بنت حرقيال المنصوبة وصية على بناتها القصر: مرحبا ونجمة ورحمة. أبوهم صافي بن موسى القرائي، دار السكن التي تقع في إرثهم في حارة القرائين ويحدها من الشرق البير والحوش، ومن القبلة بيت قرواش، ومن الشمال بيت بيد اسحاق بن يحيى اليهودي اكتراءاً من بيت عبود ومن الغرب بيت مراد، ودفع ثمنه 1200 غرش.

وقد عرّف بالنسوان يوسف بن حياتاي ويوسف بن فرح اليهوديان. ويفرض على الدار غرشان في السنة لجهة العوارض السلطانية».

وحسب سجلات القضاة: «صنع الله أفندي، وأحمد أفندي، وعبد الوهاب أفندي» وكلهم حنفيون، فقد اشترى ياسف بن رافائيل في السنوات الخمس التالية بيت قرواش المجاور، ثم بيت مراد، ثم بيتين آخرين إلى الجنوب والغرب.

ثم أحضر النقاشين وأرباب الصنائع ووصل الدور ببعضها، لأنه أراد أن ينافس اليهود الربانيين الذين بنوا قصر شمعايا في قرية دمّر، ليستخدموه كرشوة للولاة والقادة حين يفدون إلى دمشق ويجدون من يقدم لهم أجمل العمارات المحيطة بها لإقامتهم ونزهاتهم في الصيف.

رحل ياسف قبل أن يكمل قصره، وهي المهمة التي أنجز نصفها تقريباً المالكون السبعة الذين تعاقبوا عليه منذ اشتراه جرجي الصايغ من رافائيل في عام 1832، وحتى باعه عدنان ابن الدكتور عزمي الصواف قبل أيام من هجرته إلى الولايات المتحدة في عام 2014.

أثناء تبدل مالكي البيت، كبرت الكنيسة وتوسعت وتجددت، وكبرت أشجار الزيتون في الحارة وفي ساحة الكنيسة، فأطلق الناس على الاثنتين اسم: الزيتون.

تحولت الجهة الشرقية من الحي إلى مسجد وكنيسة وتملكت وزارة

السياحة ما بينهما، وحول أحرق ما أول ثلاثة بيوت من الجهة الغربية إلى بناءين بليدين من البيوت واختار لهما تصميماً معمارياً يشبه مراكز التجنيد، ثم تحولت باقي البيوت إلى مطاعم ومقاهٍ وفندق، وفي الجزء المختبئ من الحي، هناك في العمق، وعلى بعد خطوات من السور الجنوبي للمدينة أكمل المالك الثامن خطة ياسف بن رافايل بعد 211 سنة على بدايتها، وصنع القصر الذي حلم به، ليس فقط في الأناقة والترف فيه، بل ربما بالوظيفة كذلك.

عانى إسماعيل كثيراً في العثور على مهندسي الترميم وفنييه، لأن أغلب من رُشِّحوا له كانوا مطلوبين للاعتقال بسبب مشاركتهم في مظاهرات، أو للخدمة الاحتياطية بسبب عدم مشاركتهم في المظاهرات، فاضطرَّ للجوء إلى أحد الأصدقاء الكبار، الذي ساعد بإجراء تسوية للمطلوبين منهم، وألحق الجميع بخدمة العلم، وأحدث نقطة عسكرية في منتصف الحي مهمتها ردُّ الغزاة عن الثغور الشرقية لحارة الزيتون، وفرزهم جميعاً إليها.

عملوا بهدوء شهرزاد وإتقانها، فقد كانوا يعرفون أن انتهاء حكايتهم سيعني إرسالهم إلى جبهات الغوطة أو حمص أو الرقة. صاغوا الجدران كحكاية السندباد وعثروا على تقنية تحفظ روح القرون فيها دون أن تعيق وصول شبكة الواي فاي. زخرفوا الأبواب لتصبح كأبواب الحكايات التي تُفتح ما إن تُتلى عليها التعاويذ. نثروا السماء على الأرض والأقمار على الأسقف. جعلوا غرفة القبو كمغارة علاء الدين. وضعوا من التفاصيل ما يحتاج إلى ألف ليلة وليلة من التأمل.

زَيَّنوا غرف الخدم الثلاث في الطابق الأرضي بما يليق بوصيفات العشيقة المفضَّلة للسلطان. زخرفوا غرف الاستقبال والطعام والاجتماعات في الطابق ذاته لتكون مطمئنة لملكٍ يستقبل سحرة، وأفاضوا في تطويب الفسحة السماوية لتناسب رجلاً ربما رغب ذات ليلة أن يصعد إلى السماء ويعود قبل الفجر دون أن يشعر به أحد.

حافظ مرّممو البيت على كثير مما كان فيه: قطعة الرخام المثبتة فوق الباب، والتي حُفر عليها بالخط الكوفي: «هذا من فضل ربي»، الدرج الحجري الأبيض الذي يصعد إلى الغرف العلوية، الدرج الحجري الأسود الذي ينزل إلى غرفة القبو الوحيدة، رائحة غرفة المونة والسواد الملتصق بجدرانها، الشجيرات الموزعة حول بحرة الماء، أثاث ليوان الاستقبال الرئيسي، بعض المتعلّقات الشخصية للدكتور عزمي الصواف المالك الأخير للبيت الذي ولد وعاش ومات فيه: لوحة مؤطّرة بالخشب المطعم بالنحاس لشهادته في الطب البشري من جامعة دمشق دفعة عام 1957، صور بإطارات رقيقة لحفل زفافه، وللحظة حصوله على كأس في لعبة رياضية ما، وأثناء قيادته لسيارة كاديلاك دي فيل، ودراجة نارية من دوكاتي الإيطالية، وبضعة صناديق فيها كتب ودفاتر تعرّض أغلبها لرطوبة أو فيضان الماء في القبو حيث كانت محفوظة وتلاشى الحبر عن بعض صفحاتها أو أجزاء منها.

**

حين غادر مايك الشرقي دمشق في الخامسة من صباح يوم الأحد السادس والعشرين من آب 1984، كان مجرد غريب الحصوص، الشاب السوري الذاهب للبحث عن عمل في لبنان.

حين وصل مايك الشرقي إلى دمشق في الحادية عشرة من صباح يوم الأحد الثلاثين من آب 2015 كان فلاديمير بوتين مجرد رئيس روسي ذاهب للبحث عن مجد في سورية.

أفصح الروسي سريعاً عن كل ما يريد: استئناف سيرة أمّته التي توسّعت 134 كيلو متراً مربعاً كل يوم طيلة أربعمئة عام.

وأخفى الشرقي أكبر قدر مما يريد: استعادة روحه من الشيطان مقابل الثروة التي كانت تنمو 134 ألف دولار كل يوم طيلة 31 عاماً وأربعة أيام.

عبّر الحدود هذه المرّة مدوناً بياناته هكذا: غريب الحصو/ اسم الأب:
نظير/ اسم الأم: فضة الجاروش. نزل من السيارة وقدم بنفسه جواز السفر
كأي مواطن عائد من غربة طويلة، واتجه مباشرة إلى بيته الجديد الذي
لم يره بعد.

لو دخلت السيارة من باب الجابية باتجاه سوق مدحت باشا، أو من
حي الأمين باتجاه البزورية، لكان بإمكانها أن توصله بفارق بضعة أمتار عن
البيت، لكنّه اختار أن يدخل أول مرّة من حيث عليه أن يدخل.

اجتاز المسافة من الباب الشرقي راجلاً، وعدّ خطواته متذكراً تلك المرة
العتيقة. مشى 180 خطوة إلى ناصية مسجد العريشة، ثم تسعين واحدة
أخرى إلى باب البيت. دخل مطمئناً بسبب جواب الشيخ البقيعي على
قلقه من زيارة دمشق في هذه الظروف:

. هل تعرف ما هي الكلمة رقم 38719 في القرآن الكريم؟ أي الكلمة
التي تتوسطه تماماً؟ إنها كلمة «يتلطّف».

هل تعرف في أيّ سورة؟ تماماً في سورة الكهف. هل تعرف تمة الآية؟
إنها الآية التي تتحدّث عمّن غاب طويلاً، عمّن نام طويلاً، أو عمّن أغمض
عين قلبه عن الحق طويلاً.

لا تخف، لا تخف!

**

في حارة الزيتون أحد تفرعات الشارع المستقيم، وقف على الناصية،
عند الجدار الحجري الذي يتناوب فيه الأبيض والأسود كرقعة الشطرنج،
رفع رأسه ليرى نهاية مئذنة مسجد العريشة ثم تأمل سور كنيسة الزيتون،
ومقابلته مطعم أبو الزلف، وقال لمرافقيه: ما أجمل السوريين! تسمّون
بيوت عبادتكم بأسماء تليق بمطاعم الهواء الطلق، ومطاعمكم بأسماء
قادة الكنائس.

أبهجه البيت قبل أن يتجول فيه، شعر بالرضا تماماً. استقبله الطاقم الذي اختاره إسماعيل: سكرتيرتان وأربع خادمت ووطبّاخ ومساعدان له، ومسؤول مشتريات وفني صيانة وثلاثة حراس ومديرة لهم جميعاً، تعرّف إليهم وهو يقلّب عينيه في الجدران، توجه إلى رشا مديرة البيت: أين مكّتي؟

. يوجد اثنان، واحد هنا للاجتماعات الصغيرة واستقبال الضيوف، ومكتب خاص في الطابق العلوي بجوار غرفة نومك، هل تحب أن أرافق حضرتك في جولة بالبيت، أو تريد أن ترتاح من السفر قليلاً؟

هزّ رأسه ومشى حول بحرة الماء. سارت معه تشرح له تفاصيل البيت، نظر إلى إسماعيل: أرسلوا يطلب الفريق الذي رَمّم المنزل، أريد أن أشكرهم وأكافئهم بنفسي، هل يوجد مالٌ كافٍ في البيت؟

أجابته رشا المتحمّسة لممارسة عملها الذي جاءت إليه من خبرة فندقية: السيد إسماعيل سلّمني مليون ليرة لمصاريف البيت، أنفقنا منها 62 ألفاً وبقي 938 إنها موجودة في الخزنة بغرفة السكرتاريا، هل تحب حضرتك أن أسلّمك إياها؟

نظر مايك إلى إسماعيل وابتسما، اقترب إسماعيل وهمس له: يوجد مليار ليرة بالعملة السورية يقوم الشباب بإحضارها إلى هنا الآن. الخزنة هي الغرفة الملاصقة لغرفة نومك العلوية وضعت فيها أمس مئة مليون دولار، وفي خزنة المكتب يوجد ضعفاً المبلغ، يبعد من هنا خمس دقائق، والمفاتيح معي.

لحقت به إحدى الخادمت بفنجان القهوة كما وصف لها إسماعيل أن تصنعه، شربه أثناء تجواله في طابقي البيت. عاد إلى الإيوان ليستقبل المهندس عمرو الذي أشرف على ترميم البيت وأربعة من فريقه كانوا متوفرين في تلك اللحظة على الحاجز. شكرهم وأبدى إعجابه بعملهم.

شرحوا له ما فعلوا، والمنطق الذي اعتمدوه، ومحاولتهم المحافظة على نوع المواد الأصلية لأقصى درجة ممكنة، وكيف كشطوا الصباغ عن بقايا جسر البط ومددوه بمذيبيات صناعية خاصة وطلوا به حواف الأبواب، لأن الجسر الذي كان في الصالحية شيد في السنة ذاتها التي بني فيها البيت.

بررو التفاصيل التي حافظوا عليها، بأن الحجر الصغير فوق الباب ليس أرضياً، هو من بقايا نيزك، وطقم الكراسي في الإيوان يعود للقرن السابع عشر وهو من صنع موسى عواد وأولاده، الكتب والوثائق الشخصية للمالك القديم للبيت احتفظوا بها لأنهم يعتقدون أنه قد يكون فيها شيء نادر أو مخطوط ذو قيمة ما، وأن البائع ترك كل شيء لأنه لم يعد يملك مكاناً آخر في دمشق، وترك لهم حرية التصرف بالأثاث، ووجه لهم رجاء بالحفاظ على وثائق أبيه، الذي لم تكن ثمانين عاماً عاشها في البيت ذاته كافية ليموت بالشيخوخة، بل احتاج قذيفة أطلقت من مكان مجهول لتسقط قربه، وتقتله شظاياها فيما يمارس عادته الصباحية بالذهاب سيراً إلى عيادته التي لم يعد يزورها أحد في برج الروس.

طلب أن يحضروا له دفاتر حسابات الترميم، ألقى نظرة سريعة على بعض الصفحات، تأكد من وجود اسم كل من ساهم في إنجاز هذه التحفة، وعرف أن العمل استمر لعام ونصف، وشارك فيه أكثر من ثلاثمئة شخص من اختصاصات ومهن ومستويات مختلفة: اضربوا كل رقم في قائمة الأجور بعشرة، واطبعوها لي بقائمة نهائية، هذه ستكون هديتي لهم، وأريد أن أسلمهم المكافأة بنفسى.

حين عاد إسماعيل بعد نصف ساعة برجاله الذي يحملون أكياس النقود، كان مايك قد جال في القبو بصحبة عمرو ليطلعه على صناديق الكتب والمخطوطات. قلب فيها قليلاً، لم يشعر بخفقة القلب التي تصيب من يعثر على كنز قديم، وقرّر أن هذه العملية تحتاج إلى مختص أكثر براعة وشغفاً منه: أنسة رشا، اتصلي بالأستاذ فايز عاج الشام والدكتورة

عبلة نار الدين، أخبريهم أنني في دمشق، وأرغب أن أشاركهم أول غداء فيها، وبالمناسبة أريد أن يكون الغداء اليوم من تلك الأشياء التي توضع في اللبن المطبوخ.

انسحبت عبلة من المهمة بعد دقائق، بسبب نوبة ربو تصيها كلما استنشقت غبار الكتب القديمة، وتابع فايز النباش في الصناديق تساعده السكرتيرات، ويتفقدّه مايك كل ساعة.

بعد أربع ساعات كان فايز قد فرز من تلك المكتبة السرية نماذج مما يعبر عنها: كتاب العبرات والنظرات للمنفلوطي، ونسخة رديئة للأعمال العربية الكاملة لجبران خليل جبران، كتاب تعلم عزف الغيتار بدون معلم، وأربع نسخ من كتيب «حقاً قام» الذي توزعه كنيسة سيدة النياحة على الجوار لجمع التبرعات، ووضع نسخ من كتاب يحتوي أشعاراً وأدعية توزعها لجنة المسجد الأحمدي، وكتاب عن أسرار الجنس، وبعض الأعداد من مجلة الرسوم المصورة تان تان، ومجلات فنية من تلك التي تتوسطها صفحات مضاعفة عليها بوستر العدد لنجمات السبعينيات بملابس البحر، ثم عشرات الدفاتر المكتوبة بخط اليد، تبين أنها كلها حسابات للمحلات التي ورثها الدكتور عن أبيه، وتصفيات مع مستأجرين، وسجلات عيادته لأشهر متفرقة تتضمن أسماء مرضاه والأدوية التي صرفها لهم.

خرج إلى صحن البيت والغبار يجلل رأسه وملابسه: من أين تأتون بهذا الوهم في كل مرة؟ كلما رأيتم صندوقاً في قبو تظنون أنكم وصلتكم إلى اكتشاف أسرار الكون. ما الذي سيكون في مكتبة شاب ثري ومتعلم من الستينيات؟ دراجات نارية وحسابات مالية وبعض الطيش.

فجر أول في المكان الأخير

أيقظه صوت أذان الفجر قبل الخامسة بعشرين دقيقة. تقاطعت الأصوات من المساجد الكثيرة المحيطة به، كرّرت العبارات البسيطة نفسها بمقامات وطبقات صوتٍ مختلفة، كان بعضها قريباً جداً وقوياً جداً وغريباً جداً، لا سيما لأذنٍ تكاد تنسى وجود شيء كهذا.

استسلم للاستيقاظ الإجباري دون أن يستاء، وكادت الغرابة المشوبة بشيء من الافتتان تقنعه بما لم تستطع ثلاثة عقود من الزمن ومئات الشركات وعشرات البلدان ومليارات الدولارات وآلاف النساء أن تقنعه به: هل أنا مايك حقاً؟

خرج من البيت بملابس مرتجلة ومشى في الحي الذي يُظهر الضوء ملامحه شيئاً فشيئاً، وصل إلى مسجد العريشة. نظر من الباب، رأى بضعة أهدية بيتية عرف منها عدد المصلين القلائل. ابتسم لفكرة خبيثة وطفولية خطرت له، ثم نفّذها: تسلّل بخفّة، حمل الأهدية، جمعها على صدره كمراهقة عاشقة تحضن كتبها في الطريق إلى المدرسة. سار بها حتى مدخل الزقاق المؤدي إلى كنيسة حنانيا، ألقاها هناك، ثم عاد إلى البيت.

كانت إحدى الخادמות قد شعرت بخروجه، فأيقظت من في البيت واتّصلت بمن ينامون في بيوتهم، أخبرتهم بأن المعلم يستيقظ باكراً، ويجب أن يكونوا مستعدين لكل طلباته. بدؤوا بتحضير الفطور، القهوة، المكتب، غرفة الاجتماعات، ضيافة ليوان الاستقبال، أضأوا البيت بكامله. حين وصل ورأى البيت وقد اشتعل بالحياة قرّر الانسحاق مع

الإشارة: حضروا لي الفطور رثماً أستحمّ، وأبلغوا الجميع أن عملنا سيبدأ يومياً في الخامسة.

استعذب ذلك الشعور، أعجبت به روائح الفجر وألوانه وأصواته، انتبه إلى جماله الذي يستحقّ التضحية بالثمن الكبير. سمح للمدينة أن تترك أولى علاماتها عليه: ما أجمله، يستحق النوم باكراً، انتهت حياة الليل، سأتحول إلى كائن صباحي.

مدّ يده في اللقمة الثالثة أو الرابعة إلى صحن "المكدوس". لم يتمالك نفسه من إطلاق آهات الطرب لهذا الكرنفال من الطعوم، ثم الاكتفاء بهذا الطبق لبقية الفطور في ذلك اليوم، والتركيز عليه في الأسابيع التالية، وتعريض نفسه لنظرات الاستغراب من كل من قابلهم في الأيام التالية وهو يبدأ أحاديثه واجتماعات عمله بالحديث عن السحر في خليط الباذنجان والفلفل والجوز. فقد كانوا كلهم تقريباً سوريين، وكلهم تقريباً لا يمكن أن يتخيّلوا سورياً في الثالثة والخمسين يكتشف المكدوس للتوّ، ولا أن آمنة الحصو كانت فقيرة لدرجة أنها لم تصنع المكدوس قطّ.

جولته الثانية في ذلك اليوم لم تكن بعيدة، مشى باتجاه بداية الشارع المستقيم، المحلات كلها مغلقة في السابعة صباحاً والشارع خاوٍ تماماً، عاد أدراجه قبل أن يبهتَ في ظلّ السقف المعدني لسوق مدحت باشا، وتوقف عند بقايا القوس الروماني، جلس على قطعة العمود الملقاة أرضاً، ونظر ملياً إلى الكنيسة المريمية، والمئذنة المعلقة في الهواء أمامها، انتبه لمكبرات الصوت الأربعة المثبّثة عليها وقال في نفسه: هذه مئذنة، أمّا تلك فمناارة، سينزل المسيح على منارتي إذاً.

نهض سعيداً كهجوز من وعر اللجاة زاره الباشا ذات فجر. وصل إلى البيت فوجد ما يشبه المظاهرة، عشرات الشبّان بلغهم أن المعلم الكبير سيعطهم مكافأة عن عملهم في ترميم البيت، وأن بعض زملائهم حصلوا

على ذلك فعلاً بالأمس، كان الحراس عاجزين عن ضبط الفوضى التي أحدثوها في الشارع، واضطروا لاستخدام بعض العنف والتهديد.

أُتب الحراس بصوت مسموع لفظاتهم مع المبدعين، وأمر بدخول الجميع. صافحهم وشكرهم وتعرّف على بعضهم، ساعدته رشا والسكرتيرات في مطابقة الدفاتر وعدّ رزم النقود، دخلوا في مجموعات صغيرة، جدّدت الخادمت أطباق الحلويات والفواكه مرات عديدة، أعطاهم مكافآتهم، وعاملهم وكأنهم من يعطيه المال، بالغ في تواضعه، في التعبير عن امتنانه، في منحهم الشعور أنّهم كسبوا صديقاً وأخاً كبيراً.

الأخبار الجيدة تنتقل أحياناً بسرعة الأخبار السيئة. أبلغ العمال بعضهم البعض بالحدث غير القابل للتصديق، وحتى الثالثة بعد الظهر كان نصف من شاركوا في ترميم البيت قد قابلوا المعلم شخصياً، ولم يتأخر سوى أولئك الذين في المعتقلات أو الخدمة العسكرية أو في مناطق تحتاج يومين للوصول إلى حارة الزيتون.

من كان سعره في سوق العمل 50 ألف ليرة شهرياً وعمل في البيت لثلاثة أشهر حصل على مليون ونصف مليون ليرة، ومن عمل لسنة ونصف السنة حصل في ذلك اليوم على تسعة ملايين، ومن كان يعاني من اهتزاز ثقته بنفسه وبمهارته حصل على ما يجعله يتكبر على قائد الدفاع الوطني في منطقته. لذلك قبل أن ينتهي اليوم امتلك مايك الشرقي وإلى الأبد 300 شخص سيطوفون البلاد ليبيشروا الناس بهذا الرجل القادم من الحكايات. و300 حرفي صاروا جاهزين ليطلب منهم بناء قصر عبد الملك بن مروان فيبنون، وهدم مسجد بلال الحبشي فيهدمون، ونسخ جدار الأيقونات في كنيسة القيامة فينسخون، ورسم سقف كاتدرائية القديس بطرس فيرسمون.

في المساء كان لدى إسماعيل بعض الأسئلة: أخبرتني رشا أنك لم

تطلع على جدول المواعيد وطلبات الاجتماعات، متى تعتقد أنه يمكنك ذلك؟ بعض كبار المسؤولين عرفوا أنك وصلت إلى دمشق وقد يزعمهم أن تأخر في زيارتهم، لم نختر لك سائقاً لأننا لا نعرف ما إن كنت تريد إبقاء مرسال هنا. متى ترغب برؤية مكتبنا الرئيسي لتقرر ما إذا كنت تريد أن تدير الأعمال من هناك، أو نختر لك مكتباً آخر؟ المديرين ينتظرون منك تحديد موعد لتجتمع بهم.

قرارات مايك جاءت من وحي اليوم الطويل الذي قضاه: دع شفيق وسامر يأتون فوراً، مرسال سيبقى معي هنا، لكنني منحتة إجازة طويلة، لم يزر أهله في السويداء منذ سنوات، حين يعود كلّف من يدرّبه على شوارع المدينة، كل من يرغب برؤيتي يمكنه الدخول مباشرة، في هذا البيت سنلغي الترتيبات المسبقة.

لا أريد مكتباً آخر، ستكون حياتي كلها هنا، سأعيش وأعمل وأستقبل الآخرين. أريد فقط أن توسّعوا طاقم البيت قليلاً ليصبح قادراً على مساعدتي في العمل، سيكون موعداً الفطور في السادسة والغداء في الثانية وقتاً مفتوحاً للجميع، ستكون طاولتي مفتوحة لاستقبال من يشاء. زمّ إسماعيل شفتيه كي لا يقول: "كما تشاء، لكنني لا أظن". وسأله عن مواعيد المسؤولين.

قال إنه يفضل أن تكون كل المواعيد واللقاءات هنا، إذا كان هناك من لا يمكن دعوته أو اختلاق مناسبة لوصوله إلى الحي، فلا بأس، ولكنه يعتقد أن هذا ينطبق على شخصين أو ثلاثة لا أكثر.

كرّر سامر تبجيله المبالغ فيه لمعلمه، وفعل شفيق الشيء نفسه لكن بطريقة أكثر رصانة، اطمأن إلى سير عمليات نقل ملكية الأراضي، وتثبيت عقود استثمارها، أخبره سامر أن أربعاً من ست جهات رسمية أنهت الإجراءات ورفعت العقود للتصديق، وبقيت فقط الأراضي الوقفية لأنها

تحتاج إلى معاملات خاصة، والأراضي المصنّفة حالياً منطقة عمليات عسكرية، وبالنسبة للمقاسم في المدن الصناعية فهي ما زالت أراضي جرداء، بانتظار أن يقرّر بشأنها.

شفيق أخبره عن قرب انتهاء بناء الصالات التي تم استئجار أرضها بعقود طويلة في المنطقة الحرة لتكون مركز المنتجات الصينية، واستشاروه بمن سيستلم إدارة هذا المشروع. أخبرهم أنه لا يريد شخصاً محدّداً، وطلب منهم التواصل مع «شركائنا» ليرسلوا سيدة صينية تلبس تنورة قصيرة وتكلم العربية الفصحى: الإعلام سيحبّ ذلك.

فيما كانوا يتناقشون بالمرحلة الثانية من عملية تطهير الأرض، وخطة التخلص من المباني التي لم تشملها العملية العسكرية في عمق الأرض، وتوظيف المباني القريبة من الباب، بدأ مايك بالتثاؤب. بدأ غريباً وهو يغالب النعاس قبل العاشرة، استأذن من موظفيه: إنهم يحضرون لنا شيئاً في المطبخ، لا تغادروا دون أن تتناولوا العشاء، أنا ذاهب للنوم، أراكم غداً.

**

نّبّه أذان الفجر في اليوم التالي، كما سيفعل لكثير من الأيام، استيقظ بكامل نشاطه، كانوا قد حضّروا له قهوته وإفطاره الذي احتوى على تنويع في أصناف باذنجان «المكدوس»، وجدولاً لموضوعات ومواعيد اليوم واليوم السابق. وقفت رشا قربه أثناء تناول الإفطار، قرأ وأملى عليها: الشيخ البقيعي أريده بعد صلاة الفجر غداً، رائد وعمار وهيام أريدهم على الغداء. مدير شركة بنيان؟ من هذا؟ ليره إسماعيل. المتبقي من فريق الترميم لهم أي وقت يشاؤون. المحافظ؟ ليذهب شفيق مع سامر. افتتاح المركز الصيني؟ ابدؤوا بالتنظيم، سيحضر وزير أو أكثر من بكين، ضعوا خطتكم على هذا الأساس!

غابت رشا لدقائق ثم عادت تحمل دفترًا ومغلّف أوراق: سيدي نسيت

أن أخبرك أن هذا المغلف وصل من بيروت مساء أمس ويحتاج إلى أن تطلع عليه، أيضاً أنا ضعت وخلطت بين من تريده على الغداء، هل هو الشيخ البقيعي أو المحافظ؟ وإذا أمكن أن تكرر لي كل شخص متى تريد أن تراه؟

اتصلي ببيروت، ستكون رنده نائمة الآن، تابعي المحاولة حتى تستيقظ، قولي لها أن تترك ما في يدها وتأتي إلى هنا، أخبري إسماعيل ليرتب وصولها وعبور الحدود.

كررت كلمة «حاضر» عدة مرّات وهمت بالخروج، فاستدرك: لا تنسي أن تعتذري منها لإيقاظها في السادسة. اروي لها ما سألتني للتو وستعذرک.

اطّلع على المغلف، وكان فيه ما يثبت صحّة المكان الذي اختاره الآن: قرار توقيف من محكمة إنكليزية، وتجميد حسابات وحجز احتياطي في اليونان.

تعلّم درس البارحة ولم يغادر البيت حتى التاسعة، مع بدء اشتعال الحياة في المدينة، من ناصية الحي مشى غرباً لخمسمئة متر، ثم دخل من سوق البزورية، مرّ أمام المسجد الأموي دون اكتراث: «انتهت علاقتنا، لقد تصافينا». تابع طريقه حتى اجتاز سوق العسرونية، ومشى مع سور القلعة الشمالي. بعد الحديقة ببضعة أمتار، رأى وجهه معلقاً على حبل. وقف فوق رأس صبر نمنوم المنهمك كليةً في رسم الشاب الجالس أمامه والذي اختار وضعه «المتأمل في الأفق البعيد» أنهى صبر اللوحة، ورفع رأسه ليرى من الذي يغطيه بظلّه. زمّ عينيه بضع ثوانٍ ليساعد ذاكرته ثم ابتسم: عرفتك، لوحتك بالحفظ والصون!

نهض عن كرسيّه القابل للطيّ، دعا مايك للجلوس عليه، وجلس على الخافة الحجرية، نادى بصوت عالٍ لشخص غير مرئي: مرىاااا! أتاه الردّ من خلف الجدار: «يا عونك!».

. «صيقع اثنين».

بعد دقيقة ظهر الفتى يحمل زجاجتي مشروبات غازية بماركة غير قابلة للقراءة، حروفها ممحوّة، ولونها غريب يميل للأخضر، لكنها متعرّفة لبرودتها الشديدة في هذا الجو الحار، أخرج من جيبه الخلفي مفتاحاً صدئاً وأطلقه في الهواء، ثم أعاد التقاطه وفتح أول واحدة قدّمها للضيف، ثم أطلقه مرة ثانية ودار دورة كاملة وفتح الزجاجاة وأعطاهما لصبر: «أحلى كازورتين لعمّي أبو أزل وضيوفه، وعمر الحاضرين يطول!».

تذوق مايك أغرب طعم عرفه في حياته: ممّ يصنعونها؟

. من الضيم.

. أبو أزل؟ أزل بنت أو ولد؟

. أزل كانت ابنتي الوحيدة، لم تعد كذلك، كيف تكون ابنتي وهي في السويد؟

لم ينتظر صبر أن يسأله مايك أيّ سؤال، فحاجة الحزن للبوخ رعناء، وحين تثور فهي لا تبحث عن إذن، بل عن أدن:

أزل رسامة مبدعة، تزوجت من شاعر، سلب عقلها بغزل مسروق. بعد خمسة أشهر حطّم لوحاتها في نوبة سكر. حطمها على رأسها، ثم ألقى بها هي واللوحات في الطريق، وقال لها: اذهبي إلى أبيك، أنتم ولوحاتكم يليق بكم الشارع.

. أين أمّها؟

. أمّها في سلمية، انفصلنا منذ زمن طويل، عشت معها تسع سنوات، ثم تركتني ورحلت.

. وأخذت الفتاة معها؟

لا طبعاً، نساؤنا يعتقدن أن الأبوة عبء، فعاقبتني بها، كانت تنتظر
أن أصرخ.

هل كانت عقوبة فعلاً؟

كانت معنى حياتي.

هل أحببتك الفتاة؟

كل الأكم في حياتها سببه أنها تحبني. الشاعر الذي تزوجته، ظننت
أنه يشبهني، رغم أن كل ما يجمعني به أن شعره طويل مثلي، وكلانا يحب
المتنبي ويشرب العرق يومياً.

ماذا فعلت كي تجعلها تحبك؟

لم أفعل شيئاً، سوى ما يفعله الآباء العاديون.

وماذا يفعل الآباء العاديون؟

ليس كثيراً، يقلقون.. يهتمون.. ينكسرون أحياناً.. يحاولون إخفاء
انكسارهم. لا ينجحون. تغلبهم حاجتهم إلى حبّ أبنائهم، ولا بأس لديهم
أن ينكشفوا أنهم يتملقونهم... أشياء من هذا القبيل.

لقد كنت أباً ذات مرة، لكنني لم أنجح.

إذا لم تكن أباً على الإطلاق، الأبوة لا تفشل. تكون أو لا تكون. تفشل
فقط حين ترمي بنطافك في واقٍ ذكري، في حفرة حمام، في منديل، على
بطن، على إلبتين. أما حين تضعها قريباً من رحم مستعد، فقد أتيت
لنفسك بكل ما ستحتاجه هذه النطاف من ألم وقلق.

لقد تمرّدت ابنتي عليّ، طردتني من حياتها نهائياً، حتى المال الذي
أرسله إليها ترفض استلامه.

هذا تسمّيه فشلاً؟ أحسدك.

. علام تحسدني؟

. أنك أنجبت ابنة قوية.

. في الحقيقة لم أنجبها، تبيّتها.

. هذا أفضل، ليس فيك وهن الآباء الحقيقيين. لكنّ هذا النوع من الأبوة يحتاج مبالغة في التملّق، وجهداً يومياً مضاعفاً. يبدو أنك لم تبدله بما يكفي.

. لماذا انفصلت عن زوجتك؟

. لأنه لم يكن لدي أيّ جواب للسؤال المعاكس: لماذا تبقى معها؟

. أعطني لوحتي لأرى ما فعل بها الزمن.

كانت اللوحة أمامه، ولم يحتج صبراً أن يزيل عنها الملقط، شدّها ليقربها منه: أرأيت؟ ألم أقل لك إنني أعرفك كما لا تعرف نفسك، هل تريد أن تأخذها الآن؟

. لا، احتفظ بها! كم أصبح سعر اللوحة اليوم؟

. اضطررنا لرفع الأسعار، ارتفعت أسعار المواد، وتكاليف الحياة، صارت اللوحة بألف.

ثم انتبه لما يقول واستدرك سريعاً: لوحتك أعطيتني ثمنها عشر مرّات، أنا أتحدث بشكل عام.

أخرج مايك من جيبه رزمة بالليرة وأعطهاها لصبر: هذه النسخة أصبحت قديمة، ارسماها مرّات عديدة حتى ترضى عنها، هذا ثمن تجديدها، أعجبنى المشروب، سأمرّ بك يومياً لتسقينني منه.

**

تابع حتى باب القلعة، لفته الازدحام من جهة الجسر، لفته كم الجسر

قبيح. رأى رجلاً يستعطف بائعاً فوق الجسر المطل على النهر كي يبيعه الحزام بخمسمئة ليرة، كان يقسم أنه لا يملك سواها، وأن البنطال صار واسعاً فجأة، والبائع مصرٌّ على السبعمئة ويقسم أن تكلفتها عليه 650. مشى باتجاهه، وبدأ يفاوض البائع أن يشتري منه كل ما معه من أحزمة رجالية رديئة. تنحى رجل البنطال المرتخي جانباً باستسلام، حتى انتهت الصفقة إلى شراء الستين حزاماً بـ 25 ألف ليرة. نادى الرجل الذي أفقده الحرب وزنه: خذ ما يناسب خصرك منها، ووزع الباقي!

تلعثم الرجل قليلاً ثم بدأ بالدعاء، ارتفع صوته ثم تلاشى تدريجياً مع ابتعاد مايك باتجاه ظلّ تمثال صلاح الدين. ترك ضجيج شارع الثورة خلفه، ودخل في سوق الحميدية، سبح بين أمواج الناس متفقداً الوجوه والأقدام. أدرك حجم الخوف الذي تخترته تلك القامات المهوددة، قرأ الوجوه، وأدرك أنه لا بد من سائق «دودج» ينتظر عند نهاية السوق ليحمل كل هؤلاء الناس إلى بلاد أخرى.

وزّع ما في جيوبه على السائلين من أول السوق وحتى نهايته، وبآخر ورقة اشترى كيساً من القمح وجلس ينثره للحمام في ساحة المسكية التي لا يد سيصبح اسمها ساحة الحمام يوماً ما. تجمّعت مئات الطيور البيضاء والزرقاء حوله وبعد بضعة دقائق من رشّ الحب المتواصل صارت تقترب منه حتى لتكاد تلامس يده.

مضى نصف النهار قبل أن يصل إلى البيت، ويجد زنده وقد وصلت ثم فهمت تماماً ما عليها فعله، استقبلته بابتسامة متواطئة ثم عناق تخلّته شتيمة هامسة: «مين الحمام اللي اختارها الحمير!؟».

أخبرته بما فعلت. طلبت من إسماعيل أن ينقل نصف الطاقم إلى وظائف أخرى، ويرسل لها مرشحين جدداً لتقابلهم وتختار بنفسها: رشا تصلح للإشراف على المطبخ وتنظيف الغرف فقط، سنختار لك مديرة مكتب بارعة.

انضمت إلى طاولة الغداء بعد أن أنجزت هيكله الموظفين وخارطة المهام بما يليق بمكتب رئيسي، واكتفت بملعقتين من التّبولة وورق العنب وهي تستمع لطلبات رائد الذي يريد تمويلاً لصحف إلكترونية جديدة. ومناسبة تصلح ذريعة لجمع من تبقى من إعلاميين وتقديم هدايا ومكافآت لهم، وهيام التي تريد عملاً إدارياً في فريق تأسيس الجامعة، وعمّار الذي يريد مركز أبحاث، أو مشرفاً في مركز موجود. شاركت مايك الاستماع لتلخيصهم حصيلة عامين من البحوث والاجتماعات، وأملهم أن يكونوا قد أنجزوا مهمتهم بما يرضي المعلم.

خلال تناول الغداء وصلت إحدى آخر المجموعات التي عملت في ترميم البيت، دعاهم مايك بإصرار ليشاركوهم الغداء. كانوا عمالاً ممن اختاروا ونحتوا ونقلوا الأحجار من أعالي القلمون، نهض مايك عن كرسيه ليوسّع لهم مكاناً، وليشعرهم بالموّدة.

لبقية اليوم استقبل وفوداً متتالية من موظفي الشركة الذين جاؤوا ليرحبوا بالمعلم ويعرّفوا بأنفسهم، ويظهروا مواهبهم وإمكانياتهم أمامه. فهم يعرفون أن هذه الفترة ستشهد توسّعاً كبيراً وتحتاج إلى كمّ كبير من المديرين.

قبل الغروب بقليل مرّت دقائق فراغ استغلّها وخرج من البيت باتجاه الباب الشرقي. لم يكن قد رآه اليوم، اطمأن أنه ما زال في مكانه، لم يستطع الوقوف تحت القوس بسبب وجود حاجز عسكري تقتضي مهمته الارتياب.

وقف خارج الباب قليلاً ترك الشمس ترحل من خلفه ونظر ملياً إلى حيث جاءت في الصباح. أتاح لملامح الصورة أن تصبح أكثر وضوحاً. أشار بيده يميناً ويساراً وإلى الأمام وشرح لنفسه خارطة المباني: هنا ستبدأ المسيحية وهناك سينتهي الإسلام، العلم من هناك وإلى ذلك الأفق ستمتد الحقائق.

في طريق عودته توقف تحت الباب. تحدّث مع عناصر الحاجز، سألهم ما إن كانوا يبقون كل الليل هنا، وكم عددهم وأين ينامون، ثم قال لهم: أنتم تحموننا. بالنيابة عن أهل الحي أرجو أن تقبلوا دعوتي، سأرسل لكم العشاء بعد قليل.

فور وصوله إلى البيت كلّف من يوصل الطعام ثلاث مرّات في اليوم للعساكر، وتلقّى اتصالاً من الأب مروان يطلب فيه موعداً في اليوم التالي لوفد من الكنيسة يريد زيارته والترحاب به في الحي ونقل دعوة له لزيارة الكنيسة. واتصلاً آخر من الشيخ البقعي يقترح تعديل موعد الغد من نهاية صلاة الفجر إلى بدايتها.

أنفق يا ابن آدم.. إنما تنفق على نفسك!

تلك الليلة لم تهدأ أصوات القصف والانفجارات الكبيرة التي تأتي من بعيد، وأصوات الانفجارات الصغيرة التي تأتي متفرقة من أماكن أقرب. كانت غوطة دمشق تقاوم التوافقات الدولية بإرسال قذائف بدائية بشكل عشوائي لمن لا يعرف عن روسيا سوى أنها مطمورة في الثلج، ولا موقف لديه من الحرب سوى الدعاء لله طيلة الوقت أن «يطفئها بنوره»، لم يكن مسموحاً لقذائفها تلك أن تصل إلى ساحة الأمويين أو القصور الرئاسية في دمشق أو موسكو. لذلك كانت تخبط الأرض عشوائياً كي لا يسرى لصبي يقاوم تثبيت جسمه وحقن عنقه في مشاجرة فتيان. كانت القذائف تصيب محيط الباب الشرقي، امتداداته جنوباً وشمالاً، أرض الملحمة الكبرى كلها.

ولم يعبر شوارع دمشق في ساعة مبكرة من تلك الليلة العصبية سوى الشيخ محمد البقعي واثقاً من رعاية الله لما كتب عليه دوناً عن المسلمين أجمعين. سار في الليل الخطر مبتسماً وهو ينفر بالنيابة عن أحفاده وعن الأمة ليُعز نفسه وورثته و. الإسلام كذلك. بما يملكه مايك الشرقي من مال.

امتزجت أول تكبيرات المؤذن مع قرع خجول على باب غرفته. كانت الخادمة تريد إخباره أن الضيف ينتظره في أرض الدار، وطلب منهم استعجاله.

استقبلته ابتسامة الشيخ وإشارة يده إلى صوت الأذان حين همّ بنزول الدرج. أمسك بيد مايك اليمنى بكلتا يديه: السلام عليكم وأسعد الله صباحك بالرضا والطاعة، غيرت الموعد كي أصبحك لنصلي الفجر معاً.

. لا أعرف الصلاة. كنت أعرف، نسيتهـا.

. لا بأس، سأعلمك.

. لا أريد أن أصلي، أشعر أنني سأكون مضحكاً لو فعلت.

. لا أحد يكون مضحكاً حين يصلي.

. دعني ونفسي رضي الله عليك، لو أردت الصلاة سأنتظرك، المسجد قريب، وتوجد كنيسة أيضاً إذا أحببت.

. لا بأس، سأقضيها فيما بعد، لكنني أملت النفس بأن أنال هذا اليوم ثواب حياتي بصلاتك.

. وكيف تنال ثواباً من صلاة رجل آخر؟

. ألم أقرأ عليك من قبل: «وجعلنا الإنسان أكثر شيء جدلاً»؟

. إذا فالله جعلنا أكثر شيء جدلاً؟

. بالطبع!

. لم أنت معترض على مشيئته؟

. لن أستطيع هزيمتك في الجدل، أين طعامكم؟ لقد دعوني إلى الفطور.

على مائدة الإفطار أخبره الشيخ أنه أنجز مهمته ورؤد المهندسين بكل ما طلبوه، واجتمع معهم عدّة مرات ليشرح لهم ما أشكل عليهم، جمع لهم كل الآيات والأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والتابعين واجتهادات الفقهاء وتفسيرات العلماء، أصبحت بين أيديهم كل كلمة قيلت في وصف الجنة، وسيستلهمون منها مخططات روضة الصحابة.

. بدؤوا العمل على أساسها، بارك الله بك!

. سألتهم وسأعيد السؤال عليك: صفة الجنة سرور القلب والعين، قد

تصنعون ما يرضي العين، فما أنتم فاعلون في القلب؟

. حدودنا إرضاء الحواس، القلب من شأن صاحب القلب، أو ربّ القلب وصاحبه. سنصنع مسرّة للعين، فنحن لا نجلب للناس الجنة، بل نجلبهم إلى ما يتباركون به كي يصلوا إلى الجنة.

. فهمت أنك كلّفْتهم بوضع مخططات لأنهار صناعية، هل تريد أن تصنع أنهار اللبن والعسل والخمر؟

. ما رأيك أنت؟

. فكرة الدارة المغلقة أعجبتني، ولكن هل أستطيع أن أطلب منك إلغاء نهر الخمر، فنحن ما زلنا في الدنيا، وخمر الأرض حرامٌ علينا، كي يحلّ لنا خمر السماء.

. وفق ما شرحوا لي، فالأمر رمز أكثر من كونه نهراً فعلياً، أنه عبارة عن قناة بعرض 46 سم وطول اثنين وثلاثين متراً، تعيد دوران السائل فيها وتحتاج إلى تجديد بشكل طفيف.

. يعني بعرض ذراع؟

. أجل تقريباً، وطولها سبعون ذراعاً.

. وستصنعون ثلاثاً منها؟

. الأرجح أن نصنع اثنتين في الروضة، وسنبني الثالثة في موضع آخر، ربما داخل الباب إن نجحنا في العثور على مكان ملائم.

. أعرف أنك تقصد بالاثنتين اللبن والعسل وبالثالثة الخمر، لكن ما الفرق ما إن كانت داخل الباب أو خارجه؟

. ما تعلّمته منك يا شيخ أن الإيمان سيأتي من خارج الباب، والكفر سيكون لابئاً داخله، فرأينا أن نزيد الكفر غربه، لعل الإيمان يحتشد شرقه.

. أرجوك، لقد صرت شريكك في هذا الأمر، كي نخدع الآخرين معاً علينا أولاً ألا نخدع بعضنا، نحن سنخدم الفحش أم سنخدم العقّة؟

. نخدم الفحش بقدر ما يسرّع في شيوع العفة.

. العفة والفحش كالنجيل والنعناع ما تسقيها منها امتدت.

. تعلّمنا منكم مولانا أن بعض الكفر ينبّه الغافلين إلى بدهة الإيمان
فيأخذهم إليه، وكثير من الكفر يسرّع بملحمة نزول الإيمان من السماء دليلاً
وضاء يراه أغفل الغافلين.

. أنت تتلاعب بي، وتأخذ من كلامي ما يعاكس مقصده، تريد أن
تجعل من نهر الخمر مشروعاً جاذباً للريح داخل السور، ... هذا الجبن
لذيذ جداً، ما اسمه؟

. هل تظنني أحتاج إلى ريح بضع كؤوس نبيد تُعرف من نهر وتباع بالليرة؟
معك حقّ، الجبن لذيق، اسمه بولي يصنع في جبال البلقان.

. لا يعينك ريحها بالطبع، لكنك مهووس بنجاح فكرتك وستنتشي
بالتراحم على نهرك.. ما السر في هذا الجبن؟

. جبن البولي مصنوع من حليب الحمير.

بصق الشيخ اللقمة التي تذوب في فمه.

. أعرف أن لحمه محرّم، وصوته منكر، فهل الجبن منه محرّم؟

. لا ليس مما ورد تحريمه، هو مكروه.

. أين وردت كراهته؟

. لم ترد، نحن نكرهه.

. قلت إنه لذيق، كيف تكرهونه؟

. قلت إنه لذيق قبل أن أعرف أنه من حليب الأتان.

. أرجوك، خذني على حجم عقلي، أريد أن أفهم كيف تُحدّدون الحلال

والحرام، قلت إنه لذيد، وقلت إنه ما من نص بتحريمه، فلم تعاملت معه
كمحرّم؟!

.إنها النفس، مفطورة على عدم قبول ما فيه شبهة.

.أي شبهة؟! أليس «الحلال بين والحرام بين»، والأصل في الأشياء
الإباحة؟

.أنا أتحدث دون توقف منذ عامين، وأنت تسجّل عليّ كل شيء، تحفظه
لتعيد استخدامه ضدي؟ القصة لا حلال ولا حرام، غيرت رأبي بالجبن، أي
من هذه مصنوع من لبن الغنم؟

اكتفى مايك بابتسامة المجادل المنتصر، وسرّ لنجاحه في إشغال
الشيخ عن حديث نهر الخمر، وروى له بعضاً من أحداث اليوم السابق،
والمال الذي وزّعه على طول الطريق من القلعة حتى الباب: تذكّرتك حين
سألتني عن سرور الخير، لقد تذوقت لذّته اليوم، تجولت حول القلعة
وعدت من الحميدية إلى مدحت باشا، لم أترك محتاجاً ولم أعطه.

ابتسم الشيخ مصحّحاً: لم تترك سائلاً ولم تعطه. لقد قابلت في
طريقك محتاجين لكنك لم تعرفهم لأنهم تعقّفوا، وأعطيت بعض من لا
يستحق لأنهم سألوا.

.عند نهاية السوق كنت قد أنهيت ما في جيوبي من مال، رأيت امرأة
جالسة بخجل إلى جانب الطريق، تلقّت ولم يكن أحد من رجالي حولي،
شعرت نحوها بشكل مختلف عن الآخرين، سأخرج بعد أن ينتصب السوق
للبحث عنها من جديد، أظنّها الأصدق حاجةً، فلم يكن فيها من البؤس
ما يكفي.

.بارك الله لك، وصدقني ما من شيء أنفع لك أكثر من هذا، أنفق
يا أخي! ابحث عن المحتاجين وأنفق عليهم، إنّما تنفق على نفسك، إنّما

تنفق عمّا مضى من حياتك. إن رأيت في عيون هؤلاء جبر خواطرهم فهذه رسالة أنك صرفت خيرك حيث يستحقّ، وإن مسّ قلبك شيءٌ من السرور فهذه رسالة الله أن فعلك قد قُبِلَ.

. سأعترف لك أني حين نظرت في عيون هؤلاء الناس رأيت فيها ما أسعدني.

. احمد الله يا أخي، احمد الله، لقد تودّد إليك لأربعين عاماً، لأنه كان يرجو فضلك.

. الله يرجو فضلي؟

. لا فضلك عليه، أستغفره أن يحتاج فضل مخلوق. كان يرجو فضلك على نفسك، وفضلك على نفسك هو فضلك على عياله، فهو قال: أنفق يا ابن آدم أنفق عليك!

ظنّ الشيخ البقيعي أنه يجزّ زونه إلى دكّان الخير. بدأ برشّ حبات القنبز المحلّى على درب الطائر كي يدخل في القفص، كانت حبات القنبز بالنسبة إليه تزيين فعل الخير، وكان يغلّفها بسكّر السرور الملوّن، ظلّ يردّد عليه سرور القلب، حتى صدّقه وصار يشعر به.

مايك كان يتسلّى، لم يوفر فرصة مهما كانت صغيرة ليجرب شيئاً ما، لعلّه يجد متعةً جديدة، وعلى التوازي كان ينفذ نصيبه من خطة أخرى رسمها ياتقان فايز عاج الشام، أسماها: «حكاية صاحب الحكاية» صاغها، كما يفعل بأيّ شيء آخر، وكأنها إحدى رواياته. في هذه الرواية تحديداً كان الشيخ البقيعي أحد شخصياتها المساندة بأفعاله المتوقعة، ومنطقه المقروء. وحُسن وصول الرواية إلى خواتيمها يقتضي أن يصدق البطل الثانوي ما يفعل، وأن تنسخ الشخصيات العابرة حكاياتها الصغيرة بنفسها، وذلك كلّه بشرط أن يكون البطل عارفاً بما في الصفحة الأخيرة.

**

في الأيام التالية واطب مايك على عادة الخروج من البيت في الصباح محملاً بالمال، ثم بعد أسبوع كلّف رجلين بحمل حقيبة نقود والسير بعيداً عنه، وتجديد مخزونه كلّما نفذ.

بدأ البحث عن المحتاجين بأسهل طريق ممكنة: السير في الشوارع والتحقّر لالتقاط كلمات الاستجداء، أو انكسار الوجوه، أو يتسلّل ليستمع إلى عبارات المساومات الصغيرة مع باعة البضائع الرديئة والمواد الغذائية، ليقدر. وهو خبير مفاوضات. ما إن كانت مساومة اقتناص أم مساومة احتياج، وفي الحالة الثانية كان يشتري كل بضاعة البائع ويعطيها للمساوم، لا سيما إذا كان امرأة.

نظرة الامتنان من عين المرأة أشدّ وقعاً في القلب، فمهما كان الرجل ممتناً ومنكسراً، لا بدّ أن يبقى في الزاوية الوحشية السفلى من عينه أثرٌ ما من الصبي المتبجّح الذي يكره أصحاب الفضل والمناقب والنفوذ، ويتشهى في كل لحظة أن يشهد سقوطهم، فضيحتهم، انكسارهم، كي يرمم بها انكساره.

أيضاً قاد سبب آخر مايك للتركيز على النساء، لم يكن يعرفه بشكل واضح، لكنّه مهمّاز مصنوع من ذكرى غائمة، لحظة لذّة من نوع آخر، اختبرها قبل خمسة وعشرين عاماً، وكّرر استعادتها حرفياً عشرات المرّات، وهو يختبرها الآن بوضعية مختلفة ولأسباب مختلفة.

لم يكن قد مضى على وفاة الشيخ قسام سوى بضعة أشهر، وكان مايك وقتئذٍ ما زال يكرّر بعضاً من أفعال معلّمه ليُقنّع نفسه أنه أصبح المعلّم الآن. اصطحب فتاة أخرى إلى السرير بعد استراحة تخلّلتها وجبة حمراء يسيل منها الدهن والنبيد. أنارَ تقاطع ضوء الجدران مع ضوء السقف وجه الفتاة المضيء أساساً، واستقرّ الجسدان على وضعية تتيح لمايك أن يرى بوضوح مبهر تفاصيل عيني الفتاة وجبينها وفمها ووجنتيها وذقنها

وبعض عنقها، وأن يلتصق تماماً بالمسافة الممتدة من أصابع قدميها وحتى منتصف نحرها، ويفرد كفيها على مساحتين معقولتين من الجانب الأيمن ومن الخلف.

بعد عشرين دقيقة تقريباً كان يلامس ثلث جسدها ويرى بجلاء ثلثاً آخر، ويضع مجسّين دقيقين على عيّنات معبّرة من الثلث الأخير. في تلك اللحظة ارتعشت الفتاة. ارتجف جسدها كناقمة مذبوحة. نفر الأرجوان من بشرة وجهها الرقيقة. نفث جبينها اللهب. عرّبت حدقتها إلى مؤخرة رأسها. رقصت شفاتها مع اصطكاك أسنانها كمن باغته العري والثلج معاً. ناس رأسها من أقصى الوسادة إلى أقصاها كبندول ساعة يعلن منتصف الليل. جاش في صدرها حرف ميم طويل وُضعت عليه مئات الشدّات.

استمرّت رعشة المرأة الشابة لزمن أطول بكثير مما تقوله الكتب السريرية، نطقت في نهايتها كلمة واحدة: «تماماً!».

لم يعرف مايك ما إن قصدت أن هذا تماماً ما تخيلته، أو تماماً ما أرادته، أو تماماً ما يحدث لها في كل مرّة، لكنّه عرف «تماماً» أن هذا الشعور الجديد لذيذ للغاية، وأنه يريد تكراره إلى الأبد، وأن هناك فارقاً كبيراً بين أن تكون مستمتعاً وأن تكون مُمتعاً، وأنك في الإمتاع ستعثر أيضاً على استمتاع.

عند مفروق سوق الدقّاقين في منتصف مدحت باشا، هبطت على مايك رؤية تلك الرعشة مجدّداً، كانت الوضعية مختلفة، والإضاءة أضعف قليلاً، والمرأة أكبر سناً، والوقت اللازم لإحداثها أقصر، والعضو المسبب مختلف، وعدد الحركات الكافي أقل، والزمن والمنشأ والهدف وباقي التفاصيل كانت مغايرة.

المرأة الخمسينية الجالسة بصمت، والتي بحث عنها طيلة أيام، لم تكن قد امتلكت بعد القدرة على طلب حاجتها من العابرين، كانت تكتفي ربما بعرض ما فعله الله بعينيها، وبالدعاء له أن يُسقط حالها في قلب لين. كانت

تستخدم للبحث عن قوت عيالها ما تستخدمه إناث كل الكائنات لحفظ
جينات نوعها: تُخلق جذابة ومشوّقة وتعتبر في المكان الصحيح.

الألف ليرة التي أعطاها إياها مايك كانت عشرة أضعاف المألوف آنذاك
في هذا السوق. لم تصدّق ما صار في كفّها، وتغيّر الثلث الأسفل من وجهها
بما يكفي ليجلس مايك على الأرض قريبا، ويناولها باقي الرزمة التي بقيت
فيها عشرون أو ثلاثون ورقة مشابهة.

نظرت المرأة للوهلة الأولى بريية إلى هذا الرجل الغريب، تلقّنت حولها،
ظنّت الأمر خديعة ما، طمأنها مايك: لا تخافي، فقط قللي ما تحتاجين!

بعبارات قليلة وبصوتٍ خفيّ حكّت عن الزوج والابنين الذين اختفوا على
حاجز منذ سنتين، والابن الثالث الذي قضى بقذيفة، والصحيرين اللذين ضاعا
في الغوطة، وعن الأرامل الخمس والأيتام التسعة، وعن البيت في جرمانا
الذي بلا أبواب ولا نوافذ ولا مغسلة ولا شيء يبرّر رفع أجره مرّة كل شهرين،
وعن صاحب البناء الذي أجّر الشقق الأربعين لعائلات نازحة، لكنّه يركّز
عليها ويفاوضها على واحدة من البنيتين أو من زوجات الأبناء الثلاثة مقابل
أجر الشهر الذي بدأ للتوّ، وواحدة أخرى عن الشهر الذي مضى، وعن هروبها
كل يوم إلى هذا السوق لعلّها تعثر على حلّ ما، أو لتهرب من سماع الأئين.
سألها عن أجر البيت، أعطاها ما يعادله لأربعة أشهر أو خمسة، وأردفها
بعبارة مطمئنة. في تلك اللحظة رأى الرعشة مرّة ثانية:

رأى قامة المرأة تنتصب، رأى اللهب ينبثّ من جبهتها، وحدقتي العينين
تحتفیان، ثمّ يشفّ الجفنان عمّا خلفهما، ثم تعود الحدقتان وتتوسّعان ويعود
البريق إليهما. اهترّ جسدها، ارتجفت شفاتها واصطكّت أسنانها وهي تحاول
دون جدوى النطق بشيء ما.

لم تقل المرأة: «تماماً». كانت راضية أكثر من ذلك بكثير. تلقّنت مايك
حوله وأشار بعينه لأحد رجاله فأتى مسرعاً. طلب منه أن يأخذ من المرأة

عنوانها واسم الرجل صاحب البناء. نظر إليها ثانية: اطمئني، لن يضيعك شيء أو أحد بعد اليوم!

أمسكت المرأة بقميصه كقبض باب، التفت إليها، نظرت في قعر عينيه: فقط أخبرني هل أنت من الإنس؟!
ابتسم وغادر دون أن يجيب.

الشعور الذي تركته تلك المرأة في نفسه ترجمه بأمر صارم وجّهه لإسماعيل وشفيق وسامر معاً: ابحثوا عن هذا الرجل، اشترخوا منه البناء بأيّ ثمن، ثم اضربوه وكأنه اغتصب رفقة، دعوه يتشهى الموت، أريد أن ينتهي كل ذلك قبل نهاية الأسبوع.

حين تمّت المهمة وأدّى جزءٌ منها أن تحصل المرأة على ملكية البيت المؤقت الذي تسكنه وأحفادها، لم يكن مايك متأكداً ما إذا كان يريد تشارك الحكاية مع أحد، أو يريد مجرد التفاخر بالرجل الجديد الذي يصبغه، لذلك لم يفكر بالشيخ البقيعي أكثر من يسرّ بفعل الخير، بل بسلمى أكثر من يدرك الخير العميق خلف أفعال الخير والشر السطحيان.

ظهيرة اليوم التالي تشارك الغداء مع الرجل الذي فشلت استعانة إسماعيل به لإغلاق ملفّ بيان: أخبرني إسماعيل أن تسوية وضع بيان مستحيلة قانونياً وأمنياً، ولكنني أعرف جيداً أن ما من مستحيل في هذا البلد، وأعرف أن بعض الأشياء ثمناها باهظ. نحن نحب السلع الفاخرة، تذوّق هذا الويسكي! إنه من حبوب وقف كاتدرائية بدبلن.

في المساء اتصل عبر الهاتف بليماسول: ملّكك سينتهي، الشقّ الأمني يسوّى الآن، سنحتاج أن تراجع القضاء العسكري لنصف ساعة لتسوية موضوع الفرار، ومديرية التجنيد لدفع بدل فوات الخدمة، حين يتمّ الأمر أرسل سلمى قبلك، أحتاجكما في دمشق.

**

انتهت جولة السوق في الصباح التالي بوقت مبكر، تفقد الباب الشرقي، سأل عناصر الحاجز ما إن كان طعامهم يصل بانتظام، شكروه كمن يشكر نبياً. في الحادية عشرة كان اليوم كله أمامه، ولا مهام تستحق الانتظار، رنّدة عادت إلى بيروت بعد أن اطمأنت جريباً إلى الطاقم الجديد، ورتبت برنامجها لتقسم الأسبوع مناصفة بين العاصمتين لإدارة العمل هنا وهناك، عند الظهيرة احتاج أن يفعل شيئاً ما: ما اسم الحي الذي تقع فيه بنايتنا الجديدة؟

أجاب أحد المرافقين: دفّ الصخر.

هل هو أفقر أحياء المدينة؟

لا، إنه حيّ جديد في أطراف جرمانا، أبنيته مخالفة، وكل سكّانه نازحون.

أخبروا إسماعيل أن يرسل بعض الرجال خلفنا، وخذوني إلى هناك!

تعرف الدكتور عيلة نار الدين الحيّ جيداً، بسبب سكنها في جرمانا سنوات طويلة. وبسبب ثقته المطلقة باقتراحات مايك في مجال الرحلات، ووصولها إلى حارة الزيتون في لحظة مغادرته باتجاه دفّ الصخر، ولأن لديها ما تخبره به بخصوص مشروع الجامعة وستستغل وقت الطريق لمناقشته بالعقبة الجديدة التي ستواجههم، فقد قررت بعض الجامعات الغربية وقف إجازة استخدام المناهج ونتائج البحوث في سورية التزاماً بقوانين العقوبات.

في الطريق وفي الشوارع الطينية المزدهمة، حدّثها مايك عن سعادته بالسكن في حي الزيتون وعن رحلته اليومية داخل المدينة القديمة، راقباً الأبنية التي ازدحمت بالبشر قبل أن ينتهي بناؤها، وجوه الناس، خطاهم المستعجلة. انتهت عيلة أولاً لزجاج دكان مرتجل وضع صاحبه لوحة من الكرتون وضع لها عنواناً: «أصحاب الحساب اللي كبر كثير» ثم بلون أحمر وضع ستة أو سبعة أسماء أغلبها لنساء، وتحتها كتب بخط العنوان نفسه: «التسديد للجميع قبل 15 الشهر تحت طائلة الحبس»، ثم استخدم القلم

الأحمر ثانية ليرسل تهديداً لباقي المدنيين ليسدّدوا حساباتهم قبل أن يفضحهم بنشر أسمائهم.

وقفت أمام الدكان، قرأت اللوحة، هزّت رأسها تأسيّاً. حين همّت بالسير ثانية، كان مايك قد أنهى قراءتها. نظر إلى داخل الدكان رأى رجلاً أعاد إلى ذاكرته صاحب البيت الذي طُرد منه في الدويلعة. كان يشبه أبا أيمن قليلاً، أو ربما أن الطبيعة تحوّل الجشعين الصغار مع الوقت إلى هذا الشكل الموحد، فيصبح جبينهم ضيقاً ومتغضّناً، ولا يصبحون صلّواً من الأمام مهما كبروا، ويصبح الشعر في مقدمة رؤوسهم مدبباً ومتّجهاً للأعلى، تبقى أجسامهم نحيلة وعروق أيديهم بارزة، تتسطح وجوههم وتعود عظمتا الوجنتين لتوازبا باقي عظام الفكّ، وتصبح بشرة خدودهم وعرة.

طلب منها التوقف والدخول معه إلى الدكان. سأل البائع عن أول اسم في قائمة المهتدّين: كم حسابها؟

أخبره دون أن يفتح دفتره: «22 ألف ليرة، والثانية 24 والثالثة 19، خربولي بيتي الله وكيلك! بدّن ياكلو ويشربو على حسابي!».

طلب مايك منه أن يجمع كل ما في دفتره من ديون أهل الحي وسيدفع عنهم جميعاً، أشرق وجه البائع حين عرف أنه سيحصل على المال. أخرج مفكرة سنوية لمؤسسة الإسكان العسكرية تعود لعام 2011 حولها لدفتر ديون، وبدأ يقلب الصفحات ويضع الأرقام على الآلة الحاسبة. تدخّلت عبلة وصرخت به: «تعال لهون، بدنا نتأكّد شو عم تعمل» وقفت بجانبه وصارت تقرأ كل اسم وكل مبلغ وتراقب عملية الجمع، نادى مايك أحد المرافقين وطلب أن يحضروا له المال من السيارة.

خلال عشر دقائق انتهت عملية التدقيق المالي بين عبلة والبائع وأخبرت مايك بالرقم النهائي: 689 ألف ليرة، شدّ على رزم المال في يده وطلب منه أن يزيل اللوحة عن الزجاج. ارتاب البائع ونظر إلى المال في

يد مايك وإلى اللوحة، تردّد بينهما: «خَلِيهَا يَوْمِينَ تَلَاثَةَ مَشَان يَتَرَبُّو وَمَا يَعِيدُوهَا مَعَ حِدَا»، صرخ به: مرّقها فوراً. نهض الرجل مسرعاً، نزع اللوحة وطواها ليحتفظ بها. طلبت عبلة أن يمرّقها، فقال إن وجهها الخلفي ما زال فارغاً ويمكن الكتابة عليه. أخذها مايك من يده، وضع المال على الطاولة، وطلب منه أن يحضر كرتونة جديدة، ويكتب عليها أن جميع ديون أهل الحي مسدّدة، وقال لعبلة: علّميه كيف يصوغ ذلك!

حاول الرجل الاعتراض وأن لا داعي لذلك، وأنه سيخبرهم بنفسه واحداً واحداً. أمام إصرار مايك وتدخل عبلة كتب الرجل ما أمّلته عليه عبلة والذي بدأ بعبارة: «الجيران والزبائن المحترمون» وانتهى بعبارة: «بارك الله بكم وفرّج عنكم!».

اللمسة الأخيرة التي قدمها البائع أوحّت لمايك بالأمر الذي أبلغه للمرافقين. فأثناء عدّ النقود، حاول البائع أن يضيف ثمن الكرتونة إلى الحساب، ثم حاول أن يحتفظ بال 11 ألف ليرة المتبقية من الرزم السبع، مقترحاً أن تبقى رصيماً لمن سيشتري ديناً في بقية اليوم.

استعاد مايك المبلغ المتبقي، ودون أن تسمعه عبلة همس في أذن المرافق: انتظروا يومين حتى يعلم أهل الحي كلّهم، وراقبوه كي لا يزيل اللوحة، ثم أحرّقوا المحل، والأفضل أن يكون فيه.

السعادة التي أبدتها عبلة للفعل الخير، جعلت مايك يرافقها لتكرار الفعل نفسه في خمسة دكاكين صغيرة أخرى في الحي، سدّد كل ما في دفاتر ديونها، وطلب وضع لافتة توضح ذلك بشكل لا لبس فيه.

**

الاضطراب الذي هزّ الحي بكامله لم يتوقف عند حدود الحدث نفسه. رغم نُدرة وغرابة أن يأتي رجل من المجهول ويسدّد ديون الحي بكامله، فالأوصاف التي حكاها الباعة الستة للفضوليين وللمدينين تقاطعت تماماً

مع الأوصاف التي سرت قبل أيام للرجل الذي أرسله الله لينقذ تلك المرأة وبناتها من الوقوع في الرذيلة.

بدأت الروايات تتضخم وتخلق الروابط بنفسها، وتردد التفسير المنطقي الوحيد لتلك الأحداث السريعة المتتالية: رجل غامض يظهر في السوق، ينقذ ست نساء فاضلات بلا سند من دناءة مالك وضيع، ثم رجل غامض آخر يشتري البناء بكامله بعد يومين ويخبر السكان بإعفائهم من دفع الأجر الشهري ريثما يكتمل البناء بعد عامين. ثم العثور على المالك الدنيء في حفرة للصرف الصحي بكسور في الجمجمة والأطراف والأضلاع، بعد أن هاجمه اللصوص وأخذوا منه كيس المال الضخم الذي قبضه للتو ثمناً للبناء. ثم رجل غامض يأتي من الغيم ليحرر فقراء الحي من الديون التي تُثقل رقابهم، ثم ماس كهربائي يحرق دكان أكثر تجار الحي جشعاً واحتراق وجهه ويديه وهو يحاول عبثاً إخماد النار وحصر الأضرار.

في ذلك الحي كادت العدالة الإلهية تستعيد موقعها المسلوب كسبب منطقي لوقوع الأحداث، وعادت حكايات منسية للتداول والانتقال من الكبار إلى الصغار. تكررت حكاية الخضر مع النبي موسى، ونبأ النبي يوسف من البئر وموسى من سلة القش، وخروج يونس من بطن الحوت، والجنود الخفية التي أرسلها الله على شكل طيور أو مقاتلين أو كرات لهب. وارتبطت أحداث الأيام الأخيرة بحسن تدبير رب العالمين، وخبرته السابقة في إرسال جنوده متجسدين على هيئة بشرية، ومن ذلك الحي أيضاً بدأ ذلك التجسد الجديد يمتلك اسماً: الشيخ الغريب.

**

الأعمال القديمة مستمرة في لبنان، التجارة بين الصين وجبل علي تسير بوتيرة ثابتة وبأسماء متعددة، تهريب المخدرات إلى الخليج احتاج إلى أساليب وتحالفات جديدة، تراجع قليلاً لكن عوّضه ظهور سوق واسع

جديد في ليبيا، الأعمال الشرعية في سورية تكاد تقترب من الصفر. لكن بعض الأعمال الأخرى ازدهرت، سُمح له بالعمل في بعضها مثل تحويل الأموال، بعد أن ورث نصف شبكة المرحوم يسار حمدي، وتنفيذ بعض عقود التهريب لصالح آخرين. ولم يسمح له بالدخول في الأعمال الأكثر ربحاً مثل شراء النفط والقمح من مناطق داعش أو مناطق الكرد، أو تجنيد المقاتلين وتأسيس ميليشيا خاصة.

طلعت وبيان ورندة وإسماعيل وهيما، استطاعوا بمفردهم أن يعوّضوا عن ما يك الشريقي بكامله. أداروا كل موظفي الصف الثاني واتخذوا القرارات، وتركوا معلمهم للعبته الجديدة الممتعة: مشاهدة الرعشة في العيون التي جُبرت عثراتها وخواطرها للتوّ.

كان ينفق الكثير من المال كل يوم، يوزعه عشوائياً، عاش تلك اللذة طيلة أشهر الشتاء، حافظ على برنامج ثابت تقريباً، زيارة صباحية للباب الشرقي. جولة في جزء ما من المدينة القديمة، البحث عن أحياء يسكنها فقراء ونازحون، توزيع المال والأغطية والمواد الغذائية. لم يتبرع كثيراً للجمعيات الخيرية لأن طبيعة عملها لا تتيح له أن يكون موجوداً ويرى الرعشة في الوجوه. اكتشف أماكن جديدة يتكاثر عندها محتاجون. أكثر ما أحبه منها كان الشيخ رسلان: مقبرة وثلاثة مساجد. مسجد صغير بني بالحجر في القرن السابع حيث نَصَب خالد بن الوليد خيمته بعد أن فتح دمشق، ومسجد كبير بناه شهيندر تجّار دمشق في سبعينيات القرن العشرين، والمسجد الأصلي الصغير المقام حول قبر الشيخ أرسلان الدمشقي. المكان الذي استطاع أن ينافس الباب الشرقي في قلبه، ويصبح جزءاً من رحلته شبه اليومية لتوزيع المال على الفقراء الذين صاروا يترادون يوماً بعد يوم بسبب انتشار الأخبار عن المقصد الجديد للشيخ الغربي، يتوزعون على الأبواب وبين القبور ولا يفعلون شيئاً سوى انتظار أن تلتقطهم عيناه. تكرّرت زيارته للمكان بعد أن جذبته كالفراشة ذات يوم أصوات قادمة

من إحدى زوايا المكان، خلف المسجد الكبير وفي أقصى الغرب بعد باب المقبرة أطلّ برأسه فوجد بضعة رجال ونساء يحيطون بثلاثة قبور مكلّلة بالأخضر، ويرددون معاً بإيقاع موسيقي جميل شيئاً ما. لم يستطع مايك تمييزه في أول الأمر هل هو أغنية؟ دعاء؟ صلاة؟ قصيدة شعر؟ لمح الرجل الواقف قرب الباب، ابتسم له ودعاه للدخول بهرّة رأس دون أن يقطع إنشاده. دخل متردداً، وحين استقرّ في الداخل، صبّ الرجل له كأس ماء من إبريق نحاسي منقوش، ثم أعطاه نسخة الكتاب التي في يده، وتناول واحدة أخرى عن الرف.

بعد دقائق وجد نفسه وقد التقط الأيقاع والشعور، وعثر في الصفحة 22 من الكتاب على ما يردّدونه. وبدأ يُنشد معهم بصوت خجول قصيدة لأحمد شوقي، ثم قصيدة أخرى مجهولة المؤلف تمدح أبياتها الأربعة الخلفاء الراشدين الأربعة بأسمائهم الكاملة. أنشدوا لمريم بنت عمران ولابنها النبي العائد. وصفوا فاطمة الزهراء بالعدراء البتول أم الابن، وأبي بكر الصديق بإبراهيم الخليل. خاطبوا الله دون تكلف، بل بشيء من نقص اللياقة.

خرج من تلك الحاضرة مبتهجاً ومحملاً بأسئلة احتاجت استدعاءً عاجلاً للشيخ البقيعي الذي وجد في الرواية تناقضات وأخطاء كثيرة، أهمها أنه لا يجوز اجتماع الرجال والنساء في الحضرات الصوفية، وأن الأدعية والقصائد التي قرئت لا تنتمي إلى دين واحد بالتأكيد، واعتقد أنه قضى على سؤال مايك الأساسي ورغبته الوليدة بجملة واحدة:

من تصوّف ولم يتفقه فقد تزندق!

لكلّ قديسٍ ماضٍ، ولكلّ آثمٍ مستقبل

في الثامنة والنصف من ذلك الصباح الربيعي الدافئ، تجسّد الماضي الملتبس على الحافة الحجرية لحديقة القشلة قرب طالع الفضة. جلس مايك ليستمتع بالشمس التي استعذبها. بعد قليل عادت المرأة التي عبرت أمامه للتوّ. اجتارته ثم رجعت خطوات إلى الوراء ووقفت أمامه، نظرت في وجهه ملياً، ظهرت ظلال دموع في عينيها. نظر إليها، لم يعرفها قط.

امرأة في بداية الأربعينات بوجهٍ متعبٍ وعينين منكسرتين، ترتدي معطف المحتشمات الكحلي، وتحجب شعرها بغطاء رأس من قطعتين بيضاء وزرقاء: «ما عرفتني؟!».

عرفها حين سألت، لكنّه عانى قليلاً في تذكّر اسمها. أسعفته بأن أجابت بنفسها: «أنا أختك هديل!».

لم يُبدِ حماساً شديداً للأخوة الملتبسة ولا لرفضها، هزّ رأسه: عرفتك، اقعدي!

جلست بقربه وأطرقت أرضاً وبدأت بسرد أخبارها دون أن يسألها، حكّت عن ورشة السكاكر داخل السوق التي تعمل على خط التغليف فيها، عن غرفتها المستأجرة في الدويلعة، عن توبتها فور عودتها من بيروت، عن أيامها التي تمضي بشكل متشابه، عن زواجها وطلاقها خلال شهرين.

قاوم كثيراً توجيه السؤال، لكنّه طرحه أخيراً: ألم تعشري على فضة الجاروش؟

صمتت المرأة طويلاً وأطلقت تنهيدة عميقة: ماتت!

.متى؟

.الأرجح حين كنتَ معاً أو ربما قبل أو بعد بضعة أيام لم أستطع التأكد.

عدتُ من بيروت فوجدتها ميتة!؟

.كيف ماتت؟

.دهستها شاحنة، هناك في نهاية هذا الشارع، كانت تقطع الطريق مقابل الباب الشرقي وجاءت شاحنة محمّلة بالحجارة صدمتها من الزاوية الأمامية ثم علقت بين الإطارين الخلفيين، وظلّت تدور معهما حتى زاوية السور قبل دوار البيطرة قليل.

.من أخبرك بهذه التفاصيل؟

.الشرطي الذي كتب الضبط، قال إن سرعة السيارة ودوران إطاراتها مرّق جسدها ونثره على مسافة 100 متر، وأنهم اضطرّوا لكشط لحمها وعظامها عن الأسفلت.

.لم يستطع إظهار أيّ تعاطف أو النطق بعباراتٍ ترخّم، قال جملة واحدة، قالها لنفسه لا لهديل ولا للباب الشرقي: حتى فضّة الجاروش تفتتت أمامك؟

.بعد صمت طويل، رفعت هديل رأسها ونظرت في وجهه: أَلن

تسامحها؟!!

.لم يردّ، فأضافت: أنا سامحتها، أرجوك أن تحاول!

.لم يبدِ أيّ ردّ فعل.

.أفهمك تماماً. عرفت بعد موتها أشياء كثيرة جعلتني أغفر لها، هل

.كنت تعرف أن لنا خالة تعيش في حماة؟

لا، لم أكن أعرف قط، لكن وجود أخت لفضة يعني أن العالم ما زال تحت الخطر.

ذهبت لزيارتها، وسمعت منها قصصاً لا يمكن تصوّرها.

أنا أستطيع أن أتصور أي شيء عن فضة، كان بإمكانها أن تفعل أي شيء.

ما عرفته من خالتي ليس أشياء فعلتها، بل فعلها الآخرون بها... أشياء وقعت عليها... أشياء قاسية... من أقرب المقرّبين... غرباء... ثم أم... وأخ... وأب...

كانت تترك مسافات صمت بين الكلمات لعلّها تثير اهتمامه، لكنّه لم يشأ أن يظهر أيّ اكتراث.

متى تعودين من عملك؟

في الخامسة.

تمرّين من هذا الطريق؟

نعم.

ستجديني بانتظارك، ابحشي عني إن لم أكن على هذه الحافة، أريد منك شيئاً.

قضى يوماً مختلفاً قليلاً. لم يكمل جولته في السوق، ولم ينطق بكلمة. مشى باتجاه الشيخ رسلان. أمام المحراب كان هناك رجل عجوز يصلي، وقف خلفه وبدأ بتكرار حركاته دون أن يعرف تماماً ما عليه قوله، ردّد عبارات عشوائية تكاد تكون صلاة خاصّة ابتدئها للتوّ. في نهاية الصلاة، قلّد الرجل وأدار رأسه باتجاه كتفه الأيمن ثم الأيسر، وبدلاً من إلقاء السلام

على الملايين الموكلين به، شتم فضة الجاروش ذات اليمين وشم فضة الجاروش ذات الشمال.

في الخامسة وجدت هديل أخوها غير الشقيق، وبجانبه كيس كبير وثقيل، أخبرها أن فيه ما يكفي لشراء بيت في الدويلعة، وكي لا تحتاج إلى أحد أو إلى عمل: ذاك الشاب الواقف هناك سيساعدك في حملها إلى بيتك. افعلي بها ما تشائين، لكنني لا أريد رؤيتك مرة أخرى!

تصوّف.. تزدنقُ.. تجوّل

عبارة الشيخ البقيعي التحذيرية فعلت في الشرقي عكس غرضها، فالتصوف دون تفقّه لا يمكن أن يزيد الرنديق الأزلي زندقة، وقد وصل سلفاً إلى تخوم الرندقة المُطلّة على الظلام. والشغف الذي يكون دافعه الفضول والمتعة لا يحتاج إلى الالتزام بالقواعد والأحكام.

لذلك نهَلَّ رشفات استدلال الطرق من يناييع عدّة. الشيخ البقيعي نفسه الذي كان يدفعه دوماً باتجاه الأحكام الشرعية وأداء الفرائض، ويتعامل معه كمدربّ قيّارة يخنق روح التلميذ بمنعه من لمس الأوتار قبل أن ينهي عاماً من دراسة الصولفيح نظرياً.

كان مايك يغافله ويلمس أوتار القيّارة مع المدربة الأكثر خفة على الإطلاق، عبلة التي تظنّ نفسها إمام العارفين، وهي لا تعرف سوى ما يكفي لإنجاز بحثها الجامعي والتبحّح قليلاً على محيطها. كادت تطير فرحاً حين اقترح عليها مايك أن ترافقه لزيارة الشيخ مُحيي الدين. اعترفت أنها تأخرت عليه كثيراً هذه المرّة، ولم تزره منذ أكثر من عام. ذكرها مايك أنهم اتفقوا سابقاً أن الشيخ ليس في قبره المعروف، فقالت إنها تحب زيارة المقام بغض النظر عمّن يسكن في الضريح.

في منتصف السوق المؤدي إلى المسجد والمقام، أشارت إلى أقدم بائع فول في المدينة، وسألت مايك ما إن كان يعرفه، قال إنه سمع عنه لكنّه لم يجرّبه. اقترح أن يتناولوا الفول ثم يكملان مسيرهما إلى مقام الشيخ. عند خروجهما طلبت عبلة أن يعودا إلى البيت ويؤجلا زيارة الشيخ إلى

وقت آخر: لم أستطع المقاومة، ألم تنتبه لي؟ أكلت ربع حبة من البصل، وفي علم اليوغا فإن أكل البصل يبدد الطاقات الروحية من الإنسان. أضاف مايك تعليقاً لم يزعج عيلة لأنها من برج الجوزاء: نعم، أعرف ذلك خصوصاً لبرجي القوس والميزان.

فايز عاج الشام كان أكثرهم توازناً، وعدل من آراء الآخرين ومن سخريات بيان الصغيرة. شجع مايك على هذا الاهتمام، لكنّه طلب منه أن يتردد على هذا الأماكن في أوقات الازدحام، وأن يتصرف بطريقة تجعل أكبر عدد من الناس يشاهدونه. نصحه ببعض الكتب التي تدرس الصوفية بدلاً من كتب الصوفيين. ملاحظته الأخيرة كانت مشجعة للغاية: لقد عشت فترة من حياتي في هذا الطريق، إنه ممتع للغاية، لا يهّم إلى أين تصل، ولن تصل إلى أي مكان، الطريق بحدّ ذاته متعة إذا ما أوهمت نفسك بتصديقه.

جولاته تلك كادت تصبح شبه يومية على بعض الأماكن، وضجرت من بعض الأماكن الأخرى بعد زيارة أو زيارتين.

حضر مرّة في الجامع الأموي جلسة كانت تعقد بين صلاتي العصر والمغرب من يوم الجمعة. يجتمع فيها عدد كبير، وينشد فيها محترفون، يتغزلون بالنبي محمد بأشعار أغلبها على البحر الوافر وإيقاعاتها مسروقة من ألحان أغاني الثمانينات الرديئة، ويتبرع بعض روادها بعبوات الماء الصغيرة وسندويشات من الجبن واللحم المعلّب.

لم تعجبه الجلسة أبداً. شعر كأنهم مجموعة وصلوا إلى حاجز ويحاولون تغيير لهجتهم لتشبه لهجة عناصر الحاجز المسلّحين، أو أنهم مجموعة من الهواة نالوا فرصة عمرهم بالظهور في فقرة برنامج تلفزيوني اسمه «على خطا التراث».

حضر مرّة في الشيخ محيي الدين جلسة لمنشد يبدو أنه يتعاطى شيئاً ما كي يُحسّن مزاجه قبل الدخول إلى المسجد. كان أدأؤه مبهجاً، وأثر

الحشيش عليه فعلاً لدرجة أن مايك كلّف شفيق بإيجاد طريقة للوصول إليه وتزويده بكمية وافية من أفضل بذرة أفغانية لديه: أنفق عليه خير ما لديك، أنفق إنما تُنفق على قلوب المؤمنين.

في زيارة لاحقة سأل عن المنشد فأخبروه أنه صار مستبَراً في مسجد حديث بوسط المدينة، لأن راعي ذلك المسجد رجل أعمال ثري يعطيه الكثير من المال.

في الأشهر الأولى تعامل مايك مع جلسات الإنشاد كما تعامل مع حفلات الغناء الأولى في نادي ستارز، وتعامل مع الفكر الصوفي كما يتعامل الشبان الجامعيون الباحثون عن شيء يميّزهم عن أقرانهم، فيحفظون عناوين بعض الكتب وبعض الجمل النقدية عنها. ومع النصوص التي كتبها متصوفة كما تتعامل المتبجّحات اللواتي يُردن التشبّه بالمتبجّحين.

أحبّ الكلمة أكثر ممّا أحبّ الموضوع، أحبّ إضاعة الوقت في شؤون جديدة، تمنحه أحاديث جديدة برويها لموظفيه كي يعيقهم عن استشارته في شؤون العمل، ويبرّر عدم تركيزه على التقارير المالية التي يطلعونه عليها أسبوعياً، والتي لم يعد يعنيه منها سوى أن حصيلتها النهائية تفوق ما ينفقه أو ما يمكن أن ينفقه على العابرين.

- أحبّ ذلك الإحساس الخاطيء الذي يولّده تكرار الأدبيات الصوفية لكلمات «مغفرة بدلاً من حساب، وطرق بدلاً من طريق، وأنت بدلاً من هو وهم ونحن». وذاك الاستسهال الذي يتيح لسارق مشط عن بسطة أن يعتقد نفسه متذوقاً لذّة المناجاة، ولمرابي أن يظنّ هلوسات الحمى التي أصابته في التاسعة عشرة هي اتصال بالنور الالهي.

لا أسهل من أن تسمّي نفسك أمام نفسك كاتباً سوى أن تسمي نفسك أمام نفسك صوفياً. قضى مايك الشرقي ما يقارب السنة في ذلك الموضوع. كرّر سيرة من يقرؤون ستة أبيات للحلاج وستاً وثلاثين صفحة لابن

عربي، ويمرّون بتجربة ما لها علاقة بالهلوسة، ثم يصفعون الآخرين بالعشر
كلمات التي يحفظونها وكأنهم يصفعونهم بالحبّة.

**

لم يضجر بسرعة، لأن الأمر كان مسلياً، ولأن الاستمرار كان يتطلب
امتلاك إحدى الحليتين لا كليهما: الشروع في الطريق حقاً، أو التزوّد بما
يكفي من المفردات لوصفه.

بعد أقل من عام امتلك مايك أفاقين جديدين، أحدهما باحث في
شؤون التصوف ومتبحّر غزير المعرفة، طالب دكتوراه رشحته أستاذه
ومشرفة أطروحته عبلة نار الدين. والثاني أشبه بمتعهد حفلات دائم
الابتناس، يقدّم نفسه على أنه كاشف الستور وناشر المعرفة على مبلغ
الإمكان، يستطيع أن يجلب أي منشد أو أي فرقة، ولا يحتفظ لنفسه بأي
جزء من المال الذي يقبضه لقاء ذلك، بل يوزعه على المشاركين وعلى
فنيي مكبرات الصوت وأجور السيارات وغيرها من تكاليف التنظيم، دون
أن يسأله أحد عن الفواتير الفعلية أو يطلب توقيعه على إيصالات بالمبالغ
التي يقبضها مباشرة من يد الأخ غريب.

جالس كلاً منهما منفرداً وجالس الاثنين معاً، زوّده الأول بكتب
وبملاحظات لهذه الكتب، وروى له حكايات وقرأ عليه أشعاراً، ورسم على
وجهه ملامح الباحث الرصين، وهو يعطيه دروساً خصوصية في تاريخ
التصوف. ونظّم الثاني جلسات إنشاد وذكر في بيت حارة الزيتون، وحلقات
تدارس، كان يستخدم لدعوة الضيوف المختارين إليها عبارات جذابة
حصلها من تويتر: «جالسوا التّوايين فإنهم أرقُّ الناس أفئدة» وجمع في كل
مرّة بين عشرين وثلاثين ساعياً على طريق الملك الغفور، أكلوا فيها وشربوا،
وعانقوا بعضهم، وأثنوا على العبارات الإنشائية الطنّانة التي يطلقها أحدهم
حين يفقد السيطرة، وتتسامى روحه فجأة، فيقف في منتصف الإيوان

كالمسحور ويغمض عينيه ويصرخ: «معرفتي إياك وسيلتي إليك!» يورجح البقية رؤوسهم فيصرخ واحد آخر: «أستغفرك بعدد ما غلبتني نفسي!».

وكان شيئاً لم يكن، يكمل الأفاق المتعهد روايته التي كانت موضوع جلسة اليوم عما قاله شمس لجلال على جبل الطور (الذي لم يبلغه أيُّ منهما على كل حال): «ثم صارت نفسي من الباطل نفورا، فصادقت ملكاً غفورا، وما زال يغفر لي، ويمحو من ذنوبي بقدر هذا الجبل».

أثناء الخروج يضافون المضيف السخيّ واحداً واحداً ويلقي كل منهم بعبارة أيقظت روحه وشغلت لبه، ولم ينم منذ ثلاثة أيام لأنه يفكر بها، ويريد قولها للأخ الحبيب ليفكر بها وليتدارسوها في الجلسة القادمة. كان أغلبها من تلك العبارات الدورانية المتحدقة التي بلا معنى تقريباً، لكنها تبدو من الخارج عميقة كالمحيط وكثيفة كالجبال، فيطرح أحدهم جملة من قبيل: «أيُّهما أشدُّ؟ شوق الظمان للماء، أم شوق الماء لإرواء الظمأ.» ثم يردفها همساً بطلب وظيفة لابنه أو تمويلاً لإنقاذ دكانه.

بعد عدّة جلسات كاد مايك يتحول إلى واحد من هؤلاء الأفاقين فصار يناديهم بلقب الحائرين وينصّب نفسه واحداً منهم: «أيها الحائرون تعالوا نبحث معاً عن الطريق! تعالوا إلى الباب الشرقي! الحقوا الرجل الأكثر حيرةً على الإطلاق. دلّوني أدلكم، لعلّه يدلّنا!»

بعد أشهر أخرى امتلك كامل الجرأة ليُعيد لعبلة صفعاتها ويردّ على وهما بمعرفة كل شيء: «صرت قادراً على فهم أي طريق، أعرف كيف تعمل القدمان، وكيف يعمل القلب، وكيف يندرب التراب. أعطني بعض القشور، وسأفهم اللب بنفسني».

**

على التوازي سار الركبان بأساطير الرجل الغامض الذي يظهر هنا

وهناك لجبر عثرات الكرام ويغيث الأرامل والثكالي والأيتام. لم يستطع أحدٌ أن يضبطه متلبساً بفعل خير. الفضوليون والرواة يصلون دائماً بعد مغادرتهم: قبل قليل كان هنا، بالأمس مرّ بالديابية، أسأل تلك المرأة لقد أعاد لها ابنها، العجوز في ذلك البيت تعرف من دفع للمستشفى ثمن المفصل الصناعي وتكاليف عملية التركيب، يقولون إنه يستمع للمحتاجين كل يوم بعد صلاة الصبح في الشيخ رسلان، أجل يأتي كثيراً إلى هنا لكنّه الآن غير موجود، قد يكون في الأحد عشيرة، إنه يذهب إلى هناك كثيراً... مع الوقت صار كل حدثٍ خيرٍ يقع في أطراف المدينة يُنسب للشيخ الغريب، حتى لو كان تعرّض مُخبر متسلّط لحادث سيارة، أو مساعدات توزعها منظمة مموّلة من الأمم المتحدة. صار هناك شهود يقسمون إنهم رأوا الشيخ الغريب في مقام الأربعين عقب صلاة الجمعة الماضية، وشهود آخرون رأوه بأُمّ العين في الوقت نفسه يوزع المال على العائدين حديثاً إلى بيوتهم في الحسينية.

قرب جدار مسجد في قرية بحوران، حكى الرجل العائد من مكان عمله في العاصمة لعمّه شيخ البلد الوقور والتقي عن الطيف الذي يظهر هنا وهناك: يروونه أحياناً جالساً على الأرض يسند ظهره على عمود الباب الشرقي، يفتersh الأرض على العشب خارج مقام الشيخ رسلان ويجمع حوله الدراويش والأرامل، يقولون إن بعض أصحاب الحاجات لم يعودوا يأتون ليطلبوا حاجتهم منه، صار يعرفها وحده، يظهر في بيوتهم دون سابق معرفة ليُلبي طلبهم وكأنّ الله سبحانه لاستجابة دعاء المظلومين.

تهلّل وجه الرجل الذي بجلباب وسأل الرجل الذي بينطال: وما اسم هذا الرجل؟ ألم يعرفه أحد؟

لا أحد يعلم، إنه غريب، لا أحد يعرفه من قبل، يسمّيه الناس الشيخ الغريب.

. الله أكبر، هذا هو!

. من هو؟ هل تعرفه؟ هل هو أحد أسيادنا؟!

. هو الذي بشرنا به الرسول الكريم حين قال: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً». هذا الغريب الذي سيعيد الإيمان إلى نأتاته.

. لكنهم يقولون إنه ليس من الرهّاد الذين نقرأ عنهم، وأنّ لديه من المال ما لا تأكله النيران.

. هذا إذاً من المؤتمنين على خزائن الأرض التي سخّرها الله لعباده المؤمنين، وهو الموكّل بإيصالها إلى أهلها.

**

لا أحد استطاع الجزم بأمر تلك الخطبة التي يتناقلها الناس. هل تلاها الشيخ الغريب حقاً تحت قوس الباب الشرقي في فجر يوم الثلاثاء الأول من أيار 2018، والذي صادف ليلة النصف من شعبان عام 1439 هجرية؟ لقد وصل صوته إلى مصليّين يُحيون تلك الليلة في مساجد تبعد بضعة كيلومترات في الاتجاهات الأربعة، وإلى المستيقظين للتو في أطراف الغوطة التي كانت وقتئذٍ تُننّ تحت ضربات آخر معركة في سيرة حرب السنوات الست التي دمّرتها. استطاعوا تمييز صوته من بين أصوات الصواريخ والقذائف والطيران، ووقفوا في منتصف الشوارع وعلى أسطح بيوتهم ليسمعوا من الغرب صوت بكاء رجل يشقّ السماء والقلوب معاً، ويصرخ من بين الأئين:

«ربّ ارفع عني الوزر! صدري مزدحم بالهجران. وزري ما يحسدني الناس عليه. ربّ جرّدي مما أملك، وانقله إلى حيث يستحقّ!

نيتي أن أنفق ما وضعت بين يديّ في سبيل طاعتك، وإيمان قلبي لا يثق بنيتي. إن ألهمتني الصواب فقلبي العاصي لن يدرك إلهامك. ربّ

أَجْبِرْنِي عَلَى الْخَيْرِ! اسْلُبْ مَا بَيْنَ يَدَيِّ وَانْقُلْهُ إِلَى أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ بِطَاعَتِكَ!
رَبِّ تَبَارَكَتْ حِكْمَتُكَ الَّتِي جَمَعْتَ مَعَاصِيكَ بِي، وَتَرَكْتَ فِي قَلْبِي مَا
يَعِيدُ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ.

رَبِّ بِحَقِّ أَسْمَائِكَ الْأَلْفِ، مَا عَرَفْنَا مِنْهَا وَمَا لَمْ نَعْرِفْ، بِحَقِّ سِرِّ أَسْمَائِكَ
الْعَظْمَى، اجْعَلْ مَعْصِيَتِي تَسْخِيراً لِي مِنْكَ لِعُودَةِ الرِّزْقِ إِلَى خَلْقِكَ، رَبِّ
اجْعَلْنِي حُجَّتِكَ عَلَى الدُّنْيَا. وَاجْعَلْ رَحْمَتَكَ بِي حُجَّتِكَ لِلْآخِرَةِ! عَدْلُكَ
هَالِكِي وَمَغْفِرَتُكَ نَجَاتِي، االلَّهُمَّ اقْبِضْنِي إِلَيْكَ بِأَقْرَبِ مَا تَشَاءُ، وَلَا تُطَلِّ
مَكُوثِي بَيْنَ النَّاسِ، فَلَعَلَّ شَيْطَانِي غَلِبَنِي، قَبْلَ أَنْ أُتَوَفَّى إِلَيْكَ، وَقَبْلَ أَنْ
يَضَاءَ الْبَابَ بِنَزُولِ النُّورِ عَلَيْهِ.

رَبِّ أَعْتَبْنِي عَلَى إِصَالِ مَا يَنْبَغِي عِنْدَ التَّقَاءِ الرَّقِيمِينَ، وَأَلْهِمْنِي وَضْعَ
الْحَجَرِ بِمَوْضِعِهِ الصَّحِيحِ فِي الْمَحْشَرِ الصَّغِيرِ! يَا عَالِمَ الصُّدُورِ وَالْأَرْحَامِ
أَعْلَمْنَا مِنْ عِلْمِكَ مَتَى نَعْمُرُ الْأَرْضَ الَّتِي هَجَرَهَا النَّاسُ، أَعْلَمْنَا مَتَى نَرْفَعُ
الْعُمْدَ شَرْقَ الْعُمُودِ!

أَرْسَلْ نَبِيَّكَ عَلَيَّ يَا بَابَنَا، أَنْزِلْ غَفْرَانِكَ عَلَيَّ إِثْمَنَا، وَأَضِيْ بِصَبْرَتِنَا بِإِشَارَةِ
مِنْكَ. أَلْهِمْنَا يَا رَبِّ مَتَى نَرْفَعُ الْأَعْمَدَةَ شَرْقَ دِمَشْقِ!«.

بعد أسبوعين أو ثلاثة لم يعد مهماً ما إن خرج صوت الشيخ الغريب
من الباب الشرقي أو من أي مكان آخر، ولم يعد مهماً ما إن كان هناك
صوت أساساً، وما إن كان أحد ما قد قال ذلك، أو أن كاتباً ما استعان
ببعض الأدعية وبيعض عبارات التراث وكتبها بصفحة واحدة وطبع منها
مئات النسخ، ووزعها قسم العلاقات العامة في «شركة الصين المتجهة
غرباً للاستثمارات الدولية المساهمة المغفلة» على أشخاص مختارين
ليحفظوها ويعيدوا تلاوتها على الناس.

كل ذلك لم يعد مهماً، فما بات يشغل الناس الآن هو متى تأتي
علامة الله.

«وتنهض الأعمدة شرق دمشق».

البحث عن رجلين يرتديان جسداً واحداً

«صباح جديد.. الرب لم يأس منِّي بعد. سأستعيد روحي من الشيطان، وعلى هذا العالم أن يتبعني!».

هكذا قال حين فتح عينيه قبل صلاة عيد الأضحى بساعتين ونصف. عبارة الشيخ البيهقي ما زالت تطنّ في أذنيه منذ مساء أمس: "الزمان سينتهي هنا، في هذه الأرض القبيحة التي تراها الآن. ومتى يبدأ؟ حين تعرف ذلك، وتعرف معنى ذلك".

رجلٌ في الثامنة والخمسين من عمره والزمان بالنسبة له قد بدأ الآن، يرتكب المعاصي منذ أربعين عاماً، قضى ستاً وثلاثين منها متفرغاً لنشر المعاصي، كان قد حضر كل ما يحتاج على مدى الأيام السابقة: أكياس من الخيش محشوةً بالمال، رجال لحمل هذه الأكياس إلى الأماكن المحددة، خارطة الأماكن المحددة، صكوك تنازل عن مئات العقارات وأسهم الشركات بقي اسم المتنازل له فارغاً فيها، صكٌ يوقف نصف أراضي شرق الباب الشرقي ومشروع الشرق الجديد لعمل الخير، وتوزيعها مناصفة على الأوقاف الإسلامية والأوقاف المسيحية، عشرات الشيكات المصرفية لصالح لجان مساجد ومقامات وأضرحة ودور أيتام وكنائس وأديرة وبطركيات وأبرشيات.

لم يستطع المحامي أن يحتفظ بالسرّ أكثر، وغلب شعوره بالمسؤولية على التزامه بالأمانة. مساء اليوم السابق، وفيما عاد مايك مع الشيخ البيهقي من الباب الشرقي ودخلا المكتب الصغير، طلب من إسماعيل ورنده أن يلحقا به خارج البيت ليخبرهما بشيء هام.

باح بشكوكه وقلقه، عبّر عن اعتقاده أن المعلم يريد التخلي عن كل شيء، وأنه طلب منه فعل أشياء كثيرة في الأسبوعين الأخيرين، وشدّد عليه أن لا يخبر أحداً بما يفعل خصوصاً «أنتما وطلعت وبيان».

أطلعهما على بعض ما فعله في الأيام الماضية: جلب بيانات بكلّ العقارات التي يملكها أو تملكها الشركات التي يوقّع بالنيابة عنها، طباعة كمية مرعبة من عقود البيع والتنازل دون وجود أسماء عليها، وصايا ووقفية متعدّدة، كشوف الحسابات المصرفية، تجرئة حصص الأسهم إلى سندات أصغر.

كان مجلس الخمسة منذ عامين أو ثلاثة يدير العمل دون أي تدخل من المعلم. تركوه لمتعه الجديدة ولرحلاته الغرائبية، لكنهم تابعوا دورة الحصول على المال، ليزودوه بالمبالغ التي ينفقها عشوائياً بمعدّل يكبر يوماً بعد يوم، وزودوا أنفسهم وآلاف العناصر التي تشكّل هذه الآلة الضخمة التي تتوزع مستنّاتها على عدة بلدان ومئات المشاريع والشركات، ولا يحقّ لأحد إيقافها، حتى لو كان مالکها نفسه.

طيلة العامين الماضيين تعاملوا مع ما يفعله المعلم على أنه نزوة من نزواته، وشطحة غريبة يحتاجها ليرتاح من لهاث العمل الذي استمرّ لعقود، لم يتجاوزوا في التعامل معها ما كانوا يفعلونه حين كان ينزوي في مغارة الجبل لأيام، أو يختفي بين إسبانيا والبرتغال لشهر. لم يصلوا إلى الاعتقاد بأن مساً قد أصابه، كانوا يعرفون أنه سيعود في لحظة ما. سيضجر مما يفعل، سيعود إلى ارتداء ملاسنه البيضاء وسيدخل المكتب ذات صباح ويصرخ طالباً الجداول المالية وتقارير العمل، سيؤتّب المقصّرين، ويكافئ المجتهدين، يفكّ أزرار قميصه ويحدثهم عن نوع الويسكي الجديد، ويضع فتاة على مؤخرتها.

طالت رحلته هذه المرّة. طالت أكثر مما اعتادوا، لكنهم لم يتصوروا أبداً

أنها وصلت إلى هذه التخوم. استعاد إسماعيل بعض ما جرى في الأيام الماضية، حاول إحصاء ما طلبه المعلم من مال، والكميات التي نقلوها إلى البيت، انتهت رندة إلى ملامح المعلم الغربية في الأيام الأخيرة، وعدم اكترائه لشيء، وأنها كلما سألته عن شيء يقول لها أن تفعل ما تشاء.

توصلوا إلى أن الأمر خطراً فعلاً. شكوك المحامي في محلها، ويجب عقد اجتماع طوارئ عاجل. عند منتصف الليل كانت هيمما قد وصلت من بيروت، وطلعت وبيان كانا موجودين في دمشق أصلاً. تباحث الخمسة الكبار طيلة الليل في كيفية ردع معلمهم عن ارتكاب أي حماقة. ناقشوا إمكانية الحجر الطبي عليه، واعتباره غير مسؤول عن تصرفاته، وأن ما يفعله يحدث بتأثير أولئك المشعوذين الذين يترددون عليه يومياً.

تناقشوا في احتمال استخدام العنف ومنعه من الخروج من غرفته حتى يعود إلى عقله. لم يكن أحد من هؤلاء الخمسة يصدّق أي جزء من الصورة التي وضع نفسه فيها طيلة العامين الماضيين، وكانوا يتعاملون معها كجزء ضروري من خطة إكمال مشروع الشرق الجديد، كما سمعوا عشرات المرّات من المستشارين ومن نتائج الاجتماعات.

لم يخطر لأحد منهم أن يصدّق المعلم نفسه الدور ويمضي فيه إلى هذا الحد. لذلك حين جمعوا ما بين يدي كلّ منهم من معطيات، شعروا بحجم الخطر، وقرروا أن عليهم منع وقوع الكارثة بأي ثمن: استدعوا الجميع قبل الفجر، علينا أن نستعيد معلّمنا حتى لو كان من نفسه.

**

يعرف الفقراء في كل أنحاء الدنيا أن النزوع لفعل الخير ينشط في موسم الأعياد، ويتضاعف قرب القبور، فالأعياد تذكّر الناس بالله، والقبور تذكّرهم بالموت.

لكنّ فقراء دمشق صاروا يعرفون الآن أن شيخهم الغريب سيفعل في

هذا العيد ما لم يفعله أحدٌ من قبل. تسرّب ذلك بطريقة ما، ربما بسبب كلمة التقطها أحدٌ ما، ربما لأن المساجد والمقامات ظلّت مغلقة طيلة الأشهر الماضية بسبب الوباء الذي يضرب العالم بضجيج والبلاد بصمت، ووعدوا أنفسهم أن الشيخ الغريب سيعوّضهم عن ذلك في العيد.

جاؤوا بالمئات من كل أحياء المدينة، توزعوا على الأماكن التي يظهر فيها الشيخ، العدد الأكبر منهم تجمّع عند بوابة قبر الشيخ رسلان حيث يرجّح أن يكون نبع الخير. كان المقام مغلقاً في ذلك اليوم أيضاً بسبب الفيروس. انتظروا قليلاً، وصل بعضهم قبل صلاة العيد بساعتين أو ثلاث. أرسلوا كشّافين منهم ليبحثوا عنه عند الباب الشرقي، وفي الشيخ محيي الدين، وعند الكنيسة المريميّة، وفي ساحة الجامع الأموي، قرب مقام السيدة رقيّة، في كلّ الأماكن التي يمكن ظهوره فيها.

استمروا بالتوافد إلى الشيخ رسلان، والتجمّع هناك بانتظار أن يأتيهم خبرٌ حاسم عن مكان وجود المحسن الكريم التقيّ الأمين الخير الجابر الراضي المرضي، جندي الله ذي القلب الرحيم، أبي الدراويش والمقهورين، رحمة الله بهذه البلاد المنكوبة.

كان هؤلاء يبحثون عن الشيخ الغريب، وأولئك يبحثون عن مايك الشرقي. لم يعثر أيُّ منهم على ضالّته، لأنّه في ذلك الوقت بين الخامسة والسابعة انزوى خلف شجيرة السرو التي زرعت على مفرق حنانيا والعازرية، هناك حيث عثر على حذاء قبل ستّ وثلاثين عاماً. جلس على حجر من بقايا تاج عمود روماني، نظر إلى الشرق، وهو يعقد صفقته الكبرى.

**

ابتسم الشيطان فخوراً بنفسه لتلك الصفقة الناجحة التي أنجزها.

فرح الله بعبده الأواب.

ابتهج سماسة الصفقة بما سيصلهم من متاع الغرور، وهم الدراويش والأفاقون والمؤمنون حقاً أو زيفاً أو سذاجة.

زَمَّ الرَّبُّ شَفْتِيهِ فَخُوراً وَمَعْتَدّاً وَهَرَّ رَأْسَهُ إِعْجَاباً بِالْعَبْدِ الَّذِي سَيَدْفَعُ هَذَا الثَّمَنَ الْكَبِيرَ لِأَجْلِهِ. يَحِبُّ اللَّهُ الْكَثِيرَ مِنَ الْأَشْيَاءِ، يَحِبُّ الْأَقْوِيَاءَ، يَحِبُّ الْعُلَمَاءَ، يَحِبُّ الْأَطْفَالَ، وَيَحِبُّ مِنْهُمْ الصِّبْيَانَ أَكْثَرَ مِنَ الْبَنَاتِ، يَحِبُّ مِنَ الْمَسَافِرِينَ كَثِيراً، يَحِبُّ مِنَ الْيَقَاوِمِينَ نِدَاءَ هَرْمُونَاتِهِمْ إِنْ لَمْ تَوْقِظْهَا عَقُودَ نِكَاحٍ، وَمَنْ يَطْلُقُونَهَا لِأَقْصَاهَا بَعْدَ تَوْقِيعِ الْعَقُودِ، يَحِبُّ هَرْمُونَاتَ الذَّكَورِ أَكْثَرَ مِمَّا يَحِبُّ هَرْمُونَاتَ النِّسَاءِ، يَحِبُّ أَقْوَاماً أَكْثَرَ مِنْ أَقْوَامٍ وَيَفْضَلُهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ، يَحِبُّ النَّجَّارِينَ الَّذِينَ إِذَا مَا صَنَعُوا خِرَازِينَ صَنَعُوهَا مَتَقَنَةً، يَحِبُّ مِنَ الْيَخَافُونَ مِنْهُ حَذَّ الْبَكَاءِ، يَحِبُّ مِنَ الْيَقْتُلُونَ الْآخَرِينَ لِأَنَّهُمْ ظَنُّوهُمْ أَعْدَاءَهُ، يَحِبُّ أَوْلَادَكَ الْحَمَقَى الَّذِينَ يَسْتَسَلِمُونَ لِمَا يَجْرِي عَلَيْهِمْ وَيَصْبِرُونَ، يَحِبُّ الْمَرْأَةَ الْمَطِيعَةَ لِرُجُوعِهَا وَالشُّعُوبَ الْمَطِيعَةَ لِقَادَتِهَا، يَحِبُّ فِرْعَاً مَحْدُوداً مِنْ أَحْفَادِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَيَحِبُّ فِتَاةَ عِذْرَاءٍ مِنَ النَّاصِرَةِ.

لَكِنَّهُ يَحِبُّ أَكْثَرَ مَا يَحِبُّ التَّوَّابِينَ، فَهَؤُلَاءِ يَعْطُونَهُ الْفُرْصَةَ لِتَسْجِيلِ نَقْطَةٍ ضِدَّ عِدْوَةِ إِبْلِيسَ وَالشَّمَاتَةِ بِهِ، وَالتَّفَاخِرِ عَلَيْهِ، وَالتَّبَجُّحِ بِاتِّزَاعِ وَاحِدٍ مِنْ فَرِيقِهِ.

لَا يَحِبُّ إِبْلِيسُ الرُّبَاةَ وَالْأَتْمِينَ وَاللِّصُوصَ وَالْقَوَادِينَ، كَمَا نَظَنُّ مِنْذُ أَلْفِ السَّنِينَ، وَكَمَا ظَنَّ اللَّهُ حِينَ وَقَعَ ذَلِكَ الشَّجَارَ بَيْنَهُمَا. يَحِبُّ إِبْلِيسُ الْمُنَازِحِينَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ. خَطِيئَتُهُ الْمَفْضَلَةُ هِيَ الْحَيْرَةُ. الْوُقُوفُ بِارْتِبَاكَ أَمَامَ أَمْرِ الرَّبِّ: الْإِتِّقَالَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ. مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ. لَا فَرْقَ بِالنِّسْبَةِ لَهُ، فَكِلَاهُمَا يَعْنِي أَنَّهُ كَانَ عَلَى حَقٍّ، وَكِلَاهُمَا يَقُولُ لِرَاجِمِيهِ وَلَاعِينِيهِ: أَرَأَيْتُمْ!؟ الْأَمْرُ لَيْسَ مَحْسُوماً تَمَاماً، سَيَبْقَى دُوماً قَابِلاً لِلنَّقَاشِ، لَكِنِّي تَلَقَّيْتُ اللَّوْمَ وَحْدِي!

يَحِبُّ إِبْلِيسُ الْمَرْتَدِّينَ، لَكِنَّهُ يَحِبُّ أَيْضاً التَّوَّابِينَ، لِذَلِكَ فَإِنْ مَا سَرَّهُ فِي

صفقة مايك، لم يكن ذلك المبلغ الهائل الذي عرضه عليه لقاء استعادة روحه التي اشتراها قبل زمن طويل، بل إن كل ذلك المال سيذهب لبليلة اعتقاد آلاف المؤمنين البسطاء، سيجعلهم يتخذون ولياً جديداً يعطيهم باليسار ما سيأخذه باليمين، ويتبرع لهم بما سيأخذه منهم مضاعفاً، وسيعلق قلوبهم برموز مفتعلة ستنهار عند أول سؤال، سيقنعهم بحكايات لا تنجح بخديعة عقولهم إلى الأبد.

سيتبه بعضهم، سيستيقظ أغلبهم بعد زمن يطول أو يقصر، بعد أجيال تقل أو تكثر. وفي النهاية سيزداد عدد المنشقين، وسيضحك إبليس ملء شذقيه: هل فهمتم ما أصابني في ذلك اليوم؟ هل أدركتم ما تفعله الحيرة بالعقول؟ أكان يريدني أن أسجد لهذا السخيف الذي يعميه جسد امرأة، ويهترئ إيمانه لأجل تفاحة؟!

أحسنَ مايك الشرقي استثمار ثمن روحه، ففي الرابع والعشرين من كانون الأول 1984 اشترى الشيطان روحاً محمولة في عقل نشط مقابل ألفي دولار، سلمها رجله المخلص قسام، واحتفظ بتلك الروح لزمن كافٍ. ثم بعد ستة وثلاثين عاماً، وحين عاد الزبون يريد شراءها، استغل حاجته الشديدة. ماطله، أرسل من جنوده من يتقمصون هيئة شيوخ ومفكرين وزهاد ومتصوفة وأصدقاء، وتركه يتحرق، حتى صار مستعداً لدفع 148 مليار دولار مقابلها. وأكثر ما سرّه في تلك الصفقة أنها ستذهب كلها لأفضل استخدام يحبه: نشر إيمان زائفٍ جديد.

الملحمة الكبرى

في السابعة من صباح يوم الجمعة 30 تموز 2020 خرج مايك من ملاذه خلف شجيرة السرو، بعد أن شعر بصفقتة وقد تَمَّت، ودعاؤه لاقى القبول. أتته رسالة الرب بتيّارٍ من السرور عبَّر قلبه، لم تأتِه رسالة واضحة من البائع. لم يكترث، فهو يعرف الآن أنه كان عميلاً مزدوجاً لدى إبليس والرب معاً، ويكفيه موافقة أحد مشعلَيْه. رفع رأسه إلى المئذنة البيضاء ممتناً: لم تجلسي المسيح في غيابي!

مشى الخطوات الست وثلاثين حتى الباب الشرقي. جلس ملقياً بظهره على العمود الأيسر للباب، نظر إلى الشرق، إلى حيث سينتهي الزمان، رفع رأسه مترقباً نزول المسيح، أطلَّ داخل الباب ليجث عن يأجوج ومأجوج.

لم يكن هناك أحد. قرأ العشر الأوائل من سورة الكهف. في تلك اللحظة وكان قد مضى ربع ساعة على جلسته وعينه في عين الشمس، ظهرت من الشمال مئات الأجساد المتدافعة، حين اقتربت طلّاعهم وثبتت رؤيته لأول نسقٍ بينهم ارتفع صراخهم: الشيخ الغريب.. شيخنا الغريب!

في اللحظة ذاتها ظهر من الغرب سربٌ من موظفيه يتقدّمهم إسماعيل وشفيق وسامر ورندة وخلفهم العشرات يرتفع من بينهم صوت بيان: «إذا كان هون، لا تخافوا، أنا بعرف كيف رجّعو لعقله!».

التقى الجيشان عند الباب الشرقي تماماً. ساد صمت مهيب. لحظة عظيمة. توقف الجميع. نظر كل فريق إلى الآخر، رأى فيه عدوًّا، لكن لم يخطر له فعل شيء لهزيمته. ظلَّت المسافة بينهما بضعة أمتار. نقل عينيه

بين الجمعيتين. بعد دقائق من الترقب، خرجت امرأة من جيش الدراويش، ومشت باتجاهه: «إجينا نعيّد عليك وتبارك!». حين وصلت إليه، كان بيان قد سبقها، وجلس القرفصاء قربه وهمس له: «شو ناوي تعمل يا مجنون؟!». قبل أن يردّ عليه كانت المرأة قد أمسكت يده اليمنى وقبلتها: «الله يخلينا ياك ويديم بركاتك فوق روسنا!».

ابتسم راضياً عن أدائه، غمرته الغبطة، فحتى بيان ورندة وطلعت صدّقه. نظر إلى جموع موظفيه وأشار لهم برأسه: عودوا إلى البيت. ثم نظر إلى المرأة: «كلّ عام وأنت بخير، ربّو حالكن بالدور، رح أعطيكم العيضية كلّكم!».

ثم نظر إلى إسماعيل الواقف بحذر على بعد أمتار: «وينكم؟ ليش ما جبتولي عيضية إخواتي؟!»

تحرّر إسماعيل من قلقه وصاح بحماس: فوراً معلم! وأشار بيده فركض ثلاثة من رجاله باتجاه المكتب الملاصق للباب.

**

انتهت المعركة دون أن تبدأ. اعتقد كلُّ جيش أنه انتصر، واستعاد كلُّ أحدٍ نبيّه. كان الأمر بسيطاً وقابلاً للفهم منذ البداية، ولا يحتاج إلى كلِّ هذه القرون من الانتظار.

كان حديث الرسول صحيحاً. وحاشا أن ينطق عن الهوى. سيملاً المسيح الدجال الأرض فساداً وفجوراً لأربعين عاماً، ثم ينزل المسيح ليقتله ويملاً الأرض بالخير والعدل.

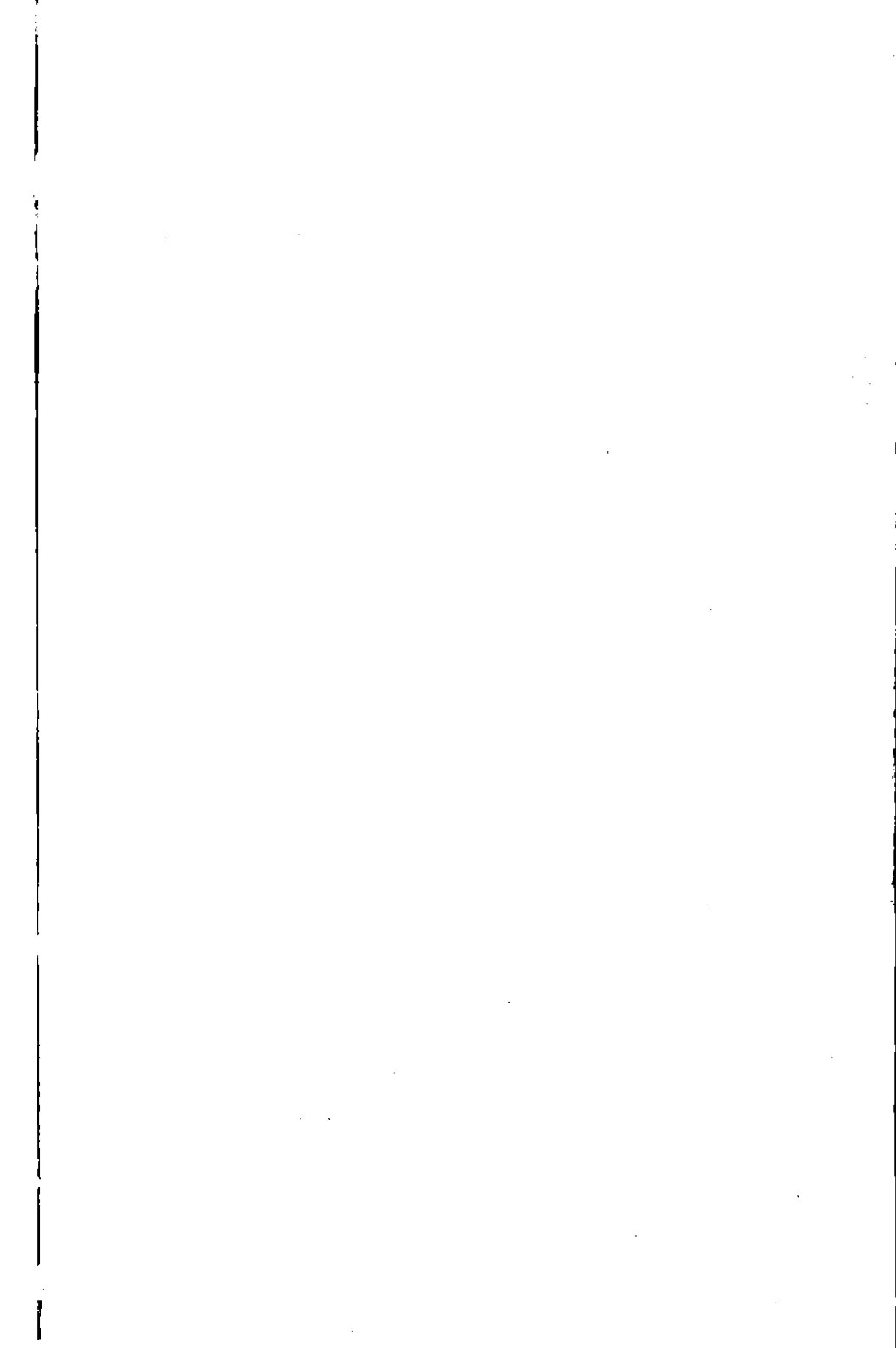
لم يكن في حديث الرسول ما يجدر الشكّ فيه سوى حروف الجر:

فقد نزل فيه ولم ينزل عليه، خرج منه ولم يخرج إليه.

كان كلاهما هناك منذ البدء. اختبأ أحدهما في الآخر. أو اختبأ كلاهما

في روح مسكينة، كما فعلا بكلّ روح. أرواح بشرية معذّبة تحمل المسيحين
معاً، تعبر بين عدَمين لتتوجّع كل يوم من شجاراتهما التي لا تنتهي، وتبادل
الانتصارات بينهما على مدار الساعة.

والملحمة الكبرى تحصل كلّ يوم. هذه المرّة وقعت عند الباب الشرقي
تماماً، بدأت الحكاية وانتهت هناك تحت عين المئذنة البيضاء، ولذلك
كان على أحد ما أن يرويها.



من الرواية:

... بغتةً صارت اللحظة مواتية. المدينة التي رفته بكامل قوتها، ترفس نفسها الآن. ومن الممتع مشاهدتها وهي تلكم عينها اليسرى بيدها اليمنى، وتضرب قصبه ساقها اليمنى بباطن قدمها اليسرى.

المدينة التي تهشم أطراف نفسها (من خلاف) تعيش الآن مشهداً يستحق الشماتة، يستحق سباً وعشرين سنة من الانتظار.

جاشت الريح في صدره. نهض كمن بلغ سدره المنتهى:
امتلاً الزمان يا دمشق! ...

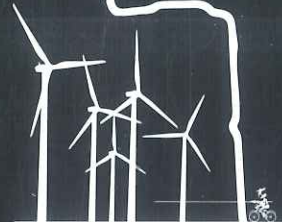


يكتب يعرب العيسى قصة مايك الشرقي بنفس استقصائي، يجمع بين الصحفي والسياسي والاجتماعي، التفلسف والطرافة، في سياق ملاحظته لقصة الرجل الذي سيصبح مسيحاً دجالاً. صحيح أنها رواية عن شخصية تصعد إلى القوة والسيطرة والنفوذ، لكن الصحيح أيضاً أنها تروي، في الوقت ذاته، المسارات الحزينة لتاريخ هذا الشرق المحكوم بالفساد والحروب، والذي يسير إلى نهاياته بقدّم واثقة.

دعارة ومجون وليال صاخبة، دسائس سياسية واقتصادية، أموال وسبائك ذهبية تتكدّس في خزائن الأثاقين واللموص ورجل الاستخبارات.

غموض وتشويق يُنحتان عبر شخصيات أقرب ما تكون إلى حراس للعالم السفلي تأتي وتذهب، تحضر وتغيب، حول مايك الشرقي الذي يريد أن يصنع لنفسه نهاية أسطورية، على الرغم من أننا واثقون من أنه عاش بيننا ومثلنا كإنسان من لحم فان. ليست «المئذنة البيضاء» حكاية وحسب، إنها خلاصة عالم تتكثف داخل رجل يبيع روحه للشّر، ثم يريد أن يستعيدها لبيعها للخير، وبينهما نرى كيف أن الأساطير لا تزال قادرة على خلق نفسها.

الناشر



ISBN 978-88-32201-93-2



9 788832 201932

المتوسط